رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي[٥٥]

إلى الثقفي

بسم الله الرحمٰن الرّحيم .

أمّا بعد ، فإن جلوسَك إلى الأصمَعيّ ، وعجَبَك بسَهل بنِ هارون ، واستِرجاحَك إسماعيلَ بنَ غَزْوان ، وطعنَك على موَيس بن عِمران ، وخُلطتَك بابن مُشارك ، واختلافَك إلى ابنِ التوْأم ، و إكثارَك من ذكر المال و إصلاحِه والقيامِ عليه واصطِناعه، و إطنابك فى وَصف الترْويج والتَثْمير ؛ وحُسن التعهّد والتوفير ، دليل خَبىء سوء ، وشاهدٌ على عيبٍ ودَبر . بعدَ أن كنتَ تستَثْقِل ذكرَهم ، وتستَشْنِع فعلَهم ، وتتعجّب من مَذْهَبهم وتسرِف* فى ذمهم . وليسَ يلهَج بذكرِ الجمع إلاّ من قد عَزَم على الجمع ، ولا يأنس بالبُخلاء إلاّ المُسْتَوحِشُ من الأسخِياء .

فى تحفّظك قولَ سَهل بن هارون فى « الاستِعْداد فى حالِ المُهْلة ، وفى الأخذِ بالثّقَة ، وأنّ أقبحَ التفريط ما جاء مع طول المدّة ، وأن الحزْمَ كلَّ الحزم والصوابَ كلَّ الصواب ، أن يستَظهر على الحِدْثان ، وأن يجعلَ ما فضَل عن قِوام الأبدان رِدْءا دون صُرُوف الزمان ، فإنّا* لا نُنْسب إلى الحِكمة حتى نحوطَ أصلَ النعمة ، بأن نجعلَ دونَ فُضولها جنّة » ، شاهدٌ على عَجَبك بمذْهَبه ، و برهانٌ** على مَيْلك إلى سَبيله .

وفى استِحْسانِك روايةَ الأصمَعيّ فى أنّ أكثرَ أهل النار النساء والفقراء ، وأن أكثر أهل الجنّة البُله والأغنياء ، وأن أرباب الدُّثور هم الذين ذَهَبوا بالأجور ، برهانٌ على صِحّة حُكمِنا عليك ، ودليلٌ على صَواب رَأينا فيك .

---

(٩) وتسرف فى (فان فلوتن) : وتشرف من ك — (١٤) وأنا (فان فلوتن) — (١٥) وبرهانا لك.

(١٦ — ١٧) « أكثر أهل الجنة البله » النهاية لابن الأثير ١ : ١١٤ ، المطبعة الخيرية ، ١٣٢٢ هـ —(١٧) « أرباب . . . بالأجور » النهاية لابن الأثير ٢ : ١٣ المطبعة الخيرية ، ١٣٢٢ هـ

وفى تفضيلِكَ كلامَ ابنِ غزوان حينَ قال : « تنعَّمتم بالطعام الطيِّب و بالثياب الفاخِرة و بالشَّراب الرقيق و بالغِناء المطرِب ، وتنعَّمنا بعزِّ الثروة و بصوَاب النظر فى العاقِبة ، و بكثرة المال والأمنِ مِن سُوء الحال ، ومن ذُلِّ الرَّغْبة إلى الرجال والعجزِ عن مَصْلحة العِيال ، فتلكَ لذَّتكم ، وهذه لذتنا . وهذا رأيُنا فى التسلُّم من الذمّ ، وذاك رأيكُم* فى التعرض* للحَمْد . و إنما ينتفِع بالحمدِ السليمُ الفارغُ البال ، ويُسَرُّ باللّذات الصحيحُ الصادقُ الحسّ . فأما الفقيرُ فما أغناه* عن الحمد ، وأفقرَه إلى ما به يجدُ طَعْم الحمد . والطعامُ الذى آثرتموه يعُود رَجيعاً ، والشرابُ يَصير بَوْلا ، والبناء يعود نقضاً ، والغِناء* ريحٌ هابّة ومُسقِط المروءة ، وَسَخافة تفسد ، ورِنّة تسير . فلذَّتُكم فيما حَوَى لكم الفقر و نَقَض المروءة ، ولذّتُنا فيما حَوَى لنا الغِنى و بنى المروءة ، فنحنُ فى بِناء وأنتم فى هَدم ، ونحن فى إبرام وأنتم فى نقض ، ونحن فى التماس العِزّ* الدائم مع فَوْت بعض اللذة ، وأنتم فى التعرض للذل الدائم مع فوت كل المروءة* » .

وقد فهمنا معنى حكايتِك ، وما لهِجتَ به رِوايتك . والدليلُ على انتقاض طِباعك وإدبار أمرك ، استِحْسانُك ضدَّ ما كنتَ تستحسِن ، وعشْقك لما < كنت >* لم تزَل تمقُت ، فبُعداً وسُحقاً . ولا يُبعِدُ الله إلا من ظَلَم . والشاعِرُ أبصر بكُم حيثُ يقول :

فإن سمعتَ بهُلْك للبَخيل فقُل بُعداً وسُحقاً له من هالِك مُودى
تُراثه جنة للوارثين إذا أوْدى ، وجُثمانه للتُرب والدود

وقال آخر :

تَبْلى محاسِن وجهه فى قَبره والمالُ بينَ عَدوِّه مقْسوم

---

(٤) رأيهم (فان فلوتن)–(٥)التعريض لك–(٦) أعماك ، أحياء (فان فلوتن) – (٧) والثناء (فان فلوتن)–(١٠) الغناء (فان فلوتن)–(١١) مروءة (فان فلوتن)–(١٣) < كنت > ليست بالأصل

(٦) « فأما الفقير . . . طعم الحمد » عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ – (١٦) « فان . . . مودى » الحيوان ٣ : ٥٠ ط الحلبى .

والحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانيك وكيلا فى مالِك، وأجيراً لوارثك . وأما أنتَ فقد تعجّلتَ الفقر قبلَ أوانه ، وصرتَ كالمجلودِ فى غَيْر لذّة . وهل يزيدُ حالُ من أنفَق جميعَ ماله ، ورأى المكروهَ فى عِياله ، وظهرَ فقرهُ وشَمِت به عدوُّه ، على أكثرَ من انصِراف المؤنسين عنه، وعلى بُغض عِياله ، وعلى خُشونة الملبَس ، وجُشوبةِ المأكل وهذا كلُّه مجتمِعٌ فى مَسْك البخيل ، ومَصْبوب على هامَة الشحيح ، ومعجَّل للئيم ، وملازِم للمَنُوع . إلّا أن المنفِقَ قد ربح المحمَدة ، وتمتَّع بالنِّعمة ، ولم يعطِّل المقدرة ، ووفى كلَّ خَصلة مِن هذِه حقّها ، ووفّر عليْها نصيبَها ، والمُمسِك معذّبٌ بحَصْر نفسِه ، وبالكَدِّ لغيره ، مع لُزوم الحجَّة ، وسُقوط الهِمَّة ، والتعرُّض للذمِّ والإهانة ، ومع تحكيم المِرَّة السوْداء فى نفسه ، وتسليطِها على عِرضه ، وتمكِينها من عَيْشه وسُرور قلبه .

ولقد سَرى إليك عِرق ، ولقد دَخَل أعْراقَك خَوَر ، ولقد عَمِل فيها قادِح ، ولقد غالها غُول . وما هذا المذهبُ من أخلاق صَميم ثَقيف ، ولا من شِيَم أعرَقَت فيها قُريش . ولقد عَرَض لك إقراف ، ولقد أفسَدَتك < هُجْنة > . ولقد قال معاوية : « مَن لم يكُن مِن بنى عبد المطّلب جَواداً فهوحميل ، ومَن لم يكُن من آل الزبَير شُجاعاً فهولَزِيق ، ومَن لم يكن من بَنى المُغيرة تيّاهاً فهو سنيد » . وقال سَلم بن قُتيبة : « إذا رأيتَ الثَّقفىّ يعزُّ من غَير طعام ، ويكسِب لغير إنفاق، فبَهْرجه ثم بَهْرجه ثم بهرجه» ، وقال ابنُ أبى بُردة : « لولا شبابُ ثَقيف وسُفهاؤهم ما كان لأهل البصرة مال » .

إن الله جَواد لا يبخل ، وصَدوق لا يكذِب ، وَوفىّ لا يغدُر ، وحليم لا يَعْجَل ، وعَدْل لا يظلِم . وقد أمرَ بالجود ونهانا عن البخل ، وأمر بالصدق ونهانا عن الكذِب ، وأمرنا بالحِلم ونهانا عن العَجَلة ، وأمرنا بالعَدل ونهانا عن الظُّلم ، وأمرَنا بالوفاء ونهانا عن الغَدْر . فلم يأمرْنا إلا بما اختاره لنفسِه ، ولم يزجُرنا إلا عمّا لم يرضَه لنفسِه . وقد قالوا

---

(١) وما ك — (٣) [و] على ك — وخشونة ك — (١٢) < هجنة > (فان فلوتن) : ساقطة فى الأصل — (١٣) بخيل ك ، دخيل (مرسيه) .

(١٢ — ١٤) « ولقد قال . . . سنيد » البيان والتبيين ٣ : ٢٥٨ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢م .

بأجمعهم: « إنَّ الله أجوَدُ الأجْودين وأمجد الأمجدين ». كما قالوا: «أرحَمُ الراحِمين وأحْسَن الخالقين » . وقالوا فى التأديب لسائليهم ، والتعليم لأجْوادهم : « لا تجاوِدوا الله فإن الله جلَّ ذكره أجْود وأمجد » وذكر نفسَه — جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه — فقال : « ذُو الفَضْل العَظِيم » و«ذِى الطَّوْلِ لَا إله إلَّا هُوَ » وقالَ : « ذُو الجَلَالِ والإكْرَام »

وذكروا النبىَّ صلّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا : لم يَضع درهَماً على دِرهم ولا لَبِنة على لَبِنة ، ومَلك جزيرةَ العرب ، فقبضَ الصدَقات ، وجُبيت له الأموال ما بين عِذارَ العِراق ، إلى شِحر عُمان ، إلى أقصى مخاليف اليمن ، ثمّ تُوفِّى وعليه دَين ، ودِرعُه مَرْهونة . ولم يُسأل حاجةً قطُّ فقال : لا . وكان إذا سُئِل أعطى ، وإذا وعد أو أطمَع ، كان وعدُه كالعِيان ، وإطماعُه كالإنجاز . ومَدَحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخُطَباء بالسَماح . ولقد يهَبُ للرجُلِ الواحد الضاجعة من الشاء ، والعَرْج من الإبل . وكان أكثرُ ما يهَبُ المَلِك من العرب مائةَ بعير ، فيقال وَهَب هُنَيدة . وإنما يقالُ ذلك إذا أريد بالقول غايةُ المدح . ولقد وَهَب لرجل ألفَ بعير ، فلما رآها تزدَحِم فى الوادى قال: « أشهدُ أنك نبىّ ، وما هذا مما تجودُ به الأنفس » .

وفَخرت هاشم على سائرِ قُريش فقالوا : نحنُ أطعم للطعام ، وأضرَب للهام . وذكَرها بعضُ العلماء فقالوا : أجوادٌ مُجَادٌ ذَوو ألسِنة حِداد . وأجمعت الأمم كلُّها ، بخيلُها وسخيُّها وممزوجها ، على ذمّ البُخل وحَمد الجود ، كما أجمَعوا على ذمّ الكَذِب وحَمد الصدق . وقالوا : أفضل الجُود الجود بالمجْهود . وحتى قالوا فى جُهد المقلّ ، وفيمن أخرَج الجهد وأعطى الكلّ ، وحتّى جَعَلوا لمن جاد بنفسِه فَضيلة على من جاد بمالِه ، فقال الفَرزدق:

على ساعةٍ لو كانَ فى القَوْم حاتمٌ — على جوده — ضنَّت به نفس حاتم

---

(٧) عذار (مرسيه) : عذران ك — (١٣) الوادى : الفودى ك ، القوادى (فان فلوتن) — (١٦) أمجاد (فان فلوتن) — (١٨) الصديق ك .

---

(٤) «ذى الطول لا إله إلا هو» سورة غافر : ٣ —(٤ — ٥) «ذو الجلال والاكرام » الرحمن : ٢٧ — (٢٠) « على ساعة . . . حاتم » ديوان الفرزدق ص ٨٤٢ ط الصاوى .

ولم يكن الفرزدقُ ليضربَ المَثَل فى هذا الموضع بكَعْب بن مامة* ، وقد جاد بجوْبائه عندَ المصافنة . فما رأينا عربيًّا سفّه حلمَ حاتم بجُودِه* بجميع ماله ، ولا رأينا أحداً منهم سفَّه حِلم كَعب على جوده بنفسه . بل جَعَلوا ذلك من كَعْب لإياد مَفخراً ، وَجعلوا ذلك من حاتِم لطيئ* مأثرة ، ثم* لعَدْنان على قحطان . ثم للعرب على العَجَم ، ثم لسكان جزيرة العرب ، ولأهل تلك التُربة* على سائر الجزائر والترب .

فمن أراد أن يُخالِف ما وَصف الله جلّ ذِكره به نفسَه ، وما مَنح من ذلك نبيَّه صلّى الله عليه وسلّم ، وما فُطِر على تَفْضِيله العربُ قاطبة والأمَم كافّة ، لم يكُن عندَنا فيه إلّا إكفاره واستسقاطه .

ولم نرَ* الأمة أبغضت جَواداً قطّ ولا حَقَرته ، بل أحبّته وأعظَمته . بل أحبّت عقبه ، وأعظَمت — من أجلِه — رهطَه . ولا وَجدناهم أبغضُوا جَواداً لمجاوزته حدَّ الجود إلى السَّرَف ولا حقَرته ، بل وَجَدناهم يتعلّمون مناقِبه ، ويدارسون محاسِنه ، وحتى أضافوا إليه من نَوادر الجميل ما لم يفعلْه ، ونحلوه من غَرائب الكَرَم ما لم يكنْ يبلغُه . ولذلك زَعَموا أنّ الثناء فى الدنيا يُضاعف كما تُضاعف الحسنات فى الآخرة . نعم وحتى أضافوا إليه كلّ مَديح شارِد ، وكلّ معروف مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم* للبخيل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خِلاف هذا المذهَب . وجدناهم يبغِضونه مرة ، ويحقِّرونه مرة ، ويبغِضون — بفَضل بغضه — ولده ، ويحتقِرون* — بفضل احتقارهم له — رهطَه ، ويُضيفون إليه من نَوادر اللؤم ما لم يبلغْه ، ومن غَرائب البُخل ما لم يفعَلْه ، وحتى ضاعفوا عليه من سُوء الثناء ، بقدْر ما ضاعفوا للجواد من حُسن الثّناء .

وعلى أنّا لانجدُ الجوائح إلى أموال الأسخِياء أسرع منها إلى أموال البُخلاء ، ولا رأينا عدَدَ من افتقَر من البخَلاء أقلّ .

والبخيلُ عند الناس ليسَ هو الذى يبخَل على نفسه فقط ، فقد يستحِقّ عندهم اسمَ

---

(٢) لجوده (فان فلوتن) — (٤) طى ك — [ثم] (فان فلوتن) — (٥) البرية ك — (٨) كفاره ك — (٩) يزل ك — (١٤) بانعامهم (فان فلوتن) — (١٦) ويحقر ك .

البخل ، ويستوجبُ الذمّ ، من لا يدعُ لنفسِه هَوًى إلا ركِبه ، ولا حاجة إلّا قضاها ، ولا شَهْوة إلّا ركِبها وبلغ فيها غايتها . وإنما يقعُ عليه اسمُ البخيل إذا كان زاهِدًا فى كلّ ما أوجبَ الشكر ونوّه بالذِكر وأذخر الأجر .

وقد يعلّق البخيلُ على نفسِه من المُؤَن ، ويُلزِمها من الكُلَف ، ويتّخِذ من الجوارى والخَدَم ، ومن الدوابّ والحَشَم ، ومِنَ الآنِية العَجيبة ، ومن البِزّة الفاخرة والشارة الحسنة ، ما يربى على نفَقة السخىّ المُثرِى ، ويُضعِف على جُود الجواد الكريم . فيذهبُ ماله وهو مَذموم ، ويتغيّر حاله وهو مَلوم . وربما غلَب عليه حُبُّ القِيان ، واستهتر بالخِصيان . وربما أفرطَ فى حبِّ الصَّيد ، واستَولى عليه حبُّ المراكب . وربما كان إتلافه فى العُرس والخُرس والوَليمة ، وإسرافه فى الإعذار وفى العَقيقة والوكيرة . وربما ذهبتْ أمواله فى الوَضائع والودائع . وربما كان شديدَ البخل ، شديدَ الحبِّ للذكر ، ويكونُ بخله أوسخَ ، ولؤمه أقبح ، فينفِقُ أمواله ، ويتلفُ خَزائنه ، ولم يَخرُج كَفافا ، ولم ينجُ سليماً .

كأنك لم ترَ بخيلا مخدُوعاً ، وبخيلا مَفتوناً ، وبخيلاً مِضياعاً ، وبخيلا نفّاجاً . أو بخيلاً ذهب ماله فى البناء ، أو بخيلاً ذهب ماله فى الكيمياء ، أو بخيلاً أنفق ماله فى طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفى طلب الولايات ، والدخول فى القَبالات ، وكانت فتنتُه بما يؤمِّل من الإمرة فوقَ فتنتِه بما قد حواه من الذهب والفضّة . قد رأيناه ينفِقُ على مائدتِه وفاكِهتِه ألفَ دِرهم فى كلِّ يوم ، وعنده فى كلِّ يوم عُرس ، ولأن يطعَن طاعِن فى الإسلام أهونُ عليه من أن يطعَن فى الرغيف الثانى ، ولا شقّ عصا الدين أشدّ عليه من شقّ رغيف . لا يعدُّ الثَلمة فى عِرضه ثلمة ، ويعدُّها فى ثَريدته من أعظَم الثُلم .

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البُخَلاء أسرع ، والجوائحُ عليهم أكلب ، لأنهم

---

(١) البخيل (فان فلوتن) — ولا (فان فلوتن) . (٢) غايته (فان فلوتن) — (٦) ما يرى (فان فلوتن) — الكهم (فان فلوتن) — (١١) أوشح لك — أنتح لك — (١٣) ضمونا لك ، مضمونا (فان فلوتن) ، مغبونا (مرسيه) — (١٤) وبخيلا (فان فلوتن) .

أقلُّ توكُّلا وأسوأ بالله ظنًّا . والجوادُ إما أن يكونَ متوكّلا ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًّا . وهو على كلِّ حال بالمتوكِّل أشبه ، وإلى ما أشبهَه أنزع ، وكيفما دار أمرُه ورَجعَت الحال به ، فليس ممَّن يتّكِل على حَزمه ، ويلجأ إلى كَيْسه ، ويرجِع إلى جَوْدة احتياطِه وشدَّة احتراسه . واعتلال البَخيل بالحِدثان ، وسوء الظنِّ بتقلُّب الزمان ، إنما هو كِناية عن سُوء الظنِّ بخالق الحِدثان ، وبالذى يُحدِث الأزمان وأهلَ الزمان . وهل تجرى الأحداثُ إلا على تقدير المُحدِث لها ، وهل تختَلِف الأزمنة إلا على تصريف مَن دَبّرها ؟ أولَسْنا وإن جَهلنا أسبابَها ، فقد أيقنا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟

والدليلُ على أنه ليسَ بهم خوفُ الفقر ، وأن الجمعَ والمنعَ إما أن يكونَ عادةً منهم أو طبيعة فيهم ، أنك قد تجدُ المَلِك بخيلا ومملكتُه أوسعُ ، وخرجُه أدرّ ، وعدوُّه أسكن ، وتجد أحزَمَ منه جَواداً ، وإن كانت مملكتُه أضيق ، وخرجُه أقل ، وعدوُه أشدّ حركة .

وقد علِمنا أن الزنج أقصَرُ الناس فكرة وروية ، وأذهلهم عن معرفة العاقبة . فلو كان سَخاؤهم إنما هو لكلال حدِّهم ونقصِ عقولهم وقلة معرفتهم ، لكان ينبغى لفارس أن تكونَ أبخلَ من الروم ، وتكون الرومُ أبخل من الصَقالبة . وكان ينبغى للرجال ، فى الجملة ، أن يكونوا أبخلَ من النساء فى الجملة ، وكان ينبغى للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغى أن يكون أقلُّ البُخَلاء عقلاً أعقلَ من أسَدِّ الأجواد عَقلاً . وكان ينبغى للكلب — وهو المضروب به المثلُ فى اللؤم — أن يكون أعرف بالأمور من الديك المضروب به المثل فى الجود وقالوا : هو أسخى من لافِظة ، وألأم من كلب على جِيفة ، وألأم من كلب على عَرق . وقالوا : أجِع كلبَك يتبعْك ، ونَعِم كلب فى بُؤس أهله ،

(٣) [و] رجعت ك — (٧) أتقنا (فان فلوتن) — (٩) وملكته ك — (١٢) مدة وروية ك — (١٦) يكونوا ك — (١٨) لاقطة (فان فلوتن) .

(١٢ — ١٦) « وقد علمنا ... عقلا » كرر هذا المعنى فى رسالة فضل السودان (مجموعة رسائل الجاحظ) ص ٦٤ ط السامى — (١٨) « والأم ... جيفة » الحيوان ١ : ٢٢٧ ط الحلبى — (١٩) « والأم ... عرق » الحيوان ١ : ٢٣٨ ، عيون الأخبار ٢ : ٨١ .

وأسْمِنْ كلبك يأكلك ، وأحرَصُ من كلبٍ على عِقِ صَبِيّ ، وأجوَع من كَلبة حَومل، ولهو أبذأ من كلب ، وَحشٌ فلان من خُرء الكلب ، واخسَ كمايقال للكلب ، وكالكلْب فى الأرِيّ : لا هو يعتلِف ولا هُو يترك الدابَّة تعتلف ، وقال الشاعر : ٣

سَرَت ما سرَت من لَيلها ثم عرَّست على رَجُل بالعرْج ألْأمَ من كلب

وقال الله جل ذكره : « فَمَثَلُه كَمَثَلِ الْكَلبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » . وكان ينبغى فى هذا القِياس أن يكونَ المراوِزة أعقلَ البريّة ، وأهلُ خُراسان أدرَى البرية . ٦

ونحنُ لا نجِدُ الجواد* يفرُّ من اسم السَّرَف إلى الجود ، كما نجد البخيلَ يفرُّ من اسم المتهوِّر* ، والمستحى يفرُّ من اسم الخجل . ولو قيل لخطيبٍ ثابتِ الجَنان : وَقَاح ، لجزِع . فلو لم يكنْ من فَضيلة الجُود إلا أن جميعَ المتجاوزين لحُدود أصناف الخيْر يكرَهون اسمَ تلك الفَضلة إلا الجواد ، لقد كانَ فى ذلك ما يبين قَدْرَه* ، ويُظهِر فَضلَه . ٩

المالُ فاتن ، والنفسُ راغبة ، والأموالُ ممنوعة ، وهى على ما مُنِعت حَريصة ، وللنفوس فى المُكاثرة علة معروفة ، ولأنّ* من لا فكرةَ له ولا رويّة ، موكَّل بتعظيم ذى الثَرْوة ، وإن لم يكنْ منه مَنَاله . وقد قال الأوّل : ١٢

وزادَها كَلَفاً بالحبِّ أن مُنِعت أحبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنِعا ١٥

وفى بعض كُتب الفرس : « كلّ عزيز تحتَ القُدرة فهو ذَليل » ، وقالت مُعاذة العَدَوية : « كلّ مقدور عليه فمقلوٌّ أو محقور » .

---

(١) وسمن (فان فلوتن) — عق طبى لك ، عقبى ظبى (فان فلوتن) — (٨) الجود لك — (٩) المتهور (مرسيه) : المهزم لك — (١١) قدرته (فان فلوتن) — (١٣) (و) لأن (فان فلوتن) —

(١٦٠ : ١٩ — ١٦١ : ١) « أجع ... صبى » عيون الأخبار ٢ : ٨١ ، الفاخر ص٥٧ ، الحيوان ١ : ٢٢٦ (٤) « سرت ... كلب » الحيوان ١ : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ط الحلبى — (٥ — ٦) « فمثله ... يلهث » سورة الأعراف : ١٧٦ — (١٥) « وزادها ... مامنعا » الحيوان ١ : ١٦٨ ، عيون الأخبار ٢ : ٣ — (١٦ — ١٧) « وفى ... محقور » عيون الأخبار ٢ : ٢ — ٣ .

ولو كانوا لأولادهم يجمَعون ولهم يكدُّون ، ومن أجلِهم يحرِصُون ، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبُون ، ولترَكوا محاسَبَتهم فى كثير ممَّا يشتَهون . وهذا بعضُ ما بغَّض بعضَ المورِّثين إلى الوارثين ، وزهّد الأخلاف فى طُول عمر الأسلاف . ولو كانوا لأولادهم يمْهدون ، ولهم يَجْمَعون ، لماجمَع الخِصيان الأموال ، ولما كنز الرُهبان الكنوز ، ولاستراحَ العاقِر من ذلّ الرّغبة ، ولسَلِم العقيمُ من كدِّ الحرص* . وكيفَ ونحن نجدُه بعد أن يموتَ ابنه الذى كان يعتلُّ به ، والذى من أجله كانَ يجمع ، على حالهفى الطَلَب والحِرص ، وعلى* مثلِ ما كان عليه من الجمع والمنع .

والعامة لم تقصر فى الطَّلَب ، والحَكَرة والبخَلاء لم يحدّوا* شيئاً من جُهدهم ، ولا أعفَوا بعدُ قدرتهم ، ولا قصَّروا فى شىء من الحِرص والحَصْر ، لأنهم فى دار قُلعة ، و بعرَض نقلة . حتى لو كانوا بالخلود موقِنين ، لأغفلوا تلكَ الفُضول . فالبخيل مجتهد ، والعامىُّ غيرُ مقصِّر . فمن لم يَستبِن على ما وصَفنا ، بطبيعة قوّية وبشَهوة شديدة و بنظَر شاف ، كان إمّا عامِّيًّا و إمّا شقِيًّا ، فيقيمُ اعتِلالهم بأولادِهم واحتجاجَهم بخوف التلوُّن من أزمنتهم .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لوافِدٍ كذَب عندَه كذبة ، وكان جواداً : « لولا خَصلة وَمَقك الله عليها لشرَّدتُ بك من وَافد قوم » . وقيل للنبىِّ صلى الله عليه وسلم : « هل لك فى بِيض النساء وأدْم الإبل ؟ » قال : « ومن هم ؟ » قيل : « بنو مُدلج » قال : « يمنُعنى من ذاك قِراهم الضيْف وصلتهم الرحِم » . وقال لهم أيضاً : « إذا نحروا ثجّوا* ، وإذا لَبّوا عجّوا » . وقال للأنصار : « من سيِّدكم ؟ » قالوا : « جدُّ بن قَيس**» ، على أنّه يُزَنّ فينا ببخل » فقال : « وأىّ داء أدوى من البُخل ! » < فجعله داء > * ،

---

(٥) الحريص ك — (٦) [و] على ك — (٨) بجدوا (فان فلوتن) — (١٨) نجوا ك ، نحوا (فان فلوتن) — (١٩) < فجعله داء > : ليست بالأصل .

(١٤ — ١٥) « قال . . . قوم » النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٧٤ المطبعة الخيرية ، القاهرة — (١٨ — ١٩) « وقال للأنصار . . . البخل » العقد الفريد ١ : ٢٦٣ ط لجنة التأليف ، البخلاء للخطيب ، ورقة ٦ ، ٧ ، مخطوطة المتحف البريطانى

ثم جعله من أدوى الداء . وقال للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتكثرون عندَ الفزع ، وتقلّون عند الطمع » . وقال : كفى بالمرء حِرصاً ركوبُه البحر » . وقال : « لو أن لابنِ آدَم واديَين من مال لا بتَغى ثالثاً ، ولا يُشبِع ابن آدم إلا التراب ، ويتوبُ الله على مَن تاب » . وقال : « السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان » . وقال : « إن الله جَواد يحبُّ الجود » . وقال : « أنفِق يا بلال ، ولا تخشَ من ذى العَرْش إقلالا » .

وقال : « لاتوكِ فيوكأ عليك » . وقال : « لا تحصِ فيُحصَى عليك » . وقالوا : « لا ينفعُك من زاد < ما > تبقّى » . ولم يسمِّ الذهَب والفضّه بالحجرَين إلاوهو يريد أن يضع من أقدارهما، ومن فِتنة الناس بهما . وقال لقيس بن عاصم : « إنما لك من مالك ما أكَلت فأفنَيت ، وما لَبِستَ فأبليت ، أو أعطيت فأمضَيت ، وما سِوى ذلك فلِلوارث »

وقال النَّمِرُ بن تَوْلب :

وحَثَت على جَمع ومَنع ، ونفسُها ... لها فى صُروف الدهر حقّ كذوب
وكائِنْ رأينـــا من كَريم مرزّأ ... أخِى ثِقة طَلْق اليدَين وهوب
شَهدتُ وفاتونى وكنت حَسِبتُنى ... فقيراً إلى أن يَشهدوا وتَغيـــبى
أعاذلُ إنّ يصبحْ صَدای بقَفرة ... بعيداً نآنى صاحبى وقَريـــبى
ترَى أنّ ما أبقيتُ لم أكُ ربّه ... وأن الذى أمضيتُ كان نصيبى

---

(١) الفراغ ك — (٧) < ما > : ليست بالأصل .

(١ - ٢) « وقال للأنصار . . . الطمع » البيان والتبيين ٢ : ١٦ ط مصطفى محمد ، الكامل للمبرد ١ : ٣ المطبعة الأزهرية — (٢ — ٤) « وقال لوان . . . تاب » البيان والتبيين ٢ : ١٨ — (٥) « وقال انفق . . . اقلالا » العقد الفريد ١ : ٢٦٣ — (٨ — ١٠) « إنما لك . . . فللوارث » البيان والتبيين ٢ : ١٨ ، عيون الأخبار ٣ : ١٧٩ ، الأغانى ٤ : ١٦٢ ط دار الكتب المصرية .

وذى إبِلٍ يسعَى[١] ويحسبها له ... أخى نصب فى سقيها[٢] ودؤوب
غدَت وغدا ربٌّ سواه يسُوقها ... وبُدِّل أحجاراً وجالَ[٣] قليب

وقال أيضاً :

قامتْ تباكى[٤] أن سَبَأت لِفتية ... زِقّاً[٥] وخابيـــة بعَوْد مُقْطَع
وقَرَيتُ فى مقرى قلائصَ أربعا[٦] ... وقريتُ بعد قِرى قلائص أربع
أتبكيا من كلِّ شىء هـــيّن ... سَفَه بُكاء العين ما لم تدمَع
فإذا أتانى إخْوَتى فدَعيهـــم ... يتعلَّلوا فى العَيش أو يَلْهوا معى
لا تطرُديهم عن فراشى ، إنه ... لا بدَّ يوماً أن سيَخلو مضجَعى
هلا سألتِ بعادياء وبيتِـــه ... والخيـــلِ والخمْرِ التى لم تمنع

وقال الحارثُ بن حِلّزه :

بينا الفتَى يسعَى ويُسعَى له ... تاح له من أمرِه خالـــج
يترُك ما رقح من عَيْشه ... يعيثُ[٧] فيـــه هَمَج هامِـج
لا تكسَع الشَّول بأغبارها ... إنَّك لا تدرى مَن النـاتج

وقال الهُذَلى[٨] :

إن الكرامَ مناهِبـو ... ك المجدَ كلّهم فناهِب
أخْلِف وأتلِف ، كلّ شى ... ء ذرعته الريحُ ذاهب

---

(١) يسعى (الكامل) : تسعى ك – شقها ك ، رعيها (الكامل) – (٢) وجال (الكامل) : وداك ك – (٤) تباكر (فان فلوتن) – [زقا] ك – (٥) أربع ك – (١٢) يعيش ك .

(١٦٣ : ١٥–١٦٤ : ٢) « أعاذل ... قليب » الكامل للمبرد ١ : ٢٦٥ – (٤ – ٩) « قامت ... تمنع » خزانة الأدب للبغدادى ط بولاق ١٢٩٢هـ ، اللآلى لأبى عبيد البكرى ص٤٦٨ ط لجنة التأليف ، ١٩٣٦ م – (١٠ – ١٣) « وقال الحارث ... الناتج » البيان والتبيين ٣ : ١٤٩ – ١٥٠ ط الفتوح ١٣٣٢ هـ ، الكامل للمبرد ١ : ٢٦٨ ، المفضليات – (١٥ – ١٦) « إن الكرام ... ذاهب » البيان والتبيين ٣ : ١٢٦ ، ١٠٩ ، ٢٦٢ ط مصطفى محمد .

وقالت امرأةٌ :

أَنتَ وهبتَ الفِتيةَ السلاهِب وإبلا يحارُ فيهـــا الحالب
وغَنَما مثلَ الجرادِ الهارِب* متـــاعَ أيام وكلٌّ ذاهب

وقال تَميم بنُ مُقبل** :

فأَخلِفْ وأتلِف ، إنّما المالُ عارَة وكلْه مع الدَّهر الذى هُو آكِله

وقال أبو ذرّ** : « لك فى مالِك شَريكان : الوارثُ والحِدْثان » . وقال الحُطَيئة :

من يَفعَل الخيرَ لا يعدَم جوازِيَه لا يذهب العُرف بين الله والناس

وجاء فى الأثر : إن أهلَ المعروف فى الدنيا أهلُ المعروفِ فى الآخرة . وفى المَثَل : « اصنَع الخَيْر ولو إلى كَلْب » . وقال فى الحثّ على القليل ، فضلاً على الكثير ، قال الله جلّ ذِكره : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » ، وقالتْ عائشة فى حَبَّة عِنَب : « إنّ فيها لمثاقيل ذَرّ » ، ولذلك قالوا فى المَثَل : « مَنْ حَقَر حَرَم » . وقال سَلم بن قُتيبة : « يستحى أحدُهم من تَقريب القَليل مِن الطعام ، ويأتى أعظم منه » ، وقال : « جهد المرءِ أكثرُ من عَفوه » . وقدّم رسول الله صلّى الله علَيه وسلّم جُهدَ المقِلّ على عَفْو المكثر ، وإن كان مبلغُ جُهده قليلاً ، ومبلغُ عَفْوِ المكثِر كثيراً . وقالوا : « لا يمنَعْك من مَعروف صِغَره » . وقال النبىُّ صلّى الله عليه

(٣) لعلها : السارب ، كما فى الحيوان والبيان والتبيين — (٩) [فى] الأثر ك .

(٢ — ٣) « أنت ... ذاهب » البيان والتبيين ٣ : ١٢٦ ، الحيوان ٣ : ٧٥ — ٧٦ ط الحلبى — (٦) « وقال ... والحدثان » عيون الأخبار ٣ : ١٨٠ — (٨) « من يفعل ... الناس » الأغانى ٢ : ١٧٣ ط دار الكتب المصرية ، عيون الأخبار ٣٠ : ١٧٩ — (١١ — ١٢) « فمن ... يره » سورة الزلزلة ٧ ، ٨ — (١٢) « وقالت عائشة ... ذر » صحيح البخارى بشرح الكرمانى — (١٣) « من حقر حرم » عيون الأخبار ٣ : ١٧٨ ، أمثال الميدانى ٢ : ٢٦٨ — (١٣ — ١٤) « وقال سلم ... منه » عيون الأخبار ٣ : ١٧٨ — (١٤ — ١٥) « وقدم ... المكثر » انظر العقد الفريد ١ : ٢٧٣ ط لجنة التأليف .

وسلّم : « اتّقوا النارَ ولو بشِقّ تَمْرة » وقال : « لا تردُّوا السائلَ ولَو بِظلف محرق » وقال : « لا تردُّوه ولَو بِفرسِن شاة » ، وقال : « لا تحقِروا اللقمة ، فإنّها تعودُ كالجَبَل العظيم ، لقول الله جل ذكره : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ » ، وقال : « لا تردُّوه ولو بِصلة حبل » . وقالت العرَب : « أتاكم أخوكم يستَتِمُّكم ، فأتمّوا له » ، وقالوا : « مانع الإتمام ألأم » .

وقالوا : « البخيل إنْ سأل ألحف ، وإن سُئِل سوَّف » ، وقالوا : « إن سُئِل جَحد . وإن أعطى حَقَد » ، وقالوا : « يردُّ قبل أن يَسمَع ، ويغضَب قبلَ أن يفهَم » ، وقالوا : « البخيلُ إذا سُئل ارتزّ ، وإذا سئل الجوادُ اهتزّ » . وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم : « ينادِي كلَّ يوم منادِيان مِن السماء ، يقول أحدُهما : اللهمَّ عَجِّل لمنفِق خَلَفًا ، ويقول الآخر : اللهم عَجِّل لممسِك تلفًا » . وقالوا : « شرّ الثلاثة المليم ، يمنع درَّه ودرّ غيره » . وقال الله جلّ ذكرُه : «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ». وقالوا فى المَثَلِ ، إذا أَلجأَه الدهر إلى بخيل : « شرٌّ مَا ألجأك إلى مُخّة عرقوب » وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم : « قل العَدل ، وأعط الفَضل » ، وقال صلَّى الله عَلَيه وسلَّم : « أنهاكم عن عُقوق الأمّهات ووَأْد البنات ومنع وهات » . وقال الله عزَّ وجل : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » ، وقال : « لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقال : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

---

(١٢) ان الجأ ك (فان فلوتن) — ما (فان فلوتن) — (١٣) الفضل ك — وقال < النبى > (فان فلوتن) .

---

(١) « اتقوا . . . تمرة » النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٥٠ ط الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ — (٣) « يمحق . . . الصدقات » سورة البقرة : ٢٧٦ — (٩ — ١٠) « ينادى . . . تلفا » الترغيب والترهيب للمنذرى ١ : ٢٧٦ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦ هـ — (١١) « الذين . . . بالبخل » سورة النساء : ٣٧ — (١٣ — ١٤) « أنهاكم . . . وهات » صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢١ : ١٥١ المطبعة المصرية — (١٤ — ١٥) « ويطعمون . . . وأسيراً » سورة الدهر : ٨ — (١٥) « لن . . . تحبون » سورة آل عمران : ٩٢ — (١٦ — ١٦٧ : ١) « ويؤثرون . . . المفلحون » سورة الحشر : ٩ .

فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وقالوا* فى الصَّبر على النائبة ، وفى عَاقبة الصَّبر : « عندَ الصباح يحمَد القومُ السُّرى » ، وقالوا : « الغَمَراتُ ثمَّ ينجَلينا* » وقال الخُرَيْمى :

ودونَ الندى فى كلِّ قلب ثنيّةٌ لها* مصعد حَزن ومنحدَر سهل ٣

وودّ الفتى فى كلِّ نَيْل ينيله إذا ما انقضى لو أنّ نائله جَزْل

وقالوا : « خير الناس خَيْر الناس للناس ، وشرّ الناس شرُّ الناس للناس » ، وقالوا* : «خير مالك ما نفعك» ، وقالوا : «عجباً لفَرط الكِبْرة مع شباب الرغبة » ، وقال الراجز : ٦

كلّنا يأمل مدًّا فى الأجل والمنايا هى آفاتُ الأمل*

وقال عُبَيد الله بنُ عِكراش** : « زمَن خَوْون ووارث شفون وكاسب حزون ، فلا تأمَن الخوْون وكن وارث* الشفون » ، وقال : « يهرَم ابنُ آدم ويشبُّ معه خَصلتان : الحِرصُ والأمل» . وكانوا يعيبُون من يأكُل وحدَه ، وقالوا : « ما أكل ابنُ عمر وحدَه قطّ » ، وقالوا : « ما أكل الحسَن وحدَه قطّ » . وسمع مجاشِع الربعى قولَهم: «الشحيح أعذَر من الظالم » فقال : « أخزى الله أمْرين خَيرُها الشح » . وقال بَكر بن عَبد الله المُزنى* : « لو كان هذا المسجِد مفعَماً بالرجال ، ثمّ قيل لى من خيرُهم ؟ لقلتُ : خيرُهم ٩ ١٢

---

(١) وقال ك — (٢) ينجلين (فاد فلوتن) — (٣) بها (فان فلوتن) — (٥) وقال ك — (٧) الأجل (فان فلوتن) — (٩) وارث (عيون الأخبار) : ارث ك ، وكل ارث (مرسيه) — (١٣) المرى ك

---

(٢) « الغمرات ثم ينجلينا » الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٢٥٦ — (٣ — ٤) « ودون . . . جزل » البيان والتبيين ٢ : ٢٧٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م ، وقد ورد البيت الأول فى نهاية الأرب (٣ : ٨٧ ط دار الكتب المصرية) منسوباً إلى الجرهمى ، وهو تصحيف عن الخريمى — (٨ — ٩) « وقال . . . الشفون » عيون الأخبار ٣ : ١٨٠ — (١١ — ١٢) « وسمع . . . الشح » البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ، ٣ : ١٧٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، الفاخر للمفضل ص ١٨٦ — (١٢ — ١٦٨ : ١) « وقال بكر . . . لهم » انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢ : ٢٢٤ ، ط السعادة ، ١٩٣٢ م .

لهم » ، وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بِشِراركم ؟ » قالوا : « بلى يارسول الله » قال : « من نَزل وحده ، ومنَع رِفده ، وجَلد عبده » . وقالت امرأةٌ عندَ جِنازة رجُل : « أما والله ما كان مالُك لبطنك . ولا أمرُك لعرسك » .

(١ – ٢) « وقال النبى . . . عبده » البيان والتبيين ٢ : ١٧ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ ، الجامع الصغير للسيوطى ٣ : ٩٩ .

ردّ ابن التوأم

فلمّا بلغت الرسالة ابنَ التوأم** كَرِه أن يجيبَ أبا العاص ، لما فى ذلك من المنافسة والمباينَة . وخافَ أن يترقّى الأمر إلى أكثرَ من ذلك . ٣

فكتبَ هذه و بعث بها إلى الثّقَفى :

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أما بعد فقد بلغَنى ما كان مِن ذكر أبى العاص لنا ، وتنويهِه بأسمائنا ، وتشنِيعه عَلَينا . وليسَ يمنعُنا من جَوابه إلّا لأنه* إن أجابَنا لم يكنْ جوابُنا إياه على قوله الثانى أحقّ بالترك من جوابنا على قوله الأوّل ، فإن نحنُ جعلنا لابتدائِه جَوابا ، وجعلنا لجَوابه* الثانى جواباً ، خرَجْنا إلى التهاتُر* وصرنا إلى التخايُر* . ومن خَرج إلى ذلك فقد رَضِى باللّجاج حظًّا و بالسُّخف نَصيباً . ٦ ٩

وليسَ يحترسُ من أسباب اللّجاج إلا من عرَف أسباب التلون . ومن وقاه الله سوء التكفّى وسُخْفه ، وعصمَه من سُوء التّصْميم ونَكده ، فقد اعتدلَت طبائعُه وتساوت خواطره . ومن قامت* أخلاطه على الاعتدال ، وتكافأت خواطرهُ فى الوَزن ، لم يعرِف من الأعمال < إلّا > الاقتصادَ ، ولم يجد أفعاله أبداً إلّا بينَ التقْصِير والإفراط . لأن الموزونَ لا يولد إلّا موزوناً . كما أن المختلِفَ لا يولد إلا مختلفاً . فالمتتابعُ* لا يثنيه زَجْر ، وليست له غايةٌ دون التلَف ، والمتكفّى ليس له مأتى ولا جِهة ، ولا له رُقية ولا فيه حِيلة . وكلٌّ متلوّن فى الأرض فمنحلٌّ العَقد ، ميسَّر لكل ريحٍ . ١٢ ١٥

فدَع عنكَ خلطة الإمّعة فإنه حارِض* لاخيرَ فيه ، واجتنب ركوبَ الجموح** فإنّ غايتَه قبل الذواق . < ولا خيرَ فى المتلوّن > * ذى البدوات ولا فى الحرون* ذى التصميم ١٨

---

(٧) انه (فان فلوتن) — (٨) وجعلنا لجوابه (فان فلوتن) : وجعل لثوابه ك — (٩) التهاير ك — التحابر ك ، التجابرك (فان فلوتن) — (١٢) < ليس > قامت (فان فلوتن) — (١٤) < إلا > : ليست بالأصل — (١٥) المتتابع ك — (١٨) حارص ك — (١٩) < ولا خير فى المتلون > : ليست بالأصل — لعلها الجموح أو اللجوج .

والمتلوِّن شرٌّ من المصمِّم ، إذ كنتَ لا تعرفُ له حالا يقصد إليها ، ولا جهة يعمَل عليها . ولذلك صار العاقل يخدع العاقلَ ولا يخدعُ الأحمق ، لأن أبواب تدبير العاقل وحِيَله معروفة ، وطرقَ خواطِره مسلوكةٌ ، ومذاهبَه محصورة معدودة ، وليسَ لتدبيرِ الأحمق وحِيَله جهةٌ واحدة ، ومن أخطأها كذَب ، والخبرُ الصادقُ عن الشيء الواحدِ واحد ، والخبرُ الكاذبُ عن الشيء الواحِد لا يُحصى له عدد، ولا يوقَف منه على حدّ . والمصمِّم قتلُه بالإجهاز ، والمتلوِّن قتلُه بالتعذيب .

فإن قلنا فليسَ إليه نقصِد ، و إن احتجَجْنا فلسنا عليه نردّ . ولكنّا إليك نقصِد بالقول ، و إليك نريدُ بالمشورة . وقد قالوا : « احفظ سرَّك ، فإن سرَّك من دمك » . وسواء ذهابُ نفسِك وذهابُ ما به يكون قوام نفسِك . قال المُنجَاب العَنبرىّ : « ليس بكبيرٍ ما أصلحه المال » ، وفقدُ الشيء الذى به تصلح الأمور أعظمُ من الأمور ، ولهذا قالوا فى الإبل : « لو لم يكن فيها إلا أنها رقوء الدم » ، فالشيء الذى هو ثَمَن الإبل وغير الإبل أحق بالصَّون . وقد قضَوا بأن حفظَ المال أشدُّ من جمعه . ولذلك قال الشاعر :

وحفظك مالا قد عُنيتَ بجمعه أشدّ من الجمع الذى أنتَ طالبه

ولذلك قال مُشتَرى الأرض لبائِعها ، حين قال له البائع : « دفعتُها إليك بطيئةَ الإجابة ، عظيمةَ المؤونة » قال : « دفعتُها إليك بطيئةَ الاجتِماع ، سريعةَ التفرّق » .

والدِّرهمُ هو القُطب الذى تدورعليه رَحا الدنيا . واعلم أنّ التخلُّص من نزوان° الدِّرهم وتفلّته° < والتحرز° > من سكر الغنى وتقلبه° شديد . فلو كان إذا تفلّت كان حارسُه صحيحَ العقل سليم الجوارح ، لردّه فى عِقاله ولشده بوَثاقه . ولكنّا وجَدنا ضعفَه عن

---

(١٦) نزوات (فان فلوتن) — (١٧) وتقلبه ك،فتقليه (فان فلوتن) — < والتحرز > : ليست بالأصل — ونفليه ك .

---

(٨) « سرك من دمك » عيون الأخبار ١ : ٣٨ ، محاضرات الراغب ١ : ٥٩ ط الشرقية — (١٣) « حفظ . . . جمعه » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ — (١٣) « وحفظك . . . طالبه » الحيوان ٣ : ٤٧ ط الحلبى ، محاضرات الراغب ١ : ٢٣٧ — (١٤ — ١٥) « ولذلك . . . التفرق » البيان والتبيين ٣ : ١٠٥ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٢٥٠ .

ضَبطه ، بقدرِ قَلَقه فى يده . ولا تغترَّ بقولهم : مال صامِت ، فإنه أنطقُ من كل خَطيب ، وأنمّ من كل نمّام . فلا تكترِث* بقولهم : هذين الحجرين ، وتتوهَّم* جُمودَهما وسكونَهما وقلّة ظعنهما وطول إقامتهما ، فإن عملَهما وهما ساكِنان ، ونقضَهما للطبائع وهما ثابِتان* أكثر من صَنيع السمِّ الناقِع والسُّبُعِ العادى . فإن كنت لا تكتَفى بصنعه حتى تفقدَه* ، ولا تحتال فيه حتى تحتال له ، فالقبرُ خيرٌ لك من الفقر ، والسِّجن خيرٌ لك من الذل .

وقولى هذا < مرٌّ > يعقِب حلاوةَ الأبد* ، * وقول أبى العاص* حلوٌ يعقِب مرارة الأبد . فخذ لنفسِك بالثِّقة ، ولا ترض أن يكون الحِرباء الراكب العودِ أحزمَ منك ، فإن الشاعرَ يقول :

أنّى أتيح لها حرباء تَنضُبةٍ لا يرسلُ الساقَ إلا ممسِكاً ساقا

واحذَر أن تخرِج من مالك دِرهماً حتى ترى مكانَه خيراً منه . ولا تنظُر إلى كثرته ، فإنّ رمل عالج لو أُخِذ منه ولم يردّ عليه ، لذهَب عن آخره .

إنّ القوم قد أكثَروا فى ذِكر الجود وتفضيله ، وفى ذِكر الكَرَم وتشريفه ، وسمّوا السرفَ جوداً وجعلوه كرَماً . وكيف يكونُ كذلك وهو نِتاج ما بينَ الضعْف* والنفج ؟ وكيفَ والعطاء لا يكون سَرَفاً إلّا بعد مجاوَزَة الحقّ ، وليسَ وراء الحقّ إلى الباطل كَرَم ؟ وإذا كان الباطلُ كرَماً كان الحقُّ لؤماً . والسرَفُ — حفظك الله — مَعْصية ، وإذا كانت معصيةُ الله كرَماً كانت طاعتُه لؤماً . ولئن جمعهما اسمٌ واحد وشمِلهما حكمٌ

---

(٢) تكترث (فان فلوتن) : تكبر ك — فتتوهم (فان فلوتن) — (٤) بانيان ك — (٥) تمده ك — (٧) < مر > (فان فلوتن) : ليست بالأصل — < الأبد > فخذ لنفسك بالثقة ك — وقول أبى العاصى : القاضى ، وبالهامش (فقول أبى) ك ، فقولك الماضى (فان فلوتن) — (١٤) الشرف ك : الضعف (فان فلوتن) : الصف ك .

---

(٥) «فالقبر ... الفقر» انظر عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ — (١٠) «أنى ... ساقا» الحيوان ٦ : ١٢٢ ط التقدم ، عيون الأخبار ٣ : ١٩٢ ، لسان العرب ، ونسبه إلى أبى دؤاد الأيادى

واحد — ومضادّة الحقّ للباطل ، كمضادّة الصدق للكذِب ، والوفاء للغَدر ، والجور للعَدل ، والعِلم للجَهل — ليجمعنّ هذه الخصالَ اسمٌ واحد ، وليشملنّها حُكم واحد .

وقد وَجَدنا الله عاب السرَف وعاب الحميَّة وعاب العصَبيَّة* ، ووجدناه قد خصّ السرَف بما لم يخصّ به الحميَّة . لأنه ليسَ حبّ المرء لرهطِه من العصَبيَّة ، ولا أنفته من الضَّيم من حميَّة الجاهلية . وإنما العصبية ما جاوز الحقّ ، والحميَّة المعِيبة ما تعدّى القصد . فوجدنا اسمَ الأنفة قد يقعُ محموداً ومذموماً ، و < ما > * وجدنا اسم العصبية ولا اسم السرَف يقع أبداً إلا مذموماً . وإنما يسرُّ باسم السرف جاهلٌ لا علمَ له ، أو رجل إنما يسرُّ به لأن أحداً لا يسمّيه مسرفاً حتى يكونَ عنده قد جاوَز حدَّ الجود ، وحكم له بالحقّ ، ثم أردفه بالباطل . فإن سُرَّ من غير هذا الوجه ، فقد شارَك المادِح في الخطأ ، وشاكَله في وَضع الشيء في غير موضعه .

وقد أكثروا في ذكر الكرَم . وما الكرمُ إلا كبعضِ الخِصال المحمودة التي لم يعدَمْها بعضُ الذمّ ، وليسَ شيء يخلو من بعضِ النقص والوَهن . وقد زعم الأوّلون أن الكرَم بسبب الغِنى* ، وأن الغنى* يسبّب البلَه ، وأنه ليس وراء الأبله* إلا المعتوه . وقد حكَوا عن كِسرى أنه قال : « احذَروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شَبع » ، وسواء جاع فَظَلم وأحفظ* وعَسف ، أم جاع فكذَب* وضَرع وأسفّ . وسواء جاعَ فَظَلم غيره ، أم جاع فظَلم نفسَه ، والظلمُ لؤم . وإن كان الظلمُ ليسَ بلؤم فالإنصافُ* ليسَ بكرَم* . وإن كان الجودُ على مَن لا يستحق الجودَ كرَما ، فالجودُ لمن وجب له ذلك* ليس بكرم* . فالجودُ إذا كان لله فكان شكراً له ، والشكرُ كرَم . فكيف *

(٣) المعصية ك — (وكذلك في الموضعين التاليين) — (٦) < ما > : ليست بالأصل ، لا (فان فلوتن) — (١٣) يسبب الغباء وان الغباء (مرسيه) — البله ك — (١٥) وحفظ ك — وكذب ك — (١٦) والانصاف ك — (١٨) ليس بكرم (فان فلوتن) : اكرم ك — وان ك ، فكيف (فان فلوتن) —

(١١ — ١٣) « وقد ... البله » انظر عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ — (١٤) « وقد حكوا ... شبع » عيون الأخبار ١ : ٢٣٨ ، الدرة اليتيمة (رسائل البلغاء) ص ٦٧ ، العقد الفريد ٢ : ٣٥٥ ط لجنة التأليف ، نهج البلاغة ٢ : ١٥٥ ط الرحمانية بمصر ، ١٣٢١ هـ ، تذكرة ابن حمدون ، ص ٤٦ .

يكون الجودُ إذا كان معصيةً كرما ، وكيف* يتكرّم مَن يتوصّل بأياديك إلى معصيتك، وبنِعَمك إلى سُخطك ؟ فليسَ الكرمُ إلا الطاعة ، * وليس اللؤم إلا المعصية ، وليس بجود ما جاوز الحق* ، وليس بكرم ما خالفَ الشُّكر . ولئن كان مجاوزُ الحق كريماً، ليكوننّ المقصّر دونه كريماً .

فإن قَضيتم بقولِ العامّة ، فالعامّة ليسَت بقُدوة . وكيفَ يكون قُدوةً من لا ينظر ولا يحصّل ولا يفكر ولا يمثّل ؟ وإن قَضيتم بأقاويل الشُعراء ، وما كان عليه أهل الجاهليّة الجهَلاء ، فما قبّحوه مما لا يُشَكُّ في حُسنه أكثرُ من أن نقفَ عليه ، أو نتشاغَل باستقصائه . على أنه ليسَ بجُود إلا ما أوجبَ الشكر ، كما أنه ليسَ ببُخل إلا ما أوجَب اللّوم . ولن* تكون العطيّة نعمةً على المعطَى حتى يراد* بها نفس ذلك المعطَى . ولن يجب عليه الشكرُ إلا مع شَريطة القَصد . وكلُّ مَن كان جُوده يرجِعُ إليه ، ولولا رَجوعه إليه لما جادَ عليك ، ولو تهيأ له ذلك المعنَى في سِواك لما قصَد إليك ، فإنما جعَلك مَعْبراً لِدَرك حاجته ، ومَركباً لبلوغ محبّته . ولولا بعضُ القول لَوَجب* لك عليه حق* يجبُ به الشكر . فليسَ يجبُ لمن كان كذلك شُكر ، وإن انتفعتَ بذلك منه ، إذ كان لنفسِه عَمِل . لأنّه لو تهيّأ له ذلك النفعُ في غيرِك لما تخطّاه إليك .

وإنما يُوصَف بالجود في الحقيقة ، ويُشكر على النفع في حُجّة العقل ، الذي إن جاد عليكَ فلكَ جاد ، ونفعَك أراد ، من غير أن يرجعَ إليه جودُه بشيء من المنافع ، على جِهة من الجهات ، وهو الله وحدَه لاشريكَ له . فإن شكَرنا للناس على بعضِ ما قد جَرى لنا على أيديهم فإنما هو لأمرين : أحدُهما التعبُّد ، وقد تعبّد* اللهُ بتعظيم الوالِدَين وإنْ كانا شَيْطانَين ، وتعظيم مَن هو أسنّ* منّا وإن كنّا أفضلَ منهم . والآخر لأنّ النَّفْس

(٢ – ٣) [وليس اللؤم . . . الحق] (فان فلوتن) – (٩) وان ك – راود ك – (١٢) أوجب (فان فلوتن) – حقا ك – (١٨) تعبد (فان فلوتن) – (١٩) شر ك

(١٠ – ١٧٤ : ١٠) «وكل . . . وفصلنا» عيون الأخبار ٣ : ١٧٠ – ١٧١ .

فما لم تحصّل الأمورَ وتميّز المعانى ، فالسابق إليها حبٌّ مَن جرى لها على يده خيرٌ ، وإن كان لم يُرِدها ولم يقصِد إليها .

ووَجَدنا عطيّة الرجُل لصَاحِبه لا تخلُو أن تكونَ لله ، أو لغير الله . فإن كانت لله ، فثوابهُ على الله . وكيفَ يجبُ علىَّ فى حُجَّة العقل شكرُه ، وهو لو صادفَ ابنَ سبيلٍ غَيْرى لما حَمَلنى ولا أعطانى . وإما أن يكونَ إعطاؤه إيّاى للذِّكر ، فإذا كان الأمرُ كذلك ، فإنما جعلنى سُلَّماً إلى تجارته وسبباً إلى بُغيته . أو يكونَ إعطاؤه إيّاى من طريق الرّحمة والرقة ، ولما يَجِد فى فؤاده من العصر والألم ، فإن كان لذلك أعطَى ، فإنما داوى نفسَه من دائه ، وكان كالذى رَفّه من خِناقه . وإن كان إنما أعطانى على طَلَب المُجازاة وحب المكافاة فأمرُ هذا مَعروف . وإن كان إنما أعطانى من خَوف يدى أو لسانى ، أو اجترار معُونَتى ونصرَتى ، فسبيلُه سبيلُ جَميع ما وَصَفنا وفصّلنا .

فلاسم الجود مَوْضِعان : أحدُهما حقيقة ، والآخر مجاز . فالحقيقةُ ما كان مِن الله ، والمجازُ المُشتقُّ له من هذا الاسم . وما كان لله كان ممدُوحاً ، وكان لله طاعة . وإذا لم تكُن العطيَّة من الله ولا لله ، فليسَ يجُوز هذا فيما سمّوه جُوداً ، فما ظنّك بما سَمّوه سَرفا ؟

افهمْ ما أنا مُوردُه عَليك وواصفهُ لك : إن التربح والتكسُّب والاستِئكال بالخديعة والطُّعَم الخبيثة فاشيةٌ غالبَة ومستفيضَة ظاهرة . على أنّ كثيراً ممّن يُضاف اليومَ إلى النزاهة والتكرُّم وإلى الصّيانة والتوقّى ، ليأخذ من ذلك بنَصيب وافر وبمدّ واف . فما ظنُّك بدَهماء الناس وجُمهورهم ؟ بل ماظنّك بالشُّعَراء والخُطَباء الذين إنما تعلموا المنطق لِصناعة التكسُّب ؟ وهؤلاء قَومٌ بوُدِّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدَّ السلامة إلى الغفلة ، حتى لا يكونَ للأموال حارس ولا دُونها مانِع . فاحْذرهم ، ولا تنظُر إلى بِزّة أحدِهم فإن المسكينَ أقنع منه ، ولا تنظُر إلى مَركبه فإنّ السائلَ أعفّ منه . واعلم أنه فى مَسك مِسكين وإن كانَ فى ثِياب جِياد ، وروحُه رُوح نَذل وإن كان فى جِرم

(١) بالسابق ك ، بالسائق (مرسيه) — احبت (فان فلوتن) — له ك — (٧) الغصة (فان فلوتن) — (١٠) اجترار (عيون الأخبار) : صرف ك — ومضرتى (فان فلوتن) — (٢٠) موكبه ك .

مَلِك . وكلُّهم وإن اختَلَفت وُجوه مسألتهم واختَلفت أقدارُ مطالبهم ، فهو مسكين . إلا أنّ واحداً يطلُب العُلَق ، وآخَرُ يطلُب الخرق ، وآخَرُ يطلبُ الدوانيق ، وآخَر يطلُب الألوف . فجهةُ هذا هِيَ جِهة هذا ، وطعمة هذا هِيَ طُعمة هذا . وإنما يختلفُون فى أقدار ما يطلبُون ، على قَدْر الحذق والسبب . فاحذَرْ رُقاهم وما نَصَبوا لك من الشَّرك ، واحرُس نِعمتك وما دسُّوا لها من الدَواهى . واعمَل على أنّ سِحرهم يسترق الذهن ويختطف البَصر . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « إنّ من البيان سحراً » ، وسَمِع عمر بنُ عبد العزيز رَجُلا يتكلّم فى حاجة فقال : « هذا والله السِّحر الحلال » ، وقد قال رَسول الله صلّى الله عليه وسلم : « لاخِلابة » . واحْذَر احتمالَ مَديحهم ، فإنّ محتمل المديح فى وَجْهه كمادِح نفسِه .

إن مالك لا يَسَع مُريديه ولا يبلغ رِضا طالبيه . ولو أرْضَيتهم بإسْخاط مِثلهم ، لكان ذلك خُسراناً مُبيناً . فكيفَ ومَن يسخَط أضعافُ من يَرضى ، وهِجَاء الساخِط أضرُّ من فَقد مَديح الراضى ؟ وعلى أنّهم إذا اعتَوَروك بمشاقِصهم وتداوَلوك بسِهامهم ، لم تَرَ مِمَّن أرضَيته فى إسخاطهم أحداً يناضِل عنك ولا يُهاجى شاعراً دونَك ، بل يخليك غَرَضاً لِسهامهم ودَريئة لنِبالهم ، ثم يقول : وما كانَ علَيه لو أرضاهم ؟ . فكيف يُرضيهم ، ورِضى الجميع شَىء لا يُنال ؟ وقد قال الأوّل : وكيف يتّفق لكَ رِضى المختلِفين ؟ وقالوا : منعُ الجميع أرْضى للجَميع .

إنى أحذِّرك مَصَارع المخدُوعين ، وأرفعُك عَن مضاجع المغْبونين . إنّك < لست > كمن لم يزلْ يقاسِى تعذّر الأمور ، ويتجرع مرار العَيْش ، ويتحمَّل ثقلَ الكدّ ،

(٦) سحرا ك : لسحرا (فان فلوتن) — (١٣) فى إسخاطهم ك : بإسخاطهم (فان فلوتن)
(١٧) مصاريع ك — < لست > (مرسيه) : ليست بالأصل — (١٨) مرارة (فان فلوتن) .

(٦) « ان . . . صحرا » البيان والتبيين ١ : ٦١ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ٢ : ١٨ — (٨) « لا خلابة » النهاية لابن الأثير ١ : ٣٤٥ — (١٦) « منع . . . للجميع » عيون الأخبار ٢ : ٤ .

ويَشْرَب بكأس الذلّ ، حتى كاد يمرَن على ذلك جلدُه ويسكنُ عليه قلبه . وفقرُ مثلِك مُضاعَف الألم ، وجزَع مَن لم يعرف الألم أشدّ . ومن لم يزل فقيراً فهو لا يعرفُ الشامتين ، ولا يدخُله المكروه من سُرور الحاسدين ، ولا يلام على فَقْره ، ولا يصيرُ مَوْعِظة لغيره ، وحديثاً يبقَى ذكرُه ، ويلعنهُ بعد المَمات وَلَده .

دَعنى* من حِكايات المستأكلين ورُقى الخادِعين ، فما زال الناسُ يحفَظون أموالَهم من مواقع السَّرَف ، ويجنِّبونها* وُجوه التبذير . ودَعْنى ممّا لا نراه إلا فى الأشعار المتكلّفة والأخبار المولّدة والكُتُب المَوْضوعة ، فقد قال بعضُ أهل زَماننا : « ذهبت المكارم إلا من الكتُب » . فخذ فيما تعلَم ، ودَع نفسَك ممّا لا تعلَم .

هل رأيتَ احداً قطّ أنفقَ ماله على قوْم كانَ غِناهم سَبَبَ فقره أنّه سلّم عليهم حين افتقر فردوا عليه* فضلا على غَير ذلك ؟ أو لستَ قد رأيتَهم بَيْن محمِّق ومحتجب عنه ، وبين من يقول : فهلّا أنزل حاجتَه بفلان الذى كان يفضّله ويقدّمه ويؤثره ويخصُّه ؟ ثم لعلّ بعضَهم أن يتجنّى عليه ذنوباً ليجعلَها عُذراً فى مَنعه وسَبَباً إلى حِرمانه .

قال الله جلّ ذِكرُه : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » . فأنا القائمُ عليك بالموْعظة والزَّجر والأمر والنَّهى ، وأنت سالِم العقل والعِرض ، وافِر المال حَسَن الحال . فاتّقِ أن أقوم غداً على رأسِك بالتقْريع والتّعْيير وبالتوبيخ والتأنيب ، وأنتَ عليلُ القلب مختلُّ العرض ، عَديم من المال سيّ* الحال .

---

(٥) ودعنى ك ، ودعنى (فان فلوتن) — (٦) ويجنبونها < من > (فان فلوتن)
(١٠) [فردوا عليه] (فان فلوتن)

(٧ — ٨) « ذهبت . . . الكتب » الحيوان ١ : ٥٢ ط الحلبى — (١٣ — ١٤) « يوم . . . المون » سورة القلم : ٤٣ — ٤٣

ليسَ جَهد البلاء مدَّ الأعناق وانتظارَ وَقْع السيوف ، لأنَّ الوقتَ قصير والحسَّ مغمور. ولـكنَّ جهد البلاء أن تظهرَ الحيلة وتطول المدة وتعجز الحيلة ، ثم لا تعدَم صَديقاً مؤنِّباً وابنَ عمّ شامِتاً ، وجاراً حاسداً * ، ووليا قد تحوَّل عدوًّا ، وزوجَة مختلِعة ، وجارية مستَبيعة ، وعبداً يحقِرك وولداً ينتهرُك . فانظر أين موقِع فوْت الثناء من مَوقع ماعَددنا * عليك من هذا البلاء .

على أنَّ الثناء طَعْم ولعلك ألا تطعمَه ، والحمدَ أَرزاق ولعلك أن تحرَمَه ، وما يَضِيعُ مِن إحسان الناس أكثر . وعلى أن الحفظَ قد ذهبَ بموت أهله ألا ترى أنَّ الشِعرَ لما كَسَد أفحم أهله ؟ ولما دخل النقصُ على كلِّ شيء أخذ الشعرُ منه بنصيبه ؟ ولما تحوَّلت الدولة فى العَجَم ، والعَجَمُ لا تحوط الأنسابَ ، ولا تتحفَّظ المقامات . لأنَّ من كان فى الرِيف والـكِفايه ، وكان مَغْموراً بسُـكر الغِنَى ، كَثُر نِسيانه وقلَّت خَواطره ، ومَن احتاجَ تحرّكت همّته وكثُر تنقيره . وعيبُ الغنى أنه يُورث البلدة * . وفَضيلة الفقر أنه يبعَثُ الفِـكر . وإن أنتَ صحبتَ الغنى بإهمال النَفس أسكرك الغنى ، وسُـكر الغِنى شِيئَة * المُسْتأ كِلين وتَضْرِية * الخدّاعين وإن كنتَ لا ترضَى بحظّ النائم وبعَيْش البهائم ، وأحبَبْت أن تجمَع مع تمام نفس المثرى ، ومع عزّ الغِنى وسرور القدرة ، فِطنةَ المخفِّ وخواطِر المقل ، ومعرِفة الهارب واستِدْلال الطالِب ، اقتصدْتَ فى الإنفاق ، وكنتَ مُعِدًّا لِلحِدثان ، ومحترِساً من كلِّ خَدّاع .

ليستْ * تبلغُ حِيَلُ لصوص النهار ، وَحِيَلُ سرّاق الليل ، وحيلُ طرّاق البُلدان ، وحيلُ أصحاب الـكيمياء ، وحِيَلُ التجّار فى الأسْواق والصنّاع فى جَميع الصناعات ، وحيلُ أصحاب الحروب ، حيلَ * المستأ كِلين والمتكسِّبين . ولو جمعت الجفر * والسِحر

---

(٣) حاسراً (فان فلوتن) — (٤) ما عندنا (فان فلوتن) — (١١) البلادة (فان فلوتن) — (١٣) شيئة : سة ك — وتهمة (فان فلوتن) ، وتهرمه ك — (١٧) لست (فان فلوتن) — (١٩) وحيل ك — الحفر : الخمر ، ك . الخمر (فان فلوتن) .

(١ — ٤) « ليس . . . . ينتهزك » معجم الأدباء لياقوت ٦ : ٥٨ ط هندية .

(١١ — ١٢) « وعيب . . . الفكر » عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ .

والتمائم والسمّ ، لكانت حِيَلهم فى الناس أشدّ تغلغُلا ، وأعرضَ وأسرى فى عُمق البدن ، وأدخَل إلى سُوَيداء القلب وإلى أمّ الدِّماغ وإلى صَميم الكبِد ولهى أدقّ مَسلكًا وأبعدُ غاية، من العِرق السارى والشبه النازع ، ولو اتّخذتَ الخيطان الرفيعة الثخينة والأقفالَ المحكَمة الوثيقة ، ولو اتّخذتَ المماركَ والجواسقَ والأبوابَ الشِّداد ، والحرَسَ المتناوبين بأغلظ المؤَن وأشدّ الكُلَف ، وتركتَ التقدّم فيما هو أحضَر ضَرراً وأدوم شرًّا ولا غرمَ عليكَ فى الحراسة فيه ، ولا مشقّة عليكَ فى التحفظ منه .

إنك إن فتحتَ لهم على نَفْسك مِثلَ سَمِّ الخياط ، جعلوا فيه طَريقاً نهجاً ولقماً رَحباً فأحكِم بابَك ، ثم أدِم إصفاقَه ، بل أدم إغلاقه ، فهو أولى بك . بل إن قدَرت على مُصْمَت لا حيلةَ فيه فذلك أشبَهُ بحَزمك . ولو جعلتَ الباب مُبْهَماً والقفل مُصْمَتاً لتسوّروا عليك من فَوقك، ولو رَفَعت سَمْكه إلى العيّوق لنقبوا عليك من تحتك . قال أبو الدرداء: « نعمَ صَوْمعة المؤمن بيتُه » . قال ابن سيرين[٥] : « العُزلة عبادة » .

وحلاوة حديثهم تدعو إلى الاستِكْثار منهم ، وتدعو إلى إحضار غرائبِ شَهَواتهم . فمن ذلك قولُ بعضهم لبعضِ أصحابه : « أكلَ رِخلة ، وشَرِبَ مِشْعلا ، ثم تجشَّأ واحدة لو أن عليها رحاً لطَحَنتْ » . ومن ذلك قولُ الآخر ، حينَ دَخل على قوْم وهم يَشربون ، وعندَهم قِيان ، فقالوا : « اقترِح أىّ صَوت شِئتَ ؟ » ، قال : « أقترحُ نشيشَ مقلى » . ومن ذلك قَولُ المدينى : « من تصبَّح بسَبْع مَوزات ، وبقدَح من لبن الأوَارِك تجشَّأ بَخورَ الكعبة » . ومن ذلك قولُهم لبعضِ هَؤلاء ، وقدّامَهم خبيص : « أيّما أطيب ،

---

(٤) المارق ، كذا فى ك ، ولعلها : المخازن – (٧) لقا ك – (١٢) [و] تدعو ك
(١٣) واشرب ك . – (١٦) الأوراك ك .

(١٠ – ١١) « وقال أبو الدرداء . . . . بيته» ذُكر الدر ٢ : ١٧٠ مخطوط – (١٤ – ١٦) « ومن ذلك . . مقلى » انظر العقد الفريد ٤ : ٢٤٢ ط الأزهرية ، ١٩١٣ م – (١٦ – ١٧) « من تصبح . . . . الكعبة » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٨ .

هذا أو الفالوذج أو اللوزينج * ؟ » ، قال : « لا أقضى على غائب » . ومن ذلك قولُ أبى الحارث جُمَّين لبَعض الملوك : « جعلتُ فداك أىُّ شىء فى تِلك السَّلة ؟ » ، قال : « بظر أمّك » ، قال : « فأعضَّنى به » . ومن ذلك كلامُ الجارود بن أبى سبرة لبلال بنِ أبى بُردة ، حين قال له: « صِف عبدَ الأعلى وطَعامه » قال : « يأتيه الخبّاز فيمثُل بين يديه فيقول : ما عندَك ؟ فيقول : عِندى جَدْى كذا ، وعَناق كذا ، وبطّة كذا ، حتى يأتىَ على جميع ما عندَه » . قال: « وما يدعوه إلى هذا؟»قال : « ليقتصِرَ كلُّ امرئٍ فى الأكل ، حتى إذا أتى بالذى يَشتَهى بلَغ منه حاجتَه » . قال : « ثمَّ ماذا ؟ » . قال : « ثمَّ يؤتى بالمائدة *فيتسمون ويتضايق ويحدُّون ويعذِّر ، حتى إذا فتروا خوّى تخوِيَةَ الظليم،وأكل *أكلَ الجائع المقرور » . وقال آخر : « أشتهى ثريدَة دَكناء من الفُلفُل ، ورقطاء من الحِمَّص ، ذاتَ حِفافين من اللَّحم ، لها جَناحان من العُراق ، أضربُ فيها ضَرْبَ اليتيم عندَ وصىِّ السوء » . وسُئل بعضُهم عن حُظوظ البُلدان فى الطعام ، وما قُسِم لكلِّ قَوم منه،فقال : « ذهبت الرُّوم بالحشو والحسو * ، وذهبت فارس بالبارد والحلو » . وقال عمر:«لفارس الشَّفارق والحُموض » ؛ وقال دَوْسر المدينى : « لنا الهرائس والقَلايا ، ولأهل البَذْو اللبأ والسِّلاء والجراد والكَمْأة والخبزة فى الرائب والتمرُ بالزبد » . وقد قال الشاعر :

ألا ليتَ خُبزًا قد تسَرْبَل رائباً وخَيْلًا من البرنىِّ فرسانُها الزُبد

ولهم البَريقة * والخلاصة والحَيْس والوطيئة * . وقال أعرابىٌّ : « أتينا بُرّ كأفواه

---

(١) [أو اللوزينج] (فان فلوتن) — (٨) فيتضايقون حتى نحوى تخوية الظليم فيجدون ويهزل حتى إذا افتروا أكل ك ؛وقارن النص فى البيان والتاج إلخ — (١٢) بالحشم والحشو ك ، بالجشم (فان فلوتن) (١٦) البرمة ك — الوطئه ك .

(١٧٨ : ١٧ — ١٧٩ : ١) « ومن ذلك . . . غائب » الحيوان ٥ : ١٩٢ — ١٩٣ ط الحلبى ، عيون الأخبار ٣ : ٢٢٩ — (٣ — ٩) « ومن ذلك . . . المقرور » البيان والتبيين ١ : ١٨٦ ط الفتوح الأدبية ، التاج ص٢٠ ط دار الكتب المصرية ، العقد ٢ : ٤٥٧ ط لجنة التأليف ، ٤ : ٢٩٤ ط الأزهرية — (٩ — ١١) « وقال آخر . . . السوء » عيون الأخبار ٣ : ١٩٨ ، العقد الفريد ٣ : ٤٨٤ ط لجنة التأليف ، ٤ : ٢٩٤ ط الأزهرية — (١١ — ١٢) « وسئل . . . والحلو » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٤ .

(١٥) « ألا ليت . . . بالزبد » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٢ ، العقد الفريد ٦ : ٢١٣ ط لجنة التاليف .

النِفْران ، فخبزنا منه خُبزةَ زيت فى النار : فجعلَ الجمرُ يتحدَّر عنها تحدُّر الحشو
< عن > * البطنان ، ثم ثردَها فجعل الثريدُ يجُول فى الإهالة جَوْلان الضبعان فى الصَّفِرة.
٣ ثم أتانا بتَمْر كأعناقِ * الورلان ، يوحل فيه الضِّرس» . * وعيبَ السويق < بحضرة أعرابى
فقال : < لاتعبه > ،فإنه* من عدد المسافر ، وطعام العَجلان، وغِذاء المبَكِّر* ، و بلغة
المريض ، ويَسْرو* فؤاد الحزين ، ويردّ من نفس المحدود،* وجيّد فى التّسمين ومنعوتٌ
٦ فى الطِّب . قَفاره يحلو البلغم ، ومسمُونه يُصَفِّى الدم . إن شئت كان ثريداً ، و إن شئت
كان خبيصاً ، و إن شئت كان طعاماً ، و إن شئت كان شَراباً » . وقيل لبعض هؤلاء
اللعامِظة والمستأكلين والشناغيف والمفقِّعين* ، ورُئى سَميناً : « ما أسمنك ؟ » ، قال :
٩ « أكلى الحارَّ ، وشُربى القارَّ ، والاتِّكاء على شِمالى . وأكلى من غَيْر مالى » . وقد
قال الشاعر :

و إن امتلاءَ البطن فى حَسَب الغنى قليلُ الغَناء وهو فى الجِسم صالح

١٢ وقيل لآخر : « ما أسمنك ؟» ، قال: « قلة الفِكرة ، وطول الدَّعة ،والنوم على الكِظَّة ».
وقال الحجّاج للفَضبان بنِ القبعثرى : «ما أسمنَك ؟ » قال : «القَيْد والرتعة ،ومَن كان فى
ضِيافة الأمير سَمِن » . وقيل لآخر :«إنك لَحسن السَّحنة» ! قال : « آكل لُبابَ البُرّ ،
١٥ وصِغار المَعز ، وأدَّهن بخام البنفسج ، وألبس الكتّان » .

---

(١) رميت (مرسيه) ، قارن فى هذا قول الشاعر (عيون الأخبار ٤ : ٨٨) :

انخ فاختبز خبزاً إذا اعتركَ الهوى بزيت لكى يكفيك فقد الحبائب

(٢) — < عن > (فان فلوتن) : ليست بالأصل—(٣) كأعيان(فان فلوتن)— (٣–٤) وعيب السويق فانه ك ، ونعت السويق بانه (فان فلوتن) ، قارن نص عيون الأخبار — (٤) المتكره ك — (٥) يشد ك ، قارن نص الأمالى والمخصص — وجيد فى السمين ك — (٨) والشناغيف : والشفافيق ك ، والسفافيق ك (فان فلوتن) . وانظر أدى شير ١٠٢ — والمقفعين ك .

---

(٣) « ثم أتانا . . . الضرس » عيون الأخبار ٣ : ٢٠١ — (٣ — ٧) « وعيب . . . شراباً » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٦ ، الأمالى ٢ : ١٩٥ ط دار الكتب ، المخصص ٥ : ٩ ، محاضرات الراغب ١ : ٢٩١ — (٧ — ٩) « وقيل . . . مالى » عيون الأخبار ٣ : ٢٢٤ — (١١) « وإن . . . صالح » محاضرات الراغب ١ : ٣٠٢ — (١٢ — ١٥) « وقيل . . . الكتان » عيون الأخبار ٣ : ٢٢٤ — ٢٢٥ .

والله لو كان من يسأل يعطى لما قام كَرَمُ العطيّة بلؤم المسألة . ومدار الصَّواب على طِيب المكسبة ، والاقتصاد فى النفقة : وقد قال بعضُ العرَب : « اللهمَّ إنى أعوذُ بكَ من بعض الرزق » حين رأى نافِجة من ماله ، من صَداق أمّه .

وأىُّ سائل كان ألحفَ مسألةً من الحُطَيئة ولا ألأم ؟ ومن ألأم من جَرير بن الخَطَفى وأبخَل ؟ ومن أمنعُ من كثيِّر ، وأشحُّ من ابن هَرمة ؟ ومن كان يشقُّ غبار ابن أبى حفصة ؟ ومن كان يَصْطَلى بنار أبى العتاهية ؟ ومن كان كأبى نُواس فى بُخله ، أو كأبى يعقوب الخُرَيمى فى دِقة نظره وكثرة كسبه ؟ ومن كان أكثرَ نحرًا لجَزُرة لم تخلق من ابنِ هرمة ، وأطعنَ برُمح لم ينبُت ، وأطعَم لطعام لم يُزرع ، من الخرَيمى ؟ فأين أنت عن ابن يسير ؟ وأين تذهبُ عن ابن أبى كريمة ؟ ولم تقصِّر فى ذكر الرقاشى ومن لم يذكر شره ؟

والأعرابىُّ شرٌّ من الحاضِر . سائل جبّار ، وثابة ملّاق . إن مدح كذَب ، وإن هجا كذب ، وإن أيس كذَب ، وإن طَمِع كذب . لا يقرَبهُ إلا نَطِف أو أحمق ، ولا يعطيه إلا من يحبّه ، ولا يحبُّه إلا من هُو فى طِباعه .

ما أبطأكم عن البَذل فى الحقّ ، وأسرَعكم إلى البذل فى الباطل . فإن كنتم الشعراء تفضّلون ، وإلى قولهم ترجِعون ، فقد قال الشاعر :

قليلُ المـال تصلحُه فيبقَى ولا يبقى الكثير على الفساد

وقد قال الشمّاخ بن ضِرار :

لمالُ المرء يصلحُه فيغنِي مفاقرَه أعفُّ من القنوع

---

(٤) وألأم (فان فلوتن) — [من] ك — (٩) ابن بشير ك — [بن] ك — (١٠) [من] (فان فلوتن) — شره (فان فلوتن) : سر ك — (١٢) سب (فان فلوتن) — لايقربه (مرسيه) : لايسرقه ك — . لايعرفه (فان فلوتن) .

(١٦) « قليل . . . الفساد » الحيوان ٣ : ٤٧ ط الحلبى . الأغانى ٢١ : ٢١٠ ، نهاية الأرب للنويرى ٣ : ٦٤ — (١٨) « لمال . . . القنوع » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٢٥٤ ط ١٣٥٢ هـ .

وقال أحَيحة بن الجلاح(٥) :

استغن أو متْ ولا يغرُرك ذو نَشب ... من ابنِ عمّ ولا عمّ ولا خال
إنى أكِبُّ على الزَوْراء أعمُرُها ... إنّ الكريمَ على الأقوامِ ذو المال

وقال أيضاً :

استغنِ عن كلِّ ذى قُربى وذى رَحِم ... إنّ الغنىَّ من استَغنى عنْ الناس
والبس عَدوَّك فى رِفق وفى دَعة ... لباسَ ذى إربة للدهر لبّاس
ولا تغرَّنك أضـــغان مزمَّلة ... قد يضرب الدبرِ الدامى بإحلاس

وقال سهل بن هارون :

إذا امرُؤ ضاق عنّى لم يضِق خُلقى ... من أن يرانى غنيًّا عنه باليـاس
فلا يَرانى إذا لم يَرْع آصِرتى ... مُستمرياً دِرَاَ منه بإبـاس
لا أطلب المـال كى أغنَى بفضلته ... ما كان مطلبه فقراً إلى النـاس

وقال أبو العتاهية :

أنتَ ما استَغْنَيتَ عن صا ... حبك الدهرَ أخوهُ
فإذا احتجْتَ إلَيـــه ... ســـاعة مجَّك فُوه

وقال أحَيحة بن الجلاح :

فلو أنى أشاء نعمتُ بالّا ... وبا كَرنى صَبوح أو نَشيل
ولاعَبنى على الأنماط لُعس ... على أنيابهن الزنجبيـل
ولـكنى خلقت إذًا لمـال ... فأبخلُ بعد ذلك أو أنيل

(٥) من ك .

(٣ – ٤) « استغن . . . المال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٠ – (٩ ، ١١) « إذا . . . باليامس» « لا أطلب . . . الناس » زهر الآداب للحصرى ٢ : ٢٥٩ ط مصطفى محمد – (١٣ – ١٤) « أنت . . فوه » الأغانى ٤ : ١١ ، نهاية الأرب ٣ : ٨٠ ط دار الكتب المصرية .

وقال آخر :

أبا مُصلحٍ أصلح ولا تكُ مفسِداً فإن صَلاح المال خَيْر من الفقر
ألم تر أن المرء يزدادُ عزّة على قَومه أن يَعلموا أنه مُثْرى ٣

وقال عرْوة بن الوَرد :

ذَرينى للغنى أسْـــعى فإنى رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقير
وأبعـــدُهم وأهونهم عليهم وإن أمسَى له حَسَبٌ وخِير ٦
ويقصيهُ النـــدىُّ وتزدَريه حَليلته وينهره الصـــغيرُ
وتلقَى ذا الغِنى وله جَـــلال يكاد فؤاد صاحِبـه يطير
قليـــلٌ ذنبُه والذنب جمٌّ ولـكن الغنى ربٌّ غفور ٩

وقال سَعيدُ بن زَيد بن عَمرو بن نُفيل** :

تلك عِرسان تنطقان على عمْـ ـد لى اليومَ قولَ زور وهِتر
سالتانى الطلاقَ أنْ رأتا ما لى قليلا . قد جِئتمانى بنُكر ١٢
فلعلِّى أن يكثُر المالُ عندى ويُعرَّى من المغارِم ظهرى
ويرى أعبُدٌ لنـا وأواق ومناصيفُ من خَوادِم عشر
وتجرّ* الاذيالَ فى نعمة زو لٍ تقولان ضع عصاك لدهر ١٥
وَيَكأنْ من يكن له نَشَب يحـ ـبَبْ ومن يفتقِر يعشْ عيشَ ضرّ
ويجنّب سِرّ* النجىِّ ولـكـ ـنَّ أخا المال* مُحضَر كلّ سِرّ

(٢) أبا مصلح (فان فلوتن» — (٦) نسب (فان فلوتن) — (٧) ويقصيه ك : ويقصى فى (فان فلوتن) — (١٥) وتجر ك — (١٧) شرك — المال (البيان والتبيين) : الفقر ك .

(٢ — ٣) «أبا مصلح . . . مثرى» عيون الأخبار ١ : ٢٤١ . (٥ — ٩) «ذرينى . . . غفور» عيون الأخبار ١ : ٢٤١ — ٢٤٢ . شعراء النصرانية ص ٨٨٨ — (١١ — ١٧) — «تلك . . . سر» البيان والتبيين ١ : ١٩٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م ، الأغانى ١٦ : ٦٢ ط بولاق .

وقال الآخر :

وللمال مِنِّى جانبٌ لا أضيعه ... وللّهو مِنى والبَطالة جانب

وقال الأخنَس بن شِهاب(٢) :

وقد عشتُ دهراً والغواة صَحابتى ... أولئك إخوَانى الذين أصاحبُ
فأدَّيت عنِّى ما استعرتُ من الصبى ... وللمال منّى اليومَ راع وكاسِبُ

وقال ابنُ الذئبة الثقفى(٣) :

أطعتُ النفسَ فى الشَهَوات حتّى ... أعادتنى عَسيفاً عندَ عبد
إذا ما جئتُها قد بِعتُ عذقاً ... تعانِق أو تقبِّل أو تفدّى
فمن وجَد الغنى فليصطنِعه ... ذخيرته ويجهد كل جهد

وقال :

من يجمَع المالَ ولا يثب به ... ويترك العامَ لعام جَدبه
يهن على الناس هَوان كَلبه

وقد قيل فى المَثل : « الكدّ قبل المدّ » . وقال لقيط : « الغزو أدرّ للقاح وأحدّ للسلاح » . وقال ابن المعَافَى :

---

(٢) كتب فوقها فى الأصل بخط مغاير : وله — (٦) أذينه لك — (٧) عند لك : عبد (فان فلوتن) — (٨) عتقا لك — (١١) يثبه لك — (١٣) الكل (فان فلوتن) — القم ودار للفاح واحد للسلاح (فان فلوتن) — (١٤) أبو لك قارن النص فى ابن الفقيه (أحمد بن العافى) —

(٤ — ٥) « وقد . . . وكاسب » المفضليات ٤١٣ ، ٤١٤ ط أكسفورد ، ديوان الحماسة ١ : ٣٠٥ — ٣٠٦ — (٧ — ٨) « أطعت . . . تفدى» الأصمعيات ، ص ١٢٧ ، ط وأدر المعارف منسوبة إلى أحيحة بن الجلاح ؛ عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ — (١١ — ١٢) « من . . . كلبه » الحيوان ١ : ٢٥٤ ط الحلبى ، عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ .

إنّ التوانى أنكحَ العجزَ بنتَه وساق إليها حينَ زوّجها مهرا
فِراشاً وطيئاً ، ثمّ قال لها اتّكى فقَصْرُ كما لابدّ أن تلدَا الفقرا

وقال عثمانُ بن أبى العاص : « ساعةٌ لدنياك ، وساعة لآخرتك » . وقال رسُول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكم عن قِيلَ وقال ، وكثرة السُّؤال ، وإضاعة المال » ، وقال : « خيرُ الصَدقة ما أبقت غِنًى ، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السُفلى ، وابدأ بمن تعول » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلث والثلث كثير . إنّك إنْ تدَع وَلدك أغنياء خيرٌ من أن يتكففّوا الناس» ، وقال ابنُ عبّاس : « وددت أنّ الناس غضّوا من الثُلُث شيئاً ، لقول النبىّ عليه السلام : الثُلث والثلث كثير » ، وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « كَفى بالمرء إثماً أن يُضيع من يَقوت » . وأنتم ترَون أنّ المجد والكرَم أن أُفقِر نفسى بإغناء غَيْرى ، وأن أحوطَ عِيال غَيرى بإضاعة عِيالى . وقال فى ذلك ابنُ هَرمة :

كتاركة بيضَها بالعَراء وملبسةٍ بيضَ أخرى جَناحا

وقال آخر :

كمُفسدِ أدناه ومصلِح غيرِه ولم يأتَمِر فى ذاك أمرَ صلاح

وقال الآخر :

كمُرضِعة أولادَ أخرى، وضيّعت بنيها ، ولم ترقَع بذلك مَرقعا

---

(٢) لا تلد ك ، عندى لأن تلدا (فان فلوتن) . قارن النص فى عيون الأخبار — (٥) ما اعت عنا ك ما أبقى غنى (فان فلوتن) — (١٣) [و] لم ك

(١٨٤ : ١٣ — ١٨٥ : ٢) « وقد قيل . . . الفقرا » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ ، والبيتان فى كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٤٨ — (٤) « أنهاكم . . . المال » . صحيح مسلم (كتاب الأقضية) ٥ : ١٣١ — (٥) « خير الصدقة . . . تعول » صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢٠ : ٤ (٦ — ٧) « الثلث . . . الناس » صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢٠ : ٣ — ٤ ؛ صحيح مسلم ٥ : ٧١ — (٨ — ٩) « كفى . . . يقوت » النهاية لابن الأثير ٣ : ٣١٧ — (١١) « كتاركة . . . جناحاً » حماسة البحترى ص ١٧٠ ، الاغانى ٩ : ٤٤ ، نهاية الأرب ٣ : ٧٩ — (١٥) « كرضعة . . . مرقعاً » حماسة البحترى ص ١٧٠ ط الرحمانية ١٩٢٩ م .

وقال الله تبارك وتعالى : « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » ، وقال : « وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قل العَفْوَ » ، فأذِنَ فى العفو ، ولم يأذَن فى الجهد ، وأذِن فى الفُضول ولم يأذَن فى الأصول . وأراد كعبُ بنُ مالك * أن يتصدّق بماله ، فقال له النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « أمسِك عليكَ مالك » ، فالنبىُّ صلّى الله عليه وسلم يمنَعه من إخراج مالِه فى الصَدَقة ، وأنتم تأمرونه بإخراجِه فى السرَف والتبذير . وخرج غَيلان بن سَلمة * * من جميع مالِه فأكرهه عمرُ على الرجوع فيه ، وقال : « لو مِتَّ لرجمتُ قبرك ، كما يُرجم قبرُ أبى رغال » . وقال الله جلّ وعز : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله » . وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « يكفِيك ما بلّغك المحَلّ » . وقال : « ما قلّ وكفَى خيرٌ ممّا كثُر وألهى » . وقال الله تبارك وتعالى : « والّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفوا ولمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » . وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وقال الله جل ذكره : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » . ولذلك قالوا : « خَيرُ مالك مانفعَك ، < وخير الأمور > * أوساطها ، وسرُّ السير الحقحقة . والحسَنة بين السيِّئتين » ، وقالوا : « دينُ الله بين المقصِّر والغالى » ، وقالوا فى المثَل : « بينَهُمَا يرمى الرامى » ، وقالوا : « عليكَ بالسداد والاقتصاد ولا وكْس * ولا شطَط » ، وقالوا : « بين المُمْخَّة * والعجفاء » ، وقالوا : « لا تكن حلواً فتبتلَع

---

(٣) ملك (فان فلوتن) — (١٣) < وخير الأمور > : ساقطة فى الأصل — (١٥) كثير ك — (١٦) المنحة ك .

(١ — ٢) « ولا تبذر . . . الشياطين » سورة الاسراء : ٢٦ — ٢٧ — (٢) « ويسألونك . . . العفو » سورة البقرة : ٢١٩ — (٣ — ٤) « وأراد . . . مالك » محاضرات الراغب ١ : ٢٣٩ — (٧ — ٨) « لينفق . . . . الله » سورة الطلاق : ٧ — (١٠) « والذين . . . قواما » سورة الفرقان : ٦٧ — (١١) « إن المنبت . . . أبقى » نهاية الأرب ٣ : ٣ — (١٢ — ١٣) « ولا تجعل . . . محسوراً » سورة الإسراء : ٢٩ — (١٣) « خير . . . ما نفعك » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٢٥١ — « خير . . . أوساطها » مجمع الأمثال ١ : ٢٥٤ — (١٣ — ١٤) « شر السير الحقحقة » مجمع الأمثال ١ : ٣٧٢ — (١٦) « بين . . . والعجفاء » عيون الأخبار ١ : ٣٣١ .

ولا مرًّا فتلفَظ » وقالوا فى المثل : « ليسَ الرىّ عن التشافّ (١) » . وقالوا : «ياعاقِد اذكر حلاًّ » ، وقالوا : « الرشيف أنقَع للظمآن » . وقالوا : « القليل الدائم أكثر من الكثير المنقطِع » . وقال أبو الدرداء : « إنى لأستجمّ نفسى ببعض الباطل كراهةَ أن أحمل عليها من الحقّ ما يملّها » . وقال الشاعر :

وإنى لُحلو تعـــــترينى مَرارة وإنى لصعب الرأس غير جَموح

وقالوا فى عَذل المُصلح ، ولائِمة المقتَصِد : « الشحيح أعذر من الظالم » . وقالوا : « ليسَ من العَدل سُرعة العذل » ، وقالوا : « لعلّ له عذراً وأنتَ تلوم » ، وقالوا : « ربَّ لائم مُليم » ، وقال الأحنف : « ربَّ مَلوم لا ذنبَ له » . وقال : « إعطاء السائل تَضْرِية ، وإعطاء الملحِف مُشاركة » ، وقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « لا تصلح المسألةُ إلا فى ثلاث : فقرٌ مدقع ، وغُرم مفظِع ، ودَم موجِع » . وقال الشاعر :

الحرّ يُلحى والعصا للعبـد وليسَ للملحِف غـيرُ الردّ

وقالوا : « إذا جدّ السؤال جَدّ المنع » ، وقالوا : « احذَر إعطاء المخدُوعين ، وبذلَ المغبُونين ، فإنّ المغبون لا محمود ولا مأجور » ، ولذلك قالوا : « لا تكن أدنى العَيرين إلى السهم » يقول : إذا أعطيتَ السائلين مالَك صارتْ مقاتِلُك أظهر لأعدائك من مقاتِلهم : وقالوا : « الفِرار بقراب أكيَس » ، وقال أبو الأسود : « ليس من العزِّ

(١) عز النشاف ك .

(١٨٦ : ١٦ – ١٨٧ : ١) « لاتكن . . . فتلفظ » عيون الأخبار ١ : ٣٢٨ – (١) « ليس . . . التشاف » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٣٩ ط القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ؛ تذكرة ابن حمدون ، ط النهضة ١٩٢٧ م (منسوباً إلى سهل بن هارون) – (٣–٤) « إنى لاستجم . . . ما يملها » الحيوان ٣ : ٧ ط الحلبى، نثر الدرر ٢ : ١٧٠ – (٦) « الشحيح . . . الظالم »عيون الأخبار ٢ : ٣٤–(٧–٨) « لعل . . . مليم» الحيوان ١ : ٢٣ ط الحلبى – (٨) « رب . . . له » نهاية الأرب ٣ : ٣٢ – (٩–١٠) « لاتصلح . . . موجع» النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٣٣ ط الخيرية – (١١) « الحر . . . الرد » الأغانى ٣ : ١٧٥ كتمان السر وحفظ اللسان (مجموع رسائل الجاحظ) ص ٤٨ ط لجنة التأليف ، نهاية الأرب ٣ : ٧٩ (لبشار)– (١٢) « إذا جد . . . المنع » كتمان السر (مجموع رسائل الجاحظ) ٤٨ – (١٥) « الفرار بقراب أكيس » مجمع الأمثال ٢ : ٢٢ .

أن تتعرّض للذل ، ولامن الكرَم أن تستدعى اللؤمَ ». ومن أخرَج مالَه من يدِه افتقَر ، ومن افتقَر فلا بدَّ له من أن يضرَع ، والضَرَع لؤم . وإن كان الجُود شقيقَ الكرم ، فالأنفَة أولى بالكرَم . وقد قال الأوّل : « اللهم لا تثر لى ماء سَوء فأكونَ امرأ سَوء » . وقد قال الشاعر :

واخط مع الدهر إذا ما خطا واجرِ مع الدهر كما يجرى

وقد قال الآخر :

يا ليتَ لى نعلين من جِلد الضَبُع * كلّ الحِذاء يحتذى الحافى الوَقِع

وقد صدق < قول القائل > * : « من احتاجَ اغتفرَ * ، ومن اقتَضَى تجوَّز * » ، وقيل **لديسموس * : « تأكلُ فى السوق ؟ » قال : « إن جاع < ديسموس > * فى السُوق أكل فى السوق » ، وقال : « من أجدبَ انتَجَع ، ومن جَاع خشع * » ، وقال : « احذَروا نِفار النعمة فإنها نَوار * . وليس كلّ شارد بمردود ، ولا كل نادٍّ بمصرود * » وقال علىٌّ بن أبى طالب : « قلّ ما أدبرَ شىء فأقبل » . وقالوا : « ربَّ أكلة تمنَع أكلات . وربَّ عَجَلة تهب رَيْثا » ، وعابوا من قال : « أكلة ومَوتة » : وقالوا : « لاتطلب أثرا بعد عَين » . وقالوا : « لا تكن كمن تغلِبه نفسُه على ما يظنّ ، ولا يغلِبها على

---

(٧) < وشركا من اسمها لا تنقطع > (فان فلوتن) عن البيان والتبيين — (٨) < قول القائل > (فان فلوتن) ساقطة بالأصل — اعمر ك — تجور ك — (٩) لديسموس ك : لريسموس (فان فلوتن) ، ديونيسيوس (دى جويه) — < ديسموس > : ساقطة بالأصل ، قارن نص الحيوان — (١٠) حشع ك ، جشع (فان فلوتن) — (١١) بوار ك — مصر وف ك .

---

(٥) « واخط . . . يجرى » البيان والتبيين ٤ : ٢١ ط لجنة التأليف ، الأمالى ٢ : ٢٠٥ ط دار الكتب الأغانى ٤ : ٨٨ (لأبى العتاهية) — (٧) « ياليت . . . الوقع » البيان والتبيين ٣ : ٧٤ ط ١٩٣٢ م ، الحيوان ٦ : ١٥٢ ط السامى ، الأمالى ١ : ١١٥ ، العقد ٣ : ٢٧٠ ، ط ١٩١٣ م ، معانى الشعر للأشنانداني ص ١١١ ط الترقى بدمشق ، ١٣٤٠هـ — (٨—٩) « وقيل . . . السوق » البيان والتبيين ٢ : ١٧٨ ط ١٩٣٢ ، الحيوان ١ : ٢٩٠ ط الحلبى — (١٠ — ١١) « احذروا . . . بمردود » نهج البلاغة ٢ : ١٩٨ ط ١٣٢١ هـ — (١٢) « قلما . . . فأقبل » نهج البلاغة ١ : ٥٤ ط ١٣٢١ هـ — (١٣ — ١٤) (لاتطلب . . . عين » نهاية الأرب ٣ : ٥٨ .

ما يَسْتَيْقن » . فانظر كيف تخرجُ الدرهمَ ، ولِمَ تخرجُه . وقالوا : « شرٌّ* من المرزئة سوءُ الخلَف » . وقال الشاعر :

إن يكن ما به أصبتَ* جليلا فذهابُ العَزاء فيـه أجلُّ ٣

ولأن تفتقِرَ بجائحة نازلة خيرٌ لك من أن تفتقر بجناية مكتَسَبة* . ومن كان سَبباً لذهاب وَفره ، لم تعدَمه الحسرةُ مِن نَفْسه واللائمةُ مِن غَيْره ، وقلّة الرَحمة وكثرة الشماتة ، مع الإثم الموبِق والهوانِ على الصاحِب . ٦

وذكر عُمر بن الخطّاب فِتيانَ قُرَيش وسَرَفهم فى الإنفاق ، ومُسابقتهم فى التبذير . فقال: « لحرفة* أحدِهم أشدُّ علىّ من عَيْلته » ، يقول : إن إغناء الفقير* أهوَن علىّ من إصلاح الفاسِد ٩ ولا تكنْ على نَفسِك أشأمَ من خَوْتعة ، وعلى أهلِك أشأم من البَسوس ، وعلى قَوْمك أشأم من عِطر منشِم . ومن سلّط الشَهواتِ على ماله ، وحكم الهوى فى ذاتِ يدِه ، فبقىَ حَسيراً ، فلا يلومنَّ إلا نفسَه . وطوبى لك يومَ تقدِر على قدم تنتفع به . وقال بعضُ الشعراء: ١٢

أرى كلَّ قوم يمنعونَ حريمهم وليسَ لأصحابِ النبيذ حريمُ

أخوهم إذا ما دارَت الكأسُ بينَهم وكلّهم رثُّ الوِصـال سَؤوم

فهـذا بيانى لم أقل بجَهالة ولـكنّنى بالفاسِـقينَ عليم

وقد كان هذا المعنى فى أصحاب النبيذ أوجد ، فأمّا اليوم فقد اسْتَوى الناس . قال ١٥ الأضبط بن قريع** ، لمّا انتقلَ فى القبائل ، فأساؤا جِوارَه ، بعدَ أن تأذّى ببنى سَعد : « بكلٍّ واد بنو سَعد » .

---

(١) أشد (فان فلوتن) – (٣) أصيب (فان فلوتن) – (٤) مكسية ك – (٨) لحرقه ك ، لحرافة (فان فلوتن) – الفقر ك .

---

(٣) « إن يكن . . . أجل » الحيوان ٦ : ١٧٢ ط السامى ، نهاية الأرب ٣ : ٨٣ – (٨) « لحرفة . . . عيلته » النهاية لابن الأثير ١ : ٢٥١ ، القاموس المحيط مادة ح ر ف – (٩) « أشأم من خوتعة » القاموس المحيط مادة خ ت ع – « أشأم من البسوس » الأغانى ٥ : ٣٥ – (١٠) « أشأم من عطر منشم » شرح ديوان زهير للشنتمرى ، شرح المعلقات للتبريزى (١٢ – ١٤) – « أرى . . . . عليم » العقد الفريد ٤ : ٣٢٠ – ٣٢١ ط الأزهرية ١٩١٣ م – (١٥ – ١٧) « قال . . . سعد » الحيوان ١ : ٣٥٨ ط الحلبى.

خذ بقولى ، ودع قولَ أبى العاص . وخذ بقولِ من قال : « عشَّ ولا تغترَّ » و بقول من قال : « لا تطلب أثراً بعدَ عين » ، و بقول مَن قال : « املأْ حُبّك من أول مَطرة » و « دَع ما يُريبك إلى مالا يُريبك » . أخوك من صَدقك ، ومن أتاك من جهة عقلِك ، ولم يأتِك من جهة شَهْوتِك . وأخوك مَن احتَمل ثِقَلَ نصيحتك فى حظِّك ، ولم تأمن لائمته إياك فى غَدِك * . وقال الآخر :

إنّ أخاك الصدْقَ من لم يخدَعك ومن يضير نفسَـــه لينفعك

وقد قال عَبيد بن الأبرص :

واعلَمَن علمـاً يقيناً أنّه ليسَ يُرجى لكَ من ليسَ مَعَك

ولا تزالُ بخير ما كانَ لك واعِظ من نفسك ، وعَيْن من عقلِك على طِباعك ، أو ما كانَ لك أخٌ نَصيح ووزير شَفيق ، والزَوْجة الصالِحة عَوْن صدق . والسعيدُ من وُعِظ بغَيْره . فإن أنتَ لم تُرزَق من هذه الخِصال خَصلة واحِدة ، فلا بدَّ لك من نَكبة موجعة يبقى أثرُها ويلوح * لك ذِكرها . ولذلكَ قالوا : « خيرُ مالِك ما نَفَعك » ، ولذلك قالوا : « لَمْ يَذْهب من مالِك ما وَعَظك » .

إنّ المال مَحْروص عليه ، ومطلوبٌ فى قَعْر البحار وفى رؤس الجِبال وفى دَغل الغياض ، ومطلوبٌ فى الوعورة كما يُطلبُ فى السهولة ، وسواء فيها بطون الأودية وظهور الطرق ومشارق الأرض ومَغاربها . فطلبت بالعزّ وطلبت بالذلّ ، وطلبت بالوفاء وطلبت بالغدر ، وطُلبت بالنسك كما طلبت بالفتك ، وطلبت بالصدق وطلبت بالكذِب ، وطلبت بالبذاء وطلبت بالمَلَق . فلم تترك فيها حيلة ولا رقية ، حتى طُلبت بالكفر بالله كما طُلبت بالإيمان ، وطُلبت بالسُخف كما طلبت بالنُبل . فقد نصَبوا الفخاخ بكلّ موضع ،

(٥) خير ك (مرسيه) — (١٢) ويلوح (مرسيه) — (١٧) كما طلبت (فان فلوتن) .

(١) « عش ولا تغتر » النهاية لابن الأثير ٣ : ١١٢ ط الخيرية — (٣) « ودع . . . لا يريبك » النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٥ — (٦) « إن . . . لينفعك » عيون الأخبار ٣ : ٤ .

ونصَبوا الشرك بكل ريع* . وقد طلبك من لا يقصِّر دون الظَفَر ، وحَسَدك من لا ينام دُونَ الشِفاء . وقد يهدأ الطالبُ الطَوائل ، والمطلوبُ بذاتِ نفسه ، ولا يهدأ الحَريص .

يقال إنه ليسَ فى الأرض بلدَة واسِطة ، ولا نائية* شاسعة* ، ولا طرَف من الأطراف ، إلا وانتَ واجِد بها المدينى والبصرى والحِيرى* وقد ترى شَنَف الفقراء للأغنياء ، وتسرُّع الرغبة إلى الملوك ، و بغضَ الماشى للراكِب ، وعمومَ الحسَد فى المتفاوِتين . فإن* لم تستعمِل الحذَر ، وتأخذ بنصيبك من المداراة ، وتتعلم الحزم وتجالسَ أصحابَ* الاقتِصاد ، وتعرّف الدهور ودهرك خاصّة ، وتمثِّل لنفسك الغيرَ حتى تتوهَّم نفسك فقيرًا ضائعاً ، وحتى تَتهم شمالك على يمينك ، وسمعَك على بَصرِك ، ولا يكون أحدٌ اتهم عند نفسك من ثقتك ، ولا أولى بأخذِ الحذَر منه من أمينك ، اختطفت اختطافاً* واستلبت استلاباً ، وذوَّبوا* مالك وتحَيّفوه ، وألزموه السل ولم يداوُوه .

وقد قالوا : تلَّى* المالَ ربّه و إن كان أحمق ، فلا تكوننَّ دون ذلك الأحمق. وقالوا : لاتعدم* امرأة صَناع* ثلة ، فلا تكوننَّ دون تلك المرأة* . وقد قال الأول فى المال المضيَّع المسلط عليه شَهَوات العِيال : ليس لها راع ولكن خلّية . وليسَ مالك المال المعفَى من الأضراس ، فيقال فيه : مرعًى ولا أكولة ، وعُشب ولا بعيرَ* . فقصاراك مع الإصلاح أن يقوم بملء* بطنك و بحقائقك* ، و بما ينُوبك . ولا بقاء للمال على قلّة الرعى وكثرة الحَلْب ؛ فكِس فى أمرك ، وتقدَّم فى حفظِ مالك ، فإن من حفِظ مالَه فقد حفِظ الأكرمين . والأكرمان الدين والعِرض . وقد قِيل : « للرَمْى يُراش السهم . وعِند النِطاح تغلِبُ القَرناء » . و إذا رأت العرب مستأكِلا وافق غمرا* قالت : « ليسَ عليك

---

(١) ريع ك — (٣) بادية (فان فلوتن) — سماسمه ك — (٤) والحيرى ك . قارن عبارة الهمذانى فى البلدان ص ٥١ : ٥ « ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى لابد أن يجد فيهما بصريا أو حميريا » — (٥) و إن ك — (٩) واحتفظت احتفاظاً (فان فلوتن) — (١٠) ذوبوا (فان فلوتن) — (١١) بلى ك ، ابلى (فان فلوتن) — (١٢) من ضياع ك ؛ [امرأة] صناع (فان فلوتن) — المراة ك ، الصناع (فان فلوتن) — (١٤) و [لا] بعير ك — (١٥) يقومك ك — وبحوائجك (فان فلوتن) — (١٨) عمداً (فان فلوتن)

(١ — ٢) « وقد . . . الشفاء » عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ — (١٦ — ١٧) « فان . . . والعرض » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ .

نسجُه ، فاسحق وخرّق (١) » وقد قال رسول الله صلى الله وسلم : الناسُ كلّهم سَواء كأسنان المُشط ، والمرء كثير (٢) بأخيه . ولا خير لك فى صُحبة من لا يرى لك مثلَ ما يرى لنفسه .

فتعرَّف شأن أصحابِك ، ومعنى جلسائك : فإن كانوا فى هذه الصِفة فاستعمل الحزم ، وإن كانوا فى خلاف ذلك عملتَ على حَسَب ذلك .

إنى لستُ آمُرك إلا بما أمرَك به القرآن : ولستُ أوصيك إلا بما أوصاك به الرسُول ، ولا أعظُك إلا بما وعَظ (٥) به الصالحُون بعضهم بعضاً . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « اعقِلْها وتوكّل » ، وقال مطرِّف بن الشخير (٦) : « من نام تحت صَدَف مائل وهو ينوى التوكل ، فليرْمِ بنفسِه من طمار وهو ينوى التوكّل » . فأين التوقّى الذى أمر الله به ؟ وأينَ التغريرُ الذى نهى عنه ؟ ومن طمِع فى السلامة من غير تسلّم فقد وَضع الطّمع فى موضِع الأمانىّ . وإنما ينجز (٧) الله الطمعَ إذا كان فيما أمر به ، وإنما يحقّق من الأمل ما كان هو المسبِّب له . وفرَّ عُمر من الطاعون ، فقال له أبو عُبَيدة : « أتفرُّ من قَدَرِ الله ؟ » قال : « نعم إلى قدَر الله » ، وقيل له : « ينفعُ الحذَر من القدَر ! » ، فقال : « لو كان الحذَر لا ينفعُ لكان الأمرُ به لغواً ». فإبلاء العُذر هو (٨) التوكّل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال فى خصومة : حسبى الله : « أبلِ اللهَ عُذراً ، فإذا أعْجَزَك أمر فقل : حَسْبى الله » . وقال الشاعر :

ومن يك مِثلى ذَا عِيال ومُقْتِراً من المال يطرَحْ نفسَه كلّ مطرَح
لُيبلىَ عذراً أو ليبلغَ حاجة ومُبلغُ نفس عذرَها مثل منجِح

---

(١) فاسحق وخرق (مرسيه) : فاسحب وحرق لك ، فاسحب وجر (الميدانى) — (٢) [كثير] (فان فلوتن) — (٧) ونظك ك — (١١) ينجز (فان فلوتن) . سحد ك — (١٤) هو ك : من (فان فلوتن)

(١٩١ : ١٨ — ١٩٢ : ١) « ليس . . . وحرق » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٣٨ ط ١٣٥٢ هـ .
(٨ — ٩) « من نام . . . التوكل » النهاية لابن الأثير ٣ : ٤٩ — (١٧ — ١٨) « من يك . . . منجح » عيون الأخبار ١ : ٢٣٨ (لاوس بن حجر) ، الأمالى ٢ : ٢٣٤ (لعروة بن الورد) .

وقال الآخر :

فإن يكن القاضي قَضَى غيرَ عادل فبعدَ أمور لا ألوم لهـا نَفْسي

وقال زُهَير البابيّ* : « إن كان التوكُّل أن أكونَ متى أخرجتُ* مالي أيقنتُ بالخَلَف ، وجعلتُ الخَلَف مالاً يرجِع في كِيسي ، ومتى مالم أحفظ أيقنتُ بأنه محفوظ ، فإني أشهدكم أني لم أتوكّل قط . إنما التوكّل أن تعلم أنك متى أخذتَ بأدَب الله أنك تتقلّب في الخِيَرة مجزى* بذلك* إمّاعاجلا وإما آجِلا » ، ثم قال : « فلم تجرَ* أبو بكر ؟ ولم تجرَ عمر ؟ ولم تجرَ عثمان ؟ ولم تجرَ الزُّبَير ؟ ** ولمَ تجر عبد الرحمن ؟ ** ولمَ علّم عمرُ الناسَ يتّجرون ، وكيفَ يشترون ويبيعون ؟ ولم قال عمر : إذا اشتريتَ حَملا فاجعله ضَخما ، فإن لم يبعه الخُبرُ باعه المنظر ؟ ولم قال عمر : " فرِّقوا بينَ المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين " ؟ ولم قال عُثمان ، حينَ سُئل عن كثرة أرباحه ، قال : " لم أردّ من ربح قطّ " ؟ ولم قيل : لاتشترَ عَيْباً ولا شَيباً* ؟ وهل حَجر عليّ بنُ أبي طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر** إلا في إخراج المال في غير حقّه ، وإعطائه في هواه ؟ وهل كان ذلك إلا في طلب الذكر ، والتماس الشكر ؟ وهل قال أحدٌ إن إنفاقَه كان في الخمور والقِمار ، وفي الفسولة والفُجور ؟ وهل كان إلا فيما تسمُّونه جوداً وتعدُّونه كرما ؟ ومن رأى أن يحجُر على الكرام لكرَمهم ، رأى أن يحجُر على الحلَماء لحلمهم . وأيَّ إمام بعدَ أبي بكر تريدون ؟ وبأيِّ* سلف بعد عليٍّ تقتدون ؟ » .

وكيفَ نرجو الوفاء والقيامَ بالحقِّ ، والصبرَ على النائبة ، من عندِ لعموظ مُسْتَأْكِل وملاّق مخادِع ومنهوم بالطعام شَرِه ، لا يُبالي بأيِّ شيء أخذ الدرهَم ، ومن أيِّ وجه

---

(٣) البابي (فان فلوتن) : التابي ك — خرجت ك — (٦) مجزى ، كذا (فان فلوتن) : محرى ك — نيتك (فان فلوتن) — تجرا ك (في الجميع) — (١١) سيبا ك — (١٥) وأى ك .

(٨ — ٩) « إذا . . . المنظر » عيون الأخبار ١ : ٢٥٠ — (٩) « فرقوا . . . رأسين » البخلا ص ١١ .

أصاب الدينار * ، ولا يكترثُ للمنة ولا يبالى أن يكون أبداً منهوماً منقوماً * عليه، وليسَ يُبالى إذا أكل كيفَ كان ذلك الطعام ، وكيف كان سببه وماحكمُه . فإن كان مالُك قليلا فإنما هو قوام عِيالك ، وإن كان كثيرًا فاجعَل الفاضِل عدة لنوائبك * . ولا يأمنُ الأيّام إلا المُضلّل ، ولا يغترُّ بالسلامة إلا المقلّل . فاحذر طوارِق البَلاء وخُدَعَ رجال الدهاء . سمنُك فى أديمك ، وغثُّك خيرٌ من سَمين غيرك لو وجدتَه ، فكيفَ ودونَه * أسَل حِداد وأبواب شِداد .

قالت امرأةٌ لبعضِ العرَب : « إن تزوَّجتَنى كفيتُك » ، فأنشأ يقول :

إذا لم يكن لى غيرُ مالك مسَّنى ... خَصاص و بانَ الحمدُ منى والأجر

وما خيرُ مال ليسَ نافعَ أهلِه ... وليسَ لشيخِ الحىِّ فى أمرِه أمر

وقال المعلُوط القريعى ** :

أبا هانئ لا تسأل الناسَ والتمس ... بكفَّيك ستر الله ، فالله واسِع

فلو تسأل الناسَ التراب لأوشكوا ... إذا قلتَ : هاتوا ، أن يملّوا فيَمنعوا

---

(١) الدنيا ك – ميعوما ك ، منعوما (فان فلوتن) – (٣) لعدة نوائبك ك – (٥) ودونه (فان فلوتن) : ودونها ك .

(٥) « سمنك فى أديمك » انظر مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٣٥٠ – (١١ – ١٢) « أباهانىء ... فيمنعوا » عيون الأخبار ٣ : ١٨٨ .

طرف شتى

ثم رجع الحديثُ إلى أحاديثِ البُخلاء و إلى طُرف معانيهم وكلامهم :

قال ابن حسّان : كان عندَنا رجلٌ مُقِلّ ، وكان له أخٌ مكثِر ، وكان مُفرِط البخل ، شديد النَفج . فقال له يوماً أخوه : « ويحك ،أنا فقيرٌ مُعيل ، وأنتَ غنىّ خفيفُ الظهر ، لا تعينُنى على الزمان ، ولا تواسِينى ببعض مالك ، ولا تتفرَّج لى عَن شىء ؟ والله ما رأيت قطّ ، ولا سمعتُ ، بأبخلَ مِنك » . قال : « ويحك ! ليس الأمرُ كما تظنّ ، ولا المالُ كما تحسب ، ولا أنا كما تقولُ فى البُخل ولا فى اليُسر . والله لو ملكتُ ألفَ ألفِ دِرهم لوَهَبتُ لك منها خمسَ مِائة ألفِ درهم . يا هؤلاء ، فرجلٌ يهب ضَربَةً* واحِدة خمس مائة ألفٍ يقالُ له بخيل ؟ »

وأما صاحبُ الثريدة البَلقاء ، فليسَ عجَبي من بُلقة ثريدته وسائرِ ما كان يظهرُ على خِوانه ، كعجَبي من شىء واحد ، وكيفَ ضبطَه وحَصَره وقَوىَ عليه . مَع كَثرة أحاديثه وصُنوف مذاهِبه . وذلك أنى فى كَثرة ما جالستُه ، وفى كَثرة ما كانَ يفتنّ فيه مِن الأحاديث، لم أره خبّر أن رجلا وَهَب لرجل دِرهماً واحداً . فقد كان يفتنّ فى الحَزم والعَزم* ، وفى الحِلم والعِلم ، وفى جَميع المعانى ، إلا ذكرَ الجود ، فإنى لم أسمع هذا الاسم مِنه قطّ . خرجَ هذا البابُ من لِسانه ، كما خَرَج من قلبه .

ويؤكِّد ما قلتُ فيه ما حدَّثنى به طاهرٌ الأسير ، فإنه قال : وممَّا يدلُّ على أن الروم أبخلُ الأمم أنك لاتجدُ للجُود فى لغتهم اسماً . يقول : إنما يُسمِّى* الناسُ ما يحتاجون إلى استعماله ، ومع الاستغناء يسقط التكلّف . وقد زَعَم ناس أنّ ممّا يدلّ على غشّ الفرس أنه ليس للنّصيحة فى لغتهم اسم واحِد يجمَع المعانىَ التى يقعُ عليها هذا الاسم .

(٨) < فى > ضربة (فان فلوتن) – (١٤) الحزم والعزم (فان فلوتن) : فى الحزم وفى الحلم والعا والعزم ك – (١٧) سمى (فان فلوتن) .

(٣ – ٩) « كان عندنا . . . بخيل » انظر محاضرات الراغب ١ : ٢٨٧ .

وقول القائل : « نصيحة » ليس يُراد به سَلامة القلب ، فقد يكونُ أن يكونَ الرجل سليمَ الصدر ، ولم يحدُث سببٌ من أجله يقصِد إلى المَشورة عليك بالذى هو أردُّ عليك — على حسب رأيه فيك — ووَجْه * لنفعك . ففى لُغتهم اسمٌ للسلامة ، واسمٌ لإرادة الخير ، وحُسن المشورة ، وحملِك بالرأى على الصواب . فللنصيحةِ * عندَهم أسماء مختلفة ، إذا اجتمعَت دلّت على ما يدلُّ عليه الاسم الواحد فى لغة العرَب . فمن قضَى عليهم بالغشِّ من هذا الوجه فقد ظَلَم .

وحدّثنى إبراهيم بنُ عبد العَزيز * * ، قال : تغدّيتُ مع راشِد الأعور ، فأتَونا بجام فيه بياح سَبخى * * ، الذى * يقال له الدرّاج . فجعلتُ آخُذ الواحِدةَ فأقطَع رأسَها ، ثم أعزله. ثمّ أشقّها باثنين من قِبَل بطنها ، فآخذ شَوْكة الصُلب والأضلاع ، فأعزلها ، وأرمى بها * فى بَطنها ، و بطَرف الذَنَب والجناح ثم أجمعُها فى لقمة واحِدة وآكلها . وكان راشد يأخُذ البيّاحة فيقطَعها قِطعتين ، فيجعل كل * قطعة فى لُقمة ، لا يُلقى رَأساً ولا ذَنباً . فصبر لى على لُقَم عدّة . فلما بلغتُ المجهودَ منه قال : « أى بنىَّ إذا أكلتَ الطعام فكل خَيْره بشرِّه » .

قال : وكان يقول : لم أنتفِع بأكل التمر قطّ إلا مع الزنج وأهل أصبهان . فأمّا الزنجىُّ فإنه لا يتخيّر وأنا أتخيّر ، وأما الأصبهانى فإنّه يقبضُ القَبضةَ ولا يأكلُ من غيرها ، ولا ينظرُ إلى ما بينَ يديه حتّى يفرَغ من القَبضة . وهذا عدل ، والتخيُّر قرفة وَجور . لا جَرَم أن الذى يبقَى من التمر لا ينتفِعُ به العِيال إذا كان قدّام من يتخيّر . وكان يقول : ليسَ من الأدب أن تجُول يدُك فى الطّبق ، وإنما هو تمر وما أصاب * .

وزعم سَرِىّ بن مكرم ، وهو ابن أخى مُوسى بن جَناح ، قال : كان موسى يأمرنا ألا نأكل مادام أحد منّا مشغُولا بشرب الماء وطَلَبه . فلمّا رآنا لا نطاوعُه دعا ليلةً

---

(٣) وجه ك ، وجها (فان فلوتن) — (٤) فالنصيحة (فان فلوتن) — (٨) لعله : من الذى أو وهو الذى أو نحو ذلك — (٩) بها ك — (١١) فيجعل [كل] ك ، فجعل [كل] (فان فلوتن) — (١٨) كذا فى ك ، وما أصابت يدك (دى جويه)

بالماء ، ثم خطَّ بإصبَعه خطًّا فى أرُزَّة كانت بين أيدينا ، فقال : هذا نصيبى ، لا تعرِضوا له ، حتى أنتفعَ بشرب الماء .

وأحاديثه فى صَدر الكِتاب ، وهذا منها . ٣

وقال المكِّىّ * لبعضِ من كان يتعشَّى ويُفطِر عند الباسيانىّ : ويْحَكم ! كيف تُسيغون طعامَه ، وأنتم تسمعونه يقول : « إنما نطعِمُكم لوجه الله ، لا نريدُ مِنكم جَزَاءً ولا شُكُوراً » . ثم تَرونه لا يقرؤها إلا وأنتم على العَشاء ، ولا يقرأ غيرَ هذه الآية ؟ ٦ أنتم والله ضدُّ الذى قال :

ألبانُ إبل تِعلّة بن مُساور ما دام يملكُها علىّ حرام

وطعام عِمران بنِ أوفى مثله ما دام يسلك فى البطونِ طعام ٩

إن الذين يسُوغُ فى أعناقهم زادٌ يمنُّ عَلَيهمُ للئام

قال : فمتى تعجَب فاعجب *من خمسين رجُلا من العرَب فيهم أبو رافع الكِلابى ، وهو شاعر بَذِىّ ، يفطِرون عند أبى عثمانَ الأعور . فإفطارى من طَعام نصرانى أشدّ من ١٢ إفطارى من طعام مُسلم يقرأ القرآن ويقول الحق .

وحدّثنى أبو المنجوف السّدوسى * * ، قال : كنتُ مع أبى ومَعنا شيخٌ من موالى الحىّ فمررنا بناطور على نهر الأُبلّة ، ونحن تَعبون ، فجلسنا إليه . فلم يلبث أن جاءنا بطبَق ١٥ عليه رطب سكر ** وجَيسران * أسود ، فوضعه بين أيدينا . فأكل الشيخُ الذى كان مَعنا . فلما رأيتُ أبى لا يأكل لم آكُل ، وبى * إلى ذلك حاجة . فأقبلَ الناطورُ على أبى ، فقال : « لم لا تأكل ؟ » ، قال:« والله * إنى لأشتَهيه ، ولكن لا أظنّ صاحبَ الأرض ١٨ أباح لكَ إطعامَ الناس من الغَريب . فلو جِئتَنا بشىء من السمهريز والبرنىّ لأكلنا » ،

---

(٤) المكى < ذلك > ك – الباسيانى (فان فلوتن)–(١١) اعجب ك – (١٦) جيسوان ك ، انظر ادى أشير – (١٧) ولى (فان فلوتن)

(٥ – ٦) « إنما نطعمكم . . . شكورا » سورة الانسان : ٩ – (٨ – ١٠) « ألبان . . . للئام » الكامل للمبرد ١ : ٤٤ .

فقال مَولانا ، وهو شَيخ كبيرُ السنّ : « ولـكنّي أنا لم أنظر فى شَىء من هذا قطّ » .

قال المـكىّ : دخل إسماعيلُ بنُ غَزوان إلى بعض المساجد يصلّى ، فوجد الصفّ تامًّا، فلم يستطع أن يقومَ وحده ، فجذَب ثوبَ شيخ فى الصفّ ليتأخّر فيقوم معه . فلمَّا تأخّر الشيخُ ، ورأى إسماعيل الفَرج ، تقدّم فقام فى مَوْضع الشيخ ، وترَك الشيخَ قائمًا خلفَه ينظر فى قَفاه ، ويدعو الله عليه .

كان ثمامةُ يحتشِم أن يقعدَ على خِوانه من لا يأنَسُ به ، ومن رأيه أن يأْكلَ بعضُ غِلمانه معه . فحبَسَ قاسمٌ التمّار يوماً على غَدائه بعضَ من يحتشِمُه فاحتمَل ذلك ثمامة فى نفسِه . ثم عاد بعد ذلك إلى مثلها ، ففَعل ذلك مراراً حتّى ضجّ ثمامة ، واستفرغ صبره. فأقبلَ عليه فقال : « ما يدعُوك إلى هذا ؟ لو أردتُهم لـكان لِسانى مطلقاً ، وكان رسولى يؤدِّى عنى . فلم تحبسُ على طعامى من لا آنس به ؟ » ، قال : « إنما أريد أن أسخِّيَك ، فأنفى عنكَ التبخيل وسُوء الظنّ » . فلما أن كان بعد ذلك ،أراد بعضُهم الانصراف ،فقال له قاسم : « أين تريد ؟ » قال . « قد تحرّكَ بطنى ، فأريد المنزل» قال : « فلِمَ لا تتوضّأ ها هنا ؟ فإن الـكنيفَ خال نظيف ، والغلامَ فارغ نشيط ، وليسَ من أبى مَعن حِشمة ، ومنزله منزلُ إخوانه » ، فدخل الرجلُ يتوضّأ . فلما كان بعد أيّام حَبس آخر، فلما كان بعدذلك حبسَ آخر ، فاغتاظ ثُمامة ، و بلغ فى الغَيظ مبلَغاً لم يكن على مثلِه قطّ ، ثم قال : « هذا يحبِسُهم على غَدائى لأن يسخِّينى . يحبسُهم عَلى أن يخرأوا عندِى لِمَه ؟ لأن من لم يخرأ الناسُ عندَه فهو بَخيل على الطعام ؟ وقد سمعتُهم يقولون : فلان يكرَه أن يؤكل عندَه ، ولمْ أسمع أحداً قط قال : فلان يكرَه أن يُخرأ عندَه » .

وكان قاسم شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذِر المؤاكلة . وكان أسخَى الناس على طعام غَيْره ، وأبخلَ الناس على طعام نفسه . وكان يعملُ عَمل رجل لم يسمَع بالحِشمة ولا بالتجمل قط . فـكان لا يرضَى بسُوء أدَبه على طَعام ثُمامة ، حتّى يجرّ معه ابنَه

---

(٦) وكان (فان فلوتن) – (١٢) بارد ك – (١٨) [و] لم ك – (١٩) قدر اولواكله ك .

إبراهيم . وكان بينَه و بينَ إبراهيم ابنِه فى القَدَر* ، بقَدر ما بينَه و بينَ جميع العالمين . فكانا إذا تقابلا على خوان ثُمامة لم يكن لأحد — على أيْمانهما وشمائلهما — حظّ فى الطيِّبات .

فأتَوه يوماً بقَصعة ضَخْمة فيها ثَريدة كَهيئة الصَوْمعة مكلَّلة بإكليل من عراق ، بأكثر ما يكونُ من العراق . فأخذَ قاسم الذى يستقبلُه ، ثم أخذ يَمنة ، وأخذ ما بين يدَىْ من كان بينَه و بين ثُمامة ، حتّى لم يدَع إلّا عَرقاً قدّام ثمامة ، ثم مال على جانبِه الأيْسر فصَنَع مِثل ذلك الصنيع . وعارضه ابنُه وحكاه . فلمّا أن نَظر ثُمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ، واللحمُ كلّه بينَ يديه و بين يدَىْ ابنه ، إلاّ قطعة واحدة بين يدَيه ، تَنَاولها فوَضَعها قدّام إبراهيم ابنه . فلم* يدفَعها . واحتسَب بها فى الكرامة والبِرّ .

فقال قاسِم لما فرَغ من غَدائه : « أما رأيتُم إكرامَ ثُمامة لابنى ، وكيف خصَّه ؟ » فلمّا حُكى هذا لى ، قلت : « ويلَك ما أظنّ أن فى الأرض عَرقاً أشأمَ على عِيالك منه . هذا أخرجه الغيظُ ، وهذا الغيظُ لا يتركُه حتى يتشفّى منك . فإن قدَر لك على ذَنب فقد والله هلكتَ ، وإن لم يقدِر عليه أقدَره لك الغيْظ . وأبواب التجنِّى كثيرة ، وليس أحد إلا وفيه ما إن شئت تجعله ذنباً* جعلته ، فكيف وأنت ذُنوب من قَرْنك إلى قَدمك ؟ » .

وكان ثُمامة يفطِر — أيّام كان فى أصحاب الفساطيط — ناساً ، فكثرُوا عَليه ، وأتَوه بالرقاع*والشفاعات . وفى حُشوة المتكلمين أخلاق قَبيحة ، وفيهم على أهل الكلام ، وعلى أرباب الصِناعات ، مِحنة عظيمة . فلمّا رأى ثُمامة ما قَدْ دهِمه ، أقبل عَليهم — وهم يتعشّون — فقال : « إن الله عزّ وجلّ لا يستحيى مِن الحقّ ، كلكم واجبُ الحقّ ، ومن لم تجئنا شفاعته فالحرمة* كمن تقدَّمت شَفاعته . كما أنا لو استطَعنا أن

---

(١) القدر ك — (٩) ولم ك — (١٥) تجعله ذنباً جعلته ك : جعلته ذنباً (فان فلوتن) —
(١٨) الرقاع (فان فلوتن) — (٢١) فالحرمة ك : فاكرمه (فان فلوتن) . ولعلها : فالحرمة له .

نعمّكم بالبِرّ لم يكن بعضُكم أحقّ بذلك من بعض ، فكذلك أنتم إذا أعجزنا أو بدَا لنا ، فليسَ بعضُكم أحقّ بالحِرمان من بعض ، أو بالحمل عليه ، أو بالاعتذارِ إليه ، من بعض . ومتَى قرّبتكم وفتحْتُ بابى لكم ، و باعدتُ من هُو أكثرُ منكم عَدَداً ، وأغلقتُ بابى دُونَهم ، لم يكن إدخالى* إيّاكم عُذراً لى ، ولا فى منعِ الآخَرين حجّة » . فانصَرفوا ولم يَعودوا* .

قال أبو محمّد العَروضى : وقعت بينَ قوم عَرْبدة ، فقام المغنّى يحجز بينهم — وكان شيخاً معتلاً* بخيلا — فمسك رجلٌ بحَلقه فعَصره ، فصاح : مَعيشتى معيشتى ، فتبسم وتركه .

وحدثنى ابن أبى كَريمة ، قال : وهَبوا للكِنانى المغنّى خابية فارغة : فلما كان عندَ انصِرافه وضَعوها له على الباب ، ولمْ* يكن عندَه كِراء حمّالها ، وأدركه ما يُدرك المغنّين من التّيه ، فلم يحملها ، فكان يركُلها رَكلة ، فتَدَحرَجُ وتَدُور بمبلغ حمّية الرّكله . ويقومُ من ناحِية كى لا يراه إنسان ، ويرى ما تَصنع ، ثمّ يدنو منها ثم يركُلها أخرى ، فتدَحرجُ وتدور ، و بقف من ناحِية . فلم يزَل يفعلُ ذلك إلى أن بلَغ بها المنزل .

قالوا : كان عبدُ النور كاتبُ إبراهيمَ بنِ عبد الله بن الحسَن قد اسْتَخفى بالبصرة ، فى عبد القيس ، مِن أمير المُؤمنين أبى جعفر وعمّاله . وكان فى غُرفة قدّامَها جَناح ، وكان لا يطلِع رأسَه منها . فلما سكن الطلبُ شيئاً ، وثبَت عندَه حُسن جِوار القوم ، صار يجلِس فى الجَناح ، يرضَى بأن يسمَع الصوتَ ولا يرى الشخص ، لما فى ذلك من الأنس عند طُول الوَحشة ، فلما طالتْ به الأيام ، ومرّت أيّام السلامة ، جعَل فى الجناح خرقاً بقَدر عينه . فلما طالت الأيام صار ينظُر من شقّ باب كان مَسْمُوراً . ثم ما زال يفتحُه الأوّل فالأوّل ، إلى أن صار يُخرج رأسَه ، و يبدى وجهَه . فلما لم يرَ شيئاً يُريبه ،

---

(٤) < فى > ادخالى (فان فلوتن) — (٥) ولا تعودوا (فان فلوتن) — (٧) معيلا (فان فلوتن) — (١٠) فلم (فان فلوتن) .

(١٩٩ ٢٠٠ ٥) « وكان ثمامة يعودوا » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٤

قعدَ فى الدِّهليز ، فلمَّا ازداد * فى الأنس ، جَلس على باب الدار ، ثم صلّى مَعَهم فى مُصلاهم ودَخل ، ثمّ صلّى بعدَ ذلك وجلس . والقومُ عرَب ، فكانوا * يُفيضون فى الحديث ، ويذكرُون من الشِّعر * الشاهدَ والمَثَل ، ومن الخبَر الأيّام * والمقامات . وهو فى ذلك ساكِت ، إذ أقبلَ عليه ذاتَ يوم فتى منهم ، خرَج عن أدبِهم ، وأغفلَ بعضَ ما راضوه به من سيرتهم * ، فقال له : « يا شيخُ إنا قومٌ نخُوض فى ضُروب ، فربّما تكلّمنا بالمثلَبة ، وأنشدنا الهِجاء ، فلو أعلَمتَنا ممن أنت تجنبنا كلَّ ما يسوءك . ولو اجتَنَبنا أشعارَ الهِجاء كلَّها ، وأخبار المثالِب بأسرِها ، لم* نأمَن أن يكونَ ثناؤنا ومديحُنا لبعض العرَب ممَّا يسوءك . فلو عرَّفتَنا نسَبك كَفَيناك سَماع ما يسوءك من هِجاء قوْمِك ، ومن مَدح * عدوّك » . فلطَمه شيخٌ منهم وقال : «لا أمَّ لك ! مِحنة كِمحنَة الخوارج ، وتنقيرٌ كتنقير العيّابين . ولم لا تَدَع ما يُريبك إلى مالا يُريبك ، فسكتَّ إلا عمّا توقِن * بأنّه يسرّه ؟ » .

قال : وقال عبدُ النور : ثم إن مَوضِعى نابى لبعض الأمر ، فتحوّلت إلى شقٍّ بنى تميم . فنزلتُ برجل ، فأخذَهُ * بالثّقة ، وأكمنتُ نفسى إلى أن أعرفَ سبيل القوم . وكان للرجل كَنِيف إلى جانب داره ، يشرَع فى طَريق لا ينفُذ ، إلاّ أنّ من مرّ به فى ذلك الشارع رأى مَسقِط الغائط من خَلاء ذلك الجناح . وكان صاحبُ الدار ضيِّقَ العَيْش ، فاتّسع بنزولى عليه . فكان القوْم إذا مرُّوا به ، ينظُرون إلى موضِع الزبل والغائط ، فلا يذهبُ قلبى إلى شىء مما كانوا يذهبون إليه . فبينا أنا جالسٌ ذاتَ يوم ، إذ * أنا بأصوات ملتفَّة على الباب ، وإذا صاحبى ينتَفى ويعتَذِر ، وإذا الجِيران قد اجتَمَعوا إليه ، وقالوا : « ما هذا الثلْط الذى يسقط من جَناحك ، بعد أن كنا لا نَرى إلا شيئاً كالبَعْر من * يُبس الكعك . وهذا ثلْط يعبِّر * عن أكل غَضّ . ولولا أنّك انتَجَعت على

---

(١) زاد (فان فلوتن) – (٢) وكانوا (فان فلوتن) – (٣) الشعراء (فان فلوتن) – والأيام ك – (٥) سترهم (فان فلوتن) – (٧) ولم (فان فلوتن) – (٩) مديح (فان فلوتن) – (١٠) يوقن ك – (١٣) فأخذه ، كذا فى ك : نأخذته (فان فلوتن) – (١٧) إذا (فان فلوتن) – (٢٠) من (فان فلوتن) فى ك بعرك ، بعير (فان فلوتن) – انتجعت (فان فلوتن) : التحقت ك .

بعضِ من تستّر وتوارى لأظهرتَه . وقد قال الأول :

السترُ دونَ الفاحِشات ولا يلقاكَ دونَ الخَير من سِتر

ولولا أن هذا طِلبة السلطان لما توارى . فلسنا نأمَنُ من أن يجرَّ على الحىِّ بليّة، ولستَ تبالى إذا حسُنت حالك فى عاجِل أيامك إلا مَ يفضى بك الحال ، وما تلقَى عَشِيرتك . فإمّا أن تُخْرِجَه إلينا ، و إمّا أن تُخرِجه عنّا » .

قال عبدُ النور : فقلتُ : هذه والله القيافة ، ولا قِيافَة بنى مُدلج . إنّا لله ! خرجتُ من الجنة إلى النار . وقلت : هــذا وَعيد وقد أعذَر من أنذَر . فلم أظنَّ أن اللؤمَ يبلُغ ما رأيتُ من هَؤلاء ، ولا ظننتُ أن الكرَم يبلغُ ما رأيتُ من أولئك .

شهِدتُ الأصمَعىّ يوماً ، وأقبلَ على جُلَسائه يسألهم عن عيْشهم ، وعمّا يأكُلون و يشرَبون . فأقبلَ على الذى عن يَمينه ، فقال : « أبا فلان ما إدامُك ؟ » ، قال : « اللحم » ، قال : « أكلَّ يوم لحم ؟ » ، قال :« نعم » ، قال : « وفيه الصفراء البيضاء والحمراء والكَدْراء والحامِضة والحُلوة والمرّة ؟» . قال : « نعم » . قال : « بئسَ العيشُ ! هذا ليسَ عيشَ آل الخطّاب . كان عُمر بن الخطّاب رحمةُ الله عليه و رضوانه يضربُ على هذا ، وكان يقول : مُدمِنُ اللحم كمدْمِن الخمر » .

ثم سأل الّذى يليه ، قال : « أبا فلان ما إدامُك ؟ » ، قال : « الآدام الكثيرة والألوان الطيِّبة » ، قال : « أفى إدَامك سَمن ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فتجمَعُ السَّمن والسَّمِين على مائدة ؟ » ، قال : « نعم » . قال: « ليسَ هذا عيشَ آلِ الخطّاب. كان ابنُ الخطّاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا . وكان إذا وَجد القُدور المختلفة الطعوم (١٩) كدَّرها فى قِدر واحدة ، وقال إنّ العرَب لو أكلت هذا لقتل بعضُها بعضاً » .

---

(١٩) المطعوم ك .

---

(٢) « الستر . . . ستر » ديوان زهير (دواوين الشعراء الستة الجاهليين) ص ٨٢ ، عيون الأخبار ١ : ٢٩٥ ، أمالى القالى ١ : ٩١ الموازنة للآمدى ١٢٠ ط الجوائب ، ١٢٨٧ ، نهاية الأرب ٣ : ٦٢ .

ثم يُقبِل على الآخر، فيقول : « أبا فلان ما إدامك ؟ » ، قال : « اللحمُ السمين ، والجداء الرضيع » ، قال : « فتأكله بالحُوّارى ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرِبُ على هذا . أو ما سمعتَه يقول : أترَونى لا أعرف الطعام الطيِّب ؟ لبابُ البُرّ بصِغار المعزى . ألا تراه كيفَ ينتفى من أكله ، وتنتَحِل معرفته ؟ » .

ثم يقبلُ على الذى يَليه ، فيقول : « أبا فلان ما أدمك ؟ » ، فيقول : « أكثرُ ما نأكل لُحوم الجزُور ، ونتّخذ منها هذه القَلَايا ، ونجعلُ بعضَها شِواء » ، قال : « أفتأكلُ من أكبادها وأسنِمَتها ، وتتّخذ لك الصباغ ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « ليسَ هـذا عيشَ آلِ الخطّاب . كان ابنُ الخطّاب يضرِب على هذا أو ما سمعتَه يقول : أترَونى لا أقدِرُ أن أتّخذ أكباداً وأفلاذًا وصَلائِق وصنابا ؟ ألا تَراه كيفَ يُنكِر أكله ، ويستَحسِن معرِفته ؟ » .

ثم يقول للّذى يليه : « أبا فلان ما أدمك ؟ » ، فيقول : « الشَّبارقات والأخبصة والفالوذَجات » . قال : « طعام العجَم ، وعيش كِسرى ، ولُباب البُرّ ، بلُعاب النَّحل ، بخالِص السمن » . حتّى أتى على آخرهم . كلٌّ ذلك يقول : « بئسَ العيشُ هذا . ليسَ هذا عيشَ آل الخطّاب . كان ابن الخطاب . يضرب على هذا » .

فلما انقَضى كلامُه أقبل عليه بعضهم ، فقال : « يا أبا سعيد ما أدمك ؟ » ، قال : « يَوْماً لبن ، ويوماً زيت ، ويوماً سَمن ، ويوماً تمر ، ويوماً جبن ، ويوماً قَفار ، ويوماً لحم . عيشُ آل خطاب » .

ثم قال : قال أبو الأشهب : كان الحسَن يشترى لأهله كلَّ يوم بنِصف درهم لحماً . فإن غَلا فبدِرهم ، فلمّا حُبِس عطاؤه كانت مَرَقته بشحم .

---

(٢) الجدى (فان فلوتن) — (٥) أو ينتحل ك — (٧) الجزر (فان فلوتن) .
(١٧) [لبن . . . ويوماً جبن ويوماً] (فان فلوتن) — (١٩) لحم ك .

(١٣ — ١٤) « ولباب . . . السمن » عيون الأخبار ٣ : ٣٠٣ .

ونبّئتُ عن رجل من قريش أنه كان يقول : « من لم يحسِن يمنعُ لم يحسِن يُعطى » . وأنه قال لابنه : « أىْ بُنىّ إنك إن أعطَيت فى غير موضِع الإعطاء أوشك أن تستعطِىَ الناس فلا تُعطى » . ثم أقبلَ علينا ، فقال : هل علمتم أن اليأس أقلُّ من القناعة وأعزّ ؟ إنّ الطمع لا يزال طمعاً ، وصاحب الطمع لا ينتظر الأسباب ، ولا يعرفُ الطمع الكاذب من الصادِق . والعِيال عيالان : شَهوة مفسِدة وضِرس طَحون ، وأكل الشهوة أثقلُ من أكل الضرس : وقد زعموا أن العيال سُوس المال ، وأنه لا مال لذِى عيال . وأنا أقول إنّ الشّهوة تبلغ ما لا يبلغ السُّوس ، وتأتى على ما يقصِّر دونَه العِيال : وقد قال الحسن : « ما عال أحد قطّ عن قَصْده » ، وقيل لشَيخ من أهل البصرة : « مالك لا ينمَى لك مال ؟ » ، قال : « لأنّى اتَّخذتُ العيال قبل المال ، واتخذ الناسُ المَال قبل العِيال » ، وقد رأيتُ من تقدّم عِيالُه مالَه فجبره الإصلاح ، ورفَده الاقتصاد ، وأعانه حُسنُ التّدبير ، ولم أر لشهواتى تدبيراً ، ولا لشرهى* صبراً . وقال إياس بنُ مُعاوية** : « إن الرجلَ يكون عليه ألفٌ فيُصلِح فتصلُح له الغلّة ، ويكونُ عليه ألفان فينفِقُ ألفَين فيُصلِح فتصلُح له الغلّة ، فيكون عليه ألفان فينفِقُ ثلاثةَ آلاف فيبيعُ العقَار فى فَضل النفقة » . وذكر الحديثَ عن أبى لينة ، قال : « كنتُ أرى زياداً وهو أميريمرّ بنا على بَغلة فى عنقها حبل من ليف مُدرَج على عنقها » . وكان سَلم بن قُتيبة يركَب بغلة وحدَه ، ومعه أربعة آلاف مرابطة* . ورآه الفضلُ بن عِيسى على حِمار ، وهو أمير ، فقال : « قعود نبى وبذلة جبار* » ، ولو شاء أبو سيّارة أن يدفَع بالعرب على جمل مهرىّ ، أو فرَس عتيق لفعل ، ولكنه أراد هَدى الصالحين : وحُمل عُمر على بِرذَون فهملَج تحتَه ، فنزل عنه ، فقال لأصحابه : « جنِّبونى هذا الشَّيطان » ثم قال لأصحابه : « لا تطلبوا العزّ بغير ما أعزكم الله به » .

---

(١١) لشرهى (فان فلوتن) : لشره له — (١٦) مرابطة؟ : رابطة له — (١٦—١٧) بذلة نبى وقعود جبار له.

---

(٦) « العيال سوس المال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ — (٨ — ٩) « وقيل . . . العيال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ .

قد كنتُ أعجب من بَعض السلَف حيث قال : « ما أعرف شيئاً مما كان الناسُ عليه إلا الأذان » ، وأنا أقول ذلك ، ولم يزل الناسُ فى هبوط ما ترفّعوا بالإسراف ، وما رفَعوا البُنيان للمُطَاولة . وإن من أعجَب ما رأيتُ فى هذا الزمان أو سمعتُ مفاخرةَ مُوَيس ابنِ عِمران لأبى عُبيد الله بن سلمان فى أيّهما كان أسبق إلى ركوب البَراذين . وما للتاجر وللبِرذون ؟ وما ركوبُ التجار* للبراذين إلا كركوب العرَب للبقَر .

لو كانوا إذا جَلسوا فى الخيوش ، واتَّخذوا الحمامات فى الدور ، وأقاموا وظائف الثَّلج والرَّيحان ، واتَّخذوا القِيان والخصيان ، استردَّ الناسُ ودَائعهم ، واسترجَعت القضاة أموالَ الأيتام** والحشرية* منهم ، لعادوا إلى دِينهم وعَيْشهم واقتصادهم . وإذا رآهم أصحابُ الغلّات وأهلُ الشَّرف والبيوتات أَنِفوا أن يكونوا دُونهم فى البزَّة والهيئة ، فهلكوا وأهلكوا .

زعم أبو يعقوب الخريمى أنّ جَعفر بن يحيى** أراد يوماً حاجة كان طريقُه إليها على باب الأصمعىّ ، وأنه دفعَ إلى خادمٍ له كيساً فيه ألفُ دينار ، وقال له : « سأنزلُ فى رجْعتى إلى الأصمعىّ ، وسيحدِّثنى ويضحِكُنى . فإذا* رأيتنى قد ضحكت ، فضع الكيس بينَ يديه » . فلمَّا دَخل فرأى حُبًّا مقطوعَ الرأس ، وجرَّة مكسورَة العُروة . وقَصعة مُشَعَّبة ، وجفنة أعشاراً ، ورآه* على مصلًّى بالٍ ، وعلَيه برّكان أجرد ، غمز غلامه بعيْنِه ألّا يضَع الكيس بينَ يديه ، ولا يدفع إليه شَيئاً . فلم يدَع الأصمعىُّ شيئاً مما يُضحك الثكلان والغَضْبان إلا أورده عليه ، فما تبسّم .

فقال له أنس* : « ما أدرى من أىِّ أمرَيك أعجب : أمِن صَبرك على الضَّحِك ، وقد أُورِد عليك ما لا يُصبر على مثله ، أم من تركك إعطاءه ، وقد كنتَ عزمتَ على

---

(٥) التاجر (فان فلوتن) — (٨) الحشوية ك — (١٣) وإذا (فان فلوتن) — (١٥) ورآه (عيون الأخبار) : وراءه ك ، وزاده (فان فلوتن) — (١٨) أنس (المسعودى) : إفسان ك .

إعطائه ، وهذا خلافُ ما أعرفُك به ؟ » ، قال : « ويلكَ ! من استَرْعى الذئبَ فقد ظَلَم ، ومن زَرع سَبِخة حَصَد الفقر . إنى والله لو* علمتُ أنه يكتُم المعروفَ بالفعل ، لما احتفلتُ* بنَشره له باللسان . وأينَ يقعُ مَديح اللسان من مَديح آثار الغنى على الإنسان . فاللسانُ قد يكذِب ، والحالُ لا تكذِب . لله درُّ نصَيب حيثُ يقول :

فعاجوا فأثْنَوا بالذى أنتَ أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

أعلمتَ أن ناووس* ابرويز** أمدحُ له من شِعر زُهير لآل سِنان بن أبى حارثة. لأنّ الشاعر يكذبُ ويصدُق ، وبنيانُ المراتِب لا يكذِبُ مرّة ويصدُق مرّة . فلست بعائدٍ إلى هذا بمعرُوف أبداً .

كان الأصمعىُّ يتعوّذ بالله من الاستِقراض والاستِفراض ، فأنعَم الله عليه ، حتّى صار هو المستقرَض منه ، والمستفْرَض ما عنده . فاتّفق أن أتاه فى يَوم واحد رَجُلان ، وكان أحدُهما يطلُب القَرض ، والآخَر يطلُب القرض ، هجما عليه معاً ، فأبعله* ذلك وملأ صَدْره ثمّ أقبلَ على صاحِب السَّلف ، فقال :

تتبدّل الأفعالُ بتبدّل الحال . ولكل زمان تدبير ولكل شىء مقدار ، والله فى كل يومٍ فى شَأن . كان الفقيهُ يمرّ باللُّقَطَة فيتجاوَزُها ولا يتناوَلُها ، كى يُمتَحن بحفظِها سواه ، إذ كان جُلّ الناس فى ذلك الدَهر يؤدون* الأمانة ويَحوطون اللقَطة ، فلمّا تبدّلوا وفَسَدوا ، وجَب على الفقيه إحرازُها والحفظُ لها ، وأن يصبرَ على ما نابه من المِحنة واختُبر* به من الكُلفة .

وقد بلغنى أنّ رجلاً أتى صَديقاً له يستقرِض منه مالاً ، فتركه بالباب ، ثم خَرج إليه ،

---

(٢) < أن > لوك — (٣) احتفلت : اربعت ك ، ارتفقت (فان فلوتن) — (٦) ناروس بارويه ك ، ناووس بارويه (فان فلوتن) — (١١) انعله ك ، أثقله (فان فلوتن) — (١٥) يؤدون (مرسيه) : يريدون ك — (١٧) [و] اختبر ك

(١ — ٢) « من استرعى . . . ظلم » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٢٥٧ — (٥) « فعاجوا . . . الحقائب » الأغانى ١ : ٣٣٧ .

(٢٠٥ : ١١ — ٢٠٦ : ٦) « زعم . . . سنان » عيون الأخبار ١ : ٢٩٩ . الوزراء والكتاب للجهشيارى (بإيجاز) ص ١٦٠ ط الصاوى ، ديوان المعانى (مروية عن القتبى) ١ : ١٢٩ — ١٣٠ ط القدسى .

مؤتزراً . فقال له : مالك ؟ قال جئتُ للقِتال واللطام والخُصومة والصخب . قال : ولم ؟ قال : لأنّك فى أخذ مالى بين حَالَين : إمّا أن تذهَب به ، و إمّا أن تمطلُنى به . فلو أخذتَه ، على طريقِ البرِّ والصِلة ، لاعتدَدْتُ عليك بحقّ ، ولوجَبَ عليك به شكر . و إذا أخذتَه من طريق السَلَف ، كانت العادةُ فى الديون والسيرةُ فى الإسلاف الردّ أو التقاضى . و إذا تقاضيتُك أغضَبتُك ، و إذا أغضبتك أسمعتنى ما أكره ، فتجمعُ علىّ المطلَ وسوء اللفظ والوحشةَ و إفسادَ اليد فى الإسلاف ، وأنتَ أظلم . فأغضبُ كما غضبتَ ، فإذا نقلتَنى إلى حالك فعلتُ فِعلك ، وصرتُ أنا وأنتَ كما قال العربىّ : « أنا تئق وصاحبى مئق » . فما ظنُّك بتئق* من الغيظ مملوء من الغضَب ، لأنى متأق من الموق مملوء من الكفران* . ولكنّى أدخل إلى المنزل فأخرج إليكَ مؤتزراً ، فأعجِّل لك اليومَ ما ادخرته إلى غد . وقد علمت أنّ ضَرب الموعِظة دونَ ضَرب الحِقد والسَخيمة ، فتربحُ صَرف ما بينَ الألمين ، وفضلَ ما بين الشتمين .

و بعد ، فأنا أضَنّ* بصداقتى لك ، وأشَحّ عَلى نصيبى* منك ، من أن أعرِّضه للفساد ، وأن أعينَك على القَطيعة ، فلا تلُمنى على أن كنتَ عندى واحداً من أهل عَصرك . فإن كنتَ عندَ نفسك فوقَهم و بعيداً من مَذهبهم ، فلا تكلِّف الناسَ علم الغيب فتظلمَهم .

ثم قال : وما زالت العاريَة مؤدّاة ، والوَديعة محفوظة ، فلمّا قالوا : « أحقّ الخيل بالرَكْض المُعار » ، بعدَ أن كان يقال : « أحقّ الخيل بالصَون المعار » ، و بعد أن قيلَ لبعضهم : ارفُق به ، فقال* : إنه عارية ، وقال الآخر : فاقتل ، فسَدت العارية ، واستدّ هذا الباب .

---

(٨) بمتق ك – (٩) النكران (فان فلوتن) – (١٢) أظن ك – نصيبى (فان فلوتن) : نفسى ك (١٨) قال ك .

(٧ – ٨) « أنا . . . مئق » الحيوان ١ : ٢٨٧ ، مجمع الأمثال ١ : ٤٨ .
(١٦ – ١٧) « أحق . . . المعار » عيون الأخبار ٣ : ١٤٢ .

ولما قالوا :

شمِّر قميصَك ، واستعدَّ لنائل واحكُك جبينَك للقضاء بثوم

واخفِضْ جَناحك إن مشيت تخشّعاً حتّى تصيبَ وَديعـــة لئيم

وحينَ أكلت الأماناتِ الأمناء والأوصياء ، ورتَع فيها المعدِّلون والصرَّافون ، وجَب حفظُها ودفنُها ، وكان أكل الأرض لها خيرًا من أكل الخُؤون الفاجر واللئيم الغادِر . وهذا معَ قول أكثَم بن صَيْفي فى ذلك الدهر : « لو سُئلت العارية أينَ تذهبين ، قالت : أكسب أهلى ذمّا » .

وأنا اليوم أنهَى عن العارية والوديعة ، وعن القَرض والفَرض . وأكره أن يخالفَ قولى فعلى . أما القرضُ فلِما أنبأتك* ، وأما الفَرض فليسَ يسعُه إلا بيتُ المال . ولو وهبتُ لك دِرهماً واحِدًا ، لفتحتُ على مالى باباً لا تسدُّه الجبالُ والرمال . ولو استطعتُ أن أجعلَ دونه ردماً كردمِ يأجوج ومأجوج < لفعلت > * . إن الناسَ فاغِرة أفواهُهم نحوَ من عندَه دراهِم ، فليسَ يمنعهُم من النَهس إلا اليأس . وإن طمِعوا لم تبقَ راغِية ولا ثاغِية ، ولا سَبَد ولا لَبَد ، ولا صَامِت ولا ناطق ، إلا ابتَلعوه والتَهَموه . أتدرى ما تُريد بشَيخك ؟ إنما تريد أن تفُقِره . فإذا أفقرتَه فقد قَتلته . وقد تعلَمُ ما جاء فى قتل النفسِ المؤمنة .

فلم أشبّه قولَ الأصمعىِّ لهذا الرجل حين قال : « أضن بك ، وأشحّ على نصيبى منك ، من أن أعرِّضه للفساد » إلا بقول ثمامة حين قال لابن سافرى** : « يا عاضَّ بظر أمه . بالنظر منِّى أقول لك ، و بالشفَقَة منِّى أسبّك » . وذلك أنّه ندم حينَ أعضَّه ، فرأى أن هذا القَول يجعَل ذلك منه بدًا ونعمة .

---

(٩) أنبأتكم (فان فلوتن) -- (١١) < لفعلت > : ليست بالأصل .

(٢ – ٣) « شمر . . . لئيم » البيان والتبين ٣ : ٨٨ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ ؛ الأغانى ١٦ : ١٦٩ لمساور الوراق .

وشهدتُ ثمامة، وأتاه رجلان * < قال أحدهما : « لى إليك حاجة » > *، فقال ثمامة : « ولى إليكَ أيضاً حاجة » ، قال : « وما حاجتُك ؟ » ، قال : « لستُ أذكرُها لكَ حتّى تضمنَ لى قضاءها » ، < قال : « قد فعلت * > » ، قال : « فحاجتى ألا تسألنى هذه الحاجَة » ، قال : « إنّك لا تَدرى ما هى » ، قال : « بلى قد دَرَيت » ، قال : « فما هى ؟ » ، قال : «هى حاجة . وليسَ يكونُ الشىء حاجَة إلاوهى تحْوج * إلى شىء من الكلفة » ، قال : « فقد رجعتُ عمّا أعطيتُك » ، قال : « لكنّى لا أردّ ما أخذتُ » .

فأقبل عليه الآخر * ، فقال : « لى حاجَة إلى منصور بنِ النُعمان » ، قال : « قل : لى حاجة إلى ثمامة بن أشرس . لأنى أنا الذى أقضى لكَ الحاجة ، ومنصور يقضيها لى . فالحاجة أنا أقضيها لك وغيرى يقضيها لى » ، ثم قال : « فأنا لا أتكلم فى الولايات ولا أتكلم فى الدراهم من قُلوب * الناس ولأن الحوائج تُقتَصّ ، فمن سألتهُ اليومَ أن يعطيك ، سألنى غدًا أن أعطىَ غيرَك ، فتعجيلى تلك العطيّة لك أروح لى . ليسَ عندِى دراهم ، ولو كانَ عندى دراهم لكانت نوائبى القائمةُ الساعةَ تستغرقُها . ولكنّى أؤنّب لكم من شِئتم . علىَّ لكمُ من التأنيب كلُّ ماتريدون » . قلت له : « فإذا أنّبتَ * رجُلاً فى أمر لم تتقدم فيه بمسألة ، كَيفَ يكونُ جوابهُ لك ؟ » . فضحك حتّى استند إلى الحائط .

وجاء مرّة أبو همّام السَّنوط * ، يكلّمه فى مرمّة داره التى تطوّع ببنائها فى رِباط عبّادان ، فقال : « ذكّرتنى الطعنَ وكنتُ ناسِياً . قد كنتُ عزمتُ على هَدمها حين

---

(١) رجل (فان فلوتن) – < قال أحدهما لى إليك حاجة > : ليست بالأصل ، قال [أحدهما] (فان فلوتن) – (٣) < قال قد فعلت > (عيون الأخبار) : ساقطة فى الأصل ، قال نعم (فان فلوتن) – (٥) تحرج ك – (٨) آخر ك – (١١) كذا فى الأصل : فلوت الناس ، ويقترح دى جويه وضعها بعد كلمة « تنقص » . (١٤) انيت ك ، اتيت (فان فلوتن) – (١٦) المسوط ك .

(١ – ٧) « وشهدت . . . ماأخذت » عيون الأخبار ٣ : ١٣٧ – (١٧) « ذكرتنى . . . ناسياً » عيون الأخبار ١٨ : ١٧٥ ، الفاخر ص ١١٤ ، الأمالى ١ : ١٩٢ ، تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٨ (على لسان الحجاج) ، محاضرات الراغب ١ : ١٧ ط الشرفية .

بَلَغنى أنّ الجبريّة قد نزلتها » ، قال : « سبحانَ الله تهدم مكرُمة وداراً قد وقفتَها للسبيل ؟ » ، قال : « فتعجَبُ من ذا ؟ قد أردتُ أن أهدمَ المسجدَ الذى كنتُ بنيتُه ليزيدَ بن هاشِم حين ترك أن يبنِيَه فى الشارع ، و بناه فى الرائغ * ، وحينَ بلَغنى أنّه يخلِط فى الكلام، و يعين الشَمرية ** على المعتزِلة . * فلو أراده أبو همّام وجَد من * ثمامة مر بدا جميعَ مِساحة الأرض * » . وكان حين يستوى له * اللفظ لا ينظر فى صلاح المعانى من فسادها.

وتمشَّى رجُل إلى الغاضِرى ** < قال > * : « إن صديقَك القادِمى * قد قُطِع عليه الطَريق » ، قال : « فأىَّ شىء تريد ؟ » ، قال : « أن تُخلِف عَلَيه » ، قال : « فليس عليه قُطِع الطريقُ ، بل علىَّ قُطِع » .

وأتى ابنَ اشكاب * الصَيْرفىَّ صديقٌ له ، يستلف منه مالا . فقال : « لو شئتُ أن أقولَ لقلتُ ، وأن أعتلَّ اعتَلَلْتُ ، وأن أستعيرَ بعضَ كلام من يستلف منه إخوانه فعلتُ . وليس أرى شيئاً خيراً من التَصحيح * وقَشْرِ العصا . ليس أفعل . فإن التمست لى عُذراً فهو أرْوَح لقلبك ، و إن لم تفعل فهو شرٌّ لك » .

وضاق الفَيْضُ بن يَزيد ضيقاً شديداً ، فقال : « والله ما عندَنا من شىء نعوِّل عليه ، وقد بلغ السكينُ العظم . والبيعُ لا يكون إلاّ مع طول المدّة . والرأىُ أن نُنزِل هذه النائبةَ بمحمَّد بن عبّاد ** ، فإنه يعرِف الحال وصحَّة المعاملة وحسنَ القضاء وما لنا من السَبَب المنتظَر . فلو كتبتُ إليه كتاباً لسرَّهُ ذلك ولسدَّ منا هذه الخلة القائمةَ الساعة » .

فتناوَل القلمَ والقِرطاس ، ليكتبَ إليه كتابَ الواثِق المُدِلِّ ، لا يشكّ أنّه سيتلقّى حاجتَه بمِثل ما كان هو المتلقِّى لها منه . ومضَى بعضُ من كان فى المجلس إلى محمَّد

---

(٣) الرائغ ؟ (فان فلوتن) : الرابع ك — (٤ — ٥) « فلو . . . الأرض » كذا فى الأصل ، وجد من (فان فلوتن) : وحدم ك ، فلو أراده أبو همام وجد من ثمامة مزيداً جميع مساحة الأرض (دى جويه) — (٥) له : لك ك — (٦) < قال > : ساقطة فى الأصل — العادمى ك — (٩) بل سكاب ك ، ابن سكاب (فان فلوتن) — (١١) كذا ، ولعلها : التصريح .

ابن عبّاد ليبشّره بسُرعة ورود حاجة الفيض إليه . فأتاه أمر لا يقوم < له إلا بأن يتقدم با > * لـكتابة ، ليشغله بحاجته إليه عن حاجته إليه ، فـكتب إليه :

« مالى يضعف ، والدَخل قليل ، والعِيال كثير ، والسِعر غال ، وأرزاقُنا من الديوان قد احتُبِسَت ، وقد تفتّحت علينا من أبواب النوَائب فى هذه الأيام ما لم يكن لنا فى حساب . فإن رأيتَ أن تبعَثَ إلىَّ بما أمكنكَ فعجِّل به ، فإن بنا إليه أعظمَ الحاجة » .

فورد الـكتابُ على الفَيض قبلَ نفوذ كِتابه إليه ، فلمّا قرأه استَرْجَع وكتبَ إليه : « يا أخى تضاعَفَت على المصِيبة ، حتّى جُمِعت خَلّة عيالِك إلى خلّة عِيالى . وقد كنتُ على الاحتِيال لهم ، وسأضْطرب فى وجوه الحِيل * غيرَ هذا الاضطراب ، وسأتحرّك فى بَيْع ماعِندى ، ولو ببَعض الطرح » .

فلما رجَع الـكِتاب إلى ابن عبّاد سكَن ، وألقى صاحبَه فى أشدّ الحركة وأتعب التعب وكان رجل من أبناء الحربيّة له سَخاء وأريحية ، وكان يُـكثِر من استزارة ابن عبّاد ، ويتْلِف عليه من الأموال ، من طريق الرَغبة فى الأدباء وفى مَشايخ الظُرَفاء . وكان يظنُّ — بكرَمه — أن زيارَته ابنَ عبّاد فى منزِله زيادةٌ فى المؤانسة . وقد كان بلغَه إمساكُه ، ولـكنّه لم يظنّ أنه لا حيلةَ فى سَبَبه .

فأتاه يوماً متطرّئاً ، وقال : « جئتك من غير دُعاء ، وقد رضيتُ بما حَضَر » ، قال : « فليسَ يحضُر شيء . وقولك: "بما حضر" لا بدَّ من أن يقع على شيء ». قال : « فقطعة مالح» ، قال : «وقطعةُ مالح ليس هى شيء؟» ، قال : «بلى» ، < ثم > قال : « فنحن نشربُ على الريق » ، قال : « لو كان عندَنا نبيذ كنّا فى عُرس » ، قال : « فأنا أبعثُ إلى نبيذ » ، قال : « فإذا صرتَ إلى تحويل النبيذ ، فحوِّل أيضاً ما يصلح للنبيذ.»، قال: « ليسَ يمنعنى من ذلك ، ومن إحضَار النقَل والرَيْحان إلا لأنى * أحتسب لك هذه الزَوْرة بدَعوة ، وليس يجوزُ ذلك إلا بأن يكونَ لك فيها أثر » . قال محمد : « فقد انفتَح لى

(١ — ٢) زيادة مفترضة لتقويم السياق — (٨) الجبل (فان فلوتن) — (١٧) قال فنحن لك ، فنحن (فان فلوتن) — (٢٠) لأن لك ، أن (فان فلوتن) .

بابٌ لكم فيه صَلاح ، وليسَ علىَّ فيه فساد . فى هذه النَّخلة زَوْج وِرشان** ، ولهما فَرخان مُدرِكان . فإن* نحن وجدنا إنساناً يصعَدُها — فإنها سحيقة منجَرِدة — ولم يطيرا — فإنهما قد صارا ناهِضين — جعلنا الواحدَ طُباهِجة ، والآخر كردناجا ، فإنه يومُ كردناج** » .

فطلبوا فى الحِيران إنساناً يصعَد تلك النخلة ، فلم يقدِروا عليه ؛ فدلّوهم على أكّار لبعض أهل الحربيّة . فما زَال الرسول يطلُبه ، حتّى وقع عليه . فلما جاء به* ونظر إلى النخلة ، قال : « هذه لا تصعد ولا يُرتَقَى عليها إلا بالتِيليا والبَرْبند** ، فكيفَ أرومها أنا بلا سَبَب ؟ » ، فسألوه أن يلتَمِس لهم ذلك ، فذَهَب فعَبَر مليًّا ، ثم أتاهم به . فلمّا صار فى أعلاها طارَ أحدُهما وأنزل الآخر فكان هو الطُباهِج والكَرْدناج ، وهو الغدَاء وهو العَشاء .

وكتب إبراهيمُ بن سيّابة** إلى صديق له ، يُساويه فى الأدب ، ويرتَفِع عليه فى الحال — وكان كثير المال ، كثير الصامت — يستسلف منه بعضَ ما يرتفِق به ، إلى أن يأتيه بعضُ ما يؤمِّل . فكتبَ إليه صديقُه هذا يعتذِر ، ويقول : « إن المالَ مكذوبٌ له وعليه ، والناسُ يضِيفون إلى الناس فى هذا الباب ما ليسَ عندهم . وأنا اليومَ مُضِيق . وليسَت الحالُ كما نحبّ . وأحقُّ من عَذَر الصديقُ العاقِل » ، فلما ورَد كتابُه على ابنِ سيَّابة < كتَب إليه > * : « إن كنتَ كاذِباً فجعلَك الله صادِقاً ، وإن كنتَ ملُوماً فجعَلك الله معذُوراً » .

---

(٢) وإن (فان فلوتن) — (٦) [به] (فان فلوتن) — (١٥) < كتب إليه > : ساقطة فى الأصل

(١٠ — ١٦) « وكتب . . . معذوراً » البيان والتبين ١ : ٣٠٨ ط ١٩٣٢ م ، المحاسن والمساوئ ص ٢٧٩ ، المحاسن والأضداد ٦٠ ، الأغانى ١١ : ٦ .

أطراف من علم العرب فى الطعام

قال عمرو الجاحظ : احتجنا عند التطويل ، وحينَ صار الكِتاب طويلا كبيراً ، إلى أن يكونَ قد دخلَ فيه من عِلم العرَب وطعامهم ، وما يتمادَحُون به وما يتهاجَون به شيء ، وإن قلّ ، ليكونَ الكِتاب قد انتظَم جُمَل هذا الباب . ولولا أن يخرُجَ من مقدار شَهْوة الناس ، لكان الخبرُ عن العرب والأعراب أكثر من جَميع هذا الكِتاب .

الطعام ضُروب . والدَعوة اسمٌ جامع ، وكذلك الزلّة . ثم منه العُرس والخُرس والإعذار والوكيرة والنقيعة . والمأدُبة اسمٌ لكلّ طعام دُعِيت إليه الجماعات . قال الشاعر :

نحنُ فى المَشْتاة نَدْعو الجَفلَى لا تَرَى الآدِب فينا يَنْتَقِر

وجاء فى الحديث : « القرآن مأدُبة الله » . وقد زعم ناسٌ أن العُرس هو الوَليمة لقَوْل النبيِّ صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : « أولِم ولو بشاة » ، وكان ابنُ عَوْن** والأصمَعيُّ من بعدِه يذمّان عمرو بن عُبَيد** ، ويقولان : لا يجيبُ الولائِم . يجعلان طعامَ الإملاك والإعراس والسُبوع والختان وليمة . والعُرس مَعروف ، إلا أن المفضّل الضبيّ زعم أن هذا الاسمَ مأخوذٌ من قَولهم : « لا عِطرَ بعدَ عَروس » . وكان الأصمعى يجعل العروس رجلا بعينِه ، كان بنَى على أهله فلم يتعطّر له ، فسمِّى بعدُ لذلك كلُّ بان على أهله بذلك الاسم . ومثلُ هذا لا يثبُت إلّا بأن يستَفيض فى الشِعر ، ويظهرَ فى الخبر

وأما الخُرْس فالطعام الذى يتّخذ صبيحة الوِلادة للرجال والنساء . وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الخُرسة ، والخُرسة طعام النُفَساء . قالت جارية وَلَدت حينَ لم يكنْ لها من يخدُمها ويمارس لها ما يمارس للنفساء : « تَخَرّسى لا مخرِّسة لك » . وفى الخرسة يقول مُسَاور الوراق** :

---

(٨) « نحن . . . ينتقر » الكامل للمبرد ٣ : ٢٣ ، العقد الفريد ٤ : ٢٩٣ ط الأزهرية ١٩١٣ م (لطرفه) — (١٣) « لا عطر بعد عروس » الفاخر ص ١٧٢ ، مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٦٢ .

(١٧ — ١٨) « قالت . . . . لك » المخصص ٤ : ١٢٠ ، نوادر أبى زيد ص ١٨٨ .

إذا أسدِيَّة ولدت غلاماً فبشِّرها بلؤم فى الغــلام
تخرِّسُها نساء بنى دُبَيْر بأخبثِ مايجدْنَ من الطعام

٣ وقال ابنُ القميئة* :

شرّكم حاضِر وخيرُكم دِ رّ خَروس من الأرانب بِكر

فالخروس هى صاحبة الخُرسة .

٦ والإعذار طعام الختان ، يقال : صبى مَعذُور وصبىّ مُعذَر جميعاً . وقال بعضُ أصحاب النبىِّ صلى الله عليه وسلم، وهو يُريد تقارُبَهم فى الأسنان : « كنا إعذارَ عام واحدٍ » . وقال النابغة :

٩ فنكِحن أبكاراً وهنّ بإمّة أعجلنهنّ مَظِنّةَ الإعذار

فزعموا أنّهم سَمّوا طعام الإعذار بالإعذار للملابسة والمجاوَرة .

كان الأصمَعى** يقول : قد كان للعَرَب كلامٌ على مَعَان ، فإذا ابتدلت تلكَ المعانى
١٢ لم* يتكلّم بذلك الكلام . فمن ذلك قولُ الناس اليومَ : ساقَ إليها صَدَاقها . و إنما كان هذا يُقال حينَ كان الصداقُ إبلا وغَنَما . وفى قياس قول الأصمَعى أن أصحاب التمر ، الذين كانَ التمر دياتِهم ومهورَهم ، كانوا لا يقولون ساق فلانٌ صداقَه . قال : ومن ذلك
١٥ قولُ الناس اليومَ : قد بنَى فلان البارحةَ على أهله . و إنّما كان هَذا القولُ لمن كانَ يضرِبُ على أهله فى تلك الليلةِ قبّته وخَيْمته ، وذلك هو بِناؤه . ولذلك قال الأول :

لو نزَل الغيثُ لأبنينَ* امرءاً كانتْ له قبّة سَحْقُ بجاد

---

(١٢) لم < تزل > (مرسيه) — (١٧) ابنين (فان فلوتن) .

---

(٤) « شركم . . . بكر» الحيوان ٥ : ٧٤ ط الحلبى ، لسان العرب ٧ : ٣٦٤ — (٧) « كنا . . . واحد » النهايةلابن الأثير ٣ : ٨٤ (منسوباً لسعد بن أبى وقاص) — (٩) « فنكحن . . . الإعذار » الديوان ص ٤٥ ط بيروت — (١٧) « لونزل . . . بجاد » التنبيه لأبى عبيد ص ١٩ .

وكان الأصمعىُّ يعدّ من هذا أشياء ليس لذكرها ها هُنا وَجه

ومن طعامهم الوَكيرة ، وهو طعام البِناء . كان الرجلُ يطعِم مَن يبنِي له ، وإذا فرغَ من بِنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودُعائهم . ولذلك قال قائلُهم : ٣

خير طعـــام شَهِد العشيرة العُرس والإعذار والوَكيرة

ويسمُّون ما ينحرَون من الإبل والجُزُر من عُرض المغنَم النقيعة . قال الشاعر :

إنا لنضرِبُ بالسيوف رُؤوسهم ضرب القُدار نَقيعة القُدَّام ٦

والعقيقة دَعوة على لحم الكَبْش الذى يُعَقّ عن الصبىِّ . والعقيقةُ اسم للشَعر نفسِه ، والأشعارُ هى العَقائق. وقولهم : عقّوا عَنه أى احلِقوا عَقِيقته . ويقولون : عقّ عنه ، وعقّ عليه . فسمِّى الكبشُ لقُرب الجِوار وسبَبِ الملتبس عَقيقة . ثمّ سمّوا ذلك الطعام باسمِ الكَبش . ٩

وكان الأصمعىُّ يقول : لايقولنّ أحدُكم : أكلتُ مَلّة . بل يقولُ : أكلت خُبزة، وإنما المِلّة موضِعُ الخبزة . وكذلك يقول فى الراوِية والمزادة . يقول: الراوِية هو الجمل ، ١٢ وزعموا أنّهم اشتقوا الراوية للشِعر من ذلك.

فأمّا الدعاء إلى هذه الأصناف فمنه المذموم ، ومنه الممدوح . فالمذمُوم النَقرَى ، والممدوح الجفَلى . وذلك أنّ صاحبَ المأدُبة ووليّ الدعوة إذا جاء رسولُه ، والقومُ فى أحوِيَتهم ١٥ وأنديتهم ، فقال : أجيبوا إلى طعام فلان ، فجَعلهم جَفْلةً واحدة ، وهى الجُفالة ، فذلك هو المحمود . وإذا انتَقَر فقال : قُم أنتَ يا فلان ، وقُم أنت يا فلان ، فدَعا بعضاً وترك بَعضاً فقد انتَقَر . قال الهُذَلى :

١٨

وليلةٍ يصْطَلى بالفَرث جازِرُها يخصُّ بالنَقرى المثرين دَاعِيها

(٧) كبش ك (١٢) الزادة (فان فلوتن) — (١٣) الشعر ك — (١٥) اخويتهم (فان فلوتن)

(٦) « إنا . . القدام » الفاخر للمفضل ط الجوائب ، المخصص ٤ : ١٢٠ ، تهذيب الألفاظ ص ٦٢٥ (لمهلهل بن ربيعة) ، أمالى السيد المرتضى ٢ : ٢٨ ط السعادة ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م — (١٩ [illegible] سنة . . داعيها » الحيوان ٢ : ٧٢ ط الحلبى ، تهذيب الألفاظ ص ٦١٤ .

يقول : لا يدعُو فيها إلا أصحابَ الثروة وأهل المكافأة ، وهذا قبيح . وقال فى ذلك بعضُ ظرفائنا :

آثَرَ بالجدى و بالمائدة من كان يرجُو عندَه العائده
لو كانَ مكوكان فى كفِّه من خردل ماسقَطت واحِده

وقال طَرَفَة بن العبد :

نحن فى المَشْتاة ندعو الجفلى لا تَرَى الآدِب فينا ينْتقِر

ولما غزا * بسطامُ بن قَيْس الشَيبانى مالِكَ بنَ المُنْتَفِق الضبى ، وأثبتَه عاصم بن خليفة الضبىّ ** ، شدَّ عليه فطعنَه وهو يقول :

هذا وفى الحفلة لا يدعونى

ويروى : فى الجَفلة * لا يدعونى . كأنَّه حَقِد عليه حين كان يدعو أهلَ المجلِس و يدَعَه والطعام المذموم عندَهم ضربان ، أحدُهما طعامُ المجاوِع والحطمات والضَّرائك والسَبار يت والبِلثام والجُبناء والفقراء والضعفاء * . من ذلك الفثّ * والدُعاع والهبيد والقُرامة والقرّة والعُسُوم * ومُنقَع البَرَم والقَصِيد * والقِدّ والحيّات . فأما الفظّ فإنَّه و إن كان شَراباً كَريهاً فليسَ يدخلُ فى هذا الباب ، وكذلك المجدُوح . فأما الفظّ فإنّه عُصارة الفَرْث إذا أصابَهم العطَش فى المفاوِز ، وأما المجدُوح فإنهم إذا بلَغ العطَشُ منهم المجهود نَحروا الإبل وتلقوا ألبابَها * بالجفان كَيلا يضيع من دمائها شىء * . فإذا برَد الدم ضَرَبوه بأيديهم ، وجَدَحوه بالعيدان جَدْحاً حتَّى ينقطِع ، فيعتزل ماؤه من ثفله * ، كما يخلُص الزبد بالمخض * والجُبن بالأنفحة * ، فيتصافنون ذلك الماء و يتبلَّغون به ، حتى يخرجوا من المفازة . وقال الشاعر :

لم تأكل * الفثّ والدُّعاعَ ولم تَجنِ هبيدا يجنيه مُهتبِده *

---

(١٠) الحفلة ك — (١٢) والضعفاء (فان فلوتن) — الغث ك — (١٣) العشوم ك — والمقصيد ك — (١٦) البابها (مرسيه) : البانها ك — شا ك — (١٧) ثفله (مرسيه) : ثقلة ك — (١٧) المخيض (فان فلوتن) — (١٨) الأنفجة (فان فلوتن) — (١٩) يأكل (فان فلوتن) — بحر هبيد محمد مهنيد ك

(١٩) « لم . . . مهتبده » الحيوان ٥ : ٤٤٣ (للطرماح) ، وانظر اللسان ٢ : ٤٨١ .

وقال أُميَّة ابنُ أبى الصَّلت * * :

ولا يتنازَعون عِنان شِرك * ولا أقوات أهلِهم العُسُوم
ولا قَرَدَ * يقزز من طعـــام ولا نَصِب ولا مَولًى عَديم

وقال مُعاوية بنُ أبى ربيعة * الجَرمى، فى القرَّة ، وهو يعيِّر بنى أسد وناساً من هوازن، وهما ابنا القملية :

ألم تر جَرماً أنجدَت وأبوكم مع القَمل فى حَفر الأقيصر شارع
إذا قُرَّة جاءت يقول أصِب بها سوى القمل ، إنى من هَوازِنَ ضَارع

والقُرامة نُحاتة القرون والأظلاف والمناسِم وبرادتها . والعَلهز القِردان ترضُّ وتعجَن بالدَّم ، والقرَّة الدقيق * المختلِطُ بالشَّعر . كان الرجلُ منهم لا يحلق رأسَه إلا على رأسه قبضة * من دقيق ، ليكونَ صدَقة على الضرائك ، وطُهوراً له . فمن أخذ ذلك الدقيقَ للأكل فهو مَعيب .

وفى أكل الحيَّات يقول ابنُ مُناذِر * * :

فأياكم والريفَ لا تقربُنَّه فإن لدَيه الحتفَ والموتَ قاضيا
وهم طرَدوكم من بِلاد أبيكم وأنتم حلول تشتَوُون الأفاعيا

وقال القطامى * * فى أكلهم القِدّ :

تعمَّمت فى طَلٍّ وريح تلفّنى وفى طِرْمساء غير ذات كواكب
إلى حَيزَبون توقدُ النار بعد ما تلفَّعت الظلماء من كل جانِب

---

(٢) عناق شول ك — (٣) قرن ك — (٤) أبى ربيعة ك — أبى معاوية (فان فلوتن) ، عبد العزى (ياقوت) — (٩) والدقيق ك — (١٠) قيصة ك ، قبضه (فان فلوتن) .

---

(٢) « ولا يتنازعون . . . العسوم » مبادئ اللغة للإسكافى ص ٦٥ ط السعادة ، القاهرة ، اللسان ١٥ : ٢٩٥ — (٦ — ٧) « ألم تر . . . ضارع » الأصنام لابن الكلبى ص ٤٨ — ٤٩ مع قصة الأبيات ، الحيوان ٥ : ٣٧٨ ، معجم البلدان ١ : ٣١٥ مطبعة السعادة بالقاهرة .

فسلمت ، والتسليمُ ليسَ يسرّها ولـكنّه حقّ على كلِّ جانب
فلما تنازَعنا الحديثَ سألتُها : من الحيُّ ؟ قالت : معشرٌ من محاربِ
من المشتَوين القِدّ فى كل شَتوة وإن كان ريفُ الناسِ ليسَ بناضب

وقال الراعى :

بكى معوزٌ من أن يضاف وطارق يشدّ من الجوع الإزار على الحَشا
إلى ضَوء نار يشتَوى القدَّ أهلهـا وقد يُـكرم الأضياف والقدّ يشتوى

وقد يُضيقون فى شراب غير المجدُوح والفظّ فى * المغازى والأسفار ، فيمدَحون من آثر صاحبَه ، ولا يذمُّون من أخذ حقَّه منه . وهو ماء المصافَنة ، والمصافنة مقاسَمة هذا الماء بعينه . وذلك أن الماء إذا نقَص عن الرىِّ اقتَسَموه بالسوَاء ، ولم يكن للرئيس ولصاحِب المِرباع والصّفىِّ وفضول * المقاسم فضلٌ على أخسِّ القوم . وهذا خُلُق عامّ ومكرمة عامّة فى الرؤساء . قال الفرزدق :

فلمّا تصافنَّا الإداوة أجهشَت إلىّ غُضون العنبرىِّ الجُراضِم
على ساعةٍ لو أنّ فى القوم حاتِماً على جُوده ضنَّت به نفسُ حاتم

وبذلك المذهب من الأثرة مدَح الشاعر كعبَ بنَ مامة ، حين آثر بنصيبه رفيقَه النّمرى ، فقال :

ما كان من سُوقة أسقى على ظمأ خمراً بماء إذا ناجُودها برَدا
مِن ابنِ مامَة كعبٍ ثَمَّ عىّ به زوّ المنية * إلّا حرة وقـدا
أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له رِدْ كعبُ ، إنك ورّاد . فما وردَا

(٥) معوز (الحماسة) : منذر ك — (٧) من ك — (١٠) [و] فضول ك — (١٧) عز به روايمنية ك .

(٢١٧ : ١٦ — ٢١٨ : ٣) « تعممت . . . بناضب » ديوان القطامى ٥١ — ٥٢ ط ليدن ١٩٠٢ ، العقد الفريد ٦ : ١٨٨ — ١٨٩ ط لجنة التأليف — (٥ — ٦) « بكى . . . يشتوى » حماسه أبى تمام ٢ : ٢١٠ ، طبقات ابن سلام ص ١٧٨ ط السعادة ، مصر — (١٢ — ١٣) « فلما . . . حاتم » ديوان الفرزدق ص ٨٤١ ، ٨٤٢ ط الصاوى — (١٦ — ١٨) « ما كان . . . وردا » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ١٥٢ ؛ الأمالى ٢ : ٢٢١ ، اللآلى ص ٨٤٠ ، الكامل للمبرد ١ : ١٦١ .

وفى المصافَنة يقول الأسدى :

كأن أطَيطاً يابنة القوم لم يُنِخ قلائصَ يحكيها الحَنِىُّ المنقّح
ولم يسق قوماً مَا دُمِيٍّ على الحصا صُباب الأداوَى والمطيّات جُنَّح

ويزعمون أنّ الحصاة التى إذا غمَرها الماء فى الإناء كانت نصيب أحدهم تُسمَّى المقلة . وهذا الحرفُ سمعتُه من البَغداديين ، ولم أسمعه من أصحابِنا ، وقد برئتُ إليك منه .

وقال ابنُ جَحْوش فى المصافَنة :

ولمّا تعاوَرنا الإداوة أجهَشت إلى الماء نفسُ العنبرىِّ الجراضم
وآثرته لمّا رأيتُ الذى به على النفس أخشى لاحقاتِ الملاوِم
فجاء بحُلمود له مثلُ رأسِـــه ليشربَ حظَّ القوم بين الصرائم

وقد يصيبُ القوم فى بادِيتهم ومواضِعهم من الجَهد ما لم يُسمع به فى أمة من الأمم ، ولا فى ناحية من النواحى . وإن أحدَهم ليجوعُ حتّى يشدَّ على بطنِه الحجارة ، وحتى يعتَصم بشِدَّة معاقِد الإزار ، وينزعَ عِمامته من رأسه فيشدَّ بها بطنَه . وإنما عمامتُه تاجُه ، والأعرابىُّ يجد فى رأسه من البرد — إذا كان حاسِراً — مالا يجدُه أحد ، لطول ملازمته العمامة ، ولكثرة طيِّها وتضاعُف أثنائها . ولربَّما اعتمّ بعمامتين ، ولربَّما كانت على قلنسوة خدرية . وقال مُصعَب بن عُمير الليثى :

سيروا فقد جنّ الظلامُ عليكم فبئسَ امرؤ يرجو القِرى عند عاصِم
دَفَعنا إليه وهو كالذيخ حاظياً نشدّ على أكبادِنا بالعمائم

---

(٣) مادمى (؟) : فارسى ك — (٨) لاعقات اللاوم ك — (١٥) خدرية (فان فلوتن) : جدرية ك — (١٧) حاطا ك — خاطياً (فان فلوتن) .

(٧ — ٩) « ولما . . . الصرائم » الكامل للمبرد ١ : ١٦٢ ، اللآلى ص ٨٤١ ، ديوان الفرزدق ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

وقال الراعى ** فى ذلك :

يشبّ لركب منهم من وَرائهم فكلّهم أمسى إلى ضَوئها سرَى
إلى ضوء نار يشتَوى القِدّ أهلُها وقد يُكرَم الأضياف والقدّ يشتَوى
فلمّا أناخوا واشتكَيْنا إليهم بكَوا وكلا الخَصْمين* ممّا به بكى
بكى معوز* من أن يضافَ وطارقٌ يشدّ من الجوع الإزارَ على الحشا

ومما يدلُّ على ماهم فيه من الجَهد ، وعلى امتداحهم بالأثرة ، قول العَنَوى :

لقد علمتْ قيسُ بنُ عَيلان أننا نُضار ، وأنا حيثُ ركّب عودُها
إذا الماء بعدَ اليوم يمذَق < بعضُه > * ببعض ، وببلى شحُّ نفس وجُودها
وأنا مقـــارٍ حين يبتكَر الغضا إذا الأرض أمسَت وهى جدب جنودها

وقال فى ذلك العجير السلولى** :

من المهدِيات الماءَ بالماء بعـــد ما رمى بالمقادى* كلّ قادٍ* ومُمْتَم

وقال آخرُ فى مثل هذا :

لنـا إبلٌ يروينَ يوما عِيالَنـــا ثلاثٌ فإن يكثَرنُ يوماً فأربعُ
نمدّهم بالمـــاء لا من هَوانهم ولـكن إذا ما قلّ شىء يوسع*
على أنّها تغشى أولئك بيتَهـــا على اللحم حتى يذهبَ الشرّ* أجمع

وقال أبو سَعيد الخُدرى** : « أخذتُ حجرًا فعصَبتُه على بطنى من الجوع وأتيتُ

---

(٤) الحيين (الحماسة) — (٥) معوز (الحماسة) : منذر ك — (٨) < ببعضه > : ساقطة فى الأصل — (١١) بالمقارى ك — قار (فان فلوتن) ، نار ك — (١٤) يوسع (الحيوان) : ويمنع ك — (١٥) الشر (فان فلوتن) : الشتر ك .

(٣ — ٥) « إلى ضوء . . . الحشا » ديوان الحماسة ٢ : ٢١٠ وانظر طبقات ابن سلام ص ١٢٠ ط ليدن ١٩١٣ — (١١) « من . . . ومعتم » الحيوان ٥ : ٥٩٧ ، ط الحلبى — (١٣ — ١٤) « لنا . . . يوسع » الحيوان ٥ : ٥٩٧ ، ط الحلبى .

النبى صلَّى الله عليه وسلم اسألُه . فلمَّا سمعتُه وهو يخطب : من يستعفَّ يعفَّه الله ، ومن يستغنِ يغنه الله ، رجعتُ ولم أسأله » .

قال أعرابىٌ : « جعتُ حتى سمعتُ فى مسامعى دويًّا . فخرجتُ أريغ الصيد ، فإذا بمغارة ، وإذا هو جروُ ذِئب . فذبحتُه وأكلتُه ، وادَّهنتُ واحتذَيت » .

ولما قدِم المغيرةُ القادسيّةَ على سَعد بسبعينَ من الظَهر — وعندَ سعد ضيقٌ شديد من الحال — نَحروها ، وأكلوا لحومَها . وادَّهنوا بشُحومها ، واحتذَوا جلودَها .

وذكر الأصمعىُّ عن عثمانَ الشحّام ، عن أبى رَجاء العطاردىّ ، قال : « لما بلغنا أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذَ فى القتل هربنا فاشتوينا فَخِذ أرنب دفيناً وألقينا عليها جُمالتنا . فلا أنسى تلك الأكلة » . وكان الأصمعىُّ إذا حدث بهذا الحديث قال : « نعمَ الأدامُ الجُوع . ونعمَ شِعارُ المسلمين التخفيف » .

وذكروا عن عَبد الملكِ بن عُمير ، عن رَجُلٍ من بنى عُذرة ، قال : خرجتُ زائرًا لأخوالٍ لى بهَجَر ، فإذاهم فى بَرْث أحمر ، بأقصى حَجْر ، فى طلوع القمر . فذكروا أن أتانًا تعتاد نخلة ، فترفع يدَيها ، وتعطو بفيها ، وتأخُذ الحُلقان والمُنْسَبتَة والمنصَّفةوالمَعْوَة . فتنكَّبتُ قَوسى ، وتقلدتُ جَفيرى . فإذا هى قد أقبلت ، فرميتها فخرَّت لفيها . فأدركتُ فقوّرت سرَّتها ومَعرفتها ، فقدحتُ نارى . وجمعتُ حطَبى ، ثم دفنتُها . ثم أدركنى ما يدركُ الشبابَ من النوم ، فما استيقظتُ إلاَّ بحرِّ الشمس فى ظهرى . ثم كشفتُ عنها ، فإذا لها غَطيط من الوَدَك ، كتداعى طىء وغَطيف وغَطَفان . ثم قمت إلى الرُطب — وقد ضرَبه بردُ السَحَر — فجنيتُ المَعْوة والحُلقان فجعلتُ أضع الشَحمة بين

---

(٣) من (فان فلوتن) — (١٢) هجر (فان فلوتن) — (١٤) حميرى ك — (١٥) كذا ك ، ولعلها : فأدركت ذكاتها — (١٨) الشجر ك .

(١ — ٢) « من . . . يعنه الله » البخارى بشرح الكرمانى ٢٢ : ٢٢٨ ، الترغيب والترهيب ١ : ٢٥٣ .

الرُطَبتين ، والرطبةَ بين الشَحْمتين ، فأظنّ الشحمةَ سَمْنة ، ثم سلاءة * . وأحسَبها من حَلاوتها شُهدة أحدرها من الطَود * .

٣ وأنا أتّهم هذا الحديثَ لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلّم به عَربى يعرف مذاهِب العرَب . وهو من أحاديث الهَيْثَم * *

وقال مدينى لأعرابى : « أىّ شىء تَدَعون ، وأىّ شىء تأكلون ؟ » قال : نأكلُ

٦ ما دبَّ ودَرَج إلا أمّ حُبَين » ، فقال المدينى : « لنهنِ أمَّ حُبين العافيةُ » .

وقال الأصمعىّ : تعرَّق أعرابىّ عظما ، فلما أراد أن يلقيه ، وله بنونَ ثلاثه ، قال له أحدُهم : « أعطنيه » ، قال ، « وما تصنعُ به ؟ » ، قال : « أتعرّقه ، حتّى لا تجدَ فيه ذرّة

٩ مَقيلا » ، قال : « ما قلتَ شيئاً » ، قال الثانى : « أعطنيه » ، قال : « وما تصنعُ به ؟ » ، قال : « أتعرّقه ، حتى لا يُدرَى أِلعَامه ذلك هو أم للعام الذى قبله » ، قال . « ما قلتَ شيئاً » ، قال الثالث : « أعطنيه » ، قال : « وما تصنع به ؟ » . ، قال : « أجعله مُخّةُ

١٢ إدامه * » ، قال : « أنت له » .

وقال الآخر :

فإنّك لم تشبِه لقيطاً وفعلَه ... وإن كنتَ أطعمت الأرزَّ مع التمر

١٥ وقال الآخر :

إذا انقَاصَ * منها بعضُها * لم تجد لها ... رءوبا * لما قد كان منها مُدانيا

وإن حَاولوا أن يَشْعَبوها * رأيتَها ... على الشعب * لا تزدادُ إلا تداعيا

---

(١) سلاءه (فان فلوتن) : سلاعنى ك — (٢) كذا فى ك : الطور (فان فلوتن) — (١٢) ادام (فان فلوتن) — (١٦) انماض ك ، انقاض (فان فلوتن) — بعدها ك — رويا ك ، دويا (فان فلوتن) — (١٧) يشعبوها ك — الشعب (فان فلوتن) .

(٢٢١ : ١١ — ٢٢٢ : ٢) « وذكروا . . . الطود » انظر الأغانى ٨ : ٤٠ — ٤١ ط دار الكتب المصرية (٥ — ٦) « وقال مدينى . . . العافية » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٩ — (٧ — ١٢) « تعرق . . . أنت له » عيون الأخبار ٣ : ٢١٣ .

معوَّذة* الأرحال ، لم ترق* مرقبا ، ولم تمتطِ الجُون الثلاثَ الأثافيا
ولا اجتزعت* من نحو مكَّة شقَّة إلينا ، ولا جازَت بها العيسُ واديا
ولكنّها فى أصلِهـــا مَوصِلِيَّة مجاورَة فيضا* من البحر جاريا* ٣
أتَتنا تزجِّيها المجاذِيف نحوَنا ، وتعقبُ فيما بين ذَاك المراديا
فقلتُ : لمن هذى القدُور التى أرى تهيلُ* عليها الريحُ تربا وسافيا ؟
فقالوا : وهـل يخفى على كلِّ ناظر قُدور رَقاش إن تأمل رائيـا ؟ ٦
فقلتُ : متى باللّحم عهدُ قدوركم ؟ فقـالوا : إذا ما لم يكنَّ عَواريا
الاضحَى إلى الأضحى ، وإلا فإنها تكونُ كنَسج العنكبُوت كما هيا
فلما استَبان الجَهدُ لى فى وجُوههم وشكواهُمُ أدخلتهُم فى عياليـــا ٩
فكنتُ إذا ما استشرَفونى مقبِلا أشاروا جميعاً لجـــة وتداعيا

وممّا قالوا فى صِفة قُدورهم وجفانهم وطَعامهم ما* أنا كاتبهُ لك . وهم وإن كانوا فى بلاد جَدب ، فإنهم أحسنُ الناس حالا فى الخصب . فلا تظنَّن أنّ كلَّ ما يصفون به ١٢ قدورَهم وجِفانهم وثَريدهم وحَيْسهم باطل .

وحدّثنى الأصمعى ، قال : سألتُ المنتجِع** بنَ نبهان عن خصب البادية ، فقال : « ربما رأيت الكَلب يتخطى الخلاصَة ، وهى له معرِضة ، شِبَعاً » . ١٥

وقال الأفوَه الأودىّ** :

تهنا* لثعلبةَ بنِ قيس جَفنة يأوى إليها فى الشِّتاء الجوَّعُ

---

(١) معودة ك – توف ك – (٢) اخترعت ك – (٣) مجاوزة (فان فلوتن) – فيها ك – حاديا ك – (٥) تهيل (عيون الأخبار) ، تحيل ك ، تجيل (فان فلوتن) – (١١) مما ك – (١٧) تهنا ك : فينا (الديوان) .

(٢٢٢ : ١٦ – ٢٢٣ : ١٠) « إذا . . . وتداعيا » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ ، والبيت الثانى فى الحيوان ٣ : ١٠٢ ط الحلبى (لمحمد بن يسير) .

(١٤ – ١٥) « وحدثنى . . . شبعاً » البيان والتبيين ٢ : ١٢٩ ط ١٩٣٢ م .

ومذانِبٌ لا تستعارُ* وخَيمة سوداءُ عيب نسيجها لا يُرقَع*
وكأنّما فيهـــا المذانبُ حلقةً وذَم* الدلاءِ على دلوج تنزع

٣ وقال مَعْن بن أوس** ، وهو يذكُر قدرَ سعيدِ بن العاص ، فى بعض ما يمدَحُه :

أخو شتوات لا تزال قدوره يُحَلّ* على أرجائها ثم يُرحَل*
إذا ما امتطَاها الموقِدُون رأيتَها لوَشْك قراها وهى بالجزل تشعل
٦ سمعتَ لها لَغْطاً إذا ما تَغَطْمَطت كهدر الجِمال رزّما حين تجفل
ترى البازلَ الكَوْماء فيها بأسرها مقبّضة فى قَمرها ما تَحَلحل*
كأن الكهول الشمط* فى حَجَراتها تغطرش فى تيارها حين يحفل
٩ إذا التَطَمت أمواجُها فكأنها عوائذ* دُهمٍ فى المحلّة قيّل
إذا احتدَمَت أمواجُها فكأنّما يُزَعزعها من شدّة الغلى أفكل
تظلُّ رواسِيها ركوداً مقيمةً لمن نابه* فيها معاش ومأكل

١٢ وضاف الفرزدق أبا السَّحماء ، سُحَيم بنَ عامر ، أحدَ بنى عَمْرو بن مَرثد ، فأحمدَه وذكر فى إحماده قِدره ، فقال :

سألنا عن أبى السَّحْماء حتّى أتَيْنا خيرَ مطرُوق لسَارى
فقلنـــا : يا أبا السَّحماء إنّا وجَدْنا الأزد أبعدَ من نِزار
١٥ فقام يجرُّ من عَجَل إلينـــا أسابِيَّ* النَّعـــاس مع الإزار
وقام إلى* سُلافَة مسلَحِبٍّ رثيم الأنف مربُوب بقـــار

---

(١) وجفنة سوداء عند نضيجها ما ترفع (الديوان) — (٢) ودم (الديوان) : ودم لك .
(٤) تحل . . . ترحل لك — (٧) ما تجلجل (فان فلوتن) — (٨) الشمط (الديوان) ، الشبه لك ، الشهب (فان فلوتن) — (٩) عواتب لك ، غوائب (فان فلوتن) — (١١) فاته لك
(١٦) اسانى لك — (١٧) وقام إلى (الديوان) : قصب له لك .

(٢٢٣ : ١٧ — ٢٢٤ : ٢) « تهنا . . . تنزع » ديوان الأقوه الأودى (الطرائف الأدبية) ص ١٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م .
(٤ — ١١) « أخو . . . ومأكل » ديوان معن بن أوس ١٥ — ١٧ ط مصر ، ١٩٢٧ .

تدُور عليهم والقِـــدْر تغلى بأبيضَ من سَديف الكوم وَارى
كأن تطلّع الترعيبِ فيهـــا عذارَى يَطَّلِعن إلى عَذارى

وقال الكُمَيت (٢) فى صِفة القِدر : ٣

إوَرَ تغمّس فى لُجَّـــة تغيبُ مِرارا وتَطْفُو مِرارا
كأنّ الغُطَامِط مِن غَليها أراجيزُ أسلَمَ تهجُو غِفارا

وأمّا ما ذكروا من صِفات القدور ، من تعيير بعضهم بعضاً ، فهو ، كما أنشدنى محمّد ٦
ابن يَسير (٣) : قال : لمّا قال الأوّل :

إنّ لنا قِدراً ذِراعين عرضُها وللطّول منها أذرُع وشِبار

قال الآخر : وما هذه ؟ أخزَى الله هذه قدرا . ولكنّى أقول ٩

بوّأت قِدرى موضعاً (٤) فوضعتها برابية من بين ميْت وأجرَع
جعلتُ لها هَضْبَ الرِّجام وطَخْفة وغَوْلا (٥) أثافى دونها لم تنزّع
بقدر كأنّ الليلَ سُحمَة (٦) قعرها ترى الفيلَ فيها طافياً (٧) لم يقطع ١٢
يُعجّل للأضياف وارى سَديفها ومن يأتِها من سائر الناس يشبَع

قال أبو عُبيدة : ولما قال الفرَزْدق :

وقِدر كحَيْزوم النعامة أُحمِشت بأجذال خُشب زال عنها هَشِيمها ١٥

---

(٢) الترغيب منهم ك – (٧) بشير ك – (١٠) موضعاً (الحصرى) ؛ ساقطة فى الأصل .
(١١) الرخام وطفقه وعولا ك – (١٢) شجنه ، شحنه (فان فلوتن) ، سحنه (مرسيه) ، طاميا (فان فلوتن) .

(٢٢٤ : ١٤ – ٢٢٥ : ٢) « سألنا . . . عذارى » ديوان الفرزدق ص ٢٤٨ ط الصاوى ، مصر ، والبيت الأخير فى عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ .
(٥) « كأن . . . غفارا » الأغانى ١ : ٣٤٩ ط دار الكتب المصرية – (١٠ – ١٢) « بوأت . . . يقطع » جمع الجواهر للحصرى ص ٦٥ ط الرحمانية ، القاهرة .
(١٥) « وقدر . . . وهشيمها » حماسة أبى تمام ٢ : ٣٠٨ ، ط ١٣٣٥ هـ ، القاهرة .

قال مَيْسرة أبو الدرداء : وما حَيزوم النعامة ؟ والله ما تُشبعُ هذه الفرَزْدق ولـكنّى أقول :

٣ وقِدر كجَوْف الليل أحمشتُ غَليها ترى الفيلَ فيهـا طافياً لم يفصّل

وقال عبدُ الله بن الزُّبَير** يمدَح أسماء بنَ خارجة** :

ألم تر أنّ المجدَ أرسلَ يبتَغى حليفَ صَفاء وَأَتَـلى* لا يزايله

٦ تخيّر أسماء بنَ حِصن فبطنت بفعل العُـــلَى أيمانُه وشمائله

< ترَى البازِلَ البُختىّ فوق خوانه مقطعة أعضاؤه ومفاصِـله > *

< و > مما* يجوز فى هذا الباب ، وإن لم يكن فيه صفة قِدر ، قولُ الفرزدق

٩ فى العُذافر بنِ زيد ، أحدِ بنى تَيْم اللّات بنِ ثعلبة :

لعمرُك ما الأرزاق يوم اكتيالها بأكثر خيراً من خِوان العذافر

ولو ضَافه الدجّال يلتمسُ القِرى وحلّ على خَبّازه بالعساكر

١٢ بعدّة يأجوج ومأجوج جُوّعاً لأشبَعهم شهراً غداء العُذافر

وقال ابنُ عَبْدل** فى بِشر بنِ مرْوان بنِ الحَـكَم** :

لو شاء بشرٌ كان من دُون بابه طَماطِم سُودٌ أو صَقَالبة حمرٌ

١٥ ولـكنّ بشراً أسهلَ البابَ للّتى يكون لِبشرعندَها الحمدُ والأجر

بعيدُ مَرادِ العين ما ردّ طرفه حِذارَ الفَواشى بابُ دار ولا ستر

---

(٥) قابلا ك – (٧) < ترى . . . ومفاصلة > ساقطة فى الأصل ، وفيه موضع الشاهد – (٨) مما ك

---

(٣) « وقدر . . . يفصل » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ – (٥ – ٧) « ألم تر . . . ومفاصله » الأغانى ١٣ : ٣٥ ،والبيت الأخير فى عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ – (١٠ – ١٢) « لعمرك . . . العذافر » ديوان الفرزدق ص ٣٩٦ ط الصاوى ، جمع الجواهر للحصرى ص ٦٥ – (١٤ – ٦) ١ « لوشاء . . . ستر » كتاب الحجاب للجاحظ (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ط الرحمانية ١٩٣٣ م .

وقالوا فى مُناقضات أشعارهم فى القُدور . قال الرَّقاشى** :

لنا من عَطاء الله دَهْماء جَونة تناولُ بعد الأقربين الأقاصيا
جعلنا أَلَالًا* والرِّجام وطِخفة لها فاستقلت فوقَهن أثافيا
مؤدِّية عنّا حُقوق محمـــد إذا ما أتانا بائسَ الحال طاويا
أتى ابن يسير* كى ينفِّس كربَها* إذا لم يرُح وافى مع الصُّبح غاديا

فأجابه ابنُ يسير ، فقال :

وثرماء ثلماء النواحى ولا* يَرى بها أحدٌ عيباً* سوى ذاك باديا
ينادى ببعضٍ بعضُهم عند طلعتى: ألا أبشروا هذا اليسيرىّ جائيا

وقال ابنُ يسير فى ذلك :

قدر الرقَاشىّ لم تنقر بمِنقـــار مثلَ القدور ، ولم تفتصّ* من غار
لـكنّ قدرَ أبى حفص — إذا نُسبت* يوماً — ربيبةُ آجام وأنهـــار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسَن بنُ هانئ الحكَمىّ ، يذكُر قِدر الرَّقاشى بالهِجاء أيضاً ، فقال :

ودَهماء تُثفيها رَقاش إذا شتَت مركَّبة الآذان أمَّ عِيـــال
يغَصّ بجَيْزوم البَعوضة صَدرُها وتنزِلُها عَفواً بغـــيرِ جِمال
ولو جئتَها مَلآى عَبيطاً مجزّلا لأخرجتَ ما فيها بعود خِلال
هى القِدرُ قِدرُ الشيخ بكرِ بن وائل ربيعِ اليتـامى عامَ كلِّ هُزال

---

(٣) الالاء (فى فلوتن) — (٥) بشير لك — كربه (عيون الأخبار) — (٧) ترى احد عـا لك — (١٠) تفتص : تفتض لك — (١١) نشبت لك .

(٢—٥) « لنا . . . غاديا » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ — (٧ — ٨) « وثرماء . . . جائياً» عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ — (١٤ — ١٧) « ودهماء . . . هزال » ديوان أبى نواس ١٤٧ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وقال فيها أيضاً :

رأيتُ قدورَ الناس سُوداً على الصِلى ، وقدرُ الرَقاشيِّين زَهراء كالبدر
ولو جئتَها ملآى عبيطاً مجزَّلا ، لأخرجتَ ما فيها على طَرَف الظفر
يبيِّنهـــا* للمُعْتفى بفنائِهـم ثلاثٌ كحظِّ الثاء من نُقَط الحبر
تَبَيَّنُ فى محراثهـــا أن عودَه سليم صَحيح ، لم يُصِبه أذَى الجمر
تروح على حيٍّ الرَباب ودارِم وسَعد ، وتعرُوها قَراضِبة الفِزر
وللحيِّ عمرو نفحة من سِجالها وتغلبَ والبيضِ اللهاميم من بكر
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها أمامهم الحولىُّ من ولد الذرّ

وقال بعضُ التَميميِّين ، وهو يهجو ابن حبَّار :

لو أنّ قِدراً بكَت من طول ماحُبِست من الخُفوف* بكَت قدْرُ ابنِ حبّار
ما مسَّها دَسَم مذ فضّ معدِنُهـا ولا رَأت بعدَ نار القَيْن من نار

والشُعوبية والآرادْمَردية* المبغِضون لآل النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه ، ممّن فَتح الفتوح ، وقتل المجوس ، وجاء بالإسلام ، تَزيدُ فى جُشوبة عيشهم ، وخشونة ملبسهم ، وتنقُص من نعيمهم ورفاغة عَيْشهم . وهم من أحسنِ الأمَم حالا مع الغَيْث ، وأسوئهم حالا إذا خفّت السحاب . حتّى ربّما طبَّق الغيثُ الأرض بالكلأ والماء فعندَ ذلك يقولُ المصرم والمقتر* : « مرعى ولا أكولة ، وعُشبٌ ولا بَعير ، وكَلأٌ تيجَع له كَبِد المصرِم » . ولذلك قال شاعرهم :

وجُنِّبتَ الجيوشَ* أبا زُنَيب* وجاد على مسَارحِك السَحاب

---

(٤) يثبتها (فان فلوتن) — (١٠) الخفوف (عيون الأخبار) : الجفوف ك ، القفور (الخطيب) — (١٦) والمقتر (فان فلوتن) : والمقبل ك — بنحع كد ك — (١٨) الجيوس ك ، الحيوس ؟ — ربيت ك .

(٢ — ٨) « رأيت . . . الذر » الديوان ص ١٤٧ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٦٨ ؛ العقد الفريد ٦ : ١٩٠ — ١٩١ ط لجنة التأليف — (١٠ — ١١) « لو أن . . . نار » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ ، البخلاء للخطيب ورقة ٢٤ — (١٦) « مرعى ولا أكوله » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٢٣١ — « عشب ولا بعير » مجمع الأمثال ١ : ٤٧٨ — (١٦ — ١٧) « كلأ تيجع له كبد المصرم » البيان والتبين ٢ : ٨١ ط ١٣٣٢ هـ ، الميدانى ٢ : ١١٠ — (١٨) « وجنبت . . . السحاب » البيان والتبين ٢ : ٨١ ط ١٣٣٢ هـ ، معانى الشعر للأشنانداني ص ١٠٨ .

وإذا نظرتَ فى أشعارهم علمتَ أنهم قد أكلوا الطيِّبَ وعَرَفوه ، لأنّ الناعِم من الطعام لا يكونَ إلّا عندَ أهل الثراء وأصحاب العيش . فقال زياد بنُ فيّاض ، يذكرُ الدرمك ، وهو الحوّارَى :

ولاقت فتى قَيسِ بنِ عَيْلان ماجِداً إذا الحربُ هرّتها الكماةُ الفوارسُ
فقامَ إلى البَرك الهِجان بسيفه وطارتْ حِذارَ السيف دُهمٌ قناعِس
فصادفَ حدُّ السيف قبّاء جَلْعداً فكاسَت وفيها ذو غِرارين نائس
فأطعمَها شَحماً ولَحماً ودَرمكا ولم تثنها عنه الليالى الحنادس

وقال :

تظلُّ فى دَرْمك وفاكِهة وفى شِوَاءٍ — ما شئتَ — أو مرقه

وقال جَرير :

تكلّفنى معيشَةَ آلِ زَيد ومن لى بالمرقّق والصناب ؟

وقال النَّمِر بن تَوْلَب :

لها ما تشتهى : عَسَل مصفّى وإن شاءتْ فحوّارَى بسَمن

ومن أشرفِ ما عرَفوه من الطعام ، ولم يُطعِم الناسَ أحدٌ منهم ذلك الطعامَ إلا عبد الله بن جُدعان ، وهو الفالوذَق . مدَحه بذلك أميّةُ بنُ أبى الصَّلت ، فقال :

إلى رُدُح من الشِيزَى عَلَيها لبابُ البرّ يلبَك بالشّهاد

---

(٧) السم لك — (١٤) هنا ، قبل : « ومن أشرف » ، سقط بقيت منه هذه الكلمة ، وهى شطر بيت : « وحديثها أشهى من التمر » . فيبدو أنه بعد أن تكلم عن الدرمك أخذ فى الكلام عن التمر ثم انتقل إلى الفالوذق — أشرف : أشراف لك — (١٥) لعلها مقحمة .

(١١) « تكلفنى . . والصناب » ديوان جرير ص ٤٥ ط الصاوى ، القاهرة ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٩١ ط ليدن — (١٦) « إلى ردح . . . الشهاد » ذيل الأمالى ص ٣٨ ، شعراء النصرانية ص ٢٢٢ .

ولهم الثريد ، وهو فى أشرافهم عامّ ، وغلبَ عليه هاشم ، حين هشَم الخبزَ لقومِه ، وقد مُدِح به فى شِعر مَشْهور ، وهو قوله :

٣ عمرُو العلَا هَشَم الثريدَ لقومِه ورجال مكّةَ مُسْنِتون عِجَاف

ومن الطعامِ الممدوح الحَيْس . وتزعُم مخزوم أنّ أول من حاسَ الحَيْس سُوَيد بن هَرَميّ . وقال الشاعر :

٦ وإذا تكونُ شَديدة أدعَى لها وإذا يحاسُ الحَيْس يُدعَى جُندُب

والخبزُ عندَهم ممدوح وكان عبد الله بنُ حَبيب العنبرى ، أحدُ بنى سَمُرة ، يقال له: آكلُ الخبز ، لأنه كان لا يأكلُ التمر ، ولا يرغبُ فى اللبن . وكان سيِّد بنى العنبر فى

٩ زَمانه . وهم إذا فخَروا قالوا : منّا آكلُ الخبز ومنّا مجيرُ الطير ، يعنى ثوبَ ابن شَحمة العنبرى . وهم يقدِّمون اللحم على اللبن ، ولذلك قال شاعرهم :

ولو أنّها لم تدفع الرِسْل دمَّها رأى بعضُها من بعض أنسابها دما

١٢ ويقدِّمون اللحمَ على التمر ، ألا تراه يقول:

قَرَنى عُبيد تمرَها وقريتُها سَنام مُصرّاة قليلٍ ركوبُها

فهل يَسْتوى شحمُ السَنام إذا شتَا وتمر جُواثا حين يُلقى عَسيبُها

١٥ وليس يكون فوقَ عقر الإبل وإطعامِ السنام شىء . والعَقْر هو النَّجْدة ، واللبَنُ هو الرسْل . قال الهُذَلىّ :

لو أنّ عندى من قُريم رَجْلا لمنعُونى نجْدَةً أو رِسلا

(١٠ – ١١) [وهم يقدمون اللحم على اللبن . . . دما] (فان فلوتن) .

---

(٣) « عمرو . . . عجاف » فضل هاشم على عبد شمس (رسائل الجاحظ) ص ٦٨ ، نوادر أبى زيد ١٦٧ ، الكامل للمبرد ١ : ١٧٦ ، صبح الأعشى ١ : ٣٥٨ – (٦) « وإذا . . . جندب » عيون الأخبار ٣ : ١٩ ، معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢١٥ ، خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٣٢ ط السلفية . لسان العرب ٧ : ٣٦٢ – (١٧) « لو أن . . . أو رسلا » الأمالى ١ : ٢٠٧ ، اللآلى ص ٤٩٤ ، الإغانة ٢٠ : ٢١ .

وقال الهُذَلى :

إلا إنّ خيرَ الناس رِسْلا ونَجْدة

وقال المزّار بن سعيد* الفَقْعَسى** : ٣

لهم إبلٌ لا من دِيات ولم تكن مُهوراً ولا من مَكْسَب غير طائل
ولكن حَماها من شَماطِيطِ غَارة حِلال العَوالى فارسٌ غيرُ مائل
مخيَّسَة* فى كلِّ رِسل ونجدة ومعرُوفة ألوانُها فى المعاقِل ٦

وقد وصفوا الثريد ،.فقال الراعى :

فباتَ يَعدّ* النجم من مستَحيرة سريع على أيدى الرجال جمودُها

< وقال حسان بن ثابت > * ٩

ثَريد كأنّ السمنَ فى حَجَراته نجوم الثريّا أو عيونُ الضياوِن

وقال بن هَرمة :

إلى أن أتاهم بشيزيَّة تعنُّ كواكبُها الشبَّك ١٢

وقال كامل بنُ عِكرمة** :

فقرَّب بينَهم خُبزاً وكُوما* كساها الشحْمُ ينهمر انهمارا*
يدِفُّ بها غلاماه جَميعاً تردّهما إلى الأرض انهِصارا ١٥
فأصبَح سُورهم فيها — وعلمى لو ان العلم صنفها — إسارا

---

(٣) سعد ك — (٦) محبسة ك — (٨) فا من بعد ك — (٩) < وقال حسان بن ثابت > : ساقطة فى الأصل ، وقال آخر (فان فلوتن) — (١٤) وكوما : ركودا ك — ينهمر انهمارا (مرسية) : ينهصر انهصار ك

---

(٨) « فبات . . . جمودها » الحماسة لأبى تمام ٢ : ٢١٥ ، الكامل للمبرد ٢ : ١٨٨ ، تهذيب الألفاظ ٦٤٠ — (١٠) « ثريد . . . الضياون » الحيوان ٥ : ٣٢٩ ط الحلبى ، لسان العرب ١٧ : ١٣٢.

فهذا فى صِفة الثريد .

وقال بشرُ بن أبى خازم * * :

٣ ترى وَدَكَ السديف على لِحاهم كلَوْن الرار * لبَّده الصَّقيع

وقال الآخر :

جلا الأذفَرَ الأحوى من المسك فَرْقه وطِيبُ الدهان رأسَه ، فهو أنزع

٦ إذا النَفَر السُود اليمانُون حاولوا له حَوْك بردَيه * أرقّوا وأوسَعوا

وقال الزُبير بن عبدِ المطّلب * * :

فإنا قد خُلِقنا إذ خُلقنا لنا الجبرَاتُ والمِسك الفَتيتُ

٩ ولولا الُحمس لم يلبَس رِجال ثياب أعزة * حتى يموتوا

ثيابُهم شِمال أو عَباء بها دَنَس كما دَنِس الحَميت

فميّز كما ترى بين لِباس * الأشراف وأهل الثروة وغيرهم .

١٢ وقال الأعشى :

للشرف * العَود فأكنافه ما بين حُمران فينصُوب *

خيرٌ لها إن خَشِيَت جحرة من ربّها زيدِ بن أيوب

١٥ مُتَّكِئاً تُقرَع أبوابهُ يسعَى عليه * العبدُ بالكُوب

وقال * * أبو الصَلت بنُ أبى ربيعة * :

اشرَب هَنيئاً عليك التاجُ مرتفِقاً فى رَأس غُمدان داراً منك مِحلالا

---

(٣) الراد (فان فلوتن) – (٦) برد ك – (٩) ثياباغرة (فان فلوتن) – (١١) الناس (فان فلوتن) – (١٣) الشرف ك – فتنضوب ك – (١٥) عليها ك – (١٦) ابن ربيعة ك

(٥ – ٦) « جلا . . . واوسعوا » الكامل للمبرد ١ : ١٢٢ – ١٢٣ ط الأزهرية – (١٣ – ١٥) للشرف « . . . بالكوب » ديوان الأعشى ص ٢٣٧ ط ليدن ، معجم البلدان ٨ : ٥٢٨ ط السعادة – (١٧) « اشرب . . . محلالا » الشعر والشعراء ١ : ٤٣٣ ، ط الحلبى ، معجم البلدان ٦ : ٣٠٢ (فى سيف بن ذى يزن)

وليسَ هذا من باب الإفراط . و بابُ الإفراط كقول جِران العَوْد حين وصفَ نفسَه وعشيقتَه ، فقال :

فأصبحَ فى حيثُ التَقَينا غُدَيَّةً * سِوار وخَلخال ومِرط ومُطرَف ٣
ومنقَطِعاتٌ من عُقود تركنها كجَمْر الغَضَا فى بعضِ ما تتخطرف

ومن ذلك قولُ عَدىٍّ بن زَيد * * :

يا لُبينى أوقدى النـارا إن من تَهْوَين قد حارا ٦
ربّ نار بتُّ أرقُبها تقضِمُ الهِندىّ والغـارا

وقال الآخر :

أرى فى الهوى ناراً لظبيةَ أوقدَت يُشَبُّ وَيُذكى بعدَهنّ وُقودُها ٩
تشبُّ بعيدان اليَلَنْجُوج مَوْهِنا وبالرَنْد أحياناً فذاك وَقودها

قد ذكرنا الطعامَ الممدوح ماهو، وذكرنا أحدَ صِنفى الطعام المذموم والصنفُ الآخرُ كالخزيرة * التى تعابُ بها مُجاشِـع بنُ دارم ،وكنحو السَخِينة التى تعابُ بها قريش. ١٢

قال خِداش بن زُهير * * :

يا شَدَةً ما شَدَدنا غير كاذبةٍ على سَخِينةَ لولا الليلُ والحرمُ

وقال عبد الله بن همّام * * : ١٥

إذًا لضربتهم حتى يعودوا بمكّةَ يلعقون بها السَخينا

---

(٣) غدية (الديوان) : غنيمة ك — (١٢) الخزيرة (فان فلوتن) .

(٣ — ٤) « فأصبح . . . تتخطرف » ديوان جران العودص ٢٤ ط دار الكتب المصرية — (٦ — ٧) « يالبينى . . . والغارا » الأغانى ٢ : ١٤٧ — (١٤) « ياشدة . . . والحرم » طبقات ابن سلام ص ٣٣ ط ليدن .

وقال جرير :

وُضِع الخزيرُ ، فقيلَ : أين مجاشِعٌ فشحا* جحافلَه هِجفٌ هِبلَع

والخزيرُ لم يكن من طَعامهم ، وله حديث . والسَخينة كانتْ من طَعام قريش .

وتهجىَ الأنصارُ وعبدُ القَيْس وعُذرة وكلُّ من كانَ بقُرْب النخل ، بأكل التَّمر ، فقال الفرزدق :

لستُ بسَعديّ على فيه حَبرة* ولستُ بعبدىّ حَقيبته التمرُ

وتهجى أسد بأكل الكلاب ، و بأكل لُحوم الناس . والعربُ إذا وجدت رجلاً من القَبيلة قد أتى قَبيحاً ألزمتْ ذلك القبيلةَ كلها ، كما تمدحُ القبيلة بفعل جميل ، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها . فتهجو قُريشاً بالسَخينة ، وعبدَ القيس بالتَمر . وذلك عامّ فى الحيين جميعاً ، وهما من صالح الأغذية والأقوات . كما تهجُو بأكل الكلابِ والناس وإن كانذلك إنما كان < من > *رجل واحد، ولعلك* إذا أردتالتحصيل تجده معذوراً.

قال الشاعر :

يا فَقْعَسى لم أكلتَه لِمَه ؟ لو خافك الله علَيه حرَّمه

فما أكلتَ لحمَه ولا دَمه

وقال فى < ذلك > * مُساور بنُ هند :

إذا أسَديَّة ولدت غلاماً فبشِّرها بلؤم فى الغلام

تخرِّسها نساءُ بنى دُبَير بأخبثِ مايجدنَ من الطعام

ترى أظفار أعقدَ* مَلْقَيات براثِنُها* على وَضَم الثُمام

---

(٢) فحشا ك – (٦) خبزة ك – (١١) < من > : لست بالأصل – فلعلك ك – (١٥) < ذلك > : ليست بالأصل – (١٨) اطفا غفار ك – ترابها ك .

---

(٢) «وضع . . . هبلع» ديوان جرير ص ٣٤٥ ط الصاوى – (٦) «لست . . التمر» الكامل للمبرد ٢ : ٧٠ ط الأزهرية – (١٣ – ١٤) «يا فقعسى . . . دمه» الحيوان ١ : ٢٦٧ ، ٢ : ١٥٩ – ١٦٠ ، ٤ : ٤١ ط الحلبى – (١٦ – ١٨) «إذا . . . الثمام» الحيوان ١ : ٢٦٧ ط الحلبى.

وقال :

بنى أسد إن تمحل العامَ فقعسٌ فهذا إذًا دهرُ الكلاب وعامُها

وقال الفرزدق :

إذا أسديّ جاع يوماً ببلدة وكان سَميناً كلبُه فهو آكله

وقال شُرَيح بن أوس، وهو يَهجو أبا المهوّش الأسدى :

عَيّرتنا تمر العراق وبرّه وزادُك أيرُ الكلب حَشْحَشه* الجمر

وتُهجى أسد وهُذَيل والعَنْبر و باهِلة بأكل لحوم الناس . قال الشاعر فى هُذيل :

وأنتم* أكلتُم سَحْفة ابن محدَّم زَباب* فلا يأمنكم أحدٌ بعدُ

تداعَوْا له من بين خمس وأربع وقد نَصَل الأظفار وانسَبأ الجِلد

ورفّعتم* جُردانه لرئيسكم معاويةَ الفلحاء يا لك ما شَكَد

وقال حسان فيهم :

إن سَرّك الغدرُ صِرفا لا مِزاجَ له فائت الرجيعَ وسَل عن دار لحيانِ

قوم تواصَوا بأكل الجار بينهم فالشاةُ والكلبُ والإنسانُ سِيّانِ

وهجا شاعرٌ بلعنبر، وهو يُرِيد ثوبَ* بن شَحمة ، وفيه حديث :

عجلتُم ما صادكم علاج* من المُنُوق ومن النّعاج

حتى أكلتم طَفلة كالعاج

---

(٦) حشحشه (فان فلوتن) — (٨) وأنتم (الحيوان) : إن أنتم ك — رباب ك — (١٠) ونفعتم ك (١٤) بن أيوب ك ، انظر الحيوان ١ : ٢٦٩ — (١٥) علاجى (فان فلوتن) .

---

(٢) « بنى . . . وعامها » الحيوان ١ : ٢٦٧ — (٤) « إذا . . . آكله » الحيوان ١ : ٢٦٧ ط الحلبى — (٦) « عيرتنا . . . الجمر » الحيوان ١ : ٢٦٨ ، ٣١٩ — (٨ — ١٠) « وأنتم . . . شكد » الحيوان ١ : ٢٦٨ — ٢٦٩ — (١٢ — ١٣) « إن سرك . . . سيان » الحيوان ١ : ٢٦٨ ، ديوان حسان ص ١٠١ ط تونس — (١٥ — ١٦) « عجلتم . . . كالعاج » الحيوان ١ : ٢٦٩ .

ولما عُيِّر ثوبُ* بن شَحمة بأكل الفتَى لحمَ المرأة ، إلى أن نزل هو من الجبل ، قال* :

يا بنت عمِّى ما أدراك ما حسَبى إذ لا* تجنّ خبيثَ الزاد أضلاعى
إنّى لذو مِرَّة تُخشى بوادرُه عند الصِياح بنَصل السَيف قرّاع

فهجا ثوبَ بن شَحمة بأكل لُحوم امرأة ، وكان ثوبٌ هذا أكرمَ نفسا عندَهم من أن يَطْعم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جُوعا . وله قِصَص . ولقد أسرَ حاتمَ الطائىَّ ، وظلَّ عندَه زمانا .

وقال الشاعرُ يهجُو باهلةَ بمثل ذلك :

إنَّ غفاقا أكلته باهِله تمشَّشوا عِظامه وكاهِله
وأصبَحَتْ أمّ غِفاق ثاكله

وهُجيت بذلك أسَد جميعاً ، بسبَب رملة بنتِ فائد بنِ حَبيب بنِ خالد بن نَضلة** ، حين أكلَها زوجُها وأخوها أبو أرِب ، وقد زَعَموا أن ذاك إنّما كان منهما من طَريق الغَيْظ وَالغَيْرة ، فقال ابنُ دارةَ** ينعى ذلك عليهم :

أفى أنْ رويتم واحْتَلبتم شُكيَّكم* فَخَرتم ؟ وفيمَ الفقعَسِىُّ من الفَخر ؟
بِرَملة كانت زَوْجةً لفريقكم* وَأختَ فَريق ، وهى مُخزية الذِكر
أبا أرب كيف القرابة بينَكم وإخوانكم من لَحم أكفالِها عُجر ؟

وقال :

عَدمت نساء بعد رَملة فائدٍ بنى قَفْعس تَأتيكم بأمانِ
وباتَتْ عَروساً ثم أصبَحَ لحمُها جلا* فى قُدور بينكم وجِفان

(١) أيوب ك – فقال ك – (٢) إذ لا (الحيوان) : إلا ك – (١٣) شكوتكم ك – (١٤) لقربكم ك – (١٨) حلا ك .

(٢ – ٣) « يا بنت . . . قراع » الحيوان ١ : ٢٦٩ – (٨ – ٩) « إن غفاقا . . . ثاكله » الحيوان ١ : ٢٦٩ ط الحلبى .

من حديث القرى عند العرب

وقال البراء بن ربعى ** ، أخو مُضرِّس بن ربعى ** ، يُعيِّر صلتا * ، وهو أخوه ، فقال :

يا صلتُ إنّ محلَّ بيتِك مُنْتِن فارحَلْ فإنّ العُود غير صَليب
وإذا دَعاك إلى المعاقِل فائدٌ فاذكرْ مَكانَ صِدارها المسلوبِ * ٣
والآن فادعُ أبا رِجالٍ إنّها شنعاء لا حِقة بأمٍّ حبيب

وأبو رجال هذا عمّها . وقال فى ذلك مَعْروف الدُبَيرى :

إذا ما ضِفتَ ليلا فقعسيا فلا تَطْمَع له أبداً طَعاما ٦
فإنّ اللحم إنسانٌ فدَعه وخيرُ الزاد ما مَنَع الحرَاما

وعُيِّرت كلبٌ وَالقين * بنُ جسر بأكل الحصى . وذلك بسبَب النساء ، وذلك أن واحدًا منهم لما أطعِم خصيَيه بسبَب العبَث بامرأة ، سار مع من رَكِبوا ذلك مِنه فيهم ٩ مثل < هذه > * السِيرة ، فقال بعضُ من ركب ذلك :

أبلغ لدَيك بنى كَلب وإخوتَهم كلباً فلا تجتَروا بعدى على أحد
هذى الحُصى فكلُوها من نُفوسِكم كما أكلتُم خُصاكم فى بنى أسَد ١٢

وهذا الباب يكثُر ويطول ، وفيما ذكَرنا دليلٌ على ماقصَدْنا إليه مِن تَصْنيف الحالات . فإن أردتَه مجموعاً فاطلبه فى كِتاب الشعُوبية . فإنه هناك مُسْتقصًى .

والأعرابىّ إذا أراد القِرى ولم يرَ نارا نبَح ، فيجاوبُه الكلبُ ، فيتبعُ صوته . ولذلك ١٥ قال الشاعر :

ومُسْتَنبحٍ أهل الثرى يطلبَ القِرى إلينا ومُمساه من الأرض نازِح

---

(١) كلبا ك – (٣) المصلوب ك – (١٠) < هذه > : ليست بالأصل .

(٦ – ٧) « إذا ما . . . الحراما » الحيوان ١ : ٢٦٨ – (١٧) « ومستنبح . . . نازح » الحيوان ١ : ٣٧٩ ط الحلبى .

وقال الآخر :

عَوى حَدَسٌ والليلُ مستحلِس الندى لمستَنْبِحٌ بين الرُّمَيْثَة والحَضْر

ويدلُّك على أنّه ينبحُ وهو على راحِلته لينبحَه الكلبُ قول حُميد الأرقط : ٣

وعاوٍ عَوَى والليل مستحلِس الندى وقد ضَجَعت للغَور تاليةُ النجم

فمنهم من يُبرِزُ كلبَه ليجيب ، ومنهم من يَمنعه ذلك . قال زيادُ الأعجم ، وهو يَهْجُو بنى عِجل : ٦

وتكعمٌ كلبَ الحيِّ من خَشية القِرى وقِدرُك كالعَذراء من دونِها سِتر

وقال آخر :

نزلنا بعمار فأشلَى كلابَه علينا فكدنا بينَ بيتَيْه نؤكل ٩

فقلتُ لأصحابى ، أسِر إليهم : أذا اليومُ أم يومُ القِيامة أطول ؟

وقال آخر :

أعددتُ للضِيفان كَلباً ضاريا عندى وفَضْلَ هِراوة من أرزن ١٢

وقال أعشى بَنى تغلب :

إذا حلت معاويةُ بنُ عَمرو على الأطواء خنَّقت الكِلابا

---

(٢) حدس (فان فلوتن) : حوس ك — بمستنبح ك — (٧) وتعلم ك .

---

(٤) « وعاو . . . النجم » الحيوان ١ : ٣٧٩ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٤ — (٧) « وتكعم . . . ستر » الحيوان ١ : ٣٨٥ ؛ عيون الأخبار ٣ : ٢٤٢ ، لسان العرب مادة ك ع م — (٩ — ١٠) « نزلنا . . . أطول » الحيوان ٢ : ٢١٠ — (١٢) « أعددت . . . أرزن » الحيوان ٢ : ٢١٠ ، البيان والتبيين ٣ : ٤١ — (١٤) « إذا . . . الكلابا » الحيوان ١ : ٣٨٥ ، عيون الأخبار ٣ : ٣٦٣ .

وأنشدنى ابنُ الأعرابىِّ ، وزعم أنه من قَول المجنون :

ونارٍ قد رفعتُ لغير خير رجاء أن تأوِّبنى الرعاء
تأوّبنى طويلُ الشخص منهم يجرُّ ثقالَه* يرجو العشاء ٣
فكان عشاءه عندى خَزِير بتمر جَثِيثة* فيه النواء

وقال فى خلاف ذلك حسّان بن ثابت :

أولادُ جَفنة حولَ قبر أبيهم قبر ابنِ مارية الكريم المُفْضل ٦
يُغْشَون حتّى ما تهرُّ كلابُهم لا يَسألون عن السَّواد المقبِل

وقال المرّار الحمانى* فى كلبه :

ألفَ الناسَ فما ينبحُهم من أسِيفٍ يبتَغِى الخيرَ* وحرّ ٩

وقال عمران بن عصام** :

لعبد العزيز على قَومه وغيرِهم مِنَن غامِرَه
فبابُك ألْيَن أبوابهم ودارُك مأهولة عامِره ١٢
وكلبُك آنَسُ بالمعتَفِين من الأمّ بابنتِها الزائرة
وكفك حينَ ترى السائلـ ين أندَى من الليلة الماطِره
فمنكَ العطاء ومنّا الثنـاء بكلٍّ محبَّرة سائره ١٥

وفى أنْس الكلاب بالناس ، لطُول الرؤية لهم ، شعرٌ كثير . وقال الشاعر :

يا أمّ عمرو أنجِزى المَوْعودا وارْعَىْ بذاك أمانَةً وعهودا

---

(٣) بحر ثقاله ك ، يجر ثقاله (فان فلوتن) — (٤) مسه ك — (٨) الحمانى (فان فلوتن عن الحيوان مخطوطة كبريلى) : الحملى ك — (٩) الخمر ك .

(٦ — ٧) « أولاد . . . المقبل » الحيوان ١ : ٣٨١ ، ديوان حسان ص ٧٢ ط تونس — (٩) « الف . . وحر » الحيوان ١ : ٣٨٢ — (١١ — ١٥) « لعبد العزيز . . . سائره » الحيوان ١ : ٣٨٢ ، كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ، الأغانى ١ : ٣٣٢ ، ديوان المعانى ١ : ٣٣ .

ولقد طرقتُ كلابَ أهلك بالضُحى حتّى تركتُ عَقـــورهن رَقودا
يُضرِبن بالأذنابِ من فَرَح بنا متوسِّـــدات أذْرُعاً وخدودا

وقال ذو الرُّمّة* :

رأتْنى كلابُ الحىِّ حتّى أَلِفْنَنى ومُدّت نسوجُ العنكبوت على رَحلى*

وقال الآخر :

بات الحوَيرثُ والكلابُ تشمّه وسَرَت بأبيضَ كالهلال على الطَوى

هذا البيتُ يدخُل فى هذا الباب . وقال الآخر :

لو كنتُ أحمِل خَمراً يومَ زرتكم لم ينكِرِ الكلبُ أنى صاحبُ الدار
لكن أتيتُ وريحُ المِسك ينفحنى* والعنبرُ الوردُ أذكيه على النار
فأنكَرَ الكلبُ ريحى حينَ أبصرنى وكان يَعرفُ ريحَ الزقِّ والقار

وقال هلالُ بن خَثْعم* :

إنى لعَفٌّ عن زيارة جارتى وإنى لمشنُوء إلىَّ اغتيابُها
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكن لها زَؤوراً ولم تأنَسْ إلىّ كلابها
وما أنا بالدارى أحاديثَ بيتها ولا عالمٌ من أىِّ حَوك ثيابها

وقال ابنُ هَرمة فى فَرَح الكلب بالضيف ، لعادة النَّحر :

وفَرحةٍ من كلابِ الحى يتبعُها مَحْض يزفُّ به الراعى وترعيبُ

---

(٤) رجلى (فان فلوتن) — (٩) ينفحنى ك : يفعمنى (فان فلوتن) — (١١) حكيم ك .

(٢٣٩ : ١٧ — ٢٤٠ : ٢) « يا أم عمرو . . . وخدودا » الحيوان ١ : ٣٨٠ — (٤) « رأتنى . . . رحلى » الحيوان ١ : ٣٨١ — (٦) « بات . . . الطوى » الحيوان ١ : ٣٨١ — (٨ — ١٠) « لوكنت . . . والقار » الحيوان ١ : ٣٨٠ ، حماسة أبى تمام ٢ : ٢٢٣ ، اللآلى ص ١٩١ ، معجم المرزبانى ٢٦٧ — (١٢ — ١٤) « إنى . . . ثيابها » الحيوان ١ : ٣٨٢ — ٣٨٣ ، عيون الأخبار ٣ : ١٨٣ — ١٨٤ — (١٦) « وفرحه . . . وترعيب » الحيوان ١ : ٣٨٥ ، اللآلى ص ٥٠٠ .

وقال ابن هَرمة :

ومستنبحٍ نبّهت كَلبى لصَوْته فقلتُ له : قُمْ باليَفاع فجَاوِب
فجاء خَفىَّ الشخص قد رامه الطوَى بضربة مفتُوق الغِرارَين قاضِب
فرحّبتُ واستبشرتُ حينَ رأيتُهُ وتلك التى ألقَى بهـا كلَّ نائب

وفى معنى الكلب من النباح يقول ابنُ أعيا** فى الحطيئة :

ألا قبَح اللهُ الحطيئـــة ! إنه على كلِّ ضيفٍ ضافَه فهو سالِح
دفعتُ إليه وهو يخنُق كلبـــه ألا كلُّ كلب — لا أبالك — نابحُ
بكيتَ على مَذق خبيثٍ قريتَـه ألا كلُّ عَبْسىّ على الزاد نائح

وقد قالوا فى صِفة أبواب أهل المقدِرة والثروة ، إذا كانوا يقومون بحقِّ النعمة . قال الراجز :

إن الندَى حيثَ ترى الضِغاطا

وقال الآخر :

يزدَحِم الناسُ على بابه والمشرعُ* السَهل كثيرُ الزحام

وقال الآخر :

وإذا افتقرتَ رأيتَ بابك خالِيا وترى الغنَى يهدى لك الزوّارا

---

(٢) ومستنبح . . . لصوته : ساقط فى الأصل — (١٣) والشرع (فان فلوتن) .

(٢ — ٤) « ومستنبح . . . نائب » الحيوان ١ : ٣٦٧ — (٦ — ٨) « ألا قبح . . . نائح » الحيوان ١ : ٣٨٥ — ٣٨٦ ، الأغانى ٢ : ١٧٢ — ١٧٣ — (١١) « إن الندى . . . الضغاطا » البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ط ١٩٣٢ م (للتميمى) ، الحيوان ٥ : ٤٤٥ ، عيون الأخبار ١ : ٩١ ، الكامل للمبرد ١ : ١١٨ (لرؤبة ، وقال أبو الحسن الأخفش لابن أبى نخيلة) — (١٣) « يزدحم . . . الزحام » كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ، عيون الأخبار ١ : ٩٠ ، الكامل للمبرد ١ : ١١٨ — (١٥) « وإذا افتقرت . . . الزوار » انظر البيان والتبيين ١ : ١٥٧ .

وليسَ هذا من الأوّل ، إنما هذا مثلُ قوله :

ألم ترَ بيتَ الفقر يُهجر أهلُه وبيتَ الغنى يُهدَى له ويزار

وهذا مثلُ قوله :

إذا ما قلّ مالك كنت فرداً وأيُّ الناس زوّار المقلّ ؟

والعرَب تفضّل الرجلَ الكسُوب والغرّ* الطلوب ، ويذمّون المقيمَ الفشِل والدثور الكسلان* . ولذلك قال شاعِرُهم ، وهو يمدَح رجُلا :

شتّى مطالبُه ، بعيدٌ همُّه جوّاب أودِية ، بَرود المضجَع

ومدح آخرُ نفسه ، فقال :

فإن تأتياني فى الشتاء وتلمسَا مكانَ فِراشى فهوَ بالليل باردُ

وقال آخر :

إلى مَلِك لا ينقُض النأى عزمَه خَروج تَروك للفِراش الممهَّد

وقال الآخر :

فِداك قصيرُ الهمِّ يملأ عَينه* من النّوم ، إذ ملقى فِراشك باردُ

وقال آخر :

أبيضُ بسّام بَرُود مضجعُه اللُقمةُ الفردُ مراراً تشبعه

---

(٥) لعلها : والغرة — (٥ — ٦) والدثر والكسلان ك — (١٣) عزمه ك

---

(٢) « ألم تر . . . ويزار » عيون الأخبار ١ : ٢٤٢ — (٤) « إذا . . . المقل » عيون الأخبار ١ : ٢٤٢ .

وهم يمدَحون أصحابَ النيران ، ويذمُّون أصحاب الإخماد . قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكل ريح إذا الظلماء جَلَّلت اليفاعا
وما إن كان أكثرَهم سَواما ولكنْ كان أرحبَهم ذراعا

وقال مزرِّد بن ضِرار :

فأبصرَ نارى وهى شقراء أوقِدَت بعلياء نَشْزٍ ، للعيُون النواظِرِ

جعلها شقراء ليكونَ أضوأَ لها . وكذلك النارُ إذا كان حَطَبها يابساً كان أشدَّ لحمرة نارِه ، وإذا كثُر دخانُه قلَّ ضوءه . وقال الآخر :

ونار كسَحْرِ* العَود يرفعُ ضوءَها مع الليل هبَّاتُ الرِّياحِ الصوارِدُ

وكلّما كان موضعُ النار أشدَّ ارتفاعاً ، كان صاحبُها أجودَ وأمجدَ ، لكثرة من يَراها من البُعد . ألا ترى النابغةَ الجَعْدى** حين يقول :

منعَ الغدرَ فلم أهمم به وأخو الغَدر إذا هَمَّ فعل
خَشيةُ الله وأنى رَجُل إنما ذِكرى كنَار بقَبَل*

وقالت خَنساء السُّلَمية** :

وإن صَخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه عَلَم فى رَأسه نار

وليس يمنعُنى من تفسير كلِّ ما يمرُّ إلا اتِّكالى على معرفتك . ولس هذا الكتابُ نفعُه إلا لمن رَوَى الشِعر والكَلام ، وذَهَب مذاهِب القوم ، أو يكون قد شدا منه شَدواً حسَناً .

---

(٨) كسجر (فان فلوتن) — (١٢) تقتيل ك .

(٢ — ٣) « له نار . . . ذراعا » حماسة أبى تمام ٢ : ٢٥٥ ط ١٣٣٥ هـ (لزياد الأعرابى الكلابى) — (٥) « فا بصر . . . النواظر » الحيوان ٥ : ٦٣ — (٨) « ونار . . . الصوارد » الحيوان ٥ : ٦٣ ، حماسة أبى تمام ٢ : ١٢٩ (١١ — ١٢) « منع . . . بقبل » اللسان ١٤ : ٥٩ .

من دلائل الكرم عند العرب : الأيمان

ومما يدلّ على كرَم القوْم أيمانُهم الكريمة وأقسامُهم الشَريفة . قال مَعْدَان بن جواس الكِندى** :

إن كان ما بلَّغت عنى فلامَنى صَديقى وحُزَّت من يدىَّ الأناملُ
وكفَّنت وحدى مُنذِراً فى ردائه وصادَفَ حَوْطا من أعادىَّ قاتلُ

وقال الأشتر مالكُ بنُ الحارثِ ، فى مثل ذلك أيضاً :

بقّيت وفرى* وانحرفتُ عن العلى ولقيتُ أضيافى بوَجه عَبوس
إن لم أشنّ على ابن حَرب غارة لم تخلُ يوماً من نِهاب نفوس
خَيْلا كأمثال السَّعالى شُرَّبا* تعدو ببيض فى الكَريهة شُوس
حَمِى الحديدُ عليهم فكأنّه لمعانُ بَرق أو شُعاع شُموس

وقال ابنُ سَيحان**

حرامٌ كنّتى منى بسُوء وأذكُر صاحبى أبداً بذامِ
لقد أحْرمت ودّ بنى مُطيع حرامَ الدُّهن للرَجُل الحرَام
وخزّهم الذى لم يشتروه* ومجلسَهم بمعتلج الظلام
وإن جنَف الزمان مددتُ حبلا متيناً من حِبال بنى هشام
وريقٌ عودُهم أبداً رطيب إذا ما اغبرَّ عِيدان اللئام

(٦) وفرى ك : وحدى (فان فلوتن) — (٨) شربا ك : سربا (فان فلوتن) — (١٣) لم يشتروه (البيان والتبيين) : قد يشتروه ك .

(٣ — ٤) « إن كان . . . قاتل » حماسة أبى تمام ١ : ٤٩ ، معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٠٧ ، أمالى القالى ١ : ١٨٧ ، وانظر التنبيه لأبى عبيد ص ٥٧ — (٦ — ٩) « بقيت . . . شموس » حماسة أبى تمام ١ : ٤٨ — ٤٩ ، أمالى القالى ١ : ٨٥ ، معجم المرزبانى ٣٦٢ — (١١ — ١٥) « حرام . . . اللئام » البيان والتبيين ٣ : ٢١٠ ط ١٣٣٢ هـ ، الأغانى ٢ : ٢٥٥ .

تعليقات وشروح

تعليقات وشروح

١ ــ كتاب اللصوص (١ : ٢)

كتاب من كتب الجاحظ التى ضاعت ، ولم يبق منها إلا جريدة أسمائها ، وإلا بعض الإشارات الخاطفة ــ فى بعض الأحيان ــ إلى موضوعاتها ، كما نرى هنا فى هذا الكتاب . وقد أشار إليه مرة أخرى فى مقدمة كتاب الحيوان ، وسماه كتاب « حيل اللصوص »[١] ، كما ذكره البغدادى فى الفصل الذى كتبه عن الجاحظية ، فقال فى لهجة متحاملة : « وأما كتبه المزخرفة فأصناف ، منها كتاب فى حيل اللصوص . وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة »[٢] . ومهما يكن من لهجة هذه العبارة ، فهى تشير إشارة ما إلى المنحى الذى انتحاه الجاحظ فى تأليفه .

وهو يصف هذا الكتاب هنا بأنه « فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل . وأنه جمع فيه لطائف الخدع ، وغرائب الحيل » ؛ وفى موضع آخر نجد إشارة إلى شىء من منهجه فى تأليفه ، وذلك فى سياق خبر رواه عن « بابويه صاحب الحمام » إذ يقول عنه : « ولو سمعت بقصصه فى كتاب اللصوص علمت أنه بعيد من الكذب والتزيد »[٣] وإذن فالجاحظ سلك فى هذا الكتاب مسلك الرواية ؛ أو وضع الأحاديث ونحلها هذا أو ذاك ، كبابويه هذا ، وعثمان الخياط ، كما سنرى بعد قليل .

على أنا ــ فوق هذا الوصف الذى أشار إلى منحى الجاحظ ومنهجه فى كتاب اللصوص ــ نستطيع أن نتلمس بعض الأثارات من هذا الكتاب تلمساً ، بفضل ما عرف به الجاحظ من الترداد والتكرار ، وهى عادة عرفها فيه معاصروه ــ ونلاحظها نحن كثيراً فيه ، على قلة ما بقى لنا من آثاره ــ كما يشهد بذلك بعض ما يتحدث به عن كتبه[٤] . وبذلك نستطيع أن نفترض أن هاتين القطعتين اللتين أوردهما فى موضعين مختلفين تمثلان بعض الشىء كتاب اللصوص ، ولنا أن نعتبرهما ــ إلى حد ما ــ أنموذجاً له .

---

(١) الحيوان ١ : ٣ ط الحلبى .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .

(٣) الحيوان ٢ : ١٥٦ .

(٤) « ونسبتى إلى التكرار والترداد ، وإلى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخطل » الحيوان ١ : ٥ .

أما إحدى هاتين القطعتين فإنها تتضمن وصفاً لبعض حيل اللصوص ، فهى بذلك أشبه بموضوع كتاب اللصوص ، على الصفة التى قدمناها ، وأجدر أن تكون صورة منه . وهى هذه القطعة :

« ونحن نرى كل من كان فى يده كيس أو درهم أو حبل أو عصا ، فإنه متى خالط عينيه النوم ، استرخت يده ، وانفتحت أصابعه . ولذلك يتثاءب المحتال للعبد الذى فى يده عنان دابة مولاه ، ويتناوم له وهو جالس ؛ لأن من عادة الإنسان ، إذا لم يكن بحضرته من يشغله ، ورأى إنساناً قبالته يتثاءب أوينعس ، أن يتثاءب وينعس مثله . فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان ، وقد خامره سكر النوم ، ومتى صار إلى هذه الحال ، ركب المحتال الدابة ، ومر بها »[1].

وأما القطعة الأخرى فهى جزء من وصية عثمان الخياط للشطار من اللصوص . قال :

« إياكم إياكم وحب النساء ، وسماع ضرب العود ، وشرب الزبيب المطبوخ . وعليكم باتخاذ الغلمان ، فإن غلامك هذا أنفع لك من أخيك ، وأعون لك من ابن عمك . وعليكم بنبيذ التمر ، وضرب الطنبور ، وما كان عليه السلف . واجعلوا النقل باقلاء ، وإن قدرتم على الفستق والريحان شاهسفرم . وإن قدرتم على الياسمين . ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع . والقلنسوة كفر ، والخف شرك . واجعل لهوك الحمام ، وهارش الكلاب . وإياك والكباش واللعب بالصقورة والشواهين . وإياكم والفهود » ، فلما انتهى إلى الديك قال : « والديك فإن له صبراً ونجدة وروغاناً وتدبيراً وإعمالا للسلاح . وهو يهر بهر الشجاع . » ، ثم قال : « وعليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لأهلها . ولا تلعبوا فى النرد إلا بالطويلتين . والودع رأس مال كبير ، وأول منافعه الحذق باللقف » . ثم حدثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسى[2].

وهناك قطعة ثالثة أوردها صاحب المحاسن والمساوئ فى الباب الذى عقده للكلام عن مساوئ الجبن . ونستطيع أن نفترض أيضاً أن هذه القطعة مأخوذة كذلك من كتاب اللصوص ، وإن لم ينص على الكتاب ، بل اكتفى بالنص على أنها من كلام عمرو بن بحر الجاحظ . قال :

« سمعت بلالا يحكى عن أصحابه أن رئيسهم كان يسمى أبريقياء ، وأنهم خرجوا فى سفر ، فإذا بعشرة نفر من اللصوص قد تعرضوا لهم ، قال : وكان أشد أصحابنا والمنظور

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٠٩ .

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٦ .

إليه منا فتى يقال له : « دومانى ، بطل شديد لا يهوله شىء ، مطاعن مسابق . فحمل على رجل منهم ، فعطف عليه الرجل ، فقطع أنف دومانى ونزع حقيبه وكسر أسنانه ، رجع منهزماً . فغاظنى ذلك ، فوثبت وأخذت كسائى وطويته بطاقين ولففته على يدى وأخذت عصاى ، وأخذ آخر ملحفة والدته فلفها على ذراعه ، وأخذ آخر طبقاً كبيراً من أطباق الفاكهة فستر به وجهه . وخرجنا وتقدم رئيسنا أبريقياء ، وقد لف على يده قطيفه وهو يقول :

إن تنكرونى فأنا ابن كلب

فقال له بعض اللصوص : ما ننكر ذلك عليك . فشد عليه أبريقياء بأسفل دن كان معه ، فلم يحك فيه . فأخذ اللص أسفل الدن فرمى به أبريقياء ، فهشم وجهه وكسر أسنانه ، وتنحى أبريقياء . وأقبل منا آخر يسمى لقوة ، وأنشأ يقول :

إن عصاى — فاعلموا — مقـــيرة أضرب بها وجه اللصوص الكفره

ثم شد على واحد منهم فضرب مفرق رأسه فلم يحك فيه . واستلب العصا منه وطلاه بها طلياً ، فإذا هو قد خلع منكبه وكسر أضلاعه وبقى لا يحلى ولا يمر . ثم أقبل فتى من أصحابنا وفى يده مجرفة وهو يقول :

أنا ابن كهل فى يدى مجرفه
والله لو كان بكفى مغرفه
وهى لعمرى قد كستنى ملحفه
والدتى كريمـــة منظفـــة
قتلتـــكم فكيف عندى مجرفه

فضرب بالمجرفة واحداً من اللصوص فأخطأه ، وعطف عليه اللص فأخذها من يده ، ثم ضربه بها ضربة ، فدار سبع مرات وسقط ، وقد غشى عليه ، فلما رأيت ذلك عدت إلى الطعان وأنا أقول :

أنا فلان سيد الفتيـــان
أخو ابن حمران فتى الميدان

أحلف بالله وبالفـــرقان
لأضربن القـــوم بالمنيـــان
ضرب غلام ماجد كشجان
والعجز منسوب إلى الجبان

فأشد على واحد منهم فأضرب كتفيه ، فوثب قبل أن تصل إليه الضربة ، فضربنى فهشم أنفى وكسر أسنانى وخررت مغشيًّا على . ثم فتحت عينى فلم أر منهم أحداً ، ولا أدرى كيف أخذوا ، والحمد لله على الظفر[1] » .

ولعلنا نستطيع القول — بعد هذا الوصف وهذه النماذج — بأن كتاب اللصوص هذا كان من أهم كتب الجاحظ الفنية . ولعله لم يكن يقل خطراً عن كتاب البخلاء فى تصويره لبعض نواحى المجتمع الإسلامى المعقد فى تلك الفترة من الزمن ، وما كان يداخله من الشرور الاجتماعية الملازمة التى لا يخلو منها مثله ، تصويراً فنيًّا رائعاً يجمع إلى الدقة فى الوصف والاسترسال فى التفصيل روح الفكاهة والسخرية التى تستغل بعض نواحى الضعف ومظاهر الغفلة فتتخذها موضوعاً لها .

وإلى جانب هذه المعلومات القليلة التى نستطيع أن نتعلل بها يمكن أن نفترض فرضاً آخر يمدنا بشىء جديد نضيفه إلى ما سبق ، وهو أن هذا الكتاب كان من أهم المصادر التى اعتمد عليها أبو القاسم الراغب الأصبهانى ، من علماء القرن الخامس ، فى الفصل الذى كتبه عن : « التلصص وما يجرى مجراه »[2] وهو فصل قيم يصور كثيراً من النواحى فى هذا الموضوع ، ويذكر طوائف اللصوص المختلفة ، وقد أورد فيه فقرات أخرى من وصية عثمان الخياط . كما ذكر بعض الأخبار عنه وعن غيره من اللصوص المعاصرين للجاحظ كأبى معن الزنجى . وقد روى فى الحديث عنه وصف النظام له إذ يقول : « لو ادعى النبوة وأن معجزته الصبر على الضرب بالسياط ، لأدخل عليهم به شبهة عظيمة » . وما أشبه أن يكون هذا منقولا عن كتاب الجاحظ .

٢ — الحرامى (١ : ٨)

هكذا جاء بالراء فى مواضع ، وفى مواضع أخرى بالزاى ، وكلا الاثنين وارد متجه .

---

(١) المحاسن والمساوئ ٢ : ١٤٣ ، ط السعادة ١٩٠٦ .

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء . ٢ : ٨١ — ٨٤ ط الشرفية ١٣٢٦ .

وإذا صحت الأولى فالأكثر أنها نسبة إلى « بنى حرام » (سكة بالبصرة ، منها أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى ، مصنف المقامات المشهورة)[١].

وهو أبو محمد عبد الله بن كاسب ، أحد الذين بنى الجاحظ عليهم كتاب البخلاء ، وقد عقد له فصلا كبيراً أظهر فيه روحه الفكهة ، فيما يصوره به ، وفيما يحكى من نوادره وحججه. وقد قال فى صفته : إنه « كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله »[٢]، وكذلك وصفه فى موضع آخر بأنه كان أطيب الخلق[٣] . وكذلك وجد الجاحظ فى هذه الشخصية مادة طيبة لتصوير البخل وتفكير البخلاء وأحاسيسهم ، تصويراً فكهاً ساخراً طريفاً .

ومن تمام صفة الحرامى ما يشير إليه الجاحظ أنه كان حليما ، وأن لون بشرته كان إلى الحمرة . وذلك إذ يقول : « وكان إسماعيل (يعنى ابن غزوان) أحمر حليما ، وكذلك كان الحرامى . وكنت أظن بالحمر الألوان التسرع والحدة ، فوجدت الحلم فيهم أعم »[٤].

وفيما ذكره الجاحظ عنه ما يدل على أنه كان من أصحاب أبى نواس ، وأنه كان يتكلف الشعر على مذهبه ، ويحاول أن يسلك فيه سبيله ، وأنه كان يغطى تخلفه فيه بما كان يصطنع من فكاهة وعبث[٥] وقد أورد له أبو عبيد قطعة صغيرة من الشعر يظهر فيها هذا التأثر إلى جانب طبيعته العابثة[٦]. وكذلك أورد له الجاحظ بيتاً مفرداً يظهر فيه هذا الاتجاه[٧] .

وكان الحرامى يصطنع الكتابة للسراة والولاة . فقد كان كاتباً لمويس بن عمران ، كما كان كاتباً لأبى سليمان داود بن داود . ويظهر أن هذا كان فى أيام ولايته كسكر ، وكان مقيما بواسط .

---

(١) انظر اللباب فى تهذيب الأنساب ، لأبى الحسن على بن محمد بن الأثير ، ١ : ٢٨٨ ، ٢٦٩ ، ط مكتبة القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

(٢) البخلاء ص ٥٩ .

(٣) الحيوان ٧ : ٦٩ ط التقدم ، ١٩٠٦ م . (٧ : ٢٢٤ ط الحلبى ، ١٩٤٥)

(٤) الحيوان ٥ : ١٠٤ ط مصطفى البابى الحلبى . ١٩٤٣ .

(٥) انظر صورة من ذلك ، مما كان بينه وبين أبى نواس ، فى الحيوان ٧ : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ط الحلبى .

(٦) اللآلى ٢ : ٢٧٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٧) الحيوان ٥ : ١٨٠ ط الحلبى .

٣ ـ الكندى (١ : ٩)

ذكره الجاحظ هنا فى قطعة يمكن القول بأنها من أحسن ما خلف الجاحظ من الآثار الفنية : دقة فى الوصف ، وروعة فى التحليل ، وجمالا فى العبارة . وقد جعل الكلام فيها على لسانه ، باعتباره من أصحاب البيوت » أو « المسكنين » ، على حد تعبيره . وقد قدم فى صفته أنه كان رجلا بخيلا شديد البخل ، صاحب تدبير عجيب ، ثم كان مع هذا طيباً ظريفاً خفيف الظل حسن الحديث . ويقول أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين فى التعليق على هذه القطعة : « فى هذه السهولة ، وهذا اليسر والجمال ، يصور لنا الجاحظ الخصومات ، لا كما كانت تقع بين الملاك والمستأجرين فى بغداد ، بل كما تقع هنا فى القاهرة »[1] وهذه العبارة وصف دقيق لهذة القصة فى أسلوبها وموضوعها ، وهى كافية فى التعبير عن الحيوية التى تتمتع بها ، وعن مقدار صدقها فى تحليل دخائل النفس الإنسانية فى إحدى صورها ، متمثلة فى شخص الكندى ، حتى لم تعد هذهالقطعة رهينة بعصرها وبيئتها ، بل تجاوزت هذه الحدود الضيقة ، إذ كانت قطعة فنيةخالصة ، أكسبها الفن نوعاً من الخلود ، وإذ كان ما تتضمنه من خصومات ومحاورات ليس إلا مظاهر للحركات النفسية التى يبعثها شعور الحرص فى تلك الظروف الخاصة .

وبعد ، فمن هو هذا الكندى الذى كان الجاحظ يعنيه بهذه القطعة ؟ أهو شخص من الأشخاص الذين عنى التاريخ بهم ، فحفظ أسماءهم وخلد شيئاً من آثارهم ؟

يقول الأستاذ فان فلوتن فى تحليله السريع لكتاب البخلاء إن من المحتمل أن يكون هو الفيلسوف المشهور[2] ، يعنى أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى . ثم يقول فى التعليق على هذا الرأى والاستئناس له إن من الممكن أن يستخلص من العبارة الواردة فى (ص ٩٠ س ٣) أن كنديا هذا كان كوفيًّا ، وكذلك كان الفيلسوف . والعبارة التى يشير إليها هى قول الكندى فى رسالته : « أنت تطالبنى ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة » ، وهذا ولا ريب استنتاج غريب ، فواضح أن هذه العبارة لا يمكن أن تفيد شيئاً يعين نسبته إلى بلده أو يشير إليه إشارة ، إلا على شىء من القسر والفهم المتكلف . فهذه واحدة . وأخرى إن أبا يوسف الكندى لم يكن كوفيًّا ، وكل

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٤ ط الصاوى .

(٢) مقدمة كتاب البخلاء لفان فلوتن ص IV .

ما يذكره المؤرخون هو أن أباه إسحاق بن الصباح كان أميراً على الكوفة للخليفة المهدى ، وليس معنى هذا أنه كوفى ، بل إنهم يجمعون على أنه بصرى المنشأ ، ثم انتقل إلى بغداد وتأدب فيها وأقام بها . وكل أخباره وتاريخه العلمى فى بغداد ، منذ لم يعد يربطه بالبصرة إلا ضيعة كانت له فيها . وهكذا نرى أن مقدمتى الاستنتاج باطلتان ، فلا يمكن أن يترتب عليهما شىء .

وكأن الذى يشبه القول بأن كندى كتاب البخلاء هو أبو يوسف الفيلسوف ما يأثرونه عنه من أنه كان معروفاً بالبخل ، محتجاً له . على النحو الذى نراه مثلا عند الحصرى[١] وابن أبى أصيبيعة[٢] . على أن شهرته بالبخل هذه — على فرض صحتها — لا يمكن أن تدل وحدها دلالة قاطعة ولا مقاربة على أنه هو . فإذا أردنا أن نلتمس شخصية الكندى الفيلسوف على ما تأدت إلينا فى ثنايا كلام الكندى الذى ساقه الجاحظ لم نكد نظفر بها ، إلا أن نتكلف أشد التكلف ، ونتعسر فى الاستنتاج والتطبيق ، مما لا يطمئن إليه الضمير العلمى .

وهكذا يبقى ذلك الفرض الذى افترضه العلامة فان فلوتن وتابعه عليه غيره فرضاً تحكمياً ليس له ما يرجحه إلا هذه الصدفة المحضة .

وإلى هنا نرى أننا على الأصل فى هذا الكندى ، وهو أنه شخص مستقل عن الكندى الفيلسوف ، حتى نجد ما يثبت أنه هو . وفوق هذا نجد لدينا أشياء تجعلنا نستأنس بها فى ترجيح هذا الاستقلال :

من ذلك ماقدمنا من أن أبا يوسف الكندى انتقل إلى بغداد وتأدب فيها ، وأقام بها ، حتى أصبح رجلا بغدادياً . ولكنا نجد فى قصة الكندى ما يشير إلى أنه بصرى لا بغدادى . وهذه الإشارة لا نزعم أنها قاطعة ولا قريبة من القطع ولكنا نسوقها على سبيل الاستئناس وحده حتى نجد ما يعززها ويشد منها . وذلك فى القصة التى رواها عمرو بن بحيوى أن الكندى سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى ، فصاح بالخادمة . فقالت مجيبة له ، إنه ماء بئر[٣] وظاهرة الحرص على الماء العذب والمغالاة به ظاهرة بصرية — كما سيجىء القول فى بعض هذه التعليقات — ويقل عندنا أن يكون شىء من ذلك فى بغداد ، حيث الماء العذب كثير موفور .

---

(١) زهر الآداب ٣ : ٢٤٦ .

(٢) طبقات الأطباء ١ : ٢٠٩ ط الوهبية ١٨٨٢ .

(٣) كتاب البخلاء ص ٨١ .

ومن ذلك أيضاً، مما يشير إلى التعارض بين الكنديين، ونسوقه أيضاً من قبيل الاستئناس، أن كندى البخلاء لم يكن له إلا غلة دارة ، فلم يكن صاحب ضيعة ، إذ كان يقول لعياله : « أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع »[١] وأما أبو يوسف الكندى الفيلسوف فقد رأينا أنه كان يملك ضيعة بالبصرة .

وعلى هذا نرجح أن كندينا هذا هو شخص آخر منسوب إلى كندة ، غير أبى يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى الفيلسوف .

٤ – ابن غزوان (١ : ٩)

هو إسماعيل بن غزوان . ذكره الجاحظ فى كتابه البخلاء فى عدة مواضع ، مذكوراً بالبخل ، مقروناً بالانتصار له ، وقد كان من أصحاب الكندى وأبى سعيد الثورى . والأخبار عنه بعد ذلك قليلة لا تعطينا صورة واضحة عنه . وقد أسند الجاحظ إليه فى البيان والتبيين عبارة جيدة الصنعة من قبيل احتجاج الأشحاء ، وهى : « لا تنفق درهماً حتى تراه ، ولا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه ، فالصابر هو الذى يشكر ، والجازع هو الذى يكفر »[٢] .

ويظهر أنه كان ممن يلابس المتكلمين ويأخذ مأخذهم . وقد حكى عنه الجاحظ فى الحيوان ما يشير إلى هذا . قال : « ولإسماعيل بن غزوان فى هذا نادرة . وهو أن سائلا سألنا، من غير أهل الكلام، فقال : ما بال ورق الخيرى ينضم بالليل وينتشر بالنهار ؟ فانبرى له إسماعيل بن غزوان فقال : لأن برد الليل وثقله من طباعهما الضم والقبض والتنويم ، وحر شمس النهار من طباعه الإذابة والنشر والبسط والخفة والإيقاظ . قال السائل : فيما قلت دليل ، ولكنه . . . قال إسماعيل : وما عليك أن يكون هذا فى يدك إلى أن تصيب شيئاً هو خير منه » . قال الجاحظ بعد ذلك : « وكان إسماعيل أحمر حليما »[٣] وكذلك تدل بعض الأخبار التى يحكيها الجاحظ عند أنه كان على صلة بأبى إسحاق إبراهيم النظام[٤] ، وكذلك كان على صلة بأنس بن أبى شيخ ، كاتب جعفر بن يحيى ، وكان أنس – كما يصفه الجاحظ – زكناً فهماً ، نقى الألفاظ ، جيد المعانى،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٧ ، ط ١٩٣٢ م .

(٣) الحيوان ٥ : ١٠٤ ط الحلبى ، ١٩٤٣ م .

(٤) الحيوان ٥ : ١١٧ .

حسن البلاغة[١]، وقد شهد أنس له بأنه حسن الفهم حسن الاستماع[٢]، ويدلنا هذا الخبر الذى تضمن هذه الشهادة أن إسماعيل ابن غزوان كان رجلا مقدور الجانب قبل سنة ١٨٧ ، وهى السنة التى قتل فيها أنس مع جعفر بن يحيى .

وأما أخلاقة الشخصية ففى الحيوان خبران يدلان على أنه كان مستهتراً بالنساء ، غير متحرج فيهن[٣] .

ومن أقواله المأثورة : « الأصوات الحسنة ، والعقول الحسان كثيرة . والبيان الجيد والجمال البارع قليل »[٤].

٥ ــ الحارثى (١ : ٩)

أحد الذين عقد لهم الجاحظ الفصول المطولة فى كتابه البخلاء لتصوير البخل واحتجاجات البخلاء وتعلاتهم فى صور مختلفة ، كل واحدة منها تمثل وجهاً من وجوهه ، ولوناً من ألوانه .

وهو هنا رجل سرى متنبل ، وقد اتخذ بخله من هذا التنبل مادة للاحتجاج والمجادلة .

ولم يشر الجاحظ فى ذكره له إلى شىء يقرب إلى تعيين شخصه ، من اسم أوكنية أو غيرهما ، فليس لنا إلا أن نتلمسه تلمساً يقوم على الظن أو ما هو دونه .

غير أنا لا نشك ــ قبل كل شىء ــ فى أن الحارثى هذا هو شخص آخر غير زياد بن عبيد الله الحارثى والى مكة والمدينة والطائف واليمامة فى أيام أبى جعفر المنصور ، على الرغم من أنه يعد فى البخلاء أصحاب النوادر فى البخل ، مما قد يشبه أنه هو. ففضلا عن أن قصة الحارثى فى البخلاء يبعد أن تنسب إلى مثل شخصية زياد الحارثى العربى الصريح ، فإن حكايته عن مويس بن عمران وعلى الأسوارى ومحمد بن يحيى البرمكى تدل على أنه من جيل غير جيل زياد ، متأخر زمنه عنه . وإذن فمن عسى أن يكون حارثينا هذا ؟

قد يكون ذلك الحارثى هو ذلك الذى هجاه على بن الجهم وأبو على البصير ، وذكره أبو الفرج[٥] رواية عن ابن الجهم ، قال : « كان الحارثى يجىء إلى حلوان وأنا أتولاها

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى . ص ٢٣٩ ، ط الحلبى ، ١٩٣٨ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٠٧ ، ط ١٩٣٢ ، عيون الأخبار ٢ : ١٢٨ .

(٣) الحيوان ٢ : ٥٨ ــ ٥٩ ، ٥ : ١١٧ ــ ١١٨ ، وانظر أيضاً عيون الأخبار ٤ : ١٠٨ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٦٨ .

(٥) الأغانى ١٠ : ٢١٠ ــ ٢١١ ط دار الكتب المصرية .

– (وقد كان على بن الجهم على مظالمها) – فإذا وردها وقع الإرجاف ، فلم يزل متصلا حتى يخرج ، فإذا خرج سكن الإرجاف . فأتانى مرة وظهر كوكب الذنب فى تلك الليلة ، فقلت :

لما بـدا أيقنت بالعطـب فسألت ربى خـير منقلب
لم يطلعـا إلا لآبـدة الحـارثى وكوكب الذنب

ثم حكى أبو الفرج عن ابن المدبر قوله فى صفة الحارثى : « وكان الحارثى أعور مقبح الوجه ، وفيه يقول أبو على البصير :

يا معشر البصراء ! لا تتطرفوا جيشى ، ولا تتعرضوا لنكيرى
ردوا على الحارثى ، فـإنه أعمى يدلس نفسه فى العور »

وكذلك يذكره المسعودى فى سياق خبر رواه عن المبرد أنه كان فى مجلس القاضى أبى إسحاق إسماعيل بن إسحاق ، وحضر جماعة سماهم ، منهم الحارثى . وأن الحارثى هذا أنشد لأبى تمام معاتبة أحسن فيها ، وأن المبرد استحى أن يستعيده[١].

أفيكون الحارثى هذا هو حارثينا المذكور فى البخلاء ؟

٦ – الأخلاط (٣ : ٦)

ذكر الجاحظ تقويم الأخلاط فى معنى تعديل الطباع ومعالجة الأخلاق . والأخلاط هى الأمزجة الأربعة ، وكانت أساس التشريح القديم ، ولكنهم كانوا – فوق ذلك – يصلون بينها وبين الأخلاق والحالات النفسية . فقد جاء ، مثلا ، فى رسائل إخوان الصفاء ، فى الرسالة التاسعة من الجسمانيات الطبيعيات أن الأخلاط الأربعة هى الصفراء والدم والبلغم والسوداء ، وأن هذه الأخلاط هى التى خلقت منها جواهر الجسم التسعة : العظام والمخ والعصب والعروق والدم واللحم الجلد والظفر والشعر[٢].

وجاء فى الرسالة التاسعة فى الأخلاق والآداب أن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه : أحدها من جهة أخلاط أهم ودجسامزاج أخلاطها[٣].

وقد أشار الجاحظ إلى شىء من هذا ، وإلى أن صاحب هذا القول هو المعلم ،

---

(١) مروج الذهب ٧ : ١٥٣ – ١٥٤ ط باريس .
(٢) رسائل إخوان الصفا ٢ : ٣٢٠ إلخ ، ط العربية بمصر ، ١٩٢٨ م .
(٣) رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٢٩ .

(ولعله يعنى أرسطو) ، حين قال فى رسالة التربيع والتدوير : « ولم جعل (أى المعلم) الرعب للسوداء ، والحزن للبلغم ، والجرأة للصفراء ، والسرور للدم »[١].

وقد ذاعت هذه النظرية وترددت أصداؤها فى مختلف البيئات العلمية والأدبية والدينية ، منسوبة مرة إلى هذا أو ذلك من العلماء . كما رأينا فى نص الجاحظ ، وأخرى إلى المصادر الدينية المختلفة ، كما يحكى عن وهب بن منبه أنه وجدها فى التوراة مفصلة [٢] .

٧ ــ خباب (٤ : ٨)

هذا أحد ثلاثة من أصحاب المذاهب الغريبة التى ظهرت فى أيام الجاحظ ، وذكرهم فى مقدمة البخلاء ، لينوه بأن ذلك مما اشتمل عليه كتابه « المسائل » جلياً واضحاً .

وخباب هذا هو ــ فيما يؤخذ من كلام الجاحظ ــ كان الناطق برأى المزدكية ، المستحيي لمذهبهم ، فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية بين إطلاقها وتنظيمها . ولم أجد عنه فيما قرأت شيئاً ، إلا أن الأستاذ فان فلوتن ذكر فى الملاحظات والإيضاحات التى ألحقها بنشرته لكتاب البخلاء أن من المحتمل أن يكون اسمه « جناب » ، وأن يكون هو « جناب ابن الخشخاش القاضى » كما جاء فى المشتبه ص ١٣٨ ، وقد أسند إليه الجاحظ فى الحيوان بعض الملاحظات عن النساء .

٨ ــ الجهجاه (٤ : ١٥)

أما الجهجاه هذا فقد كان يذهب إلى نصرة الكذب والدفاع عنه ، والانتصاف له ممن كانوا يتجنون عليه بتناسى مناقبه وتذكر مثالبه ، « وأن ليس كل صدق حسناً ، ولا كل كذب قبيحاً » .

وكما كان مذهب خباب من أصداء المزدكية الفارسية كما رأينا ، فإن مذهب الجهجاة هذا كان ــ فيما نحسب ــ من أصداء السوفسطائية اليونانية التى جعلت المعارف والمبادئ الأخلاقية موضع الجدل والإنكار ، فليس هناك حق وباطل ، كما أنه ليس هناك خير وشر .

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٢٩ ، ط الرحمانية بمصر ، ١٩٣٣ م .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ٦٢ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م .

وأما شخص الجهجاه فالأمر فيه غامض ، إذ كانت النصوص لم تواتنا بما يكشف عنه ويعينه . وقد ذكر الآبى رجلا بهذا الاسم وصفه بأنه كان مجنوناً ، وأنه كان يدعى الخلافة ، ثم ذكر عنه فى النص نفسه ما يؤخذ منه أنه كان متهماً بالزندقة ؛ « قال له الرشيد : لأضربنك بالسياط حتى تقر بالزندقة » ، كما روى عنه أيضاً نادرة نشهد له بحضور البديهة ، والتمرس بأساليب المتكلمين فى الجدل والمناظرة : « قال جعفر بن يحيى ، كالهازئ به : هذا أمير الضراطين يزعم أنه أمير المؤمنين . قال : لو كنت كذا كنت أوسع إمرة من صاحبك . إن الضراط عام والإيمان خاص »[١] فترى هذا الجهجاه هو صاحبنا ؟ أنا لا أبعد ذلك . وليس يبعده أن تكون به لوثة .

على أنا — مع هذا — لا ننسى اسماً آخر قريباً ، فربما كان هو صاحبنا ، هو أبو الجهجاه الذى لقبه الجاحظ فى موضع آخر من « البخلاء » بالنوشروانى ، وذكر فى موضع من الحيوان أن اسمه محمد بن مسعود[٢] . كما جاء ذكره فى مواضع أخرى مختلفة[٣] ويؤخذ من هذه النصوص، التى لم يذكر فيها إلا عرضاً، أنه كان من أصحاب أبى عمرو المكفوف ، وأنه كان يتعاطى الكلام ، ويرى فى الأعراض رأياً غريباً ، فإنه زعم أن القائم غير القاعد ، وأن العجين غير الدقيق .

٩ — صحصح (٤ : ٢٠)

وهذا ثالث الثلاثة . وهو صاحب مذهب من هذه المذاهب التى تدل على مقدار ما وصلت إليه فوضى الآراء فى ذلك العهد . فقد كان ينكر الحياة العقلية ، وينشد الكمال الجسدى ، ويفضل ما أدى إليه من النسيان والغباء والغفلة . ويظهر أن هذا الرأى كان من الآراء التى تقع عليها المناظرة . ولعل الجاحظ كان ينظر إليه حين قال فى الحيوان : « ومن الناس من يقول إن العيش كله فى كثرة المال ، وصحة البدن ، وخمول الذكر »، ثم ذهب يناقش هذا القول مناقشة كلامية[٤]

وقد كان صحصح هذا — كما يؤخذ من النص الوحيد الذى عثرنا به يذكره — متكلما ذكره الجاحظ مع طائفة من المتكلمين فى رد قول أبى إسحاق إن السباع والبهائم

---

(١) نثر الدرر ٣ : ٣٤٤ ، فتوغرافية دار الكتب المصرية .
(٢) الحيوان ٢ : ٣١١ ، ط الحلبى .
(٣) الحيوان ٣ : ٩ ، ٤ : ٢٠ ، ٥ : ١٤ ط الحلبى .
(٤) الحيوان ٢ : ٩٦ — ١٠٠ ط الحلبى ، ١٩٣٨ م .

لا تدخل الجنة ، ولكن الله ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الآفات فيركبها فى أى الصور الحسان أحب . قال : « وكان أبو كلدة ومعمر وأبو الهذيل وصحصح يكرهون هذا الجواب ، ويقولون : سواء عند خواصنا وعوامنا أقلنا إن أرواح كلابنا تصير إلى الجنة ، أم قلنا إن كلابنا تدخل الجنة إلخ »[١].

١٠ ـ كتاب المسائل (٤ : ٧)

ذكر الجاحظ هذا الكتاب هنا ليحيل عليه الراغب فى الاستزادة من مثل تلك الآراء الثلاثة التى ذكرها ، فهى إذن تعتبر أنموذجاً منه ، ومثلا مما تضمنه ، وقد ذكره فى مقدمة الحيوان إلى جانب كتاب الجوابات[٢] ، والكتابان يقترنان فى الفهرست التى أوردها ياقوت لكتب الجاحظ على هذه الصورة : « كتاب جوابات كتاب المعرفة ، كتاب مسائل كتاب المعرفة »[٣] . وربما كان هذان الكتابان قد أفردا من كتاب المسائل الذى يذكره الجاحظ هنا ، إذ كانت « المعرفة » باباً من أبوابه .

ويتبين لنا منهج هذا الكتاب ـ إلى جانب ما سبق ـ فى هذه العبارة التى يختتم بها الجاحظ كتابه فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة »، إذ يقول : « ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ويكون غايته إظهار فضل نفسه ، وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه وولده ، لكان كتاباً كبيراً كثير الورق عظيما إلخ »[٤].

وكذلك بقيت لنا قطعة من كتاب المسائل والجوابات ، وهى فى المعرفة ، فى مختارات رسائل الجاحظ المحفوظة بالمتحف البريطانى برقم ١١٢٩ ملحق ، وتقع ما بين ورقتى ١٧٥ ، ١٨٦ .

١١ ـ عامر بن عبد قيس (٦ : ١)

هكذا يسميه الجاحظ ، واسمه ـ عند أبى نعيم ـ عامر بن عبد الله بن عبد قيس[٥]،

---

(١) الحيوان ٣ : ٣٩٥ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ م .
(٢) الحيوان ١ : ٩ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ م .
(٣) معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ ، ط دار المأمون .
(٤) مجموعة رسائل للجاحظ ص ٥٣ ، ط التقدم بالقاهرة .
(٥) حلية الأولياء ٢ : ٨٧ ، ط السعادة ، ١٩٣٢ م .

وهو أحد الرجال الذين يكثر الجاحظ من ذكرهم وترديد أسمائهم، من أهل الزهد والبيان من رجال البصرة .

وكان تميمياً من بنى العنبر ، تلقى عن أبى موسى الأشعرى ، وأظهر الزهد وإنكار المنكر ، ويذكر البلاذرى عن أبى مخنف لوط بن يحيى أنه كان ينكر على عثمان أمره وسيرته ، فكتب حمران بن أبان مولى عثمان إلى عثمان يخبره ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر بن كريز فى حمله فحمله . فلما قدم عليه فرآه ، وقد أعظم الناس إشخاصه وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده ، ألطفه وأكرمه ورده إلى البصرة[١] . ويصف الجاحظ فى بعض خبره عنه شيئاً مما كان بينه وبين عثمان فى تلك اللقيا ، إذ يقول : « وخرج عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه من داره يوماً ، وقد جاء عامر بن عبد قيس ، فقعد فى دهليزه ، فلما رأى شيخاً دميماً أشعث ثطا فى عباءه ، فأنكره وأنكر مكانه ، فقال : يا أعرابى ! أين ربك ؟ قال : بالمرصاد . ويقال إن عثمان بن عفان لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عبد قيس »[٢].

ولم يطل به الأمر كثيراً فى البصرة بعد عودته إليها ، فوقع بينه وبين واليها ما أدى إلى إخراجه إلى الشام، وهنالك أنكر فى الشام ما أنكره فى العراق من مظاهر اللهو والبعد عن حقائق الدين .

والجاحظ يورد له فى ثنايا كتبه عبارات له تشهد برقة القلب وصفاء البصيرة وحضور البديهة ، كما تشهد له بالبيان وحسن الديباجة والقدرة على أن يصل ببيانه إلى أعماق القلوب ، وكذلك نجد طائفة من كلامه عند أبى نعيم فى الفصل الذى كتبه عنه فى حلية الأولياء ، وفى عيون الأخبار لابن قتيبة .

١٢ – صفوان بن محرز (٦ : ٢)

وهذا أيضاً ناسك زاهد من أهل البيان من الطبقة الأولى ، مات سنة ٧٤ ، كما ذكر ابن قتيبة[٣] . وهو كذلك بصرى تميمى ، من غسان تميم ، صحب أبا موسى الأشعرى ، وتثقف عليه أيام ولايته البصرة ، وظل فيها إلى أن مات بها فى ولاية بشر بن مروان .

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٥٧ ط الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ م .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٠ ط ١٩٣٢ م .

(٣) كتاب المعارف ص ٢٣٢ .

ويذكره الجاحظ دائماً فى باب الزهاد والنساك من أهل البيان .
وقد ترجم له أبو نعيم فى كتابه[١].

١٣ ـ أبو الحارث جمين (٧ : ١٦)

يذكر فى مواضع كذلك ، وفى مواضع أخرى بالزاى بدلا من النون ، ويذكره المحدثون بالصورة الأولى كما يقول الفيروزبادى ، وهو يخطئهم فى ذلك ، ويذكر أن صحة الاسم « جميز » بالزاى ، مستشهداً لذلك ببيت من الشعر لابن مقسم :

إن أبا الحارث جميزا قد أوتى الحكمة والميزا

وقد ذكره الجاحظ فى عدة مواضع من « البخلاء » [٢] أشار فيها إلى طائفة من نوادره على الطعام فى خلال ما يورده من حديث من يتحدث بلسانهم .

وقد كان أبو الحارث من أولئك الذين كانوا يتجرون بالنادرة فى العراق ، كأبى دلامة وابن دراج ومن إليهما : يدعوهم السراة إلى مجالسهم ، ويحضرونهم طعامهم ، وربما أجزلوا الجائزة لهم . وقد كانوا يعتبرونهم أداة من أدوات الترف ، ومظهراً من مظاهر السراوة ، لا غناء لهم عنه .

وكان أبو الحارث مدنياً ، وكان ولاؤه لبيت حمزة بن عبد المطلب[٣] . وفى المدينة نشأ هذا النوع من الترف ، حتى لتعتبر نوادر المدنيين باباً على حدة فى كتب الأخبار والمحاضرات ، فهناك أشعب والدلال والغاضرى إلى كثير غيرهم . وكان الحجاز ينفرد بهذا حين كانت الدولة فى الشام ، وفى أهل الشام جفاء وغلظة . ثم صار أصحاب النوادر يفدون على العراق يلتمسون هذه التجارة فيه كصاحبنا أبى الحارث . وقد جعلت هذه التجارة تروج وتنتشر ويعظم أثرها بازدياد مظاهر الترف ، حتى صارت بعد ذلك تلتمس التماساً بالتلقى والتعلم ، كما ذكر الحصرى عن أبى العبر : « كنا نختلف ونحن أحداث إلى رجل يعلمنا الهزل » [٤] ومن هنا نرى كيف كثر أصحاب النوادر وعظم شأنهم فى أيام المتوكل .

---

(١) حلية الأولياء ٢ : ٢١٣ .
(٢) البخلاء ص ١٧ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ١٩٧ .
(٣) الورقة ، ص ٣٨ ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
(٤) جمع الجواهر ص ٦٦ ط الرحمانية ، ١٣٥٣ هـ .

ويظهر أن أبا الحارث جمينا كان أكبر صلته — كما يؤخذ من أخباره — بمحمد ابن يحيى البرمكى وعيسى بن جعفر ، وكانا يصلانه بالرشيد أحياناً .

أما نوادره فكثيرة جداً أورد الحصرى طائفة غير قليلة منها[١] ، وكذلك نجد ابن قتيبة[٢] والثعالبى[٣] يؤديان إلينا بعض ما يؤثر عنه من تندره على طعام محمد بن يحيى على النحو الذى جاء هنا فى كتاب البخلاء[٤] ، كما أورد له الجاحظ فى البيان والتبيين فقرتين من كلامه[٥] وذكر له المبرد نادرة مع امرأة كان يحبها[٦] . وغير ذلك كثير فى الأغانى وغيره كنثر الدرر للآبى .

١٤ — الهيثم بن مطهر (٦ : ١٦)

وهذا أيضاً من أصحاب النوادر . كما يؤخذ من كلام الجاحظ . ولكنه لم يرزق الحظوة التى رزقها أبو الحارث . فلم يؤثر عنه — فيما وقفنا عليه — إلا خبران ، أحدهما أورده الجاحظ فى كتاب القول فى البغال[٧] . والآخر فى البيان والتبيين مرة . وفى كتاب القول فى البغال مرة أخرى[٨] وأورده ابن قتيبة فى عيون الأخبار[٩] . ويؤخذ من هذا الخبر أنه كان أعرج كالحكم بن عبدل . وأنه كان فى أيام المهدى . حين كانت الخيزران منبسطة تروح المواكب وتغدو إلى بابها . كما يقول ابن الطقطقى[١٠] .

١٥ — مزبد (٧ : ١٧)

وأبو إسحاق مزبد هو — كأبى الحارث جمين — مدنى نشأ فى المدينة ، وتثقف بها تلك الثقافة العابثة اللاهية ، ثم انتقل منها إلى العراق ، وكان بها فى أيام المهدى . فقد

---

(١) جمع الجواهر ص ٦٣ ، ٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) عيون الأخبار ٣ : ٣٦٢ . ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ م .

(٣) ثمار القلوب ص ٣٥ — ٣٦ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .

(٤) البخلاء ص ١٧٩ .

(٥) البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، ٢٥٢ ط ١٩٣٢ م .

(٦) الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٠ ط الأزهرية ، ١٣٣٩ هـ .

(٧) ص ٣١ ، رسائل الجاحظ ٢ : ٢٣٤ .

(٨) البيان والتبيين ٢ : ١٤١ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٢ : ٢١٢ — ٢١٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) . كتاب القول فى البغال ص ٣٧ — ٣٨ ، رسائل الجاحظ ٢ : ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٩) عيون الأخبار ١ : ١٦٠ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ م .

(١٠) الفخرى ص ١٤٢ ، ط الرحمانية ، ١٩٢٧ م .

روى الحصرى[١] أن أبا حبيب مضحك المهدى كان يحفظ نوادر مزبد ، ويحكيها له . فقال له مزبد : بأبى أنت ! أنا أزرع وأنت تحصد .

ولم تكن المتاجرة بالنادرة عمله الوحيد الذى كان يصطنعه ويعرف به ، حين كان بالمدينة ، وإنما كان — إلى جانب ذلك — يعين على وسائل اللهو الأخرى . فنجده مرة يضبط وهو يعمل النبيذ ويتجر به . ومرة أخرى يضبط وقد جمع فى بيته رجلا وامرأة ، ويظهر أن هذه الظاهرة كانت عامة شائعة فى أمثال مزبد من الملهين ، وممن كانوا يسمونهم بالمخنثين ، وهى طبقة كبيرة متميزة بالمدينة لذلك العهد وقبله ، منهم النفاشى وزرجون والدلال وهنب وطويس وفند ، وكانوا جميعاً يصطنعون هذه الحياة ، حتى ما نكاد نخطئ ذلك فى الأخبار المأثورة عن كل واحد منهم .

أما نوادر مزبد فقد أورد ابن شاكر الكتبى طائفة كبيرة منها[٢] وكذلك الحصرى فى جمع الجواهر[٣] ، وفى عيون الأخبار ثلاث نوادر صغيرة[٤] ، وأورد الثعالبى عنه خبرين طريفين[٥] وأما الجاحظ فقد روى له — غير ما رواه — نادرة أخرى فى البيان والتبيين[٦] .

١٦ — صالح بن حنين (٧ : ١٨)

يذكره هنا فى سياق يدل على البغض والثقل ، ويذكره مرة ثانية فى رسالة الجد والهزل ، التى وجهها إلى محمد عبد الملك الزيات[٧] ، مع جماعة نعرف الآن منهم « حاتم الريش » ، وكان نديماً من ندماء صالح بن الرشيد ، وسياق القول فيه يدل على أنه كان أدنى أن يكون مضحكاً من أن يكون نديماً[٨] ، وكذلك يبدو أن هذا كان شأن صالح بن حنين : أى أنه كان مضحكاً سخيفاً بارد النادرة .

---

(١) جمع الجواهر ص ٢٥٤ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٣٠٣ — ٣٠٥ .
(٣) جمع الجواهر ص ١٤٤ ، ١٥٧ ، ٢٥٤ ، ٣٠٠ .
(٤) عيون الأخبار ١ : ٣٩ ، ٢٦٣ و ٣ : ٢٧٧ .
(٥) ثمار القلوب ٣٧٢ ، ٥٢٢ .
(٦) البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، ط الفتوح الأدبية ١٣٣٢ هـ (٢ : ٨٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .
(٧) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٦٥ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٣ م .
(٨) الأغانى ٧ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .

١٧ – ابن النواء (٧ : ١٨)

لعله يقصد كثير بن إسماعيل النواء ، أحد زعماء الفرقة البترية من الرافضه . ولانعرف عنه أكثر من هذا . وقد ورد اسمه فى مقالات الإسلاميين للأشعرى[١] ، وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى .

١٨ – بكر بن عبد الله المزنى (٨ : ١١)

صورة أخرى من صور الزهاد الأبيناء من أهل البصرة ، غير تلك الصورة التى رأيناها فى عامر ابى عبد قيس الذى ظل أعرابياً بدوياً ، أما هو فقد كان مدنياً حضرياً ، على زهده ورقة قلبه .

وهو من أهل القرن الأول ، من أصحاب الحسن البصرى، وقد كان الناس يقرنونهما فيقولون : شيخ البصرة الحسن وفتاها بكر[٣]. وقد جعله الزهد وطول التأمل نير البصيرة خبيراً بأدواء النفوس . فصى يخطب الناس ويعظهم ، وقد كان يرى عمله فى تهذيب النفوس وقمع غرائز الشر هو العمل الذى تهيأت له نفسه . وكلامه فى عدم الحمل على النفس ، وأن خير الكلام ما كان عقب الجمام ، وأن طول الصمت حبسة ، وما إلى ذلك[٤] ، مما يدل على الغاية التى يراها لنفسه ، والتى كان يؤثرها بحبه ، ويراها خير ما يقرب إلى الله . وقد حكى أبو نعيم عن معاوية بن عبد الكريم قال : سمعت بكر بن عبد الله المزنى يقول يوم الجمعة ، وأهل المسجد أحفل ما كانوا قط : لو قيل لى خذ بيد خير أهل المسجد ، لقلت : دلونى على أنصحهم لعامتهم ، فإذا قيل : هذا ، أخذت بيده ، وإذا قيل لى : خذ بيد شرهم ، لقلت : دلونى على أغشهم لعامتهم . ولو أن منادياً ينادى من السماء ألا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد ، لكان ينبغى لكل إنسان أن يلتمس أن يكون ذلك الواحد، ولو أن منادياً ينادى من السماء ألا يدخل النار منكم إلا رجل واحد، لكان ينبغى لكل إنسان أن يفرق أن يكون ذلك الواحد[٥] .

---

(١) ص ٦٨ .
(٢) ص ٢٤ ، ط ١٩١٠ م .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ، ط ١٩٣٢ م .
(٤) انظر البيان والتبيين ١ : ١٥١ ط ١٣٣٢ هـ ، جمع الجواهر ص ١ .
(٥) حلية الأولياء ٢ : ٢٢٤ ، ط السعادة ١٩٣٣ م .

ولعل هذه الغاية التى وضع نفسه لها كانت من أول الأسباب التى جعلته يرفض ما عرضه عليه أمير البصرة فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وهو عدى بن أرطأة ، من ولاية القضاء ، ويقول فى ذلك قولته المشهورة : « والله ما أحسن القضاء ، فإن كنت صادقاً فما يحل لك أن توليني ، وإن كنت كاذباً إنها لأحراها »[١] وكأنما كان يرى فى ولاية القضاء إفساداً لما بينه وبين الناس ، وصدّاً عن عمله الذى اطمأنت إليه نفسه . وكان حريصاً على علاقته بالناس ، واسع الصدر لهم ، يرى ذلك أجدى عليه فى هدايتهم ، والوصول إلى قلوبهم . وكان يقول : « إياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم ، قيل : ما هو؟قال : سوء الظن بالناس ، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا ، وإن أخطأتم أثمتم »[٢].

وقد كان ذلك أحد الأشياء التى يتميز بها عن غيره من الزهاد والخطباء . وقد يتميز ، أيضاً بعدم الحرص على الظهور بمظهر الفقراء ، فقد كان على زهده يتأنق فى لباسه ولا يعبأ أن ينفق عليه أربعة آلاف درهم[٣] . وذلك مما يدل — ولا ريب — على رحابة نفسه وسعة أفقه .

وقد ترجم له ترجمة صغيرة ابن قتيبة فى المعارف . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار وحلية الأولياء شذرات من أخباره وكلامه تدل إلى أى حد كان الرجل جيد العبارة خبيراً بالدخائل النفسية .

١٩ — مؤرق العجلى (٨ : ١٢)

أبو معتمر بن مشمرج (أو ابن عبد الله) العجلى . وهو أيضاً أحد الزهاد الأبيناء من أهل البصرة ، فى القرن الأول ، كما يعده الجاحظ فى غير موضع فى البيان والتبيين . ويظهر أنه كان منكمشاً فى نفسه ، منطوياً على العبادة والنسك ، وعلى رواية الحديث الذى أخذه عن بعض الصحابة ، كعمر وسلمان وأبى ذر وأبى الدرداء وابن عباس .

وأخباره قليلة ، وكذلك كلماته المأثورة . وله ترجمة فى تهذيب التهذيب ، وأخرى فى حلية الأولياء . وقد مات فى أوائل القرن الثانى ، على خلاف فى تعيين سنة موته .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ، ط ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٦٤ .

(٢) حلية الأولياء ٢ : ٢٢٦ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٣٢ ، حلية الأولياء ٢ : ٢٢٧ .

٢٠ ـ يزيد بن أبان الرقاشى (٨ : ١٢)

وهذا أيضاً أحد الزهاد الخطباء من أهل البصرة ، ممن يعدهم الجاحظ مرة بعد مرة ، ولكنه يختلف عمن تقدم ذكره اختلافاً كبيراً . فعامر وصفوان وبكر ومؤرق كانوا عرباً خالصى العروبة ، فأما يزيد هذا ففارسى الدم ، عريق فى فارسيته . قال أبو عبيدة ـ وهو يتحدث عنه وعن أفراد أسرته ـ : « وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الإسلام وفى جزيرة العرب ، نزعهم ذلك العرق ، فقاموا فى أهل هذه اللغة كمقامهم فى أهل تلك اللغة . وفيهم شعر وخطب . وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ، ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور »[1].

فمن جهة آبائه وميراث البيان الذى ورثه عنهم صار يزيد خطيباً من خطباء المسلمين من الطراز الأول . وكذلك صار ابن أخيه الفضل بن عيسى ، وابنه عبد الصمد بن الفضل .

وهناك شىء آخر نحسب أنه أثر من آثار الوراثة الفارسية ، وهو القصص الذى عرف به ، فقد كان قاصاً مجيداً ، كما كان الفضل وعبد الصمد الرقاشيان . وما نحسب هذا الفن نشأ إلا حيث كان أمثال يزيد الرقاشى هذا ، من أبناء الفرس وورثة الروح الفارسية ، فكانت مجالسهم الدينية تتشقق عن أخبار الأمم الماضية ، وكان تأويلهم للقرآن يزخر بالأقاصيص المختلفة .

وكان يزيد ـ فيما يظهر ـ من أوائل الذين أدخلوا هذا النمط من الوعظ ، وهذه الوسيلة إلى تقوية العاطفة الدينية . فكان الناس يختلفون فى تقديره ، فقد كان هنالك ـ إلى جانب المعجبين به ـ من كان يرى فى أسلوبه هذا تكلفاً وتلفيقاً ، فكان يستثقل حديثه ويبغض مجلسه . ويتحدث ابن أبى أمية عنه فيقول :

شهدت الرقاشى فى مجلس ... وكان إلى بغيضاً مقيتاً
فقال : اقترح كل ما تشتهى ... فقلت : اقترحت عليك السكوتا[2]

وقد كان المحدثون يعرضون عنه ويتهمونه . ذلك أن طبيعة القصص والرغبة فى التأثير

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٤٧ ، ط ١٩٣٢ م .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ، ط ١٩٣٢م .

والقصد إليه لم تكن تتفق كثيراً مع التزمت فى الرواية ، فكانت تعدو به فى كثير من الأحيان عن الدقة وتحرى الصحة ، وبذلك كثرت فى رواية الحديث مآخذه ، كما كثر الطعن عليه . فكان شعبة يقول : « لأن أقطع الطريق أحب إلى من أروى عن عن يزيد » ؛ ويقول مرة أخرى : « لأن أزنى أحب إلى من أن أحدث عن يزيا الرقاشى » . ويقول ابن حبان : « غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة » [١].

وقد كان يزيد الرقاشى رقيق العاطفة ، حاد الشعور ، كما يؤخذ من أخباره وكلماته . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار طائفة منها . وله فوق ذلك ترجمة فى تهذيب التهذيب ، وأخرى فى حلية الأولياء .

وقد مات فى العشرة الثانية من القرن الثانى ، كما نقل صاحب تهذيب التهذيب عن البخارى .

٢١ ــ أبو كعب الصوفى (٨ : ٣)

وهذا قاص آخر من طراز آخر ، فقد أورد الجاحظ يزيد الرقاشى فى معرض الكلام عن الزهد والموعظة ، وأورد أبا كعب هذا مع أبى نواس والحسين الخليع فى نسق واحد .

وهو يمثل طوراً آخر من أطوار القصص والقصاص ، حين صار هذا الفن صناعة من الصناعات الدنيا التى يلتمس بها العيش ، وصار القصاص من طبقة السؤال والمستجدين ، يمدون أعناقهم للجمعة ، انتظاراً للصلة والعائدة ، كما يصفهم الجاحظ [٢]. وأصبحوا يسلكون مع القرادين ومن إليهم فى نظام واحد ، كالذى نجده فيما يرويه الجاحظ عن إبراهيم الموصلى ، فى حديثه عن زلزل المغنى ، أنه كان يكايده « مكايدة القصاص والقرادين » [٣].

وقد كانت لهم فى سبيلهم هذه أشياء يتندر الناس بها ، ويتضاحكون منها . كما كانوا يتخذون العبث وإضحاك الناس سبباً من أسبابهم ، ووسيلة يروجون بها لأنفسهم . ومن هذه الطبقة من القصاص كان ــ فيما يظهر ــ أبو كعب الصوفى هذا . وقد كان هو نفسه يحفظ نوادر هؤلاء القصاص ويتندر بها ويضحك منها . وقد حكى الجاحظ عنه

---

(١) تهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٩ .

(٢) كتاب حجج النبوة ، من رسائل الجاحظ ، ص ١٢٩ ، ط الرحمانية ، ١٩٣٣ م .

(٣) كتاب التاج ص ٤٠ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ م .

نادرتين من هذا القبيل[١] . كما قص عنه قصة غاية فى الطرافة، لأنها تصوره وتصور هذه الطائفة تصويراً طريفاً ، وإن كان إلى الهزل والفكاهة [٢] ، وتبين إلى أى غاية من السخف صارت هذه الصناعة التى بدأت تتجه بمثل يزيد بن أبان الرقاشى اتجاهاً من أسمى الاتجاهات ، وتنزع إلى غاية من أكرم الغايات .

٢٢ – رسالة سهل بن هارون (٩ : ١)

هذه الرسالة موجهة من سهل بن هرون إلى محمد بن زياد وإلى بنى عمه من آل زياد ، حسبما جاء فى المخطوطة التى اعتمدنا عليها ، واعتمدت عليها النشرة الأولى من كتاب البخلاء ، وإن كانت تلك النشرة لم ترض هذه القراءة وأبت إلا أن تضع مكانها ما ظن الناشر أنه تصحيح لها ، اعتماداً على بعض النصوص أو المصادر غير المباشرة[٣] ولم نجد نحن فيها ما يحملنا على تخطئتها ، وإحلال غيرها محلها . ولا سيما إذ كان احتمال التحريف غير قريب ، وإذ كان محمد بن زياد رجلا معروف الصلة بسهل بن هرون ، وقد شاب هذه الصلة شىء ، ووقعت الجفوة وقتاً ما بين الرجلين ، ووقع محمد بن زياد فى سهل بن هرون بلسانه [٤] ، وليس يبعد أن يكون مما جعل يهجوه به ، ويشنع به عليه ، مذهبه ذلك فى البخل ، وأن فريقاً من قومه قد ظاهره ، فكتب سهل هذه الرسالة إليه و إليهم . وهكذا لا يكون هنالك ما يدعو إلى تغيير النص وقسره .

ونحن حين نقول إن سهلا كتب هذه الرسالة فإنما نتجوز فى العبارة ، ونجارى ظاهر القول ، وإلا فالأمر عندنا موضع نظر ، وإن جرى الناس على القطع بنسبتها إليه ، حتى اعتبرت الأثر الباقى له[٥] .

فمن هو واضع هذه الرسالة فى حقيقة الأمر ؟ أهو سهل بن هارون أو الجاحظ ؟

إن تحقيق هذا من أشد الأمور عسراً ، وأبعدها عن اليقين أو ما يقارب اليقين ، لأن وسائلنا إلى هذا التحقيق قاصرة ، إذ كان من أول هذه الوسائل توافر النصوص ، وليست كذلك .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٨٨ ، ٣ : ٢٥٠ ، ط ١٩٣٢ م .

(٢) الحيوان ٣ : ٢٤ – ٢٥ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ١١ : ٢٦٧ ، ط دار المأمون ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .

(٤) زهر الآداب ٢ : ٢٥٩ ، ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .

(٥) أمراء البيان لكرد على ١ : ٨٨١ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م .

إن لمن يذهب إلى صحة نسبتها إلى سهل بن هارون أن يحتج بأن هذا هو الأصل الذى لا ينبغى العدول عنه ، إلا أن يكون ثمة ما يمنع منه ، من دليل نصى لا جدال فيه ، أو فنى يؤنس إليه ، ويرجح به . والنصوص هنا مظاهرة لهذا الأصل ، لا مانعة منه . فهى تشهد أولا بأن لسهل بن هارون مذهباً اقتصادياً ارتضاه لنفسه ، ودعا إليه ، وكتب فى ترويجه والدفاع عنه . ذكر ذلك ياقوت[١] وابن النديم[٢] وأشار إليه الحصرى[٣] ، وقال الجاحظ فى البخلاء ، فى خلال كلامه عن أبى عبد الرحمن الثورى : « وكان يحتج للبخل ، ويوصى به ، ويدعو إليه . وما علمت أن أحداً جرد فى ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون وأبو عبد الرحمن هذا » . ثم هى تشهد ثانياً بأن لسهل رسالة فى مدح البخل . ذكر ذلك ياقوت ، وذكر أنها هى هذه التى جاءت فى « البخلاء » . هذا إلى أن هذه الرسالة قد استفاض القول أنها لسهل ، فكذلك نسبها إليه ابن عبد ربه وشهاب الدين النويرى .

أما أن الأصل فى هذه الرسالة أنها صحيحة النسبة فمسألة فيها نظر، فتقرير هذا موقوف على تقرير الأصل فى الجاحظ . الأصل فيه أنه راوية ثقة أمين ، أم الأصل فيه أنه أديب مبدع متفنن ؟ . وقد لا نصل فى هذا إلى جواب واحد ، فالجاحظ راوية ، لا شك فى ذلك ، والجاحظ أديب منشئ لا شك فى ذلك أيضاً . وقد يكون هذا كافياً لإسقاط الأصل المزعوم وتبقى المسألة بعد ذلك فى وضع متساوى الطرفين . فلنضيق من دائرة السؤال قليلا ، ولنحصر الجاحظ فى كتاب البخلاء : ما هو الأصل فيه ؟ أهو كتاب آثار تظهر فيه سعة رواية الجاحظ وقوة حفظه وقدرته على استحضار الأشباه والنظائر ككتاب البيان والتبيين . أم هو كتاب فن وأدب ومظهر لعبقرية الجاحظ الفنية التى لا نكران لها ، والتى تأبى إلا أن تولد وتبدع وتبتكر ؟

لا نحسب أن أحداً يجادل فى أن كتاب البخلاء كتاب فن ، مرجع الأمر فيه إلى شخصية الجاحظ ، لا كتاب رواية يجمع شتى الشخصيات . وإذا كان لا يخلو من شىء من الرواية ، فهذا لا ينفى الأصل فيه ولا يبطله . على أن هذا القدر الروائى فيه قدر صغير نستطيع أن نضع أيدينا على معظمه فى يسر .

وبهذا يسقط القول بأصالة صحة النسبة ، ويقوم فى موضعه القول بأن الأصل فى

---

(١) معجم الأدباء ١١ : ٢٦٧ .

(٢) الفهرست ص ١٧٤ . ط الرحمانية ، القاهرة .

(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ .

هذه الرسالة أنها للجاحظ ، نحلها لسهل ، ووضعها عليه ، وتكلم فيها بلسانه ، كما يتكلم القصاص بلسان أبطالهم ، وأن موقفه فيها كموقفه من رسالة القيان مثلا ، أو بعض الأحاديث الأخرى فى كتاب البخلاء ، ودلائل نسبتها إليه قوية غالبة ظاهرة .

وفوق هذا فالنصوص التى يقع الاحتجاج بها لا تفيد شيئاً . وليس يجادل أحد فى أن لسهل بن هارون مذهباً اقتصادياً كتب فيه ، ودعا إليه ، ودعمه بالحجج والنصوص . وهل وضع الجاحظ هذه الرسالة إلا بهدى مما كتب سهل ، وعلى ما ينبغى أن تكون طريقته ؟

ومع هذا فإن هذه النصوص مضطربة ، فابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ يقول : « وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغبه فيه ، ويستمنحه فى خلال ذلك . فأجابه الحسن على ظهر رسالته : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافأة عنها قبول القول منك ، والتصديق لك ، والسلام » . فهل يمكن القول بأن هذه الرسالة التى كتبها إلى الحسن بن سهل هى هذه الرسالة التى وردت فى كتاب البخلاء ؟ وأنى لنا هذا ولم يشر إلى رسالة « البخلاء » ، ولو كانت هى لكان فى أغلب الظن قد ذكر ذلك .

فإذا جاء ياقوت الرومى فى القرن السابع فقد نقل هذا وزاد عليه أن الجاحظ قد أورد هذه الرسالة فى كتاب البخلاء ، فلفق بين ما ذكره ابن النديم وما جاء عن الجاحظ .

وأما أن ابن عبد ربه والنويرى[1] قد أوردا هذه الرسالة منسوبة إلى سهل بن هرون ، فهل نحن إلا حيث كنا ؟ فقد نقلها ابن عبد ربه عن الجاحظ كما نقل غيرها ، ثم نقلها النويرى عن ابن عبد ربه . وابن عبد ربه حين نقلها اعتبر الجاحظ راوية صادقاً ، وبهذا الاعتبار جعلها فى كتابه .

وهناك فرض آخر غير بعيد ، وهو أن يكون الوراقون قد اقتطعوا هذه الرسالة وكتبوها على حدة ، منسوبة — بطبيعة الأمر — إلى سهل بن هارون . وكانوا كثيراً ما يلجأون إلى هذا الأسلوب احتيالا على الكسب ، كما صنعوا بحديث خالد بن يزيد ، كما سنذكر ذلك بعد فى موضعه . ومن هذه النسخة نقل ابن عبد ربه الرسالة فى العقد الفريد .

هذا ما نقوله فى تحقيق نسبة الرسالة من ناحية النصوص ، ومن الممكن أن يقال عن أسلوبها ، وطريقة سوق الآثار والاستدلال بها والإسراف فى إيرادها ، وما إلى ذلك

---

(١) انظر العقد الفريد ٦ : ٢٠٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٩ م . ونهاية الأرب فى فنون الأدب ٣ : ٣٢٦ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م .

من لمحات ساخرة فى بعض الأحيان ، إن هذا كله أشبه بأسلوب الجاحظ وطريقته .

أما حياة سهل بن هارون فلعل فيما كتبه عنه الأستاذ محمد كرد على فى مجلة المقتطف[١] ثم نشره فى كتابه أمراء البيان ما يكفينا الكلام عنه ، وإن كنا نرى مع ذلك أن نشير إلى بعض المصادر التى يمكن الرجوع فى ترجمته إليها ، وتحقيق بعض المسائل فى حياته العقلية والفنية ، ولا سيما المصادر التى لم تقصد إلى ترجمته قصداً ، وإنما ذكرته عرضاً .

فأما من ترجم له فابن النديم فى الفهرست ، وياقوت فى طبقاته ، وابن خلكان فى وفياته ، وكلها تراجم قصيرة لا تفيد كثيراً من تفاصيل حياته . وقد ذكر ابن بدرون فى أثناء حديثه عن نكبة البرامكة أنه كان عاملا ليحيى البرمكى ، ثم كان صاحب دواوين الرشيد بعده [٢]. وكذلك ذكر الحصرى خبراً عنه مع الرشيد [٣]. وفى البيان والتبيين[٤] والصداقة والصديق [٥] وزهر الآداب [٦] والعقد الفريد [٧] وثمار القلوب للثعالبى [٨] نبذ كثيرة من كلامه والكلام عنه ، كما ذكر الجاحظ فى الحيوان[٩] قصة دعبل بن على عن ديكه ، وبيتين من الشعر له عن الفيل[١٠] وبيتاً آخر فى مداعبة صديق له[١١]. وذكر حاجى خليفة كتابه ثعلة وعفرة وترجمته إلى الفارسية فى عهد أبى الحسن ناصر بن أحمد السامانى[١٢].

---

(١) المقتطف سنة ١٩٢٧ (٧٠ : ١٩٠ ، ٢٩٣ ، ٤٣٥) .

(٢) ابن بدرون ، نور العيون . شرح رسالة ابن زيدون .

(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ .

(٤) انظر مثلا ١ : ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٩ — ٥٠ ، ١١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ و ٢ : ٢١ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ١٠٠ و ٣ : ١٨٥ ط ١٣٣٢ هـ .

(٥) انظر ص ١٢١ .

(٦) انظر ٢ : ٢٥٨ — ٢٥٩ و ٣ : ٢٤٥ .

(٧) انظر مثلا : ٢ : ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٠٧ — ٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر و ٣ : ٢٦ ، ط ١٢٩٧ .

(٨) انظر ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٩) انظر ٢ : ٣٧٤ — ٣٧٥ ط مصطفى البابى الحلبى .

(١٠) انظر ٧ : ٦١ ، ط التقدم . (٧ : ٢٠٢ ط الحلبى)

(١١) انظر ٣ : ٦٦ .

(١٢) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ص ١٥٠٨ ، ط وكالة المعارف ، استنبول .

٢٣ ـ الحسن البصرى (١٠ : ١٣)

أبو سعيد ، الحسن بن أبى الحسن ، من أخطر الشخصيات الإسلامية فى القرن الأول ، وأبعدها أثراً فى نواحى الحياة المختلفة .

وهو عراق الأصل ، فقد كان أبوه من ميسان ، وميسان إقليم البصرة كما كان يسمى قبل الإسلام ؛ فلما غزا العرب ذلك الإقليم فى عهد أمير المؤمنين عمر ، وقع فى الأسر ، كما وقعت زوجه فى السباء . ثم كان الرجل من نصيب أحد الأنصار بالمدينة ، وكانت المرأة من نصيب أم سلمة إحدى زوجات الرسول ، صلى الله عليه وسلم [١] . وما ندرى شيئاً عن ذلك الرجل الذى يسمونه يسارا ، ولعله كان اسما يطلقونه على هؤلاء الأسرى تيمناً ، فأطلق على أبى الحسن البصرى ، كما أطلق على أبى مسلم بن يسار ، وكان مولى ميمونة الهلالية وزوج الرسول أيضاً .

وفى بيت أم سلمة ولد الحسن سنة ٢٢ ، وفى تلك البيئة العربية الإسلامية نشأ وترعرع ، يتكلم لغتها ، ويحس أحاسيسها ، وتتلون طبائعه بألوانها ، وما يعلم أنه ابن الميسانى قدر ما يعلم أنه ابن هذه البيئة التى احتضنته طفلا ، ورعته صبيًّا .

ونحن نعلم أنه ظل هنالك فى المدينة حتى كانت سنه أربعة عشر عاماً ، حين قتل عثمان ، كما يحكى هو ذلك عن نفسه ، إذ يقول : « كنت فى المدينة يوم قتل عثمان ، وكنت ابن أربع عشرة سنة » .

وكان يخرج إلى وادى القرى يأخذ عن الأعراب ، ولعله كان يأخذ نفسه بالحياة البدوية الخشنة ، وقد تركت أثرها فى بنائه الجسمى ، فكان قوى البنية عظيم الأركان .

ويظهر أنه خرج بعد ذلك فيمن كان يخرج من الحجاز إلى العراق ، فكان فى البصرة ، وكان يجلس إلى ابن عباس فى مجلسه بالمسجد ، وهو يصفه فى ذلك المجلس بقوله : « كان والله مثجاً يسيل غرباً »[٢] ولا ريب أن الحسن إذ ذاك كان لا يزال شابًّا فى مطالع شبابه ، وكانت صورة ابن عباس فى مسجد البصرة من أول الصور التى طبعت خياله بطابعها ، ولعله كان يتطلع إلى أن يأخذ ذلك المكان ، وأن يكون فيه كما كان ابن عباس « مثجاً يسيل غرباً » .

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٢ ، ط الهند .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٦٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

وفى سنة ٥١ اختار زياد بن أبيه الربيع بن زياد الحارثى لولاية خراسان ، فاختار الحسن كاتباً له ، فمضى معه . وقضى هنالك سنتين ، حتى قضى الربيع نحبه . ولعل الحسن عاد من بعد ذلك إلى البصرة ، وقد أصبح رجلا ناضجاً جاوز الثلاثين ، بعد أن تقلبت عليه المشاهد المختلفة ، فى هذه الفترة المضطربة ، فى الحجاز والعراق وخراسان . وكأنما أحس بأنه عاد إلى وطنه ، فمن هذا الإقليم خرجت أسرته ، وفيه جعلت خيالات الشباب تراوده ، بمن شهد فيه من الأعلام كابن عباس ومن إليه .

ولا ندرى ماذا كان عمل الحسن حينئذ . ولعله كان يتولى بعض الأعمال إلى جانب تنقله بين حلقات المسجد . وكان يشهد ذلك المجتمع البصرى الزاخر المضطرب ، وعوامل الفساد تعمل فيه ، وكان يشهد إلى جانب ذلك مجالس الجدل حول حرية الإرادة ، وهى مسألة فلسفية قديمة كان لها فى ذلك الإقليم قبل الإسلام شأن عظيم ، وكان الجدل يدور حولها ، وكانت الكتب تؤلف فيها . وقد أيقظها هذه الحالة الاجتماعية التى صار المسلمون إليها ، ودارت حولها المذاهب الإسلامية المختلفة .

ويظهر أن الدولة إذ ذاك كانت تجد فى القول بحرية الإرادة ما يعرضها لانتقاض الناس عليها ، كما كانت تجد فى الجبر ، على ما يشيعه من الفساد ، عاصما يعصمها من الاعتراض عليها والانتقاد لأعمالها . وقد كان من أشد الناس إنكاراً عليها زعماء القدرية كغيلان الدمشقى الذى انتهى أمره بأن قتلته الدولة فى أيام هشام . على أن الدولة لم تكن تخشى جانب الشام كما كانت تخشى جانب العراق ، فالقول بالقدر كان جديراً أن يقلقها ويشغل بالها ، ولذلك كانت الدولة مناصبة للحسن شيئاً من العداوة . على أنه كان يصطنع شيئاً من التقية فيما كان يدعو إليه ، ونحن نستطيع أن نتبين هذا فى أسلوب كتابه الذى كتبه إلى الحجاج يحتج فيه لمذهبه ، ولا سيما إذا نحن قارناه بكتاب غيلان الدمشقى إلى عمر بن عبد العزيز . وقد أورد ابن المرتضى فقرات من الكتابين .

وقد كان عهد الحجاج من أسوإ العهود عند الحسن ، فقد عانى فيه كثيراً من الضر . وقد حفظ لنا الجاحظ فقرات مما قاله الحسن عندما بلغه خبر موته . قال : « اللهم أنت قتلته فاقطع عنا سنته ، فإنه أتانا أخيفش أعيمش مقيتاً ، له جميمة يرجلها ، صعد المنبر ، فأخرج إلينا كفّاً قصيرة البنان ، ما عرف فيها عنان فى سبيل الله ، فقال : بايعونا ، فبايعناه . يصعد إلى هذه الأعواد ، فينظر إلينا بالتصغير ، وننظر إليه بالتعظيم ، يأمرنا بالمعروف ويتجنبه ، وينهانا عن المنكر ويرتكبه » .

ثم لم يلبث الحسن أن استقام أمره عند الدولة شيئاً ما ، فى عهد عمر بن عبد العزيز ،

فولاه قضاء البصرة ، وكان يصفه بأنه سيد التابعين ، كما يذكر ذلك ابن عبد ربه .

وقد ظل الحسن يحتل أرفع مكان فى البصرة ، يرونه إمامهم وغاية مثلهم ، وقد كان عندهم — كما يقول الجاحظ — « فى مستثنى الغاية . كان يقال : هو أزهد الناس إلا الحسن ، وأبين الناس إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن . وقال أبو شعيب : الحسن خير لأهل البصرة من الجزر والمد ، والمد هو حياتهم : يأتيهم فيقف على أبوابهم ، فإن شاءوا حجبوه ، وإن شاءوا أذنوا له »[1].

ويعتبر الحسن — إلى جانب ذلك — من الأعلام البارزة فى تاريخ النثر العربى ، إذ كان رأس الخطابة الدينية فى القرن الأول ، يحتذى مثاله كل خطيب فى عصره ، وكل خطيب جاء بعده . ولقد كانت خطبه من أول ما دون فى الإسلام . وهذا يبين لنا مبلغ ما كان لهذه الخطب من الأثر فى نفوس معاصريه ، حتى كان الحرص عليها ، يحملهم على تدوينها . وقد بقيت هذه المجموعة من خطبه يتدارسها المتأدبون ، ويحتذيها القائلون . ونرى مثالا من ذلك بعد وفاة الحسن بنصف قرن ، أى فى سنة ١٥٨ ، حين مات المنصور وولى المهدى الخلافة ، ودخل الناس عليه يعزونه ، وكان من بينهم عبد الله بن الحسن العنبرى ، قاضى البصرة وفقيهها ، وكان — كما يقول أبو الحسن المدائنى — أعد له كلاماً ، « فبلغه أن الناس أعجبهم كلامه . فقال لشبيب بن شيبة : إنى والله ما التفت إلى هؤلاء ، ولكن سل لى عنها أبا عبيد الله الكاتب ، فسأله ، فقال : ما أحسن ما تكلم به ! على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان ، فلقح بينهما كلاماً . فأخبره بذلك شبيب ، فقال لا والله ! إن أخطأ حرفاً واحداً »[2] وهكذا نرى أن أبا سعيد بقى مؤثراً بخطابته ، لا فى حركة الخطابة فحسب ، بل فى الكتابة أيضاً ، فإذا كان عبيد الله ابن الحسن قد صدر عنها فى خطبته ، فإن أبا عبيد الله الكاتب كان قد أخذ نفسه — ولا ريب — بمدارستها ، والاستعانة فى صناعته بها .

فأما فى عصره فقد رأينا كيف كانت منزلته عند أهل البصرة ، وكان ذلك مما مكن له أشد التمكين أن يكون صاحب مدرسة خطيرة الأثر تخرج فيها كثير ممن عاصره وجاء بعده من رؤساء الطوائف المختلفة ، من أصحاب الكلام ورجال القصص وغيرهم ، كواصل بن عطاء ويزيد بن أبان ومن إليهما ، وكان مجلسه فى مسجد البصرة يزخر بالثقافات المختلفة على نحو ما يصور لنا ذلك أبو حيان التوحيدى

---

(١) من مجموعة مختارات للجاحظ ، محفوظة فى مكتبة برلين ، ورقة ٧٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٣٨ — ٢٣٩ ط ١٩٣٢ م .

فى كتابه « تقريظ الجاحظ » فى عبارته التى نحلها ثابت بن قرة ، وزعم أن أبا سعيد السيرافى حدثه بها . وذلك إذ يقول : « يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ويفيض عليهم من افتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل . وهذا يسمع الحلال والحرام ، وهذا يتتبع فى كلامه العربية ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة » ، ثم يقول : « يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق »[١] .

وهكذا نرى إلى أى حد كان أبو سعيد بعيد الأثر فى البصرة ، وفى إثارة الحركات العقلية بها ، وفى تهيئة الجو الدينى والأدبى فيها ، وإذا كان مرجع ذلك فى بعض الأمر إلى شخصيته القوية الممتازة ، وعقلة الكبير ، وأفقه الواسع الرحب ، فإنها ترجع ولا ريب أيضاً إلى قدرته الخطابية التى جمعت الناس حوله ، والتى انتزعت الشهادة له من ألد خصومه : الحجاج بن يوسف الثقفى ، وذلك حين يقول ، فيما يحكى الجاحظ : « أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة »[٢] . هذا والحسن ليس عربى الأصل كما ذكرنا ، ولكنه كان فصيح اللهجة قوى العبارة ، لا يشك من يسمعه أنه عربى أصيل . وقد حكى الجاحظ أن أعرابيين شهداً مجلس الحسن ، وسمعا يزيد ابن أبان الرقاشى يتكلم ، ثم الحسن ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ؟ . قال أما الأول فقاص مجيد ، وأما الآخر فعربى محكك[٣] .

هذا وآثار الحسن مفرقة بين الكتب المختلفة كالبيان والتبيين والكامل وعيون الأخبار ، والعقد الفريد وزهر الآداب ، وما إلى ذلك من كتب المحاضرات . وقد عنى أبو الفرج ابن الجوزى بجمع طائفه من كلامه فى كتاب صغير بوبه أبواباً[٤] . ولكن آثاره لا تزال تنتظر من يعنى بجمع شتاتها لتكون أساساً لدرس الرجل وتبين أثره فى تطور العقل الإسلامى .

٢٤ ـ طلحة الفياض (١١ : ١٦)

أبو محمد ، طلحة بن عبيد الله التيمى ، من تيم قريش . وكان يلقب بابن الحضرمية أو ابن بنت الحضرمى[٥] . كان فيمن سبق إلى الاسلام ، وشهد المشاهد مع رسول الله

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٩٧ ، ط دار المأمون .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٢١٢ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ١٧٦ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٤) كتاب الحسن البصرى . ط الرحمانية بمصر . ١٩٣١ م .
(٥) عيون الأخبار ٤ : ١٧ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ م .

صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن ثبت معه يوم أحد ، ودافع عنه . وكان رجلا سريًّا نبيلا واسع الثروة ، ومما يذكر عنه أنه افتدى عشرة من أسارى بدر[١] . كما كان رجلا مزهوًا شديد الاعتداد بنفسه . وقد وصفه بذلك عمر ، حين كان يعرض عليه من يستخلف[٢] ، كما وصفه بذلك علىّ حين قدم البصرة ، فأرسل عبد الله بن عباس وقال له : « إيت الزبير ولا تأت طلحة ، فإن الزبير ألين ، وإنك تجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه ، يركب الصعوبة ويقول : هى أسهل »[٣] .

وقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين سماهم عمر قبل موته ، ولعله كان يرجو أن يكون له الأمر بعده . وقد قالوا إنه كان غائبًا فى ماله بالسراة ، فلما قدم كان الأمر قد أمضى ، فأخذ يتوثب ويقول : « أعلى مثلى يفتات » ، ولكنه هدأ وآثر الرضا والبقيا[٤] وقد عرف له عثمان ذلك فلم يزل يكرمه ويتحفى به ، حتى قيل إنه أعطاه مائتى ألف دينار[٥] . ولكن طبيعته المزهوة الشديدة الشكيمة جعلته يقف فى صف المنكرين على عثمان ، حين أخذت الثورة سبيلها ، حتى لقد كان عثمان يتهمه بأنه أحد الثلاثة الذين كانوا يؤلبون الناس عليه . وربما كان من أشدهم عنفاً ، إن صح ما يروى عنه فى ذلك[٦]

ولما قتل عثمان كان فى الذين خرجوا على على مع عائشة إلى البصرة ، وشارك فى معركة الجمل ، وقتل فى هذه المعركة سنة ٣٦ . وكان الذى رماه فقتله — فيما يقولون — مروان ابن محمد . وقد قالوا : إنه قتله انتقاماً لعثمان[٧] .

وكان طلحة يلقب بطلحة الفياض ، كما هنا ، وطلحة الخير ، وطلحة الطلحات ، لما عرف به من الكرم ، فلم يكن يدع عائلا من بنى تيم إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله .

وقد ترجم له ابن سعد فى الطبقات الكبرى[٨] وابن قتيبة فى المعارف[٩] وصاحب تهذيب التهذيب[١٠] .

---

(١) عيون الأخبار ١ : ٣٣٢ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ م .
(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٦ ، ١٧ ، ط الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ م .
(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٤٣ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .
(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٨ وما بعدها .
(٥) أنساب الأشراف ٥ : ٧ .
(٦) أنساب الأشراف ٥ : ٤٦ ، ٩٠ .
(٧) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٦ ، ١٣٥ .
(٨) ٣ : ١٥٢ .
(٩) ص ١٧٧ .
(١٠) ٥ : ٢٠ .

٢٥ ـ أبو الدرداء (١٢ : ١٣)

هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى ، خزرجى من بلحارث ، وكان قبل إسلامه يصطنع التجارة . ويروى عنه أنه قال : « كنت تاجراً قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد زاولت التجارة والعبادة ، فلم يجتمعا ، فأخذت فى العبادة وتركت التجارة »[١] .

ومن هنا نرى أن الرجل كان ينزع نزعة صوفية منذ أول أمره ، وقد لازمته هذه النزعة ، وكان لها مظهر بيانى ، ولا سيما بعد أن مضى إلى الشام ، وولى القضاء فى ولاية معاوية ، أيام خلافة عمر بن الخطاب ، إذ كان على قضاء دمشق . وقد قوى من هذه النزعة ما رآه هنالك من مظاهر الترف الذى كاد يودى بالنزعة الدينية عند الناس ، فاشتد على الدنيا كلبهم ، كما يقول فيما يحكى الجاحظ عنه : « كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه »[٢] .

والرجل يعتبر بذلك من الخطباء الأولين الذين وضعوا أصول الخطابة الدينية فى الأمصار الإسلامية ، وإن لم تصلنا — بطبيعة الأمر — خطبة من خطبه ، وإنما هى فقرات تدل على نزعته فى الخطابة وعظة الناس . وقد عنى الجاحظ فى البيان والتبيين بإبراز طائفة من هذه الفقرات . وأول ما يستبين لنا منها هى هذه النغمة الأسيفة التى يحاول أن ينفذ بها إلى قلوب الناس ليصرفهم عن هذا التعلق الشديد بالدنيا ، كقوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لايغفل عنه ، وضاحك ملء فيه : لا يدرى أساخط ربه أم راض . وأبكانى هول المطلع ، وانقطاع العمل ، وموقف بين يدى الله : ولا يدرى أيؤمر بى إلى الجنة أم إلى النار »[٣]. ومما يدل على هذه النزعة وتأثرها بما كان يشهد فى هذه الدنيا الجديدة ما يروى له الجاحظ أيضاً : « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره وفرجه . وإياكم والجلوس فى هذه الأسواق فإنها تلغى وتلهى »[٤].

---

(١) حلية الأولياء ١ : ٢٠٩ ، ط السعادة ١٩٣٢ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٦٦ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ٨٦ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ١٠٠ — ١٠١ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٦٨ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ٨٨ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

ولقد كان أبو الدرداء يحس هذا المعنى الذى أشرنا إليه من أثر هذه الفتوح التى فتحت على المسلمين ، فى إبعادهم عن حقائق الدين ، وإقبالهم على الدنيا إقبال النهم ، إحساساً قويًّا ، حتى لم يكن يتحرج من التصريح بشؤم هذه الفتوح على الناس ، فكان يقول — فيما يحكى عنه أبو نعيم —: « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم ، وأنماها فى درجاتكم ، خير من أن تغزوا عدوكم ، فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم ، خير من إعطاء الدراهم والدنانير ؟ » ، قالوا : « وما هو يا أبا الدرداء ؟ » قال : « ذكر الله ، وذكر الله أكبر »[٣]. وهذا النص صريح فيما أحدثت هذه الفتوح من رد فعل شديد ، ثم ما كان لرد الفعل هذا من أثر فى نفوس أئمة الدين ، ثم ما كان لذلك من أثر فى توجيه الخطابة الدينية .

ولقد كان فتح قبرص كافياً لإثارة أحزان أبى الدرداء ، فجلس وحده يبكى . فقال له أحد أصحابه واسمه جبير : « يا أبا الدرداء ! ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ » ، قال : ! ويحك يا جبير» ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره ! بينا هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى »[٤].

٢٦ — زيد بن جبله (١٤ : ٨)

أحد الشخصيات الكبيرة فى البصرة فى وقت تمصيرها . وهو يذكر فى الوفود التى كانت تفد على عمر ، فيذكر مرة مع هلال بن وكيع والأحنف بن قيس ، وتذكر له فى ذلك الموقف كلمة بليغة العبارة يقول فيها :

« يا أمير المؤمنين ! سود الشريف ، وأكرم الحسيب ، وازرع عندنا من أياديك ما نسد به الخصاصة ، ونطرد به الفاقة ، فإنا بقف من الأرض ، يابس الأكناف ، مقشعر الذروة ، لا شجر فيه ولا زرع . وإنا من العرب اليوم — إذ أتيناك — بمرأى ومسمع »[١].

ويذكر مرة أخرى فى وفد من أهل البصرة وأهل الكوفة ، كما يذكر فى الوفد القادم على علىّ فى الكوفة[٢].

ويلاحظ فى أخباره ما كان بينه وبين الأحنف بن قيس من منافسة ، فهو فى ذلك

---

(١) حلية الأولياء ١ : ٢١٩ .

(٢) حلية الأولياء ١ : ٢١٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ١١٦ — ١١٧ ، ط ١٩٣٢ .

(٤) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ م .

الوفد ينفس على الأحنف كلمة إطراء وجهها عمر إليه ، فلم يملك لسانه من الوقوع فيه[٣] يحاول أن يضع منه بأن أمه باهلية ، وفى موقف آخر نراهما يتواثبان ويتناصيان . فإذا قيل للأحنف : أين الحلم اليوم ، قال : لو كان مثلى أو دونى لم أفعل هذا به[٤] .

٢٧ ـ محمد بن زياد (١٤ : ١٣)

هو يعنى ـ فى أكبر الظن ـ محمد بن زياد الزيادى الذى يحكى عنه الحصرى هذا الخبر :

« وجدت على سهل بن هرون فى بعض الأمر ، فهجوته ، فكتب إلى : « أما بعد ، فالسلام على عهدك ، وداع ذى ظن بك ، فى غير مقلية لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى فى أمرك ، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك ، إلى أوان بينك ، أو يجعل الله دولة من رجعتك ، والسلام » . وكتب فى أسفل الكتاب :

إن تعف عن عبدك المسىء فنى ... عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ ... فجد بما تستحق من حسن »[١]

ويمكن أن يؤخذ من هذا أنه كان سرياً أديباً ، وكان صديقاً لسهل .

ولعله مما يؤدى إلينا فكرة عنه هذه الأبيات التى يهجوه بها أبو نواس :

جمحت ، أبا مسلم ، فاحبس ... وقصر من النظر الأشوس
ولا تغترر بركوب الكميت ... وما تستجيد من الملبس
ومشيك بالنخو وسط الرحاب ... وإن قيل ذا صاحب المجلس
وقول الفيوج : كتاب الأمير ... وختم القراطيس بالجرجس
فكم قد رأينا مطاعاً هنا ... ك صار المذلل فى المجلس[٢]

ويذكر ابن حجر محدثاً اسمه « محمد بن زياد الزيادى » ، وهو بصرى يلقب

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٦٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .
(٢) عيون الأخبار ١ : ٢٨٥ .
(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .
(٤) ديوان أبى نواس ، ص ١٤٤ ط الحميدية ، ١٣٢٢ هـ .

بيؤيؤ ، وليس به قطعاً . وقد ذكر أنه توفى فى حدود الخمسين ومائتين[١].

٢٨ ـ الحضين بن المنذر (١٥ : ٨)

أبو ساسان ، الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشى ، نسبة إلى رقاش ، وهى بطن من شيبان ، من بكر ، من ربيعة ، شاعر فارس سيد . من رؤساء أهل البصرة ، فى القرن الأول . وتعد أسرته من أشرف الأسر الربعية منذ الجاهلية . كان جده « الحارث بن وعلة »[٢] رئيساً من رؤساء بكر ، انتجعه الأعشى ، وإن لم يحمده . وكذلك كان جده الثانى والثالث : وعلة ومجالد ، وقد ذكرهما الأعشى فى سياق تعرضه بالحارث ، إذ يقول :

لعمرك ما أشبهت وعلة فى النـــدى شمائله ، ولا أباه مجالداً[٣]

وقد ورث الحضين مجد أسرته ، كما ورث ـ فيما يبدو ـ البخل عن جده الحارث ، فكان مبخلا كما يظهر من قصته مع أبى كلدة اليشكرى الشاعر ، وهجاء أبى كلدة له ؛ ومما يرويه الجاحظ أن امرأة تعرضت له فسألته : كيف سدت قومك وأنت بخيل وأنت لئيم ؟ قال : لأنى سديد الرأى شديد الإقدام[٤]. ومن ذلك جاء ذكره هنا ، واستشهد بأقواله فى رسالة سهل .

وكذلك كان الحضين من أكبر رؤساء بكر وأظهر رجالها فى البصرة فى إبان الفتن الأولى ، إلى جانب خالد بن المعمر وشقيق بن ثور الدوسيين ، حتى كان يوم صفين حامل لواء ربيعة فى جيش على . وقد أبلى فيه بلاءاً حسناً . وكان له موقف مشهود حين جعل التخاذل يدب فى صفوف أصحاب على ، وارتفع صوت « دعاة الهزيمة » بعد خدعة الدعوة إلى التحكيم[٥].

ولكنا بعد ذلك لا نكاد نصيب الحضين ، فقد صارت زعامة بكر إلى مالك بن مسمع وأشيم بن شقيق بن ثور ، فى تلك الفتن التى اضطرمت بها البصرة بين ربيعة

---

(١) تهذيب التهذيب ٩ : ١٦٨ .

(٢) هو غير الحارث بن وعلة الجرمى ، أحد شعراء الحماسة .

(٣) الكامل للمبرد ، ص ٤٣٦ ، ط ليبتسج ١٨٦٤ م (٢ : ٢٤٨ ط الأزهرية ١٣٣٩ هـ) .

(٤) البيان والتبيين ، ٢ : ١٣٦ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

(٥) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٥٥٥ ، ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥ هـ .

ومضر . وكأنما اكتفى بأن يكون شاعراً يزجى المدح إلى رئيس قومه مالك بن مسمع[١] ، وجعل يصطنع نوعاً من الحياة الأدبية التى كانت تتمثل فى قول الشعر ، ورواية الأخبار ، والاستطراف من الآثار الأجنبية . وقد وضع نفسه بإزاء الشعراء يهاجيهم كالذى كان بينه وبين أبى كلدة اليشكرى. ولعلنا نستطيع أن نتمثل شعره فى القطعة التى أوردها أبو على القالى له فى ابنه غياظ[٢] ، كما نستطيع أن نتمثل شخصيته الأدبية فيما كان بينه وبين عبد الله بن مسلم — فى مجلس أخيه قتيبة — من حوار ومناقضة[٣] فيما يورده أبو العباس المبرد . فأما استطرافه من الآثار الأجنبية فشاهده ما يرويه عند مسلم العقيلى من بعض الخبر عن سابور الأكبر[٤] ، ولعل كنيته « أبا ساسان » تشير إلى شىء من الصلة بين أسرته وبين الفرس .

٢٩ — مرو (٧ : ١)

هى كبرى مدن خراسان ، حتى لتعد قصبتها . ومن ذلك كان يطلق عليها مرو الشاهجان ، نسبة إلى « الشاه » . وهى تقع على نهير صغير يقال له المرغاب ، كما تقع على طريق خراسان الذى يربطها ببغداد ، بعد أن يخترق بلاد الجبل ويسير شمال الصحراء الكبرى فى قومس ، حتى يمر بنيسابور ومشهد وطوس ، إلى أن يصل إلى مرو ، كما يصلها شرقاً — إلى الشمال — ببخارى وبلاد الشاش (على نهر سيحون أو سرداريا) ، وإلى الجنوب ببلخ ثم كابل وغزنة وبلاد الهند . وهكذا نرى أن موقعها أتاح لها أن تكون إحدى المدن التجارية الكبرى فى خراسان . وهذا إلى ازدهار صناعة النسيج بها ، فالثياب المروية كانت تعد من أجود أنواع الثياب .

ولعله من أجل هذا كان المراوزة موصوفين بدقة النظر ، ثم جاءهم من ذلك الحرص ، حتى وصفوا بالبخل ، كما نرى هنا فى كلام الجاحظ ، وفى قطعة من الشعر أوردها الهمذانى ، وهى :

مياسير مرو من يجود لضيفه بكرش فقد أمسى نظيراً لحاتم

---

(١) الاصابة ٣ : ٤٨٥ .

(٢) الأمالى ٢ : ١٩٨ ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .

(٣) الكامل للمبرد ، ص ٤٣٥ — ٤٣٦ ، ط ليبتسج ١٨٦٤ م .

(٤) البيان والتبيين ، ٣ : ٢١٨ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

ومن رش باب الدار منهم بغرفة فقد كملت فيه خصال المكارم
يسمون بطن الشاة طاوس عرسهم وعند طبيخ اللحم ضرب الجماجم
فلا قدس الرحمن أرضاً وبلدة طواويسهم فيها بطون البهائم

ومع ذلك فالهمذانى وياقوت يدفعان عن المراوزة تهمة البخل فى حماسة وقوة[١].

٣٠ – ابن أبى كريمة (١٧ : ٦)

النصوص عنه قليلة لا تكفى للتعريف به تعريفاً كافياً ، وكل ما يؤخذ منها أن اسمه أسود[٢]، وأنه مروزى الأصل [٣]. ويذكر أبو على القالى رجلا بصرياً اسمه أبو كريمة ، يروى له بيتاً من الشعر فى صفة الخمر متأثراً بمعانى المتكلمين [٤] ،وهو يصفه بأنه بصرى ، ولا ندرى لعله أبوه أو لعله هو، وصحة العبارة « لابن أبى كريمة »، إذ كان هذا تحريفاً سهل الوقوع .

وابن أبى كريمة شاعر يقول الشعر ويرويه [٥]، ولكنى شعره متفاوت مختلف ، ويبدو أنه يصنع شعره صناعة على أساليب مختلفة ، فمنها ما يظهر فيه الطابع الفارسى ، كتلك القطعة التى أوردها الجاحظ فى موقف له مع غرمائه ، وقد ضمنها كلمات وعبارات فارسية ، أخرجتها عن أن تكون مفهومة . وربما كان قصد فى وضعها هذا الوضع إلى نوع من المفاكهة [٦].

ومنها ما يظهر فيه الطابع البدوى الأعرابى . وقد كان ابن أبى كريمة متصلا بأبى مالك عمرو بن كركرة وبمن كان ينزل عليه من الأعراب ، ولعله من هنا جاءته هذه النزعة البدوية[٧]. وقد كان من إعجابه بما يصنع من ذلك ينحله بعض شعراء البادية ، كما صنع فى قصيدة له فى وصف الفأر ، نحلها يزيد بن ناجية السعدى ، « وكان لى

---

(١) انظر الهمذانى واليعقوبى وياقوت و Le Strange .
(٢) البيان والتبيين ١ : ١٣٢ ، ١ : ١٤٩ ط ١٩٣٢ . وفى الحيوان ٢ : ٣٦٢ أن اسمه أحمد . وأكبر الظن انه تصحيف .
(٣) البخلاء ص ١٣ .
(٤) ذيل الأمالى ص ٧٢ ، ط دار الكتب المصرية .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٤٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٣٢ .
(٧) الحيوان ٣ : ٥٢٥ – ٥٢٦ ط مصطفى البابى الحلبى .

من الفأر جهداً ، فدعاً عليهن بالسنانير » . وقد أورد الجاحظ هذه القصيدة ، ثم قال : « ونحن نظن أن هذه القصيدة من توليد ابن أبي كريمة »[١].

ومن هذا الشعر قصيدة طويلة بدأها بوصف كلب الصيد ثم وصف الفهود[٢].

ونمط آخر من الشعر يصطنع فيه الفكاهة ، ويحاكي فيه الحكم بن عبدل الأسدى ، وله من هذا النمط فيما بين أيدينا قطعة يصف فيها « حشا له ، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه »[٣].

ثم نمط رابع ينزع فيه إلى استنباط المعانى ، ومحاولة الإلغاز فى الوصف ، كما نرى فى بيتين له قالهما فى وصف القلم ، وأوردهما ابن قتيبة[٤].

ويؤخذ من أخباره أنه كان من أصحاب الجاحظ الذين يزورهم ويروى بعض تجاربهم[٥]. وهو معدود فى البخلاء الذين يستشهد بأسمائهم ، كما فى رسالة ابن التوأم .

وقد أورد له الطبرى بيتين يدلان على صلته بالبرامكة ، قالهما بعد نكبة البرامكة[٦].

٣١ ـ ماء البصرة (١٧ : ٦ ـ ٨)

قصة ابن أبي كريمة هذه ، وقصة أحد شيوخ المسجديين الذى كان يحتال الحيل فى تدبير الماء العذب[٧]، وغيرهما فى كتاب البخلاء ، تشير إلى أن البصرة كانت تعانى حالة خاصة من أجل ماء الشرب .

والواقع أن مسألة ماء الشرب فى البصرة كانت منذ الفتح من المسائل المهمة التى عنى الولاة عناية خاصة بتدبيرها . ونجد صدى هذه الأزمة فى خطبة الأحنف بن قيس التى خطبها بين يدى عمر بن الخطاب ، ويقول فيها :

« يا أمير المؤمنين ! إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازل

---

(١) الحيوان ٥ : ٣٣٤ – ٣٣٥ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٨ – ٤٧٣ ، ٦ : ١٦٢ ، نهاية الأدب ٩ : ٢٦٦ – ٢٧٠ ط دار الكتب المصرية .

(٣) الحيوان ١ : ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٤٩ .

(٥) الحيوان ٣ : ٣٤٩ – ٣٥٠ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٨٨ ط الحسينية المصرية .

(٧) البخلاء ص ٢٩ .

كسرى وقيصر وبنى الأصفر . فهم من المياه العذبة والجنان المخصبة ، فى مثل حُولاء السلى وحدقة البعير ، تأتيهم ثمارهم غضة لم تتغير ، وإنا نزلنا أرضاً نشاشة ، طرف فى فلاة ، وطرف فى ملح أجاج ، جانب منها منابت القصب ، وجانب سبخة نشاشة ، لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها . تأتينا منافعنا فى مثل مرئ النعامة . يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تربق ولدها تربيق العنز ، تخاف عليه العدو والسبع ، فإلا ترفع خسيستنا . . . وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا »[١].

فكتب عمر إلى أبى موسى يأمره أن يحفر لهم نهراً ، فصنع من ذلك شيئاً لم يتمه ، إلى أن جاء عبد الله بن عامر فى عهد عثمان ، واستخلف زياداً حين شخص إلى خراسان ، فأتم حفر النهر [٢] .

ولكن يظهر أن هذا التدبير لم يفلح طويلا ، إذ يقول البلاذرى إنه « لما قدم عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز عاملا على العراق من قبل يزيد بن الوليد ، أتاه أهل البصرة ، فشكوا إليه ملوحة مائهم . وحملوا إليه قارورتين : فى إحداهما ماء من ماء البصرة ، وفى الأخرى ماء من ماء البطيخة (والبطيحة أرض واسعة بين واسط والبصرة) ، فرأى بينهما فضلا . فقالوا : إنك إن حفرت لنا نهراً شربنا من هذا العذب . فكتب بذلك إلى يزيد ، فكتب إليه يزيد : إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق — ما كان فى أيدينا — فأنفقه عليه . فحفر النهر الذى يعرف بنهر ابن عمر » [٣].

ومع هذا فإن الناس لم ينتفعوا كثيراً بهذا الصنيع ، وظلوا يستعذبون من الأبلة ، على بعد الشقة ، إذ كان عملا ناقصاً من بعض وجوهه . ذلك أن الماء الذى كان يجىء به نهر ابن عمر كان نزراً قليلا ، لأن معظم ماء البطيحة كان يذهب فى نهر آخر اسمه نهر الدير . وظل أهل البصرة كذلك حتى قدم سليمان بن على البصرة ، واتخذ المغيثة وعمل مسنياتها على البطيحة ، فحجز الماء عن نهر الدير ، وصرفه إلى نهر ابن عمر . وأنفق على المغيثة ألف ألف درهم[٤].

وما زال أهل البصرة يشفقون على مائهم أن يجتاح أو ينتقص ، فإذا أراد المنصور أن يتخذ ضيعة بالبطيحة فزعوا وثاروا وهددوا بخلع طاعته . ومن هذا نفهم ما جاء فى البخلاء من إشارات إلى المبالغة فى تقدير الماء العذب ، والشح به ، والتدبير له .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٦٢ – ٦٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .

(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٣٤ ط السعادة ١٩٠٦ م .

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦٣ ط المصرية ، ١٩٣٢ م .

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦٤ .

٣٢ – عمرو بن نهيوى (١٧ : ٩)

ذكره الجاحظ هنا وفى صفحة ٧٠ راوياً عنه بعض الحديث عن الكندى ، وكان عمرو من جلسائه وذكره فى ص ٣٨ فى سياق يؤخذ منه أنه كان مشتغلا بالكلام ، وأنه كان من أصحاب النظام ، ولم أعثر عنه بشىء غير ذلك إلا فى كتاب « نشوار المحاضرة » للتنوخى ، إذ ذكره فى قصة يستفاد منها أنه كان من أهل السواد ، وأنه كان عاملا للمأمون ، وأن المأمون نكبه[١].

٣٣ – ثمامة بن أشرس (١٨ : ١)

شخصية من الشخصيات الخطيرة ، ذات الأثر الخالد فى الحياة العقلية الإسلامية . وقد كان زعيماً من زعماء المعتزلة ، أوذى فى أيام الرشيد ، ولكنه استطاع فى عهد المأمون أن يدير سياسة الدولة ، وأن يصبغها بصبغة اعتزالية ، وأن يكون صاحب الكلمة الأولى فى القصر وسياسته.

وأولية ثمامة غامضة ، ولكنا نستطيع القول بأنه نشأ فى البصرة تلميذاً لأبى الهذيل العلاف ، كما يتبين ذلك من هذا النص : « وبلغ المأمون أنه لا يقوم لطاهر ابن الحسين ، ويقوم لأبى الهذيل ويأخذ ركابه حتى ينزل ، فسأله عن ذلك ، فقال : أبو الهذيل أستاذى منذ ثلاثين سنه »[٢] أى أنه كان متلمذاً له منذ سنة ١٧٠ أو نحوها . وإلى جانب هذا نعرف أنه كان متصلا بالبرامكة ، أو بجعفر بن يحيى بصفة خاصة ، وكان يصاحبه إلى بيت الحكمة [٣]، وكلمته التى يحكيها الجاحظ ، فى وصف جعفر ابن يحيى مشهورة ، وهى تدلنا إلى أى حد كان معجباً به [٤]. وكذلك كان متصلا بالفضل بن سهل[٥].

ثم نراه بعد ذلك متصلا بالمأمون فى خلافته ، وكان المأمون يجله ويرفع قدره ، وقد أراده على أن يلى الوزارة فرفضها ، ولكنه كان هو الذى يشير عليه بمن يراه أهلا لها ، فهو الذى أشار عليه بأحمد بن أبى خالد [٦]، كما أشار عليه بعد بيحيى بن أكثم .

---

(١) ١ : ٦٧ .
(٢) الفهرست لابن النديم ، ص ٣ ، ط الرحمانية ، ١٣٤٨ هـ .
(٣) العقد الفريد ٢ : ١٢٧ ط لجنة التأليف ، الفهرست ص ٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٦١ ط ١٣٣٢ هـ .
(٥) الوزراء والكتاب ص ٣١٤ – ٣١٥ ط مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٨ م .
(٦) الفهرست ص ٢ .

فكيف نشأت هذه الصلة ؟ أكبر الظن أنها نشأت بواسطة الفضل بن سهل . ونحن نرجح أنه كان مع المأمون فى بطانته وحاشيته فى مرو ، وكأن حكايته عن ديكة مرو[١] إنما هى مما لفت نظره هنالك فى تلك الفترة .

ونحن نعرف بعد الدور الخطير الذى أداه فى توجيه السياسة الدينية للدولة . وهو الذى أتاح الفرصة لبغداد أن تتمثل العقل البصرى إلى جانب العقل الكوفى . وقد أثار عليه خصومة رجال الحديث ، فذهبوا إلى أقصى حد فى التشنيع به ، ومحاولة النيل منه ، ونرى مثلا من ذلك عند ابن قتيبة [٢]. ولا ريب أن كثيراً من الروايات التى تحكى عنه تصدر هذا المصدر .

٣٤ ـ قرية الأعراب (١٨ : ١٦)

يصفها الجاحظ هنا بأنها فى طريق الكوفة . ويذكرها ابن رسته فى الطريق من واسط إلى سوق الأهواز ، بين سماوة ونهر تيرين[٣].

٣٥ ـ مويس بن عمران (١٨ : ١٩)

هكذا جاء اسمه هنا ، وفى بعض النصوص « موسى بن عمران » . معتزلى من أصحاب النظام . ذكره المرتضى فى الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة [٤]، وقال إنه كان واسع العلم فى الكلام ، والفتيا . ولكنه مع ذلك لم يكن معتزليًّا خالصاً ، فقد أشار الخياط[٥] إلى خلافه فى القول بالمنزلة بين المنزلتين . وكذلك ذكر الشهرستانى ذلك الخلاف ، كما ذكر خلافه فى الوعد والوعيد [٦] . وفى موضع آخر أشار إلى أنه من القائلين بمقالة أبى ثوبان المرجئ[٧] . وكذلك ذكر المرتضى أنه كان يقول بالإرجاء .

وإذن فهذا الإرجاء الذى ينسب إليه هو من خلافه فى الوعد والوعيد ، وفى المنزلة بين المنزلتين . وإنكارهما أساس مذهب المرجئة . فليس مويس أحق بأن ينسب إلى

---

(١) البخلاء ص ١٨ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ٦٠ ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦.
(٣) الأعلاق النفسية ص ١٨٧ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .
(٤) المنية والأمل ص ٣٩ .
(٥) الانتصار ص ١٢٧ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ .
(٦) الملل والنحل ص ٤١ .
(٧) الملل والنحل ص ١٠٥ .

المعتزلة منه بأن ينسب إلى المرجئة . بل لعله بانكاره هذين الأصلين ، وذهابه إلى أن وعيد الله على المعاصى قد يتخلف بخلاف وعده ، وأن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بمجرد ارتكاب الكبيرة ، قد أصبح من صميم المرجئة ، فهذا هو الإرجاء جميعه .

ولكنه مع ذلك كان يعتبر من المعتزلة ، وكان المعتزلة يعتبرونه منهم . فلما جاء ابن الراوندى ينكر نسبته إليهم ، مع طائفة منهم ، رد عليه أبو الحسين الخياط بأنه « ليس تفتقر المعتزلة إلى إضافتهم إلى أنفسهم ، ولا إلى إدخالهم فى جملتهم »[١] فالظاهر أن هذه النسبة جاءته من أنه كان يخالط المعتزلة من أمثال النظام وأبى الهذيل والجاحظ ، ويكرمهم ويتحفى بهم ، لأن هذا كان مظهراً من مظاهر الترف . وكان — كما يؤخذ من أخباره القليلة — رجلا مترفًا سمح النفس ، سهل الجانب ، كريمًا ، فمن الطبيعى ألا يكون من أصحاب اللدد فى الخصومة ، والتعصب فى المذهب .

وكما كان هذا أمره مع المعتزلة كان مع الشعراء من أمثال أبى نواس والحسين بن الضحاك ، فحين كان أبو نواس فى السجن كان مويس يزوره لسؤاله عن أمره ، والتسليم عليه ، وقضاء بعض الحوائج له[٢] ؛ ويحكى الحسين بن الضحاك أنه استوهبه — وهو بالبصرة — جبة خز كان يلبسها ، فنزعها عنه وأعطاه إياها[٣].

وأما صلته بالجاحظ فقديمة ، بل لعلها من أخطر صلات الجاحظ ، ولعله كان صاحب الفضل فى تسديده فى تلك السبيل التى هيأت له أن يكون ذلك الرجل[٤] . وهو يردد اسمه كثيراً فى كتاب الحيوان ، ومما وصفه به أنه « كان هو والكذب لا يأخذان فى طريق ، ولم يكن عليه فى الصدق مؤونة ، لإيثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما ينفع »[٥].

وجملة القول فى مويس بن عمران أنه كان رجلا سريًّا نبيلا ، بكل معانى السراوة والنبل.

٣٦ — خاقان بن صبيح (١٩ : ١)

من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم بعض المشاهدات[٦] وينقل عنهم بعض

---

(١) الانتصار ص ١٢٧ .
(٢) أخبار أبى نواس لابن منظور ١ : ٢٢٧ ، ط الاعتماد ، ١٩٢٤ م .
(٣) الأغانى ٧ : ١٨٣ — ١٨٤ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .
(٤) المنية والأمل ص ٣٨ .
(٥) الحيوان ٥ : ٤٦٨ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٣ .
(٦) الحيوان ٤ : ٣١٧ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٠ .

العبارات[١] والعبارة التى نقلها عنه الجاحظ هى فى ذكر نبل الشتاء وفضله على الصيف . وقد وصفه فى سياق رواية مشاهدته ، بأنه صادق لا يحتاج خبره إلى شاهد .

ولم أعثر عن شخصه بشىء سوى ذلك .

وينقل الحصرى عنه عبارة تدل على أن الرجل كان من المشتغلين بالمسائل النظرية ، إذ يقول : « لوحشة الشك التمسنا أنس اليقين . ومن ذل الجهل هربنا إلى عز المعرفة ، ولخوف الضلالة لزمنا الجادة »[٢] وقد ورد اسمه فى هذا النص « صبح » بدون ياء .

ويؤخذ من نص البخلاء [٣] أنه كان يعد من البخلاء مع سهل بن هارون وغيره .

٣٧ ـ مثنى بن بشير (٢٠ : ٤)

هكذا جاء اسمه هنا مجرداً من الألف واللام ، وفى موضع آخر محلى بهما .

والنصوص عنه قليلة نزرة لا تكاد تفيدنا شيئاً عنه . وقد كان من أصحاب خاقان بن صبيح المتقدم ذكره ، إذ يستشهد به فى خبره الذى يذكره وأشرنا إليه .

وقد روى عنه الجاحظ فى صدد الكلام عن فضل الشمس قوله : « والحركة خير من الظل والسكون » [٤] كما روى عنه نادرة لشيخ سندى أتى به ليشتريه على أنه طباخ ، فاقتحمته عين السندى وازدراه[٥] .

ويظهر أن مثل المثنى هذا ـ ممن يذكر الجاحظ ـ كان من طبقة التجار الملابسين للعلماء.

٣٨ ـ السكباج (٢٣ : ٩)

ذكر أدى شير فى كتابه « الكلمات الفارسية المعربة » أن السكباج مرق يعمل من اللحم والخل ، معرب « سكباً » وهو مركب من « سك » أى خل ، ومن « با » أى طعام . وقد جاء ذكره ووصف طريقة طهيه فى كتاب عن الأطعمة مجهول المؤلف[٦] ، وقد ذكره فى باب الحوامض .

---

(١) الحيوان ٥ : ١٠٦ .

(٢) زهر الآداب ٣ : ٢٢٠ ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .

(٣) البخلاء ص ١٣٠ .

(٤) الحيوان ٥ : ١٥٠ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٣ م .

(٥) الحيوان ٦ : ١٦٦ ط التقدم ، القاهرة ، ١٩٠٧ م . (٦ : ٤٨٩ ، ط الحلبى ١٩٤٤) .

(٦) ص ٩ ـ ١٠ من هذا الكتاب ، ومنه نسخة فتوغرافية فى دار الكتب المصرية ، برقم (٥١ علوم معاشية)

ولعله من أجل ذلك كان يسمى — كما يقول الراغب — الخلية والمخللة . ويؤخذ من بعض ما أورده عنها أن السذاب كان يدخل فى أفاويهها ، كما أنها كانت تصبغ بالزعفران[١] .

٣٩ — الطباهج (٢٣ : ١٤)

ذكر أدى شير فى كتابه أن فارسيته « تباهه » وأنه « طعام من بيض وبصل ولحم » وقد جاءت صفة طهيه فى كتاب الأطعمة المتقدم ذكره ، فى صفحتى ٢١ ، ٢٢٤ .

وذكر الشهاب الخفاجى فى تفسيره أنه « الكباب » ثم قال : « والعرب تسميه الصفيف »[٢] .

٤٠ — إبراهيم بن السندى (٢٤ : ٩)

من رجال الجاحظ الذين يكثر من ذكرهم والرواية عنهم فى كثير من كتبه ، كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين والتاج . وهو من أسرة سندية خدمت الدولة منذ أول عهدها . وأبوه السندى بن شاهك السندى ، تولى القضاء[٣] ، وكان والياً على الشام[٤] ، وكان ممن غلب على الأمين مع محمد بن عيسى بن نهيك وسليمان بن أبى جعفر المنصور[٥] ومن هذه الأسره إبراهيم بن عبد السلام ابن أخى السندى هذا ، ويذكره الطبرى فى أخبار المنصور[٦] .

وقد وصف الجاحظ إبراهيم بن السندى بقوله : « وأما إبراهيم فإنه كان رجلا لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان نحوياً عروضياً ، وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً . وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى . وكان كاتب القلم كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل فى الخراج يعمل زادان فروخ

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ٢ : ٢٩٢ ، ط الشرقية ، ١٣٢٦ هـ . وانظر أيضاً المضاف والمنسوب للثعالبى ، ص ٤٩٠ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م ، فى الفصل الذى عقده عن « مخ الأطعمة » .

(٢) شفاء الغليل ص ١٢٩ ، ط السعادة . مصر ، ١٣٢٥ هـ .

(٣) عيون الأخبار ١ : ٧٠ ، ط دار الكتب المصرية .

(٤) الحيوان ٥ : ٣٩٣ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٥) التنبيه والإشراف ص ٣٠٢ ، ط الصاوى ، ١٩٣٨ م .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٣٠٥ ، ط الحسينية المصرية .

الأعور ، وكان منجماً طبيباً . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة ، وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر »[١].

وذكره كذلك فى رسالته التى كتبها فى مناقب الترك ، فقال : « وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة . وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم . وكان فخم المعانى ، فخم الألفاظ ، لو قلت : لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طرير ، لكان ذلك قولا ومذهباً »[٢] .

وفى موضع آخر ذكره فقال : إنه كان من فلاسفة المتكلمين ، باعتباره من الأطباء ، إذ الأطباء ، فلاسفة المتكلمين ، كما يقول الجاحظ[٣].

ومن مواقفه الكلامية ما ذكره الشهرستانى : « سأل أبا موسى عيسى بن صبيح المردار عن أهل الأرض ، فكفرهم ، فأقبل عليه إبراهيم ، فقال : الجنة التى عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك ؟ فخزى ولم يحر جواباً »[٤] .

ويؤخذ من خبر عنه ذكره ابن قتيبة والثعالبى أنه كان والياً على الكوفة وقتاً ما [٥] .

٤١ – ربض الشاذروان (٢٤ : ٩)

هو – كما يؤخذ من السياق – موضع من مواضع بغداد . فأما الشاذوران فكلمة فارسية أوردها الخفاجى وفسرها بأنها جزء « من جدار البيت الحرام ، وهو الذى ترك من عرض الأساس خارجاً . ويسمى تأزيراً ، لأنه كالإزار للبيت »[٦] ولم يفسرها بأكثر من هذا . وظاهر أنه غير المقصود بهذه الكلمة هنا .

وهناك معنى آخر أدنى إلى أن يكون المراد هنا ، وقد أغفلته كتب اللغة إغفالا تاماً . وإنما يمكن استخلاصه من كتب البلدان ، فى خلال ما يذكرونه من عجائب الأمصار ، وفى أثناء كلامهم عن إقليم الأهواز ومدينة تستر . وذلك كما فى قول ابن خرداذبه : « ما بناء بالجص والآجر أبهى من إيوان كسرى . . . ولا بناء بالحجارة أحكم ولا أبهى

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٦٦ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ص ٤٧ ، ط التقدم ، ١٣٢٤ هـ .
(٣) الحيوان ٢ : ١٤٠ .
(٤) الملل والنحل ١ : ٨٨ (هامش الفصل) .
(٥) عيون الأخبار ٣ : ١٢١ ، ثمار القلوب ص ٣٥٥ .
(٦) شفاء الغليل ص ١١٨ ، ط السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

من « شاذروان » تستر ، لأنه بالصخر وأعمدة الحديد وملاط الرصاص »[١]. وكقول الاصطخرى فى كلامه عن الأهواز : « وأما الخاصيات بها فإن عندهم بتستر " الشاذروان " الذى بناه سابور ، وهو من أعجب البناء وأحكمه . بلغنى أن امتداده يقرب من ميل . قد بنى بالحجارة كله ، حتى تراجع الماء وارتفع إلى باب تستر »[٢]. ومثل هذا ما نراه عند ياقوت فى الفصل الذى كتبه عن تستر[٣] . ثم نجد عند البشارى بيان هذا الإجمال ، إذ يصف « الشاذروان » وصفاً أدق ، ويبين الغرض منه فى صورة أوضح . فيقول فى صفته إن الماء يتبحر عنده ، وإنه يرد « الماء ويفرقه ثلاثة أنهار ، تمد إلى ضياعهم ، وتسقى مزارعهم . وهم يقولون : لولا " الشاذروان " ما عمرت الأهواز ، ولا انتفع بأنهارها . وفى « الشاذروان » أبواب تفتح إذا كثر الماء لولاها لغرقت الأهواز . وتسمع للماء المنحدر صوتاً يمنع النوم أكثر السنة . وزيادته تكون فى الشتاء ، لأنه من الأمطار لا من الثلوج »[٤]

ومن ذلك يتبين لنا أن هذه الكلمة تعنى عملا من الأعمال الهندسية التى كان يقصد بها إلى تنظيم الرى فى هذا الإقليم ، فهو نوع من القناطر أو الخزانات يتيح للماء أن يجتمع وراءه ويرتفع ، حتى يمكن توزيعه على النحو المطلوب من ناحية : وحتى يمكن إيصاله إلى الأمكنة المرتفعة ، من ناحية أخرى .

وإذا كان الشاذروان أكثر ما يطلق على شاذروان تستر ، فليس هناك ما يمنع أنه كان يطلق على كل عمل هندسى من هذا القبيل . وسياق الكلام يدل على أن الشاذروان المقصود هنا إنما كان فى بغداد . وأكبر الظن أن توزيع المياه فيها كان يحتاج إلى مثل هذا النوع من التدبير . فإذا صح هذا كان لنا أن نذهب إلى القول بأن « ربض الشاذروان » المذكور هنا هو أحد الأرباض الكثيرة التى يذكر اليعقوبى طائفة منها فى الفصل القيم الذى كتبه عن بغداد[٥]، وإن لم يذكره بينها . وأنه كان يقع إلى جانب شاذروان هناك ، فنسب إليه .

---

(١) المسالك والممالك ، ص ١٦٢ ، ط بريل ، ١٨٨٩ م .

(٢) مسالك الممالك ، ص ٩٢ ، ط بريل ، ١٨٧٠ م ، وانظر أيضاً ص ١٩ .

(٣) معجم البلدان ٢ : ٣٨٧ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م .

(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٤١١ ، ط بريل ، ١٩٠٦ م .

(٥) كتاب البلدان ، المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية : ص ٢٣٣ — ٢٥٤ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .

٤٢ ـ الجرذقة (٢٤ : ١٣)

قال أدى شير : « ومن كرده معرب أيضاً الجردق والجرذقة والجرذق ، وهو الرغيف» ، وقد قيده الخفاجى بأنه الرغيف الغليظ[١] ، وكذلك ذكر الجواليقى أنه الخبز الغليظ[٢] . وقد وردت فى شعر أبى النجم ، فى قوله :

« كان بصيراً بالرغيف الجردق »

٤٣ ـ « المغبون لا محمود ولا مأجور » (٢٥ : ٣)

هذا مثل من الأمثال التى كانت تجرى على لسان العامة ، وتصور نتيجة من نتائج التعقد الاقتصادى فى ذلك العهد . وقد عرض له الجاحظ فى موضع آخر فقال : « والعامة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه . وإنما هو شىء ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه على ألسنتهم . حتى قالوا فى نحو من هذا فى البائع والمشترى : " المغبون لا محمود ولا مأجور " فحملوا الجهلة على المنازعة للباعة ، والمشاتمة للسفلة والسوقة ، والمقاذفة للرعاع والوضعاء ، والنظر فى قيمة حبة ، والاطلاع فى لسان الميزان ، وأخذ المعايير بالأيدى ، وبالحرى أن يكون المغبون محموداً ومأجوراً ، إلا أن يكون قال : اغبنى . بل لو قالها كانت أكرومة وفضيلة ، وفعلة جميلة ، تدل على كرم عنصر القائل وطيب مركبه »[٣].

وقد جاء هذا المثل مرة ثالثة فى كتاب البخلاء ، فى رسالة ابن التوأم[٤].

٤٤ ـ محمد بن يسير (٢٦ : ٣)

هو أبو جعفر محمد بن يسير الرياشى ، مولى بنى رياش [٥]، شاعر من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ ، يكثر من ذكره ورواية شعره ، على أنه ليس من شعراء الطبقة الأولى ، ولكنه كان فى شعره يصور النوازع الاجتماعية المختلفة إلى حد ما ، فرة

---

(١) شفاء الغليل ص ٥٨ ط السعادة .

(٢) المعرب ص ٩٥ ، ١١٥ ط دار الكتب المصرية .

(٣) التاج ص ١٠٢ ، ط الأميرية ، ١٩١٤ م .

(٤) البخلاء ص ١٨٧ .

(٥) الآلى ، ص ١٠٤ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

هو ماجن فى شعره [١]، ومرة زاهد متنسك [٢] وقد أورد له الجاحظ قطعتين من الشعر ، يتحدث فيهما عن العلم وقراءة الكتب[٣] ، وهما يدلان على أنه كان مأخوذاً بالنزعة العلمية فى البصرة ، نزاعاً إلى أنواع المعرفة وصنوف الكتب ، وأنه كان يجد فى ذلك حظا من اللذة ، وأنه اتخذ من الكتب مفزعاً يفزع إليه حين يضيق بالناس والحياة ، وإحدى هاتين القطعتين ، وهى التى يبدؤها بقوله :

أقبلت أهرب لا آلو مبـــاعدة ... فى الأرض منهم فلم يحصنى الهرب

من أحسن ما قيل فى وصف الكتب ، وما تحدثه للنفس الضيقة من أنس .

وقد كان ابن يسير من الشعراء الدارسين المتعطشين للمعرفة ، استجابة لروح العصر ، والتماساً للروح النفسى . وفى بعض آثاره الأدبية التى وصلت إلينا ما يشير إلى هذه الدراسة ؛ إذ أصيب فى ألواحه الأبنوس التى كان يستخدمها فى دراسته ، فبكاها ببعض الشعر [٤] ، كما أن فى قصيدته التى أشرنا إليها ما يدل على الأصل الذى كانت تصدر عنه هذه النزعة ، وهو التماس الروح النفسى لقاء متاعب الحياة ، فلم يكن يتخذ هذه المعرفة وسيلة إلى غاية دنيوية ، أو سبباً إلى الجدل والمساماة وإرضاء هذه النزعة التى كانت شائعة فى البصرة .فقد كان يبغض هذا الأسلوب ، ويبغض من أجله المتكلمين ، كما عبر عن ذلك فى قطعة من الشعر يقول فيها[٥].

يا سائلى عن مقـــالة الشيع ... وعن صنوف الأهـــواء والبدع
دع عنك ذكر الأهواء ناحيـــة ... فليس فيمن شهدت ذو ورع
كل أناس بـــديّهم حسن ... ثم يصيرون بعـــد للشنع
أكثر ما فيه أن يقـــال له ... لم يك فى قـــوله بمنقطـــع

فقد كان ابن يسير إذن رجلا وادع النفس ، لا يذهب به الطموح ، ولا يستبد

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٢٧ – ١٢٨ ، ط الفتوح العربية ، ١٣٣٢ هـ ، الأغانى ١٢ : ١٢٨ ط التقدم .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٨٧ ، الكامل للمبرد ، ٢ : ١٣ – ١٤ ، ط الأزهرية ، الأغانى ١٢ : ١٣١ .

(٣) الحيوان ١ : ٥٩ ، ٩٤ – ٩٦ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٤) الأغانى ١٢ : ١٣٣ – ١٣٤ . ط التقدم .

(٥) تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٤ – ٧٥ ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦ هـ ، الأغانى ١٢ : ١٣٢ – ١٣٣ .

به القلق . وتلك إحدى ظواهر هذا الخلق . وأخرى نجدها فى شعره الذى يعبر عن روح الرضا ويوصى بالصبر ، كقوله[١] :

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طوراً وطوراً تركب اللججا
كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا

وكقوله فى هذين البيتين الذين يعبران عن فلسفة النفس الوادعة المطمئنة[٢]:

تخطى النفوس مع العيا ن وقد تصيب مع المظنة
كم من مضيق فى الفضا ء ومخرج بين الأسنة

ويظهر أن خلقه هذا قد أخمله نوعاً ما . فيقال إنه بقى فى البصرة طيلة حياته لم يغادرها ، وقد اكتفى من هذه الحياة بالقراءة والسماع ، وبقول الشعر ، يجد به حيناً ويهزل أحياناً ، وبشرب النبيذ ، « يشربه عند إخوانه ويستسقيه منهم » ، دون أن يعنى نفسه بنبذه وعلاجه . ولعله من هذا جاءت شهرته بالبخل ، وذكره بين البخلاء ، كما تجىء الإشارة إلى ذلك فى رسالة ابن التوأم[٣] . ولم يكد يتصل فى البصرة إلا بآل جعفر بن سليمان ، ثم لا نكاد نجد له شعراً فى المديح ، فقد كان إنما يقول الشعر لنفسه الوادعة .

٤٥ ـ أحمد بن هشام (٢٧ : ٧)

سرى من سراة بغداد ، عرف بالترف والأريحية ، من أسرة الهشاميين التى نعرف منها على بن هشام والخليل وشيبة . وقد كان من أبرز مظاهر الترف عنده مخالطته لرجال الفن فى ذلك العهد . ومن ذلك كانت بينه وبين إسحاق بن إبراهيم الموصلى صداقة يشيد كل منهما بها ، وقد ارتفعت معها الكلفة ، حتى كان إسحاق يعابثه أحياناً[٤]. ولعل من مظاهر ترفه أيضاً أنه كان يصنع الشعر فى بعض الأحيان ، فقد روى له أبو الفرج بيتين بعث بهما إلى إسحاق مع زعفران رطب أهداه إليه[٥].

(١) الأغانى ١٢ : ١٣٢ ، ط التقدم .
(٢) الأغانى ١٢ : ١٣٣ .
(٣) كتاب البخلاء ص ١٨١ .
(٤) الكامل للمبرد ٣ : ١٦ ، ط الأزهرية .
(٥) الأغانى ٥ : ٣٠١ ، ط دار الكتب المصرية .

٤٦ ـ أبو سعيد سجادة (٢٨ : ٥)

لم يتح لنا أن نعرف على وجه التحقيق من هو المقصود بأبى سعيد هذا ، على أنا نذكر أن من بين الذين امتحنوا فى خلق القرآن رجلا يدعى بسجادة ، وفيه يقول المأمون فى كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم : « وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق ، فأعامه أنه فى شغله بإعداد النوى ، وحكه ، لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ؛ ما أذهله عن التوحيد وألهاه »[١].

ومن هذا نرى كيف جاء هذا اللقب « سجادة » ، من هذا الأثر الذى كان يسمى « سجادة » . وفى هذه الفقرة ما يدلنا كيف كان المراءون يصنعون هذا الأثر . وكذلك يذكر الحصرى أنهم كانوا يصنعونه بدلك ما بين أعينهم بنواة وثوم ، ثم يعصبون الثوم وينامون[٢] وقد أورد فى هذا الموضع نادرتين طريفتين تتصلان بذلك .

وقد وردت هذه الكلمة « سجادة » فى شعر أبى نواس فى أبياته التى كتب بها إلى الفضل بن الربيع ، وقال فيها :

فادع بى ، لا عدمت تقويم مثلى ... فتأمل بعينك السجادة
لو رآها بعض المرائين يوماً ... لاشتراها يعدها للشهادة[٣]

٤٧ ـ المسجديون (٢٩ : ١)

هم ـ فيما نحسب ، وفيما تفيدنا إياه النصوص القليلة ـ قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم ، وطال غشيانهم له ، فعرفوا به ، ونسبوا إليه . ولم يكونوا ـ فيما يبدو ـ من صنف واحد ، بل كانوا خليطاً من الناس ، منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة ، وقد كانوا يستطرفون من هذه الثقافات التى يزخر بها مسجد البصرة ، فكانوا لا يغرقون فى فن ، ولا يتقيدون بنوع من العلم ، وإنما يصيبون من هذا وذاك ، ثم يجلس بعضهم إلى بعض ، يتحدثون شتى الأحاديث ، ويتجاذبون أطراف الرأى فى مختلف المسائل .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٢٩١ ، ط الحسينية المصرية .
(٢) جمع الجواهر ص ١٣٢ ، ط الرحمانية ، ١٣٥٣ هـ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٨٧ ط الحميدية ، تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٢٦ .

ويظهر أن هؤلاء المسجديين كان لهم أثر غير قليل فى التوجيه الأدبى لكثير من أدباء ذلك العهد ، ففى أخبار أبى نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان[١] ، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون . وكذلك الجاحظ كان مجلسه فى أول أمره إلى هؤلاء المسجديين[٢].

وقد كان بعض الشعراء يوصف بأنه مسجدى ، كما يقول المرزبانى عن أبى عمران موسى بن محمد السلمى أنه « بصرى مسجدى متوكلى »[٣] وهذا يدلنا على طابع خاص كان يعرف به الشعراء المسجديون . ومثل هذا نجده فى الرواية ، فقد ذكر الآمدى فيما يستكره من أشعار العرب هذا الشطر :

وسنا كسنيق سناءاً وسنما

ثم قال : « ولم يعرف الأصمعى هذا . وقال أبو عمرو : وهو بيت مسجدى ، أى من عمل أهل المسجد »[٤] ومن هذا نرى بعض الاتجاه الذى كان يتجهه المسجديون .

٤٨ – المكوك والدرهم والقيراط والحبة (٣٠ : ١٢ – ٣١ : ٧)

المكوك معيار يكال به ، وهو – كما يقول صاحب القاموس – مكيال يسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل إلى ثمان أواق ، أو نصف الويبة ، إلخ التقديرات التى ترجع فى اختلافها إلى اختلاف الزمان والمكان . والأصل فى كلمة المكوك أنها طاس يشرب به .

وأما الدرهم فمعرب كما يقول الجواليقى . وقد تكلمت به العرب قديماً ، إذ لم يعرفوا غيره . قال الشاعر :

وفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم[٥]

وقد ذهب الأب أنستاس مارى الكرملى إلى أنه معرب عن « دراخمى » اليونانية[٦] وقد ذكر المقر يزى أن الدرهم كان أول أمره نوعين : كبير وصغير ، وقد كان

---

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور ١ : ٦ ، ط الاعتماد ، ١٩٢٤ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ .

(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٧٩ ، ط القدسى ، ١٣٥٤ هـ .

(٤) الموازنة بين الطائيين ص ١١٦ .

(٥) المعرب ص١٤٨ ط دار الكتب المصرية . والشاعر هو جابر بن حنى التغلبى ، أحد شعراء المفضليات.

(٦) النقود العربية وعلم النميات ، ص ٢٤ ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٩ .

الكبير يسمى الدرهم البغلى ، وهو فارسى ، والصغير هو الدرهم الطبرى . وقال إن الناس كانوا قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار ، فعمد إلى إصلاح هذه الحال ، فوزن الكبير فإذا هو ثمانية دوانق ، ووزن الصغير فإذا هو أربعة ، فوحدهما ، وجعل الدرهم ستة دوانيق[١] . وذلك الوضع الأخير للدرهم هو الذى ذكره صاحب القاموس فى مادة (م ك ك) .

وأما القيراط فهو نصف الدانق ، أو هو جزء من اثنى عشر جزءاً من الدرهم .

وأما الحبة فهى ربع قيراط ، أو هى جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم .

وقد ذكر المقريزى أن الدانق ثمان حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التى لم تقشر ، وقد قطع من طرفيها ما امتد ، ثم ذكر مرة ثانية أن زنة الحبة مائة من حب الخردل البرى المعتدل .

٤٩ ـ الفانيذ (٣١ : ٩)

الفانيذ ـ كما فى القاموس ـ ضرب من الحلواء معروف ، معرب بانيد . ولم يذكره الجواليقى ولا الخفاجى ، وذكره أدى شير فقال : « الفانيذ معرب بانيد ، وهو نوع من الحلواء ، يصنع من السكر ودقيق الشعير والترنجبين » ؛ ثم قال عن الترنجبين إنه تعريب ترنكبين « طل حلو أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر ، ويجمع كالمن » . ويقول العلامة لسترنج فى فصله عن مكران إن أهم غلاتها هو قصب السكر ونوع خاص من السكر الأبيض يعرف عند العرب بالفانيذ (من الكلمة الفارسية : بانيد)[٣] .

٥٠ ـ النشاستج (٣١ : ١٠)

النشاستج هو النشا ، كما قال الجوهرى ، « فارسى معرب حذف شطره تخفيفاً ، كما قالوا للمنازل منا »[٤] وقال أدى شير فى تفسير هذه الكلمة : « ما يستخرج من الحنطة إذا نقعت حتى تلين ومرست حتى تخالط الماء وصفيت فى مناخل وجففت .

---

(١) النقود الإسلامية ص ٣ ، ٩ ، ١٠ ط الجوائب .

(٢) انظر ـ فوق هذا ـ البحث الذى كتبه M.H. Sauvaire فى المجلة الأسيوية *Journal Asiatique* (سنة ١٨٨٤ جزء ٣) تحت عنوان : Numismatique et Métralogie Musulmanes

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, P. 329. Cambridge,1905.

(٤) شفاء الغليل ص ١٩٩ .

فارسيته " نشاسته" . والكردى " نشا " ولعل الكلمة آرامية الأصل . »

وقد ذكر الجاحظ كلمة النشاستج فى سياق الكلام عن فضل الكتب ومآثر المتقدمين فقال : « ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج»[١].

٥١ ـ المرقشيثا (٣٢ : ٩)

هو الاسم الذى كان يطلقه علماء الكيمياء فى القرون الوسطى على بعض المعادن الكبريتية التى تقدح النار . ويقابله فى اليونانية كلمة (بوريطس pyrites) وهى تعنى حجر النار .

وقد ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى أنها « أرمية الأصل (كيماقا شيثا) أى الحجر القاسى أو الصلب أو الصلد ثم أقحمت الراء بين الميم والقاف لتسهيل النطق بها (والراء من حروف الذلاقة) فصارت إلى ما ترى» [٢] .

وقد جاء ذكره فى كتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون بما يلى :

« حجر مرقشيثا : المرقشيثا ألوان كثيرة ، منها الذهبية ، والفضية ، والنحاسية . هذه ألوانه . فإذا كلس وحرق حتى يصير مثل الدقيق دخل فى الصنعة ، وإن ألقى مع يسير من الكبريت فى البوطقة خلص الذهب . وإذا حك الحديد المسقى بالمرقشيثا قدح النار »[٣]

٥٢ ـ زبيدة حميد (٣٥ : ١)

صيرفى بصرى كبير ، يملك مائة ألف دينار ، ويستخدم العديد من الغلمان . ، كما يؤخذ من حديث الجاحظ عنه هنا . وقد عرض له مرة أخرى فى سياق الحديث عن تفاوت الناس فى التأثر بالخمر فقال : « وكان عقل زبيدة بن حميد إذا شرب عشرة أرطال ، وبين عقله إذا ابتدأ الشرب مقدار صالح »[٤].

ولعله ابن « حميد بن القاسم الصيرفى » ، وكان صيرفياً تاجر رقيق فى أيام المنصور .

---

(١) الحيوان ١ : ٨٢ .

(٢) مجلة لغة العرب ٥ : ١٠٤ – ١٠٥ .

(٣) كتاب الأحجار لأرسطاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون ص ١١٢ ط هيدلبرج ١٩١٢ م . وانظر كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٤ : ١٥٢ ط مصر ١٢٩١ هـ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢٢٧ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

كما يؤخذ مما ذكره الجهشيارى[١] ، وكذلك كان زبيدة — فيما يبدو — صيرفياً تاجر رقيق . وقد جاء ذكره أيضاً فى حوادث سنة ١٥٧ ، فيما يقول الطبرى : « وفيها عقد المنصور الجسر على باب الشعير ، وجرى ذلك على يد حميد بن القاسم الصيرفى »[٢].

٥٣ — أبو الأصبغ بن ربعى (٣٥ : ١٠)

هكذا جاء هنا بالغين المعجمة ، وفى النصوص الأخرى التى بين أيدينا باللعين المهملة[٣] وقد سمى بهذا وذلك .

كان من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم ، وأحسب أنه من بنى ربعى الذين يذكرهم الجاحظ فى سياق يدل على أنه كان يعتاد منزلهم[٤] . واسمه « ذؤيب » على ما جاء فى أخبار أبى نواس . وهو هذلى بصرى . وقد كان — فيما يظهر من أخباره القليلة — من فتيان البصرة الظرفاء الخلعاء . وفى الخبر الذى أورده ابن منظور عنه وعن أصحابه ما يدل على ذلك . ومن أصحابه صباح بن خاقان المنقرى ، ويحيى الأرقط ، وعيسى ابن غصين ، وابن الكهل مولى بنى تميم ، وعبيد العاشقين . وقد ذكره أبو نواس فى قصيدة مدح بها هؤلاء فقال :

وابن ربعى الفتى السمح الجواد الراحتين[٥]

٥٤ — الجوارشن (٣٥ : ١٣)

تجىء هذه الكلمة بالنون كما هنا ، وخالية منها ، كما ذكرها أدى شير فى كتابه ، وقال إنها عند الأطباء نوع من الأدوية ، تعريب كَوارش ومعناه الهضام . وهذا الذى ذكره أدى شير يوافق ما ذكره التهانوى فى كشاف اصطلاحات الفنون[٦] ، كما يساير سياق الحديث فى هذا الموضع من البخلاء [٦]

---

(١) الكتاب والوزراء ص ٦٨ ط الصاوى .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٢٨٨ ، ط الحسينية المصرية .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٩٣ ط ١٣٣٢ هـ ، الحيوان ٣ : ١٠٩ ، ٢٥٦ ، أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٤٩ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢١ .

(٥) ديوان أبى نواس ص ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ .

(٦) ١ : ٣٢٠ ط كلكتا . الهند .

ولكن هذه الكلمة تعرضت ، فيما بعد ، لنوع من التوسع اللغوى . فنسى فيها هذا المعنى ، ولم يلحظ فيها إلا بعض الصفات الظاهرة لما تطلق عليه . فأصبحت تطلق فى القرون المتأخرة على ما عبر عنه داود الأنطاكى ، فى القرن العاشر ، بقوله : « والجوارشات هنا عبارة عن الدواء الذى لم يحكم سحقه ، ولم يطرح على النار ، بشرط تقطيعه رقاقاً »[١] وبذلك صرنا نرى هذه الكلمة تطلق على أنواع من الأدوية ، منها الهاضوم وغيره .

٥٥ ـ البرنكان (٣٦ : ٨)

فسره صاحب القاموس بأنه الكساء الأسود ، ونقل الجواليقى عن ابن دريد أنه الكساء مطلقاً ، وأنه بالفارسية [٢] . وقد جاءت الكلمة فى الشعر ، فيما أنشد الجاحظ[٣] .

إنى ، وإن كان إزارى خلقاً ... وبرنكانى سملا قد أخلقا ،
قد جعل الله لسانى مطلقاً

وقد كتب عنه العلامة دوزى Dozy فصلا فى كتابه « معجم الملابس » [٤] . ولكن معظم كلامه عنه كما كان مستعملا فى العصور المتأخرة ، فى بلاد المغرب ، اعتمادا على كلام الرحالين ، أمثال Diego de Haedo ، وهو يصفه بأنه كساء كبير ، يلف الجسم كله ، يستعمله الرجال والنساء . وغالب الظن أن شكله العام لم يتغير كثيراً عن هذه الصورة البدوية ، إلا أن تكون الحياة المتحضرة فى البصرة حورته قليلا .

٥٦ ـ ليلى الناعطية (٣٧ : ١)

ذكرها الجاحظ فى البيان على أنها من نساء الغالية[٥] ، كما جاء ذكرها فى قصيدة صفوان الأنصارى فى الرد على بشار ، فيقول [٦] :

أتجعل ليلى الناعطية نحلة ... وكل عريق فى التناسخ والرد

---

(١) تذكرة ذوى الألباب ١ : ١٦٠ ط بولاق .
(٢) المعرب من الكلام الأعجمى ص ٥٦ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٤) *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 68-71.
(٥) ١ : ١٩٥ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٧ .

وأما « ناعط » التى تنسب ألبها ، فهى — كما ذكر ياقوت[١] — حصن فى رأس جبل بناحية اليمن ، قديم ، كان لبعض الأذواء . وقد ورد فى شعر امرئ القيس وأبى نواس . وقد ذكره الهمدانى بين ما ذكر من بقايا مآثر اليمن وقصورها ، وقال إنه أفضلها ، ووصفه بأنه مصنعة بيضاء مدورة منقطعة فى رأس جبل تلين ، وهو أحد جبال البون ، ثم مضى فى صفته وفى ذكر قصور ناعط وما جاء فيها[٢].

ولست أدرى — على التحقيق — وجه هذه النسبة . وليس يبعد أن تكون يمنيه الأصل ؛ فالتشيع غالب على اليمانية ، وقد كان الناعطيون من أصحاب على فى الكوفة ، وطائفة من طوائف جيشه بصفين .

٥٧ — جبل العمى (٣٨ : ١٦)

يقول فان فلوتن فى التعليق على هذا الموضع إنه ربما كان الشخص الذى ذكره أبو نواس فى شعره، على ما جاء فى الديوان (ط القاهرة ، ١٨٩٨) ص ١٨٤ : « ثقيل يقال له روح العمى (الغمر) ويلقب با لجبل . بصرى »[٣].

وليس يبعد هذا عندى . والديوان يثبت لأبى نواس فى هجاء « الجبل » هذا ، خمس قطع . ومن بين هذه القطع ما يدل على أنه كان يتعاطى صناعة الغناء ، وأنه كان يغنى لأبى نواس وصحبه فى لهوهم ومجالس أنسهم .

٥٨ — حكاية الكلام الملحون (٤٠ : ١ — ٤)

يقول الجاحظ هنا : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه » . وهذا مذهب للجاحظ لعله كان أول من اصطنعه واجترأ

---

(١) معجم البلدان ٨ : ٢٣٩ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م . وانظر الفصل القيم الذى كتبه أبو محمد الحسن بن احمد الهمدانى فى كتابه الإكليل عن ناعط (٨ : ٤١ — ٤٦ ، ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ م) .

(٢) الإكليل لأبى محمد الهمدانى ٨ : ٤١ — ٥٢ ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ .

(٣) البخلاء (ط ليدن ص IX) ,Notes et éclaircissements

(٤) ديوان أبى نواس، ص ١٥٥ — ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ .

عليه فى كتبه ، دون أن يبالى فى ذلك لائمة المتحرجين وتنطس المتنطسين ، فقد كانت تحمله عليه نزعته الأدبية القوية التى اتخذت من حياة الشعب مادة لها ، تصور ألوانها المختلفة ، وتعبر عن اتجاهاتها ومناحيها ، والتى لم تكن تعبأ فى سبيل دقة التصوير وبلاغة التعبير بتلك القيود الشكلية إذا كان فيها ما يمنع من ذلك .

وقد عبر عن هذا المذهب فى غير موضع ، فيقول مثلا : « . . . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أردت له ، ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها »[1] . ويقول فى موضع آخر : « إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فإذا أدخلت على هذا الأمر — الذى إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيه — حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته »[2]. ويتحدث فى موضع ثالث عن التجاوب الضرورى بين اللفظ والمعنى ، وما يتصل منه بهذا الباب ، فيقول : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء . فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل فى باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان فى لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكربها ويأخذ بأكظامها »[3].

فالجاحظ كان يرى إذن أن الكلام هو الصورة النفسية المسموعة بكل ما فيها من ألفاظ معينة ، وهيئة فى الأداء خاصة . فالتحريف فيها إنما هو مسخ لهذه الصورة ، وإخراج لها عن أصل وضعها . ويظهر هذا فى النادرة أكثر ، ولهذا كان أكثر كلامه عنها . لأن النادرة غايتها الاضحاك ، وهو يعتمد على الشكل والهيئة إلى حد كبير .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٨١ .

(٢) الحيوان ١ : ٢٨٢ .

(٣) الحيوان ٣ : ٣٩ .

وقد تبع ابن قتيبة الجاحظ فى هذا المذهب فقال فى مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك اللحن إن مر بك فى حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها » . وشتان ما بين الجاحظ وابن قتيبة فى التقرير والتعليل .

٥٩ ـ أحمد بن خلف (٤١ : ١)

هو ـ كما يبدو من سياق الكلام فى هذا الفصل ـ أحد أصدقاء الجاحظ . وإذا كانت هذه الصداقة لم تجعله يتحرج فى وصفه بما وصفه به ، بعد أن عينه وسماه ، فلعله كان هو الذى يعنيه ، فى مقدمة هذا الكتاب : البخلاء ، بقوله : « ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به . ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه » .

وقد ورد هذا الاسم فى رسالة التربيع والتدوير ، إذ يقول الجاحظ ، مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « والله لئن رميتنى ببجيلة ، لأرمينك بكنانة ، ولئن نهضت بصالح بن على ، لأنهضن بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على »[1] ، فأكبر الظن أنه هو المعنى هنا .

٦٠ ـ المثلثة (٤١ : ٣)

ليس فى قواميس اللغة تفسير لمعنى هذه الكلمة يتفق مع السياق الذى جاءت فيه هنا . وهذا السياق يدل على أنها كانت تطلق على نوع من الحساء ، والحساء ـ كما يعرف به صاحب اللسان ـ طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن ، وقد يحلى ، ويكون رقيقاً يحسى . ويقول الأستاذ داود الحلبى فى التعليق على هذا الموضع من مقالاته : « تصحيح أغلاط كتاب البخلاء» إن كلمة « المثلثة » تطلق الآن فى العراق على الحنطة بعد أن تدق ثلثى الدق الكامل بدون أن تسلق . وقد أورد بعض الأطعمة التى تتخذ منها كالكشكا ووصف طرائق صنعها[2] . ولكن ما هنا شىء آخر ، فلعل المراد حساء هذه المثلثة .

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٢٦ ط التقدم .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى الجزء الثالث والرابع من المجلد العشرين (آذار ونيسان ١٩٤٥) ص ١٥٨ .

٦١ ـ الجرار المذارية (٤٥ : ١)

نوع من الجرار وصفه هنا بأنه يرشح الماء ، وجاء فى قطعة من شعر البحترى ما يدل على أن الجرار المذارية هى من الجرار الخضر ، وذلك حيث يقول فى رجل يكنيه بأبى الحسن ، يعيره بها وبولايته على المذار :

ليس المذار بجالب لك سؤددا غير الجرار الخضر والكيزان
ولئن وليت فبالمصانعة التى قدمتها ، وشفيعك العريان[1]

وأما المذار التى تنسب إليها هذه الجرار فهى ـ كما يقول ياقوت ـ قصبة ميسان ، بين واسط والبصرة ، وبينها وبين البصرة أربعة أيام . وكانت معروفة بجرارها[2].

٦٢ ـ حديث خالد بن يزيد (٤٦ : ١)

خالد بن يزيد هذا هو أحد المكدين الذين مارسوا التكدية حياتهم ، ثم نزل البصرة ، فأجرى الجاحظ هذا الحديث على لسانه ، ليرسم به صورة عجيبة من حياة هذه الطائفة .

وليست التكدية عندهم مجرد السؤال والاستجداء ، كما قد تفيده هذه الكلمة بمعناها اللغوى الساذج[3] ، فقد أخذت معنى اصطلاحيًّا معقداً متعدد الوجوه ، كثير الدلالة . فأصبحت تتضمن معنى الاحتيال للمال بمختلف الوسائل والأساليب غير المشروعة ، من استخدام القوة والاستلاب بالعنف والغلبة ، إلى استغلال غفلة الجماهير وغرائز الرحمة والرقة .

وقد وجد الجاحظ فى هذا النوع فى الحياة العجيبة موضوعاً أدبيًّا طريفاً ، يثير دهشة القارئ ، فأجلس هذا الرجل ، خالد بن يزيد ، فى أحد مجالس البصرة ، وأمر عليه سائلا يسأله ، فغلط بدرهم أعطاه له ، ثم فطن فاسترده ، وأعطاه فلساً بدله . فأنكر جلساؤه عليه ذلك .

وهنا أوجد الجاحظ المناسبة التى جعلته يتكلم عن نفسه ، وساق المقدمة التى تمهد

---

(١) ديوان البحترى ٢ : ٣١٦ ، ط هندية ، القاهرة ١٩١١ م .
(٢) معجم البلدان ٧ : ٤٣٣ ط السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م .
(٣) انظر شفاء الغليل للخفاجى ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

لوصف حياة هذه الجماعة ، فجعل الرجل يتكلم ويقول : إن هذا السائل من مساكين الفلوس لا مساكين الدراهم ، وأنه يعرفه حق المعرفة بالفراسة ، وكيف لا يعرفه وقد كان وكان . . . وهكذا يأخذ فى الحديث عن نفسه وعن صور حياته ، وما كان له من الزعامة فى طائفته .

فإذا انتهى الجاحظ من التعريف به هذا التعريف الأولى ، انتقل بالحديث ناحية أخرى ، فأورد وصيته لابنه ، يوصيه فيها بحفظ المال والقيام عليه ، ويقص عليه ما قاساه فى جمعه من السفر الطويل ، ومعاناة المحن ، وملابسة الخدع ، وتعاطى أنواع الثقافة المختلفة ، والبطش ساعة البطش ، والحيلة ساعة الحيلة ، والصبر على ضروب التنكيل والتعذيب ، من الجلد والحبس والقيد . ويذكر له مشاركته للعصابات المختلفة من الثوار وقطاع الطرق ، ويمضى فى هذا الحديث الذى يصور حياة هذه الطائفة تصويراً دقيقاً جميلا ، كما يصور من ناحية أخرى صورة من الفساد الاجتماعى الذى أصاب كل شىء ، حتى أصاب ذمم الوكلاء وضمائر القضاة .

فإذا فرغ من إيراد هذه الوصية أخذ فى منحى آخر يزيد الصورة تفصيلا وتجلية ، فأخذ يفسر ما جاء فى هذا الحديث من كلمات اصطلاحية أطلقت على بعض أنواع الاحتيال التى تجيدها هذه الطائفة .

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن الجاحظ لم يقتصر على هذا الحديث فى تصوير هذه الطائفة ، بل قد تناوله فى موضع آخر ، فى فصل نقله عنه البيهقى[1] ، يذكر فيه محاسن التكدية ، وقد ساقه على لسان أحد المكدين ، كما أورد فصلا آخر عدد فيه أصناف المكدين ، مشتملا على بعض ما جاء فى البخلاء[2] .

ويتبين من حديث الجاحظ هذا أنه يتحدث عن طائفة متحدة فى روحها ، وفى نزعتها ، وفى أساليب حياتها ، وفى أنها رحالة دائمة الرحلة والمهاجرة ، حتى ما يكاد القارئ يملك نفسه من تذكر تلك الطائفة التى يسميها البعض « النور » ، كما تسمى بالغجر والبوهيميين والجيتان[3] ، وغير ذلك من الأسماء التى تختلف باختلاف منازلهم التى ينزلونها . وكذلك نجد هذه الطائفة التى عقد لها الجاحظ هذا الحديث ، وسماها بالمكدين ، تختلف أسماؤها . فتسمى هنا بالزط ، وهناك بالزواقيل ، إلى غير ذلك من

---

(١) المحاسن والمساوى ص ٦٢٢ – ٦٢٤ . (٢) المحاسن والمساوى ص ٦٢٤ – ٦٢٧ .

(٣) gitane أو gitano تطلق فى الإسبانية على البوهيميين ، ويلاحظ كأن هناك صلة بين هذه الكلمة وبين كلمة زط التى هى كلمة جت الهندية .

الأسماء ، كما أطلق عليها بعد ذلك اسم الساسانيين أو بنى ساسان .

فإذا افترضنا أن هذه الفرقة هى طائفة من النور المنتشرين فى أنحاء الأرض ، وجدنا هذا الفرض قريباً ، ووجدنا الأدلة والقرائن متظاهرة على تأييده . فأول ما يعرف به النور هو الرحلة الدائمة ، والسعى المستمر فى مناكب الأرض ، وهؤلاء كذلك كما يؤخذ من كلام الجاحظ هنا ، وفيما نقله البيهقى ، ومن صفات الساسانيين فى الآثار الأدبية الأخرى ، وسنشير إليها بعد . كما أن وسائلهم فى الحياة هى وسائل النور من المخادعة ، والحيلة فى اجتلاب المال واستلابه ، غير متحرجين .

ويصفهم الجاحظ بأنهم عرفوا « خدع الكاهن ، وتدسيس العراف ، وإلى ما يذهب الخطاط والعياف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وعرفوا التنجيم والزجر والطرق والفكر » وكذلك نعرف عن النور أن هذا أمر شائع بينهم ، وأن هذه الثقافة الخاصة بالغيبيات من التنجيم والزجر وما إليه من أخص ثقافاتهم .

وبعد هذا كله لا يكاد الجاحظ يذكر شيئاً عن هؤلاء المكدين ثم لا نجده فيما نعرف من أخلاق الغجر أو البوهيميين ومذاهبهم فى الحياة ، مع مراعاة اختلاف الزمان والمكان ، وما توحى به الظروف المختلفة والملابسات المتفاوته .

على أن هناك شاهداً آخر يؤيد هذا الفرض الذى نفترضه ، وهو يرجع إلى الموطن الأصلى للنور ، فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أنهم أخلاط من القبائل الآرية المنتشرة بين الهند وإيران، وقد لاحظ بلاس pallas — كما ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى فيما كتب عن النور[1] — أن اللغة التى يتكلمها النور تضاهى كل المضاهاة لغة هنود المولتان ، وقد اتفق له أن يتصل بجماعة منهم فى استراخان ، ويتعرف إليهم . ونحن من جانبنا نرجح إلى حد كبير أن هذا الأصل هو أصل طائفة المكدين التى ذكرها الجاحظ . فقد ذكر منهم الزط ، وهى — كما نعرف — تحريف كلمة « جت » اسم لاحدى القبائل النازلة على حدود الهند ، كما ذكر منهم القفص ، وهم من جبال كرمان ، كما ذكر البشارى[2] . وكثير من البلاد التى ذكرت فى سياق حديث الجاحظ على أنها من مجالاتهم من هذه المنطقة التى قالوا إنها موطن النور ، كالمولتان التى أشار إليها بلاس ، وقيقان ، وهى على حدود الهند ، وقطر ، وهى بين شيراز وكرمان .

وعبارة أخرى جاءت فى حديث خالد بن يزيد تشير إلى هذا الأصل الهندى ، وهى

---

(١) مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٢ ص ٩٦٩ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٧٠ — ٤٧١ ط بريل ، ١٩٠٦ م .

قوله : « ولو كنت عندى مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح فى الأجساد وأنت تبصر ... » فهذه عبارة أشبه بالعقلية الهندية المتعلقة بأسرار الحياة ، وغوامض الأرواح ، ومساتير الوجود .

ننتقل بعد هذا إلى دليل آخر أقطع فى الدلالة على الصلة بين هؤلاء المكدين ، وبين طائفة النور ، وهو دليل يقدمه إلينا الأصل المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى هذه النشرة ، فى هذه العبارة : « قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كاجار فى حداثة سنى ؟ » ؛ والدليل هو فى كلمة « كاجار » التى جاءت هكذا فى الأصل فجعلها « فان فلوتن » فى نشرته « كاخان » على غير هدى . وما كلمة « كاجار » هنا إلا صورة من كلمة « غجر » التى تطلق الآن على النور كاسم من أسمائهم الكثيرة ، كما ذكر ذلك عرضاً الأب أنستاس مارى الكرملى فى بحثه الذى تقدمت الاشارة إليه ، وكما نعرض لذلك فى هذه التعليقات بعد قليل .

وإذن فنحن بهذه الشواهد المتعددة نستطيع أن نصحح هذا الفرض الذى افترضناه عن طائفة المكدين ، ونستطيع أن ندرسها على هذا الأساس درساً يمكن أن يكشف لنا عن كثير منها .

وقد ذكر ياقوت فى معجمة خالد بن يزيد هذا ، كأنه شخصية تاريخية ، وترجم له ترجمة أخذها عن هذا الفصل الذى كتبه الجاحظ فى البخلاء ، ولم يزد شيئاً ، ولم يغير فى العبارة تغييراً كبيراً . ثم قال : « ومن لطائفه وصيته لابنه عند موته ، وفيها لطائف وغرائب » . ثم أورد طرفاً من هذه الوصية ، كما جاءت فى البخلاء ، وقال إنها مجتمعة فى كراسة[1] .

وعندى أن هذا من صنيع الوراقين ، تحايلا على الكسب . فاقتطعوا هذا الحديث من كتاب البخلاء ، ونسخوه على حدة فى كراسة لطيفة الحجم ، ليكون أروج لها . وقد رآها ياقوت ، فاعتبرها بهذا الاعتبار . ولم يعرف أنها قطعة من آثار الجاحظ الأدبية التى مثل فيها هذه الناحية الغريبة من الحياة تمثيلا دقيقاً ، فافتتن بها الناس . واستغل الوارقون ذلك ، فأخذوا فى انتساخها وتقديمها على أنها من حديث شيخ المكدين نفسه ، زعماً منهم أن ذلك يكون أروع لها ، وأشد فى افتتان الجمهور بها ، وإقباله عليها .

على أنه يظهر أن تعقد الحياة فى القرن الرابع ، وشيوع المذاهب المختلفة فيه ، والغفلة التى أطبقت على العامة من ناحية الدين فى ذلك العهد ، كما يصورها كتاب ككتاب

---

(١) معجم الأدباء ١ : ٤٢ - ٤٧ .

نشوار المحاضرة للتنوخى ، قد مكن لهذه الطائفة أن يمتد نفوذها ، ويقوى سلطانها ، وتتسع ميادينها . وقد سميت فى ذلك العهد اسما اصطلاحيًّا جديداً ، هو « الساسانيون » . وقد ظهر ذلك فى الآثار الأدبية فى القرن الرابع وما بعده ظهوراً بيناً ، وحسبنا ما نراه فى مقامات بديع الزمان والحريرى .

وقد كتبت مؤلفات أخرى تناولت هذه الناحية . بل لقد أصبحت حيل الساسانيين من موضوعات العلم ، وقد كتب حاجى خليفة فصلا تحت عنوان : « علم الحيل الساسانية » قال فيه :

« ذكره أبو الخير من فروع علم السحر ، وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال فى جلب المنافع ، وتحصيل الأموال . والذى يباشره يتزيا فى كل بلدة بزى يناسب تلك البلدة . بأن يعتقد أهلها فى أصحاب ذلك الزى . فتارة يختارون زى الفقهاء وتارة يختارون زى الوعاظ ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يحتالون فى خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها »[١] .

ثم ذكر بعد ذلك حيلة من حيلهم فى هذا .

وهناك غير هذه الآثار النثرية آثار شعرية . وقد ذكر بعضها الثعالبى ، منها القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزاعى[٢] ، وقد جاء فى هذه القصيدة كثير من الكلمات الاصطلاحية التى ذكرها الجاحظ .

وقد نهج على هذا النمط بعض الشعراء المتأخرين الذين جعلوا المعارضة باباً من أبواب الفن كصفى الدين الحلى ، فإن له أيضاً قصيدة سماها « القصيدة الساسانية » . وهى محفوظة فى دار الكتب المصرية[٣].

٦٣ – كاجار (٤٦ : ٨)

هكذا اقترحنا هذه الكلمة تصحيحاً لكلمة « كاحار » التى جاءت فى المخطوطة ، وافترض فان فلوتن فى نشرته أنها محرفة عن كلمة « كاخان » التى وضعها موضعها ، وقد طرد هذا الفرض ، فحول كلمة « كاغان » فى ص ٥٢ س ١٩ فجعلها « كاخان » ،

---

(١) كشف الظنون ١ : ٤٥٥ – ٤٥٦ ، ط إستنبول ١٣١١ هـ .

(٢) اليتيمة ٣ : ٣٢٣ إلخ ، ط الصاوى .

(٣) ٣٢٨٧ أدب ، ٦٦٨ مجاميع .

إذ لم يستقيم له أن تكون محرفة عن «كاغانى» القريبة منها ، لما ساق الجاحظ فى تفسيرها ، مما يخالف تفسير كلمة «كاغان»[١].

وأساس هذا الفرض هو مجرد الاستحسان الصادر عن شكل الحروف ، والجمع بين الكلمتين : «كاحار» و «كاغان» فى صورة واحدة . وإن كنا لا نجد معنى لكلمة «كاخان» التى افترضها ، يدل على هذا الفرض أو يرجحه . والمعنى الذى ذكره الجاحظ لكلمة «كاغان» التى جعلت «كاخان» غير متعين .

فأما الصورة التى اقترحناها فهى أقرب صورة ممكنة من الصورة الخطية ، إذ ليس بين الصورتين إلا الإعجام الذى كثيراً ما يغفله النساخ . وهذا إلى أن كلمة «كاجار» هى الكلمة التى تلائم موضعها فى سياق الكلام كل الملاءمة . فهى كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة الضاربة فى الأرض ، من المصدر التركى «قاچمق» بمعنى الهرب ، وقد دخلت هذه الكلمة فى اللغة الفارسية ، وصنع منها المصدر الفارسى «قچانيدن» . وقد سبق أن قلنا إن كلمة «غجر» ليست إلا صورة منها .

٦٤ ـ المستعرض (٤٦ : ١١)

كلمة من الكلمات الاصطلاحية لطائفة المكدين . وهذه الكلمات لا تنسب إلى لغة واحدة أو لهجة معينة ، بطبيعة الحياة المتنقلة التى تحياها هذه الطائفة . والذى يبدو من وضع هذه الكلمة وبنائها أنها عربية بل هى عربية بدوية ، ففيما نعرف من استعمالاتها ، نجد أنها مستعملة عند طائفتين : الخوارج واللصوص ، وكلتا الطائفتين خرجت من البادية .

فمن استعمالاتها عند الخوارج ما جاء فى ذكر قطرى بن الفجاءة ، أحد خطباء الأزارقة وفرسانهم ورؤسائهم أنه «كان يدين بالاستعراض والسباء وقتل الأطفال»[٢] وكذلك أورد المبرد مثل هذا فى حكاية مذهب نافع بن الأزرق «فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال»، وفى قول أبى بيهس : «الدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز . وإن أصيب من الأطفال فلا حرج»[٣] . وقد عرض أبو على القالى لتأويل هذه الكلمة بقوله : «ويقال خرجوا يضربون الناس عن عرض ، يريدون عن شق وناحية .

---

(١) البخلاء ص ٥٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٤ .

(٣) الكامل للمبرد ٣ ، ١٧٣ .

لا يبالون من ضربوا ، ومنه استعراض الخوارج الناس ، إذا لم يبالوا من قتلوا »[١].

فذلك هو الاستعراض فى لغة الخوارج ، وأما فى لغة اللصوص فيختلف قليلا عن هذا ، كما نرى فى قصة السمهرى ، أنه خرج مع بعض أصحابه من اللصوص ، فلقوا عون بن جعدة بين نخل والمدينة ، فقالوا له : العراضة ، أى : مر لنا بشىء . فقال : يا غلام ! جفن لهم ، فقالوا : لا والله ! ما الطعام نريد . فقال : عرضهم[٢].

فلعل هذا هو الأصل القريب فى كلمة « المستعرض » أى « طالب العراضة » ، ولا سيما إذ كانت من لغة اللصوص . ومن هذه السبيل دخلت فى لغة المكدين ، وليس يمنع من هذا أن يتغير مدلول الكلمة شيئاً ما ، لأن هذا هو شأن الكلمات . وقد قال الجاحظ فى تفسير المستعرض إنه « الذى يعارضك وهو ذو هيئة ، وفى ثياب صالحة ، وكأنه قد هاب من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة . ثم يعترضك اعتراضاً ، ويكلمك خفياً »[٣] .

وقد ذكر المستعرض فى قصيدة أبى دلف ، فى قوله :

ومن يكحل من مستعرض دمعته تجرى

وقال الثعالبى فى تفسيره : « ومن يكحل : هو الذى معه قطنة مغموسة فى الزيت يمرها على عينيه لتدمع ، ويأخذ فى شكاية حاله ، واستعراض الناس فى مسألته وذكر قصته ، وأنه قطع عليه الطريق ، أو غصب على ماله . والمستعرضون أمهر القوم » .

فإذا صح الأصل الذى رأيناه لكلمة المستعرض ، فإنه يكون قد غاب عن الجاحظ والثعالبى ، فذكروا هذا الاشتقاق ، والتكلف ظاهر عليه[٤].

٦٥ ــ الكاغانى (٤٦ : ١٢)

ذكره الجاحظ فى الحيوان بقوله : « والكاغانى ، وهو الذى يتجنن ويتمالج فالج الرعدة والارتعاش ، فإنه يحكى من صرع الشيطان ، ومن الإزدباد والنفضة ، ما ليس عندهما ،

---

(١) الأمالى ١ : ١١٩ .

(٢) الأغانى ٢١ : ٧٥ .

(٣) البخلاء ص ٥٣ .

(٤) ومما يستطرف هنا مما لا بأس بذكره ما ذهب إليه الأستاذان الناشران للبخلاء بوزارة المعارف ، حين أخطأ القراءة ، فذهبا فى تأويل المستعرض مذهباً جديداً ، « وهو الذى ينظر إلى أقفية الناس » ، وبذلك جعلا استعراض الأقفية نوعاً من القيافة يلجأ إليه هذا الرجل ليتعرف حال الناس .

وربما جمعهما فى نقاب واحد ، فأراك الله تعالى مجنوناً مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً ، بما لا يجيء من طباع المجنون والإنسان العاقل »[١] وتفسيره له فى البخلاء قريب من هذا .

وكذلك جاء ذكره فى القصيدة الساسانية مخففاً « الكاغ » ، وقد فسره الثعالبى بالمتجانن[٢] .

٦٦ ـ الأسطيل (٤٦ : ١٣)

فسر الجاحظ الأسطيل بالمتعامى . وقد وردت هذه الكلمة فى بعض ما ذكره ياقوت فى ترجمة أبى العلاء المعرى ، مع بيان أنها تدل على الأعمى فى لغة أهل الشام ، إذ يقول : « ونقلت من بعض الكتب أن ابا العلاء لما ورد إلى بغداد قصد أبا الحسن على بن عيسى الربعى ليقرأ عليه ، فلما دخل إليه قال على بن عيسى : ليصعد الأصطيل (وقد جاءت مصحفة : الاصطبل) ، فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والأصطيل فى لغة أهل الشام الأعمى ، ولعلها معربة »[٣].

٦٧ ـ الزكورى (٤٦ : ١٣)

فسر الجاحظ هذه الكلمة بأن المراد بها خبز الصدقة [٤] وقد جاءت فى القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزرجى على هذا الوجه :

ومن زكر ، والقوم الـ زكوريون فى الصدر

ثم قال الثعالبى فى شرح هذا البيت : « زكر : كدى على الأبواب ، وهو من أجلائهم »[٥] والأصل فى هذا كله هو كلمة « زكور » الفارسية ، وهى تعنى معنيين : الشحيح واللص[٦].

---

(١) ٦ : ١٥٨ – ١٥٩ ط التقدم ، القاهرة .

(٢) يتيمة الدهر ٣ : ٣٢٥ ط الصاوى .

(٣) معجم الأدباء ٣ : ١٢٣ ط دار المأمون .

(٤) انظر صفحة ٤٦ فى هذه النشرة لكتاب البخلاء .

(٥) يتيمة الدهر ٣ : ٣٣٢ ط الصاوى ١٩٣٤ م .

(٦) انظر مثلا معجم استنجاس Steingass, *Persian-English Dictionnary*

٦٨ ـ إسحاق (٣٩ : ١٥)

أحد زعماء المكدين ، ولعله محرف عن سماق[١] أو سملق[٢] على فرض أنه هو الذى كان قائماً بأمر الزط الذين غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها .

٦٩ ـ عبيد بن شرية الجرهمى (٤٠ : ١٠)

ذكره الجاحظ فى الرواة والنسابين والعلماء من أهل الجاهلية[٣] ، ثم ذكره مرة أخرى من القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة [٤] ، وقد ترجم له ابن النديم ، وذكر أنه أدرك النبي ولم يسمع منه ، وأنه وفد على معاوية « فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة ، وأمر افتراق الناس فى البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن ، فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية »[٥] وحكى ياقوت قولا ينكر وفوده عليه ، ويذكر أنه إنما لقيه بالحيره ، لما توجه معاوية إلى العراق[٦] ، ثم يورد حديثاً طويلا جرى بينه وبينه ، يسأله فيه معاوية فيجيبه ، وفى آخر هذا الحديث قصة فيها أبيات من الشعر نجدها فى عيون الأخبار كذلك[٧] . ويبدو على هذا الحديث وتلك القصة أمارات الصنعة ، وسمات الوضع . ويظهر أن شخصية عبيد بن شرية هذا قد تعرضت لكثير من مهارة أخيلة الرواة وصناع الأحاديث ، سواء فى ذلك ما يلصق به من الأخبار ، وما يسند إليه من الآثار .

٧٠ ـ تميم الدارى (٤٧ : ١٢)

هو تميم بن أوس بن خارجة ، من بنى عبد الدار ، بطن من بطون لخم . وكان مقامه

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ٣ : ٢٥٧ ، ط بولاق .
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٣٠٦ حوادث سنة ٢١٩ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٨١ ط ١٩٣٢ م ، وانظر الحيوان ٣ : ٢١٠ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٨٢ .
(٥) الفهرست ص ١٣٢ ط الرحمانية ، القاهرة .
(٦) معجم الأدباء ١٢ : ٧٢ ـ ٧٨ .
(٧) عيون الأخبار ٢ : ٣٠٥ .

مع قبيلته فى الشام ، فى ناحية فلسطين ، ثم وفد على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بعد منصرفه من غزوة تبوك ، سنة ٩ ، وأسلم وسكن المدينة ، وقد ظل بها مدة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وبعد مقتل عثمان عاد إلى وطنه ، ولم يلبث أن مات فى آخر خلافة على ، سنة ٤٠ ، وقد بقيت أسرته هنالك ، باسم « الداريين » مدة طويلة . وقد رأى بقية هذه الأسرة هناك ابن فضل الله العمرى ، كما ذكر فى كتابه[١].

وتتصل بتميم الدارى قصة من القصص الشعبية تنسب إليه ، وقد شاعت هذه القصة شيوعاً كبيراً . وزمن هذه الأسطورة هو خلافة عمر بن الخطاب ، وأما مكانها فالعوالم المجهولة التى حمله إليها أحد الجن فطوف به ما طوف ، وأراه الدجال والجساسة فى أثناء هذه الرحلة ، إلى أن عاد إلى المدينة ، وكانت امرأته أنكرت غيبته ، وظنت موته ، فاستبدلت به . وهنا تبرز شخصية على بن أبى طالب ، فيحل هذه العقدة .

ويظهر أن هذه الأسطورة ليست إلا تطوراً لأسطورة أخرى ، جاءت فى صورة حديث ، يسند إلى فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس ، وفيه أن تميما « ركب البحر فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً ، ثم أرفوا إلى جزيرة فى البحر ، فلما دخلوها رأوا الجساسة فى صورة دابة أهلب كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر . ثم دلتهم على الدجال ، فرأوه وحدثوه » ، إلى آخر هذه القصة التى تذكر فى كتب الحديث[٢].

وهكذا اتخذ القصاص من تميم الدارى شخصية يديرون حولها ما ينسجونه من أساطير .

٧١ ــ دعيميص (٤٧ : ١٢)

ذكره الميدانى فى شرح المثل : « أدل من دعيميص الرمل » فقال : « هو اسم رجل كان دليلا خريتا داهياً يضرب به المثل ، فيقال : هو دعيميص هذا الأمر ، أى عالم به »[٣].

---

(١) مسالك الأبصار ١ : ١٧٢ ، وانظر : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى ، ص ٤٣ – ٤٧ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ م . وانظر أيضاً : رسالة تقى الدين المقريزى المسماة (ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى) ، وهى منشورة فى : *The Journal of the Palestine Oriental Society*, vol XIX, No. 3-4 (1941)

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووى ٥ : ٤٢٠ – ٤٢٢ ط الكستلية ١٢٨٣ .

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٢٨٤ . ط ١٣٥٢ هـ .

٧٢ ـ رافع المخش (٤٧ : ١٣)

هو رافع بن عمير الطائى ، وكان دليلا خريتاً فى زمان عمر بن الخطاب ، ومن أشهر ما يعرف به أنه دل خالد بن الوليد حين خرج إلى الشام والياً عليها مكان أبى عبيدة بن الجراح ، ففوز به بين قراقر وسوى . ولعل هذا الحادث كان من أكبر ما خلد ذكر هذا الرجل ، وقد قال فيه راجز المسلمين كما يقول ابن قتيبة[١] :

لله در رافع ! أنى اهتدى فوز من قراقر إلى سوى
أرضاً إذا سار بها الجيش بكى ما سارها قبلك من إنس أرى

٧٣ ـ الغول والسعلاة (٤٧ : ١٣)

نكتفى هنا بإحالة القارئ إلى بعض المراجع التى يمكنه بالرجوع إليها تحقيق مدركات العرب والمسلمين عن هذه الكائنات . ومراجع هذه المسائل كثيرة ، ولكنا نكتفى بالقريب منها .

يمكن أن يراجع عن الغول ما كتب المسعودى فى مروج الذهب[٢] ، وعن السعلاة ما كتب الجاحظ فى الحيوان[٣] ، وعن الخاتف ما كتبه المسعودى أيضاً فى الباب الخمسين من كتابه ذلك[٤] ، تحت عنوان : « ذكر قول العرب فى الهواتف والجان » ، وكذلك يمكن أن يراجع عن الجن والجن ، وعن الشق والنسناس ، ما كتبه الجاحظ فى الحيوان[٥] وما جاء أيضاً فى مروج الذهب[٦] . وأما الكهانة والعرافة ففى الباب الثانى والخمسين من المروج قدر كاف[٧] .

ومن المراجع التى لا بد من مراجعتها فى مثل هذه المعارف شرح الجاحظ لقصيدة

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢) ٣ : ٣١٤ ط أوربا .
(٣) ١ : ١٨٥ — ١٨٧ ط مصطفى البابى الحلبى .
(٤) ٣ : ٢٢٣ .
(٥) ١ : ٢٩١ — ٢٩٢ ، ١٨٩ .
(٦) ٣ : ٣٢٤ — ٣٢٥ .
(٧) ٣ : ٣٤٧ .

الحكم بن عمرو البهرانى ، ثم ما استطرد إليه بعد ذلك[١].

٧٤ ـ أصحاب الأكتاف (٤٧ : ١٦)

طائفة من أهل الفراسة ، يصطنعون فى ذلك النظر فى الأكتاف ، كما يصطنع غيرهم النظر فى أسرار الكف وهى خطوطها ، إلى غير ذلك . وقد أشار الجاحظ فى غير موضع إلى هذا الفن من فنون الفراسة ، كقوله فى رسالة التربيع والتدوير : « وما تقول فى أسرار الكف ؟ وما تقول فى النظر فى الأكتاف ؟ »[٢] ، وكقوله فى الحيوان ، وقد ذكر طائفة أخرى من فنون الفراسة : « . . .وباب آخر يدعونه للفأر ، وهو الذى ينظر فيه أصحاب الفراسة ، فى قرض الفأر ، كما ينظر بعضهم فى الحيلان ، وفى الأكتاف ، وفى أسرار الكف »[٣] وقد جاء مثل هذا فى موضع آخر منه ، إذ يقول : « وليس الباب الذى يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط ، والنظر فى أسرار الكف ، وفى مواضع قرض الفأر ، وفى الحيلان فى الجسد ، وفى النظر فى الأكتاف ، والقضاء بالنجوم »[٤]

وكذلك أشار المسعودى إلى هذا الفن فى سياق كلامه عن معارف العرب فى القيافة والزجر والعيافة ، إذ يقول : « . . . فيكون الزجر والفأل شاملا لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم ، كوجود النقط للبربر ، وكالنظر فى الكتف وغير ذلك ، مما خص به كل جنس من الناس »[٥] ويؤخذ من هذا أن النظر فى الأكتاف ليس من المعارف العربية ، وإذا كان لم ينص على نسبته ، فقد ذكر محمد بن أبى طالب المعروف بشيخ الربوة ، من علماء القرن السابع والثامن ، أنه من المعارف الخاصة بالترك .

وقد تحدث شيخ الربوة عن هذا الفن بما يزيل شيئاً من الغموض حوله ، فأشار إليه فى مقدمة كتابه عن الفراسة بقوله : « ومنها النظر فى أكتاف الضأن . والمعرفة به قد توجد إذا قوبلت بشعاع الشمس خطوط مخصوصة وأشكال مخصوصة يستدل بها المتفرسون على احوال كثيرة من أحوال العالم . وهى الحروب الواقعة بين الملوك ، وأحوال الخصب والجدب .

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٤ – ٩١ ط التقدم ، القاهرة . (٦ : ٨٠ – ٢٨٢ ط الحلبى)

(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٠٥ ط التقدم ، القاهرة .

(٣) الحيوان ٥ : ٣٠٣ ، ط الحلبى .

(٤) الحيوان ٦ : ٦٣ ، ط الحلبى .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٣٣٦ ، ط باريس .

وقل أن يستدلوا به على الأحوال الجزئية للإنسان المعين»[١].

٧٥ ـ «وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر» (٤٧ : ١٦)

وردت كلمة «الفكر» فى مثل هذا السياق ، فى موضع آخر من كلام الجاحظ ، إذ يقول بعد إيراده طرفاً مما يتعلق بكهان العرب وعرافيهم : «وليس الباب الذى يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط والنظر فى أسرار الكف ، وفى مواضع قرض الفأر ، وفى الخيلان فى الجسد ، وفى النظر فى الأكتاف ، والقضاء بالنجوم ، والعلاج بالفكر»[٢] ولعل المقارنة بين كلمة «الفكر» هنا وهنا مما عسى أن يشير ـ بعض الشىء ـ إلى المراد بها.

٧٦ ـ الرأس والأكسير (٤٧ : ١٩)

الإكسير فى الاصطلاح الكميائى القديم هو المادة الفعالة فى الصناعة ، أى تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والفضة ، وهم يعتبرون أن «حد علم الصنعة هو العلم بالإكسير»[٣] وليس بنا الآن أن نتكلف شرح نظرية الإكسير ، فقد أدى ذلك خير أداء العلامة المرحوم باول كروس paul Kraus فى الفصل القيم الذى كتبه عن الاكسير[٤] وهو يعطينا فكرة واضحة شاملة مستفيضة عنه . والميراث العربى عن الصنعة والاكسير ميراث كبير ، وقد بقيت منه طائفة غير قليلة ، ومن الكتب التى تعرضت للإكسير من غير كتب الصنعة كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى[٥] ومقدمة ابن خلدون[٦] .

وأما الرأس فلست على يقين من معناها ، ولعلها من باب الإكسير ، فقد جاءا فى ابن النديم مقترنين بعد ذكر جماعة من الذين كتبوا فى الصنعة ، قال : «هؤلاء المذكورون بعمل الرأس والإكسير التام»[٧].

---

(١) كتاب السياسة فى علم الفراسة ، ص ٥ ، ط الوطن ، القاهرة ، ١٨٨٢ . وانظر بعض التفصيلات الأخرى فى الكتاب نفسه ص ٤٧ .

(٢) الحيوان ٦ : ٢٠٥ ط الحلبى .

(٣) مختار رسائل جابر بن حيان ، ص ١٠٦ ط الخانجى ، ١٣٥٤ هـ .

(٤) Jâbir ibn Hayyan, II, 1-8, *Mémoires de l'Institut d' Egypte*, t. XLV.

(٥) ص ١٥٠ ، ط ١٣٤٢ هـ ، القاهرة .

(٦) ٥٩٢ – ٦٠٣ ط الشرفية ١٣٢٧ هـ .

(٧) الفهرست ص ٤٩٧ ط الرحمانية .

على أنا نجد فى ابن النديم فى الفصل الذى عقده لوصف « مذاهب الحرنانية الكلدانيين » قصة عجيبة وضعها تحت هذا العنوان : « حكاية فى الرأس » حكاها عن أبى يوسف إيشع القطيعى النصرانى فى كتابه فى الكشف من مذاهب الحرنانيين . ولعل هذه القصة تهدينا بعض الشىء إلى المقصود من كلمة الرأس هنا قال :

« إنه رأس إنسان صورته عطاردية ، على ما يعتقدونه فى صور الكواكب . يؤخذ ذلك الإنسان ، إذا وجد على الصورة التى يزعمون أنها عطاردية ، بحيلة وغيلة ، فيفعل به أشياء كثيرة ، منها : يقعد فى الزيت والبورق ، مدة طويلة ، حتى تسترخى مفاصله ، وتصير فى حال إذا جذب رأسه انجذب من غير ذبح فيما أرى (ولذلك يقال : فلان فى الزيت ، مثل قديم . هذا إذا كان فى شدة) . يفعلون ذلك فى كل سنة إذا كان عطارد فى شرفه ، ويزعمون أن نفس ذلك الإنسان تتردد من عطارد إلى هذا الرأس ، وينطق على لسانه ، ويخبر بما حدث ، ويجيب عما يسأل عنه ، لأنهم يزعمون أن طبيعة الإنسان أليق وأشبه بطبيعة عطارد من سائر الحيوان ، وأقرب إليه بالنطق والتمييز ، وغير ذلك مما يعتقدونه فيه »[1].

٧٧ – خاتون (٤٨ : ٢)

غالب الظن أنه يقصد « خاتون » ملكة بخارى حتى سنة ثلاث وخمسين ، ويذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان[2] .

٧٨ – السيوف القلعية (٤٨ : ٧)

جاء ذكر هذه السيوف فى كتاب أبى دلف ، مسعر بن مهلهل ، فيما ينقل عنه ياقوت ، قال : « ثم رجعت من الصين إلى كله ، وهى أول بلاد الهند من جهة الصين ، وإليها تنتهى المراكب ، ثم لا تتجاوزها ، وفيها قلعة عظيمة فيها معدن الرصاص القلعى ، لا يكون إلا فى قلعتها ، وفى هذه القلعة تضرب السيوف القلعية ، وهى الهندية العتيقة »[3].

---

(١) الفهرست ص ٤٤٦ – ٤٤٧ .

(٢) ص ٤٠١ ، وقد نقل ياقوت فى معجم البلدان كلام البلاذرى فى هذا الموضع (٢ : ٨٤) ، ويلاحظ من مقارنة النصين أن فى عبارة النسخة المطبوعة من البلاذرى فى مصر سقطا .

(٣) معجم البلدان ٧ : ١٤٨ .

وقد عد الجاحظ السيوف القلعية من مآثر الهند ومفاخرهم فى رسالته « فخر السودان » فقال : « ولهم (أى الهند) السيوف القلعية ، وهم ألعب الناس بها ، وأحذقهم ضرباً بها »[١] كما جاء ذكرها فى شعر الفرزدق ، فى قوله [٢]:

متقلدى قلعيـــة وصوارم هنـــدية وقديمـــة الآثار

وإذن فالسيوف القلعية سيوف هندية قديمة ، وكانت صناعتها — فيما يظهر — سراً من الأسرار التى يفخر خالد بن يزيد بمعرفتها . وليس ببعد عندنا أن تكون هذه الأسرار قد اتخذت صورة أسرار الصنعة والإكسير ، ولا سيما إذ كان علماء الصنعة قد تناولوا بكلامهم الرصاص القلعى الذى هو عندهم رخو الظاهر يابس الباطن ، وكيف يمكن أن يبطن ظاهره ويظهر باطنه[٣] .

٧٩ ـ الفرعونى (٤٨ : ٧)

لم نستطيع أن نتبين على وجه الدقة المراد بهذه الكلمة هنا . إلا أنا نلاحظ من سياق الكلام أن « الفرعونى » شىء يصنع صناعة ، وأن صناعته تنطوى على طائفة من الأسرار ثم نلاحظ من ناحية أخرى أن نوعاً من الزجاج أو البلور كان يوصف فى عصر الجاحظ بالفرعونى ، إذ نجد فى رسالة « التبصر بالتجارة » للجاحظ هذه العبارة : « وخير الزجاج البلورى الصافى الأبيض النقى ، والفرعونى الفائق »[٤] وكذلك نجد هذا الوصف فى الحيوان ، إذ يقول : « والزئبق أشبه بالفضة المائعة من الرمل بالزجاج الفرعونى »[٥].

فأكبر الظن أن المراد بالفرعونى فى هذا الموضع من البخلاء هو ذلك النوع من الزجاج ، وهو نوع خاص يحتاج فى صنعه إلى معرفة خاصة . أشار إليها الشيخ داود الأنطاكى ، ثم قال : « فيأتى فصوصاً بيضاء شفافة ، وهو من أسرار الأحجار القديمة »[٦].

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ٨٠ ط التقدم .

(٢) ديوان الفرزدق ص ٢٧٩ ط الصاوى .

(٣) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٤٦٧ . وانظر فى الكلام عن الرصاص القلعى ووصفه كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ، ص ٢٩ ط المزيد ، ١٣١٨ هـ .

(٤) ص ١٥ — ١٦ ط الخانجى ، القاهرة .

(٥) ٣ : ٣٧٤ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٦) تذكرة ذوى الألباب ١ : ٢٤٧ ط الوهبية . (٣) الحيوان ١ : ٦ .

ويظهر أن مثل هذا النوع من الزجاج كان مغشى بطائفة من الأسرار التى تكاد تلتحق بأسرار الكيمياء وغوامض الصناعة ، كما يظهر من سياق الفصل الذى كتبه داود عن الزجاج ، وقد ذكر فيه من الأنواع ما وصفه بقوله : « واعلم أن فيه سراً عجيباً ومعنى غريباً ، وقد أشاروا إليه بالرموز ، ويعرف عندهم بالملوح به والمطوى » .

٨٠ ـ صنعة التلطيف (٤٨ : ٧)

يظهر أنه اصطلاح كيميائى ، كما يؤخذ من سياق ذكره فى هذا النص الجاحظى : « وعبتنى بكتاب المعادن ، والقول فى جواهر الأرض ، وفى اختلاف أجناس الفلز . .. وما القول فى الأكسير والتلطيف »[١] وربما كان فى مثل هذا النص الصنعوى ما يشير إلى معنى التلطيف : « فأما ما فى الأجساد من التدابير فإن العلماء رحمهم الله انقسموا فى الأجساد قسمين : وذلك أن منهم من قال : يكلس الجسد حتى يلطف ويصير هباء لا يحيى ولا يرجع إلى سنخه الذى بدأ منه وعنه ، والطائفة الثانية قالت : بلى يلطف ويهيى ويكون فيه بقية ، فيكون الجسد بمعنى المنحل لا الهالك »[٢].

٨١ ـ صعاليك الجبل (٤٩ : ٢٠)

يطلق اسم الجبل أو الجبال على المنطقة الجبلية التى كان اليونان القدماء يطلقون عليها اسم ميديا Medie والتى كانت قصبتها « إكباتاناً Ecbatane » كما كان يكتبها اليونان ، أو « هجماتانا » كما كان يكتبها الفرس القدماء ، أو « همدان » كما ينطقها العرب[٣]. وهى المنطقة الواقعة بين العراق غرباً وصحراء إيران الكبرى شرقا ، وبين أذربيجان فى الشمال والأهواز وفارس فى الجنوب .

وهو إقليم عريق واسع ، وقد خصه الهمذانى بقسم كبير من كتابه عرض فيه لوصف أجزائه المختلفة كقرماسين (وهى ما يسمى الآن كرمانشاه) وهمذان وأصبهان والرى[٤] . ولعل من خير ما عنى بإبرازه وصف الآثار المنحوته فيه ، كتمثال شبديز

---

(١) الحيوان ١ : ٦ .

(٢) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٦٨ ، ط الخانجى ، ١٣٥٤ هـ .

(٣) G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 194. The University Press, Cambridge, 1905.

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ٢٠٩ ـ ٢٧٩ ، ط بريل ، ١٨٨٥ م .

وأسد همذان ، وما جاء فى ذلك من الشعر .

أما الصعاليك الذين يشير إليهم الجاحظ هنا فلعله يقصد بهم هؤلاء الذين يذكرهم الهمذانى فى حديثه عن « سيسر » (أحد رساتيق همذان الذى يقوم مكانه الآن قصبة كردستان الفارسية ، كما يقول لوسترنج) ، وذلك حيث يقول [١]:

« ولم تزل سيسر وما والاها مراعى لمواشى الأكراد وغيرهم ، وإن المهدى أمير المؤمنين بعث إليها مولى له يقال له سليمان بن قيراط ، صاحب صحراء قيراط ، بمدينة السلام ، وشريك معه يقال له : سلام الطيفورى . (وكان طيفور مولى المنصور) . فلما كثر الصعاليك والدعار وانتشروا فى الجبل ، فى خلافة المهدى ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم ، فكانوا يقطعون ويأوون إليها ، فلا يطلبون ، لأنها من حد همذان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان وشريكه إلى المهدى بذلك ، فوجه إليهما جيشاً عظيما . وكتب إليهما يأمرهما ببناء مدينة يأويان إليها مع أغنامهما ورعاتهما ، ويحصنان فيها الدواب والأغنام ممن خافاه عليها . فبنيا مدينة « سيسر » وحصناها وأسكناها الناس . . . ثم إن الصعاليك كثروا فى خلافة الرشيد ، وشعثوا سيسر ، فأمر ببنائها وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الحارثى الصغدى (وفيها اليوم قوم من أولادهم) » .

٨٢ ـ الزواقيل (٤٩ : ٢٠)

فسر الفيروزبادى الزواقيل باللصوص ، ويبدو أنه الاسم الذى كان يطلق على هذه الطائفة فى الشام ، كما كان يطلق عليهم اسم « الزط » فى البصرة وما حولها ، إلى غير ذلك من الأسماء .

وكذلك نجد الطبرى يذكر « الزواقيل » فى حوادث سنة ١٩٦ ، إذ يقول : « فقدم عليه (أى على عبد الملك بن صالح فى الرقة) أهل الشام : الزواقيل والأعراب من كل فج » ، ثم يذكر بعد ذلك ما كان من معركة بين الأبناء والزواقيل ، كما يذكر أنه كان على الزواقيل مضر بن شيث وعمر السلمى والعباس بن زفر [٢] .

---

(١) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٦١ ، ط الحسينية المصرية .

٨٣ ـ الزط (٤٩ : ٢٠)

أشرنا فيما سبق إلى أن كلمة « زط » تحريف كلمة « چت » الهندية ، وأن الزط يرجعون إلى أصل هندى . وذلك هو ما كان متعارفاً عنهم ، وقد ذكر ذلك البلاذرى ، وهو أقرب المؤرخين عهداً بهم ، وقد تحدث عنهم فى كتابه ، فذكر أولية أمرهم ، وشيئاً من تاريخهم ، فقال : « إنهم كانوا فى جند الفرس ، ممن سبوه وفرضوا له ، من أهل السند ، ومن كان سبياً من أولى الغزاة ، فلما سمعوا بما كان من أمر الأساورة أسلموا وأتوا أبا موسى ، فأنزلهم البصرة ، كما أنزل الأساورة[1] » .

وقال فى موضع آخر يذكر نزولهم البصرة فقال ، رواية عن أبى الحسن المدائنى : « أراد شيرويه الأسوارى أن ينزل فى بكر بن وائل ، مع خالد بن المعمر وبنى سدوس ، فأبى سياه ذلك ، فنزلوا فى بنى تميم ، ولم يكن يومئذ الأزد بالبصرة ولا عبد شمس . قال : فانضم إلى الأساورة السيابجة . وكانوا قبل الإسلام بالسواحل ، وكذلك الزط ، وكانوا بالطفوف ، يتتبعون الكلأ . فلما اجتمعت الأساورة والزط والسيابجة تنازعتهم تميم ، فرغبوا فيهم ، فصارت الأساورة فى بنى سعد ، والزط والسيابجة فى بنى حنظلة . فأقاموا معهم يقاتلون المشركين ، وخرجوا مع ابن عامر إلى خراسان ، ولم يشهدوا معهم الجمل ولا صفين ولا شيئاً من حروبهم ، حتى كان يوم مسعود . ثم شهدوا بعد يوم مسعود الربذة ، وشهدوا أمراً من الأشعث معه . فأضربهم الحجاج ، فهدم دورهم ، وحط أعطياتهم ، وأجلى بعضهم ، وقال : كان فى شرطكم ألا تعينوا بعضنا على بعض[2] » .

وهكذا نرى أن الزط لم يلبثوا أن أحسوا فى هذه البلاد بشخصيتهم ، وأخذوا يشاركون فى الحياة السياسة ، مراغمة للدولة ، وما كان بهم أن يشاركوا فى الحياة السياسية ، ولكنهم وجدوا فيها مجالا يظهرون فيه غرائزهم التى جبلوا عليها ، والتى لم تلبث أن ظهرت ، فيما بعد ذلك ، ظهوراً اضحاً ، على نحو ما نرى فى موضع آخر من هذا الفصل الذى عقده البلاذرى لهم ، إذ يقول :

« وحدثنى روح بن عبد المؤمن ، قال : حدثنى يعقوب بن الحضرمى ، عن سلام .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٦٨ .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٦٦ – ٣٦٧ .

قال : أتى الحجاج بخلق من زط السند ، وأصناف ممن بها من الأمم ، معهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم ، فأسكنهم بأسافل كسكر . قال روح : فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها . ثم إنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد ، وموالى باهله ، وخولة محمد بن سليمان بن على ، وغيرهم . فشجعوهم على قطع الطريق ، ومبارزة السلطان بالمعصية . وإنما كانت غايتهم قبل ذلك أن يسألوا الشيء الطفيف ، ويصيبوا غرة من أهل السفينة ، فيتناولوا منها ما أمكنهم اختلاسه » .

وكان الناس فى بعض أيام المأمون قد تحاموا الاجتياز بهم ، وانقطع عن بغداد جميع ما كان يحمل إليها من البصرة فى السفن . فلما استخلف المعتصم بالله تجرد لهم ، وولى محاربتهم رجلا من أهل خراسان يقال له عجيف بن عنبسة ، وضم إليه من القواد والجند خلقاً ، ولم يمنعه شيئاً طلبه من الأموال . فرتب بين البطائح ومدينة السلام خيلا مضمرة مهلوبة الأذناب . وكانت أخبار الزط تأتيه بمدينة السلام فى ساعات من النهار أو أول الليل ، وأمر عجيفاً فسكر عنهم الماء بالمؤن العظام ، حتى أخذوا فلم يشذ منهم أحد . وقدم بهم إلى مدينة السلام فى الزواريق ، فجعل بعضهم بخانقين . وفرق سائرهم فى عين زربة والثغور »[1].

وبذلك نرى أن الزط استطاعوا أن يكونوا وحدة مستقلة ، وأن يجدوا فى البطيحة موطناً خاصاً بهم ، ومكاناً ملائماً كل الملاءمة لوجوه نشاطهم . وقد كانت البطيحة هذه أرضاً واسعة بين البصرة وواسط ، وقد طغى عليها ماء دجلة ، فصارت منطقة من المستنقعات الواسعة ، وكثرت بها الأدغال ، واشتبكت فيها ، فأصبحت من أصلح الأماكن لأمثال هؤلاء الزط الذين كلفوا الدولة كثيراً على ما رأينا .

وقد ذكرهم ابن خلدون فقال : « الزط قوم من أخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، وولوا عليهم رجلا منهم اسمه محمد بن عثمان ، وقام بأمره آخر منهم اسمه سماق »[2] .

وذكر ابن الأثير أنهم كانوا أيضاً بالبحرين . قال : « إن الزط والسيابجة كانوا بالخط من أرض البحرين . وفى سنة ٢٥٠ ولى المأمون محاربتهم عيسى بن يزيد الجلودى ،

---

(١) البلدان فتوح ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر ٣ : ٢٥٧ . ط بولاق ، ١٢٨٤ هـ .

ثم داود بن ماسحور سنة ٢٠٦ » ؛ ثم ذكر محاربة عجيف بن عنبسة لهم سنة ٢١٩[١].

٨٤ ـ نهر بط (٥٠ : ١)

ذكر ياقوت أنه نهر بالأهواز ، ولم يزد على ذلك إلا الاستشهاد بهذين البيتين :

لا ترجعن إلى الأخواز ثانيـة قعيقعان الذى فى جانب السوق
ونهر بط الذى أمسى يؤرقنى فيه البعوض بلسب غير تشفيق[٢]

والأهواز هى خوزستان . بين البصرة وفارس .

٨٥ ـ القفص (٥٠ : ١)

تطلق هذه الكلمة على جبل فى كرمان ، ثم أطلقت على أهل ذلك الجبل . وهم طائفة من الناس يسلكون مع الزط ومن إليهم فى نظام واحد ، وكذلك قال الراجز ، كما يروى ياقوت :

وكم قطعنا من عـدو شرس زط وأكراد وقفص قفص

وقد كتب ياقوت فى معجمه فصلا عنهم[٣] ، اعتمد فيه على مصدرين : الرهنى والبشارى . فأما الرهنى فأحسب أنه أبو الحسن محمد بن بحر الرهنى ، من أهل القرن الثالث . وكان من قرية « رهنة » إحدى قرى كرمان[٤] ، فلا جرم كان وصفه لهم عن خبرة ومعرفة ، وأما البشارى فقد كتب ما كتبه أيضاً عن مشاهدة .

وقد اتفق المصدران فى ذكر ما يزعمه هؤلاء القوم من أنهم من العرب اليمانية . وقد فصل الرهنى هذا الزعم ، فذكر أنهم من ولد سليمة بن مالك بن فهم الأزدى الذى فر بولده ، من إخوته ، من ساحل العرب إلى ساحل العجم ، مما يلى مكران ، منذ قتل أباه مالكاً . وهكذا نجد العروبة لم تضل عن هؤلاء أيضاً . وكذلك يتفق المصدران فى التنويه بشراستهم وقسوة طباعهم ، وإن كانا يسلكان مسلكين مختلفين ، فالبشارى

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ١٤٢ .
(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٣٨ .
(٣) معجم البلدان ٧ : ١٣٤ ـ ١٣٧ .
(٤) معجم البلدان ٤ : ٣٤٣ .

يصف ، والرهنى يتفلسف . يقول البشارى فى وصف الطرق من " طبس " إلى " فارس " : « وكلها مخيفة من قوم يقال لهم القفص ، يسيرون إليها من جبال لهم بكرمان . وهم قوم لاخلاق لهم . وجوههم وحشة ، وقلوبهم قاسية ، وفيهم بأس وجلادة . لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بأخذ المال حتى يقتلوا صاحبه . وكل من ظفروا به يقتلونه بالأحجار ، كما تقتل الحيات . يمسكون رأس الرجل ويضعونه على بلاطة ، ويضربونه بالحجارة حتى يتفدغ . وسألتهم : لم تفعلون ذلك ، فقالوا : حتى لا تفسد سيوفنا ، فلا يفلت منهم أحد إلا نادراً . ولهم مكامن وجبال يمتنعون بها . وقتالهم بالنشاب ، ومعهم سيوف » . وأما الرهنى فيتحدث عن الرحمة وشيوعها ، وحتى « كأنها فى الإنسان صفة لازمة » ثم يقول : « فلم أجد فى القفص منها قليلا ولا كثيراً ، فلو أخرجناهم بذلك من حد من حدود الإنسان لكان جائزاً . . إلخ » وهو ينكر عليهم اتخاذ ديانة من الديانات . وإن كان يذكر أنهم يعظمون من بين جميع الناس على بن أبى طالب « لا لعقد ديانة ، ولكن لأمر غلب على فطرتهم تعظيم قدره ، واستبشارهم عند وصفه » .

٨٦ ـ القيقانية والقطرية (٥٠ : ٢)

لعل المراد بالقيقانية هنا لصوص « قيقان » ، وهى من بلاد السند مما يلى خراسان ، كما يقول ياقوت[١] ووقعت بين أهلها وبين المسلمين وقائع عدة منذ زمن على ، وقد فصلها البلاذرى[٢] ، ومما يعنينا ذكره فى هذا الموضع عنها ما وصفها به حكيم بن جبلة العبدى ، فنوه فى وصفه بلصوصها ، إذ يقول : « ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل » .

وأما القطرية فنسبة إلى قطر ، « فى أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير » ، كما يقول ياقوت ، نقلا عن أبى منصور[٣] ، ومن المحتمل عند فان فلوتن أن يكون هؤلاء القطرية قراصنة[٤] .

٨٧ ـ الديماس (٥٠ : ٦)

« فكم من ديماس قد نقبته ، وكم من مطبق قد أفضيته ، وكم من سجن قد كابدته » .

---

(١) معجم البلدان ٧ : ١٩٨ .
(٢) فتوح البلدان ص ٤٢٠ وما بعدها .
(٣) معجم البلدان ٧ : ١٢٣ .
(٤) البخلاء (ط ليدن) ص Notes et éclaircissements IX.

هكذا جاءت العبارة ، فهل هى صناعة لفظية لا أكثر ، وإنما يريد أنه خرج من كل سجن . أم أن كل كلمة من هذه الكلمات كانت تدل على نوع من السجن معين ؟ والديماس هو سجن الحجاج بواسط ، والمطبق هو سجن العباسيين ببغداد . فهل يمكن القول بأنه يريد أنه كابد السجن فى واسط وفى بغداد وفى غيرهما ؟

٨٨ ـ سندان (٥٠ : ٧)

يقول ياقوت إنها « مدينة فى ملاصقة السند ، بينها وبين الديبل والمنصورة نحو عشر مراحل ، وبينها وبين البحر نحو نصف فرسخ (والفرسخ ثلاثة أميال) وبينها وبين صيمور نحو خمس عشرة مرحلة »[١].

والديبل التى يشير إليها هذا النص هى فرضة على بحر فارس ، عند مصب نهر مهران أو نهر السند أو ما يسمى الآن نهر الأندس [٢] ، وأما المنصورة فهى ما يسميه الهنود «برهمن أباد» ، وهى تقع على دلتا ذلك النهر على نحو ٤٠ ميلا إلى الشمال الشرقى من حيدر آباد [٣] .

٨٩ ـ المولتان (٥٠ : ٨)

ذكرها ياقوت فى معجمه ، فقال : « بلد فى بلاد الهند على سمت غزنة . قال الاصطخرى : وأما الملتان فهى مدينة نحو نصف المنصورة ، وتسمى فرج بيت الذهب ، وبها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها . وقد فتحها ابن القاسم ابن أبى عقيل فى أيام الوليد بن عبد الملك »[٤]. وقد وصف المسعودى موقعها فى أثناء كلامه عن الأنهار التى تصب فى البحر الحبشى ، إذ يقول : «ومنها نهر مهران السند ، ومخرجه من الاقليم الخامس ، من عيون فى أعالى السند وجبالها من أرض قنوج ، من مملكة بووره ، وأرض قشمير والقندهار والطافن ، حتى ينتهى إلى مدينة المولتان . وتفسير " المولتان " فرج الذهب »[٥].

---

(١) معجم البلدان ٥ : ١٥١ ط السعادة .

(٢) معجم البلدان ٣ : ١١٨ ، ٨ : ٢٠٩ .

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 331, Cambrdge, The University Press, 1905.

(٤) معجم البلدان ٨ : ٢١٠ ، ط السعادة ، وانظر وصف طقوسها الدينية فى الأعلاق النفيسة ص ١٣٥ – ١٣٧ ، ط بريل .

(٥) التنبيه والأشراف ص ٥٥ .

وأما حرب المولتان فلعله يعنى ثورة قامت بها ، لم نر التاريخ ذكرها .

٩٠ ـ الكتيفية والخليدية والخربية والبلالية (٥٠ : ٨ ـ ٩)

ذكر الجاحظ هذه الطوائف الأربعة فى رسالته التى كتبها للفتح بن خاقان ، فى فضائل الأتراك ، على لسان أحد الأبناء ، فقال : « ولنا المواجأة فى الأزقة ، والصبر على قتال أهل السجون ، فسل عن ذلك الخليدية والكتيفية والبلالية والخربية »[١] فيظهر من هذا أنهم جماعات من الغوغاء الذين يبرزون فى المدن وقت الفتن ، على نحو ما حدث فى فتنة الأمين والمأمون ، فى بغداد ، مما وصفه الطبرى وصفاً ممتعاً .

وقد كتب فان فلوتن فى ملاحظاته تعليقات صغيرة عن هذه الطوائف الأربعة [٢] ، فقال عن الخليدية إنهما يحتمل أن يكون المراد بهم جماعة المسجونين الذين حكم عليهم بالسجن « المؤبد » ، كما تشير إلى ذلك كلمة الخلد ، بمعنى التخليد فى السجن ، وفى بعض النصوص « الخلدية » ، بدلا من الخليدية . وعلى هذا تكون « الكتيفية » الذين شد كتافهم .

ويبدو على هذا التفسير عندنا شىء من التكلف . ولدينا نص عن الثعالبى [٣] يشير إلى أن الخلدية جماعة من « المكدين » والساسانيين . فهو يقول عن ابن حجاج : « ولم ير كاقتدارة على ما يريده من المعانى التى تقع فى طرزه ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها ، وانتظامها فى سلك الملاحة والبلاغة ، وإن كانت مفصحة عن السخافة ، مشوبة بلغة الخلديين والمكدين وأهل الشطارة » .

أما تأويل هذه التسمية فلا سبيل إلى القطع به ، وإن كان يحتمل لدينا ـ احتمالا أقرب من احتمال فان فلوتن ـ أنها نسبة إلى « محلة الخلد » فى بغداد ، وهى التى حول قصر الخلد ، الذى بناه المنصور سنة ١٤٥[٤] ، كما نسبت الحربية إلى ذلك الحى فيها .

وأما البلالية فقد أشار فان فلوتن إلى أنها طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج فيها ، كما يؤخذ من الطبرى والمسعودى .

وأما الخربية فقد قال عنها إنها طائفة من الشيعة كانت تشتهر بأنها لا تحقر السرقة

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٦ (رسالة فضائل الترك) .

(٢) النخلاء (ط ليدن) ص Notes et éclaircissements IX-X .

(٣) يتيمة الدهر ٣ : ٢٥ ، ط الصاوى ، ١٩٤٣ م .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٤٥٤ .

والنهب . وقد أحال فى ذلك إلى مقالة له بعنوان : "Worgers in Irak" » وقد نشرت فى :

Feestbundel angeboden aan prof .Veth .p.61.

٩١ ـ مقلاس (٥٠ : ١٠)

ذكر هذا الاسم فى سياق يدل على أنه زعيم من زعماء العصابات . والذى نلاحظه أن هذا الاسم يذكر فى قصة إنشاء بغداد ، حيث تقول الأسطورة إن الذى يبنيها ملك يقال له « مقلاس » ، فقال المنصور : « إن أمه كانت تلقبه مقلاساً »[١].

ويذكر دى جويه أن أحد اللصوص فى عهد الأمويين كان يسمى مقلاصاً [٢].

وذكر الجاحظ فى الحيوان هذا الاسم على أنه مما يطلقه القرادون والمتكسبون الطوافون على بعض السباع المتولدة بين السباع المختلفة الأعضاء ، المتشابهة الأرحام [٣].

والذى نستطيع أن نستنتجه من هذا كله أن هذا الاسم يمكن اعتباره من الأسماء القومية القديمة فى العراق .

٩٢ ـ الشاهسبرم (٥٠ : ١٣)

نوع من الرياحين ، وقد يسمى شاهسفرم وشاهسبرغم ، يقال له الريحان السلطانى[٤]. أو سلطان الرياحين[٥] ، أو ريحان الملك[٦] . وقد وصفه داود الأنطاكى بأنه « الأخضر الضارب إلى الصفرة ، الدقيق الورق . يغرس فى البيوت ... إذا رش عليه الماء اشتدت رائحته».

وقد ذكر الخفاجى أنه مما عرب قديماً . لوقوعه فى شعر الأعشى . ومما جاء فيه قوله :

وشاهســـبرم والياسمين ونرجس يصبحنا فى كل دجن تغـــيما

٩٣ ـ دم الأخوين (٥٢ : ٨)

نوع من العقاقير . وقد يسمى القاطر ، والأيدع ، ودم التنين ، ودم الثعبان[٧] ، وقد ذكره ابن البيطار ناقلا عن أبى حنيفة الدينورى أنه «صمغ شجرة يؤتى به من سقطرى ،

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٦٦ . (٢) البخلاء (ط ليدن) ص .XI (فى الهامش) .

(٣) ٦ : ٩ ط التقدم . (٦ : ٢٨ ؛ ط الحبى)

(٤) شفاء الغليل ص ١١٩ .

(٥) تذكرة ذوى الألباب لداود الأنطاكى ١ : ٢٩٠ ط الوهبية . وانظر وصف ابن البيطار ٣ : ٥٠ .

(٦) لسان العرب ١٥ : ٢٢١ .

(٧) نهاية الأرب للنويرى ١٠ : ٣١٧ .

تداوى به الجراحات[١] كما ذكره أيضاً الأنطاكى والرشيدى[٢] .

وقد جاء فى شعر أبى نواس فى قطعة يهجو فيها جعفر بن يحيى ، ويصفه فيها بالعربدة على الشراب ، ويقول :

لا تشربن وجعفراً فى مجلس أبداً ولا تحمل دم الأخوين[٣]

٩٤ – ريح السبل (٥٣ : ٤)

ذكره صاحب اللسان بأنه داء يصيب فى العين ، ثم نقل عن الجوهرى أن « السبل داء فى العين شبه غشاوة كأنها نسيج العنكبوت بعروق حمر »[٤] . على أنه يؤخذ مما جاء فى كتاب العشر مقالات فى العين المنسوب لحنين بن إسحاق أن « ريح السبل » هو ضرب من ضروب « السبل » وأنه أخف هذه الضروب وطأة . وقد عرض له فى الفصل الذى عقده للأمراض التى تصيب الملتحم ، فقال[٥] : « وأما السبل فإنه عروق تمتلىء دماً غليظاً وتنتو وتحمار ، وأكثر ذلك يكون معها سيلان وحمرة وحكة وحرقة ، ويقال له باليونانية (قيرسوفثالميا) [٦] . ولا يكاد صاحبه يبرأ إلا بلقطه ، ولقطة عسر . . . والسبل مركب من ثلاث طبقات إذا كثر انتفاخه وأزمن . وما كان منها على ثلاث طبقات فهو أشدها وأبطؤها برءاً ، وما كان من السبل على طبقتين ، فهو أسرع برءاً مما كان على ثلاثة وأما السبل الذى إنما هو طبقة واحدة ، فإنه يبرأ بالأدوية ، ولا ينبغى أن يمسه حديد . ويقال لذلك ريح السبل » .

وقد ذكر الجاحظ فى سياق الكلام عن العقارب شيئاً مما كان يستعمل فى علاج ريح السبل ، وذلك إذ يقول : « والعقارب يأكلها مشوية من بعينة ريح السبل ، فيجدها صالحة. ويرمى بها فى الزيت ، حتى إذا تفسخت وامتص ما فيها من قواها ، فطلوا بذلك الدهن الجفن الذى فيه النفخ ، فرق تلك الريح ، حتى تخمص الجلدة ويذهب الوجع . فإذا

---

(١) مفردات ابن البيطار ٢ : ٩٦ – ٩٧ .

(٢) تذكرة داود ١ : ٢١٧ ط الوهبية ، المادة الطبية للرشيدى ١ : ٣٩٧ .

(٣) ديوان أبى نواس ص ١٦٠ ط الحميدية . ولابن يسير بيت يتفق مع هذا البيت فى الشطرة الأخيرة قاله فى يوسف بن جعفر بن سليمان (الأغانى ١٢ : ١٢٨ ، ط التقدم) .

(٤) لسان العرب ١٣ : ٣٤٣ .

(٥) كتاب العشر مقالات فى العين المنسوب لحنين بن إسحاق ، ص ١٣٠ ط الأميرية ١٩٢٨ .

(٦) Kirsophthalmia كما يرى ذلك الأستاذ ماير هوف ، وهى تقابل ما يطلق عليه الآن : Pannus

سمعت بدهن العقارب فإنما يعنون هذا الدهن »[١].

٩٥ ـ قطرب (٥٤ : ٥)

أبو على ، محمد بن المستنير ، نحوى لغوى ، من أهل البصرة ، فى القرن الثانى ، وقد عاش إلى سنة ٢٠٦ . أخذ النحو عن سيبويه ، واتصل برجال عصره ، وتأثر بالروح الاعتزالية الشائعة فى البصرة ، وكان لصلته بالنظام أثر كبير فى تلون عقليته بهذا اللون ، وقد ظهر ـ كما يقال ـ فى تفسيره للقرآن .

ويذكره الجاحظ فى المعلمين[٢] . فقد كان معلماً لولد أبى دلف .

وقد ترجم له ياقوت فى معجمه ، وابن النديم فى فهرسته ، والسيوطى فى بغية الوعاة .

ونشرت له مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق كتاب الأزمنة[٣] .

٩٦ ـ خلنجية كيماكية (٥٤ : ٧)

جاءت هذه الكلمات فى وصف الغضار ، أى آنية الطعام ، يعنى أنها مصنوعة من الخلنج ، « وهو شجر تتخذ من خشبه الأوانى » كما يقول صاحب اللسان . وقد جاء ذلك فى شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فى قصيدته الجيمية التى يمدح بها مصعب بن الزبير ، إذ يقول :

ملك يطعم الطعـــام ويسقى لبن البخت فى عساس الخلنج[٤]

أما صفة هذا الخشب فيشير إليها البيرونى فى كلامه عن « الجزع » المسمى بالخلنج ، إذ يقول : « ولفظة خلنج لا يختص بها الجزع ، بل يقع على كل مخطوط بألوان وأشكال ، فيوصف به السنانير والثعالب والزباد والزرافات وأمثالها ، بل هو بالخشب التى تكون كذلك أخص ، ومنها تنحت الموائد والقعاب والمشارب وأمثالها بأرض الترك »[٥] . وهذا الذى ذكره البيرونى يتفق مع ما ذكره الأب أدى شير فى كلمة الخلنج ، وأن أصل معناها : « المتنوع الألوان » .

---

(١) الحيوان ٥ : ٤٠٠ ـ ٤٠١ ط الحلبى . وكلمة « الجفن » فى هذا النص هى ما نقترحه تصحيحاً لكلمة « الخصى » ولا موضع لها .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٩ ط ١٩٣٢ .

(٣) سنة ١٩٢٢ ، المجلد الثانى .

(٤) الأغانى ١٧ : ١٦٧ ط ١٣٢٣ هـ .

(٥) الجماهر فى معرفة الجواهر ، ص ١٧٥ ط حيدر آباد .

وكلام البيرونى يدل على أن هذه الصناعة صناعة تركية . وكذلك تدلنا على ذلك هذه النسبة « كياكية » ، إذ هى نسبة إلى « كياك » ، وهى — كما يقول ياقوت — « ولاية واسعة فى حدود الصين ، وأهلها ترك »[١].

٩٧ — المكى (٥٤ : ١٦)

يكثر الجاحظ من ذكره فى البخلاء والحيوان والبيان والتبيين . وعلى ما جاء فيها تعتمد فى تصويره والتعريف به . وقد جاء فى الحيوان أن كنيته أبو إسحاق[٢] . نشأ فى مكة . ويظهر أنه أخذ فيها برواية الشعر ، ثم هاجر إلى العراق ، وهو يحكى عن نفسه أمر هجرته فى خبر طريف رواه الجاحظ[٣]. ويظهر أنه اتخذ البصرة موطناً ، واتصل فيها بالبيئات المختلفة ، ولا سيما المعتزلة ومن كان يداخلهم ، كالنظام وأبى الهذيل والجاحظ ومحمد بن الجهم واسماعيل بن غزوان . وقد سلك مسلكهم من الاتساع فى المعرفة . وقد ولاه محمد بن الجهم موضعاً من مواضع كسكر : ويقول الجاحظ فى سياق ذلك : « وكان المكى لا يحسن أن يسمى ذلك المكان ، ولا يتهجاه ولا يكتبه ، وكان اسم ذلك المكان شانكثنا »[٤] ويظهر أن ذلك كان لنشأته العربية بعيداً عن العراق . وقد روى الجاحظ طرفاً مما كان يجرى بينه وبين محمد بن الجهم ، مما يدل على نزعته الكلامية[٥].

وقد حكى عنه الجاحظ فى مواضع مختلفة ما يدل على أنه كان رجلا ظريفاً حلو النادرة حاضر البديهة[٦] ، ومما قال فى وصفه : « وكان المكى طيباً طيب الحجج ، ظريف الحيل ، عجيب العلل . وكان يدعى كل شىء على غاية الاحكام ، ولم يحكم شيئاً قط لا من الجليل ولا من الدقيق ، وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه . وأخبرك عن بعض علله ، لتلهى بها ساعة » ، ثم ذكر طائفة من أحاديثه الظريفة[٧].

---

(١) معجم البلدان ٧ : ٣٠٧ .
(٢) ٤ : ٢١٧ .
(٣) البخلاء ص ١١٠ — ١١١ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٦٨ ط ١٩٣٢ .
(٥) انظر مثلا البيان والتبيين ٢ : ١٨٣ ، الحيوان ٦ : ١٠ — ١١ .
(٦) انظر مثلا : الحيوان ٥ : ٣١٣ ، ٤٦٧ — ٤٦٨ .
(٧) الحيوان ٣ : ٣٢٥ — ٣٢٧ .

٩٨ ـ عبد الله العروضى (٥٦ : ٥)

الأخبار عنه قليلة . وما جاء عنه فى « البخلاء » يدل على أنه كان من أصحاب الجاحظ الذين يتحدث إليهم ، ويروى عنهم ، كما كان معدوداً فى البخلاء ، وكذلك كان من أصحاب أبى عبد الرحمن الثورى ، أحد من عقد الجاحظ لهم الفصول المطولة .

وقد تحدث الجاحظ عن جفاء كان بينه وبين أبى إسحاق النظام ، فقال : « وكان سبب عداوة العروضى لإبراهيم النظام أنه كان يسميه : الأخضر البطن ، والأسود البطن . فكان يكشف بطنه للناس ، يريد تكذيب أبى اسحاق ، حتى قال له إسماعيل بن غزوان : إنما يريد أنك من أبناء الحاكة ؛ فعاداه لذلك »[١].

٩٩ ـ أحمد بن المثنى (٥٦ : ١٢)

الأخبار عنه قليلة أيضاً لا تكاد تصور منه شيئاً . وقد حكى الجاحظ عنه مرتين فى كتاب الحيوان[٢] ويستفاد من هذين الخبرين أنه كان على شىء من المعرفة بالحيوان ، وأنه كان يرجع فى معرفته هذه إلى الكتب .

١٠٠ ـ على الأسوارى (٥٦ : ٢٠)

هو على بن خالد الأسوارى ، كما جاء اسمه فى رسالة التربيع والتدوير[٣] . وقد يذكر فى بعض النصوص باسم « أبى على الأسوارى » ، كما جاء فى طبقات المعتزلة من كتاب المنية والأمل[٤]. وهذا عندنا خلط ينبغى أن ننبه عليه .

فأبو على هذا شخص آخر ، كان يصطنع القصص ، وكان من كبا القصاص ، واسمه كما ذكر الجاحظ عمرو بن فائد[٥] لا على بن خالد ، وإذن فالشخصان مختلفان اسما وعملا .

فأبو على ـ كما رأينا ـ كان قاصًّا ، وأما على ـ صاحبنا ـ فكان متكلماً من

---

(١) الحيوان ٣ : ٢٤٨ .
(٢) ٢ : ٢٢٧ ـ ٢١٨ ، ٤ : ١١٦ .
(٣) مجموعة رسائل للجاحظ . ص ١٣٧ ط التقدم .
(٤) ص ٤٠ .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٩٦ ط ١٣٣٢ هـ .

متكلمى المعتزلة . وقد عده المرتضى فى الطبقة السابعة منهم ، وقال فى ترجمته : « كان من أصحاب أبى الهذيل وأعلمهم ، فانتقل إلى النظام . وروى أنه صعد بغداد لفاقة لحقته ، فقال النظام : ما جاء بك ؟ فقال : الحاجة ، فأعطاه ألف دينار ، وقال له : ارجع من ساعتك ، فقيل : إنه خاف أن يراه الناس فيفضل عليه »[١] .

وقد أكثر الحسين الخياط من ترديد اسمه فى كتابه ، فى أئمة المعتزلة ، كأن يقول : « وهل على الأرض أحد رد على أهل الدهر الزاعمين بأن الجسم لم يزل متحركاً ، وحركاته محدثة ، سوى المعتزلة ، كإبراهيم وأبى الهذيل ومعمر والأسوارى وأشباههم »[٢] . كما ذكر أنه كان بينه وبين على بن ميثم الرافضى مجالس دارت المناظرة فيها فى الأمامة . « فأخزاه الأسوارى فيها ، وقطعه أوحش قطع »[٣]

وقد روى عنه الجاحظ فى البيان والتبيين عبارة تدل على روح المعتزلة فى عدم التحرج من نقد الصحابة . قال : « عمر بن الخطاب معلق بشعره . قلت : وما صيره إلى ذلك ؟ قال : لما صنع بنصر بن سيار . يريد نصر بن الحجاج بن علاط » . وقد أورد الجاحظ هذا الخبر فى سياق الكلام عن الخلط بين الأسماء[٤].

هذه صورة من حياة على الأسوارى العلمية . وهى — كما نرى — صورة متزنة وقور . أما حياته الخاصة فشىء آخر مختلف كل الاختلاف . وقد رسم الجاحظ صورة منها فى كتاب البخلاء ، فصوره أكولا شرها نهما « إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر ، وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يسمع ولم يبصر » . ولا تناقض عندى بين الصورتين ، فلكل مجال . ولا بأس أن يكون الرجل عالماً جيد النظر حسن المجادلة ، فإذا كان على الطعام كان شرهاً سىء المؤاكلة .

١٠١ — أبو الحسن المدائنى (٥٧ : ١٥)

هو على بن محمد بن عبد الله ، نسب إلى المدائن ، وإن كان بصرى المولد والمنشأ ، إلا أنه سار إلى المدائن ، ثم انتقل من المدائن إلى بغداد ، فعرف فيها بالمدائنى ، وهو عالم أخبارى ، عنى بتصوير الحياة الاسلامية وتسجيل أخبارها ، وقد أورد ابن النديم

---

(١) المنية والأمل ص ٤٠ .
(٢) الانتصار ص ١٧ .
(٣) الانتصار ص ٩٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٠٥ ط ١٩٣٢ م .

فهرست كتبه مصنفة أصنافاً . وقد وقعت فى نحو خمس صفحات ، تشهد له بسعة العلم والاحاطة . وقد كانوا يضعونه بإزاء أبى عبيدة ، على نحو ما كان يقول أحمد بن يحيى النحوى : « من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبى عبيدة ، ومن أراد أخبار الاسلام فعليه بكتب المدائنى » .

وإلى جانب هذه الصفة الاخبارية ذكر أبو بكر بن الإخشيد أنه كان متكلماً من غلمان معمر بن الأشعث ، وإن كنا لا نجد أثر هذا فى فهرست كتبه ، ولا فيما وقع تحت أيدينا من أقواله المأثورة .

وكان أكبر اتصاله ، وهو فى بغداد ، بأبى محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكان يكرمه ويتحفى به ويحسن تقديره ، وقد مات فى بيته ، سنة ٢٢٤ أو ٢٢٥ على ما يحكى ابن النديم والخطيب البغدادى ، فى ترجمتهما له[١] ، وذكر الطبرى موته فى حوادث سنة ٢٢٨[٢].

١٠٢ ـ مالك بن المنذر (٥٧ : ١٥)

هو مالك بن المنذر بن الجارود العبدى ، وكان أبوه صحابيًّا جليلا ، ممن شهد الجمل مع على ، وقد نشأ مالك بالبصرة ، ولى أحداثها فى أيام خالد بن عبد الله القسرى . وقد كان فيما يبدو معتزاً بمكانه فهو ابن المنذر بن الجارود ، وأمه بحرية بنت مالك بن مسمع .

وقد حدث شر بينه وبين عمر بن يزيد الأسدى فضربه ـ متجنياً عليه ، مستشهداً عليه ناساً من تميم ـ كما يقول ابن سلام[٣] ، حتى قتله تحت السياط . وللفرزدق شعر فى هذا الحادث ، فيقول فى مالك :

لعمرى لئن كان ابن عمرة مالك تنهك ظلماً سادراً غير مقصر
لتنكشفن عنه ضبابة فسوه لضغمة رئبال من الأسد مخدر
إذا علقت أسبابه القرن غادرت به أثراً كالجدول المتفجر[٤]

إلى غير ذلك فى التحريض عليه ، والتشنيع به مما أعان على قتله[٥].

---

(١) الفهرست ص ١٤٧ ـ ١٥٢ ط الرحمانية ، تاريخ بغداد ١٢ : ٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ٩ .
(٣) طبقات الشعراء ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ ، ط السعادة (طبقات فحول الشعراء ، ٢٩٩ ، ط دار المعارف ، ١٩٥٢).
(٤) ديوان الفرزدق ، ص ٢٨١ ط الصاوى .
(٥) ديوان الفرزدق ، ص ١٢٦ ، ١٣٨ .

وقد ثار الخليفة لعمر بن يزيد من مالك ، فألقى فى السجن ، وقد مرض وبه بطن ، فمات فيه .

١٠٣ ـ الكساء القومسى (٥٩ : ٥)

لم تفسر القواميس العربية كلمة « الكساء » إلا بأنه ثوب معروف ، فلم تبين شكله ، ولم تعرفه بما يميزه عن غيره . وقد حاول العلامة دوزى أن يستكمل هذا النقص ، فذهب يصف الكساء الأسبانى باعتبار أن كلمة : alquicel هى كلمة « الكساء » العربية . ولعل ما يصف هذه يصف تلك . وجملة ما يستخلص من النصوص التى نقلها هو أن هذه الكلمة تقع على رداء كبير من الصوف ، يلف به الجسم ، أشبه بملاءة السرير [١] وأحسب أنه ليس علينا من بأس فى أن نفهم كلمة « الكساء » هنا على هذه الصورة . وقد جاء فى سياق الكلام ما يدل على أنه من الصوف .

على أنه قد وقفتنا كلمة « المبطنة » التى استعملها الحرامى موضع كلمة « الكساء » ، إذ يقول للجاحظ فى إنكاره عليه لبس الكساء فى ذلك الفصل : « إن كان ذلك كذلك فاجعل بدل هذه المبطنة جبة محشوة ، فإنها تقوم هذا المقام » . فهل كلمة « المبطنة » هذه وصف للكساء ، فيدل ذلك على أنه كان يصنع بحيث تكون له بطانة ، أو أنه اسم آخر له ؟ وهنا لا نملك أنفسنا من ذكر ما علق به العلامة دوزى ، حين أورد نصًّا أسبانياً عن مرمول Marmol جاء فيه ذلك الفعل الإسبانى batanar ، إذ يقول : « إن هذا الفعل الذى لم تفسره المعاجم الاسبانية التى رجعت إليها — قديمة وحديثة — تفسيراً يتفق مع ماهنا ، يعنى ارتدى s'envelopper ، وقد جاء من « بطن » العربية التى يبدو أن عرب إسبانيا استعملوها فى هذا المعنى » .

فهل هناك صلة بين كلمة « المبطنة » هنا . وبين هذا الذى يذكره العلامة دوزى ؟

أما وصف الكساء بأنه قومسى فذلك نسبة إلى قومس . وهى — كما يقول ياقوت — « كورة كبيرة واسعة ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل جبال طبرستان »[٢] .

وقد ذكر الجاحظ الرداء القومسى فى موضع آخر[٣] بما يدل على أنه رداء عادى ،

---

(١) *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 383-385.

(٢) معجم البلدان ٧ : ١٨٥ .

(٣) الحيوان ٣ : ٢٧ .

من صنف غير جيد ، وذلك فى حكاية لقول المروزى : « قلت لأحمد بن رباح الجوهرى اشتريت كساء أبيض طبريًا بأربعمائة درهم ، وهو عند الناس — فيما ترى عيونهم — قومسى يساوى مائة درهم » . ولعل هذا يعيننا على فهم الصورة التى أراد الجاحظ أداءها هنا فى البخلاء فهماً أدق .

١٠٤ — خوامزكه (٦٢ : ٤)

لم أستطع أن أجد من المعانى المحتملة لهذه الكلمة — فيما أتيح لى من المعاجم الفارسية — ما يتفق مع سياقها . غير أنه يبدو أن هناك صلة بين هذه الكلمة وبين كلمة « خاميز » التى نص صاحب العين — كما ينقل عنه ابن منظور فى مادة « أمص » — أنها فارسية الأصل . ومعناها — كما جاء فى سياق مادة « عمص » — هو : « أن يشرح اللحم رقيقاً ، ويؤكل غير مطبوخ ولا مشوى . يفعله السكارى » ، وزاد فى مادة « أمص » أنه ربما يلفح لفحة النار .

أما المعنى الذى أورده صاحب القاموس فى تفسير « الخاميز » من أنه « مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن » فأحسبه بعيداً مما نحن فيه .

١٠٥ — البستندود (٦٣ : ٦)

شرحها فان فلوتن فى « الملاحظات والإيضاحات » بأنها تدل فى الفارسية على ذلك النوع من الفطائر المحشوة : [Pâté] emduit de farine [١] .

١٠٦ — جداء كسكر (٦٣ : ١٧)

أكثر ما تعرف به كسكر ، من هذا القبيل . هو دجاجها . وقد ذكر الجاحظ الدجاج الكسكرى غير مرة[٢] ، وكذلك يذكره المسعودى فى المضاف والمنسوب ، ويقول : إنه « موصوف بالجودة والسمن ، ومذكور فى أطايب الأطعمة . وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدى أو الحمل »[٣] . ويقول ياقوت فى الكلام عن كسكر : إنها « كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية ، لأنها تكثر بها جداً »[٤] وأما أبو المطهر

---

(١) البخلاء (ط ليدن) ص XII .

(١) انظر مثلا الحيوان ٢ : ٢٤٨ ، ٣٤٠ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٢) ثمار القلوب ص ٤٢٦ ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .

(٣) معجم البلدان ٧ : ٢٥١ ط السعادة . وانظر مثلا الأغانى ١١ : ٣٣٦ ، ط دار الكتب المصرية .

الأزدى فينسب إليها ، على لسان أبى القاسم البغدادى ، البط[١] . وإن كان ياقوت يقول إنه يجلب إليها من بعض أعمالها .

فأما نسبة الجداء إليها فلا نكاد نجدها إلا عند الجاحظ ، كما نرى هنا ، وكما تجيء فى سياق كلامه عن فضل الماعز ، إذ يقول : « ويقولون جداء البصرة وجداء كسكر »[٢]. وكما فى العبارة التى يحكيها المسعودى ، فى الموضع الذى أشرنا إليه ، وينسبها إليه ، إذ يقول : « ومما ينسب إلى كسكر الجداء والسمك والصحناء » .

وقد كان للجدى مكان ممتاز فى نظام المائدة فى عهد الجاحظ . وقد أشار إلى ذلك فى بعض كلامه على لسان محمد بن أبى المؤمل ، إذ يقول : « . . . وكانوا يعلمون أن إحضار الجدى إنما هو شىء من آيين الموائد الرفيعة ، وإنما جعل كالعاقبة والخاتمة ، وكالعلامة لليسر وللفراغ »[٣] . كما عرض لهذه الناحية فى جملة كلامة فى « باب الماعز » فقال : « والجدى أطيب من الحمل وأكرم . وربما قدموا على المائدة الحمل المقطوع الألية من أصل الذنب ليوهموا أنه جدى . . . وملوكنا تحمل معهم فى أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل المعروفات أزمان الحمل والوضع ليكون لهم فى كل منزلة جداء معدة » .

وأما كسكر فهى تطلق على الاقليم وعلى المدينة ، فأما الإقليم فهو الواقع بين دجلة والفرات وبين البصرة وبغداد ، ويذكر ياقوت أن قصبته واسط منذ بناها الحجاج ، وكانت قبل ذلك « خسرو سابور » ، وهو إقليم غنى ينقل ياقوت عن الهيثم ابن عدى أن خراجه كان يبلغ اثنى عشر ألف ألف مثقال ، وإن كانت البطائح تقع فى أسفله ، منذ أيام كسرى أبرويز .

وأما المدينة فيؤخذ من كلام ابن رستة عن نهر الفرات أنها تقع عند مصبه فى البطائح[٤]

١٠٧ ــ فاكهة الجبل (٦٣ : ١٧)

قدمنا فى موضع آخر التعريف بإقليم الجبل[٥] . وقد كان هذا الإقليم مشهوراً بفاكهته الممتازة أو السرية على حد تعبير ابن الفقيه الهمذانى . وقد أورد فى غير

---

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى ، ص ٣٩ ، ط كرل ونتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ م .
(٢) الحيوان ٥ : ٤٨٢ .
(٣) البخلاء ، ص ٩٧ .
(٤) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٤ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .
(٥) انظر التعليق رقم ٨١ : « صعاليك الجبل » ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

موضع من الفصل القيم الذى كتبه عن هذا الإقليم ما يدل على هذه الشهرة ويؤكدها . فى تصنيف البلاد الإيرانية المنسوب إلى قباذ بن فيروز أن « أسرى فواكه إقليمه سبعة مواضع : المدائن وسابور وأرجان والرى ونهاوند وماسبذان وحلوان الجبل »[١] ومن هذه المدن السبعة واحدة فى العراق وهى المدائن ، واثنتان فى فارس وهما سابور وأرجان ، والأربعة الباقية فى الجبل .

أما أنواع الفاكهة التى يشتهر بها الجبل فقد أشار فى غير هذا الموضع إلى بعضها ، وهى : الكمثرى النهاوندى والصينى ، والتفاح الشيرى ، والعنب ، والرمان ، والجوز ، واللوز[٢] ،

١٠٨ ـ خالد القسرى (٦٦ : ١)

هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلى القسرى ، أحد سادة العصر الأموى . ولى العراق فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، وظل عليه إلى أن عزل عنه سنة ١٢٠ ، وقد ولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى . وقد ذكر الجهشيارى بعض الأقاصيص التى كانت تقص عن الكيد لخالد وملابسات عزله وتولية يوسف بن عمر[٣] ، وقد أخذه يوسف بضروب من التنكيل ، وحبسه ، وظل فى حبسه إلى أن قتله فى الحيرة سنة ١٢٦.

وقد كان خالد سيداً شريفاً جواداً ، كما تشهد بذلك بعض أخباره وآثاره[٤]. وقد عده ابن عبد ربه فى الأجواد . ولكن الجاحظ يروى هنا عن أبى عبيدة خبراً يرميه فيه بالبخل على الطعام ، وبأن ذلك كان متعارفاً بين الناس عنه ، ولنا أن نتشكك فى هذا الخبر المروى عن أبى عبيدة .

لقد كان خالد القسرى ، فى ولايته على العراق ، عرضة لكثير من الأعاصير السياسية والقبلية وغيرها ، عرضته لألسنة الشعراء والمتقولين ، فوجد فى ذلك دعاة الشعوبية ومن إليهم من دعاة الدولة ، مادة يصوغون منها حملتهم الشديدة على سادة ذلك العصر وأشرافه . وبذلك كان خالد ـ فيما نحسب ـ موضع حملة منكرة من هؤلاء وأولئك ، فتعقبوه فى كل شىء ، حتى لم يسلم له نسبه . فقال أبو عبيدة إن جده كرز بن عامر

---

(١) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢١١ ، ط بريل ، ليدن ، ١٨٨٥ م .

(٢) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٦١ وما بعدها .

(٤) انظر مثلا الكامل للمبرد ٢ : ١٣٢ ، زهر الآداب ٣ : ٢٥٩ ، العقد الفريد ١ : ٢٦٤ ، ٣٥٧ ، ٢ : ١٣٥ .

كان مولى من موالى عبد القيس فى هجر ، وأصله من يهود تيماء ، فأبق ، فتلقفته عبد شمس ، ثم وهبوه لقوم من طهية ، فأصاب فيهم امرأة بغيا ، فولدت له أسداً . فأما أسد هذا فالتحق ببجيله ، وفيها نشأ ابنه يزيد ، من غير أن ينال شرف الاستلحاق .

ويزيد هذا — وهو الجد الأول لخالد — يقول عنه أبو عبيدة إنه كان يلقب بخطيب الشيطان ، وكان أكذب الناس فى كل شىء ، معروفاً بذلك . ثم نشأ ابنه عبد الله فسلك منهاجه فى الكذب ، ثم نشأ خالد ، ففاق الجماعة ، إلا أن رياسة وسخاء فيه سترا ذلك من أمره .

وأما أم خالد فكانت رومية نصرانية[1] ، وليس فى هذا بأس ، ولا عليه فى ذلك ، ولكنه بنى لها كنيسة فى ظهر قبلة الجامع ، كما يقول المدائنى .

وأما خالد نفسه فإلى أنه كان أكذب الناس وأجبنهم وأبخلهم على الطعام كان قد نشأ نشأة سافلة عاهرة ، لا تتفق مع هذه السيادة التى يدعيها ، ولا تلك الولاية التى وليها . فيقول الهيثم بن عدى إنه كان غلاماً مؤنثاً ، يصحب المغنين ، ويترسل بين عمر بن أبى ربيعة والنساء . ثم يأخذ الهيثم فى وضع الأخبار فى تفسير شعر لعمر ، ليضع فيها خالداً الموضع الذى وصفه[2] .

وهكذا يصورون ذلك الرجل الذى كان من سادات عصره ، ويبالغون فى تشويهه وإلحاق كل مثلبة به ، وذلك وحده كاف ليشككنا فى ذلك كله ، ويجعلنا نفكر فى الملابسات المختلفة التى لابسته فى عصره ، ثم لابست ذكراه فى نشوء الدولة العباسية . وما نكاد نشك فى أن هذا الخبر الذى رواه الجاحظ إنما جاء من هذه السبيل .

١٠٩ — خالد بن نضلة الفقعسى (٦٦ : ١٣)

سيد بنى أسد فى عصر المنذر بن ماء السماء . وقد ذكره أبو الفرج فقال : إنه أحد رجلين من بنى أسد كانا ينادمان المنذر ، فأغضباه فى بعض الحديث ، على الشراب ، فأمر بقتلهما[3] .

وفى ترجمة عبيد بن الأبرص ذكر هذه القصة عن خالد بن المضلل ، فوضعه موضع خالد بن نضلة[4] ، وإذن يكون خالد بن المضلل الذى جاء فى بيت الأسود بن يعفر هو خالد بن نضلة ، ويكون خالد المهزول ، هو خالد الآخر ، عميد بنى جحوان .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ٣ : ٤٠ .

(٢) الأغانى ١٩ : ٥٢ وما بعدها .

(٣) الأغانى ٥ : ٢٩ ط بولاق .

(٤) الأغانى ١٩ : ٨٦ .

أما قصة مقتله فهى مذكورة أيضاً فى النوادر لأبى على القالى[١] .

وكان خالد بن نضلة يقول الشعر ، إلى جانب كونه فارساً من فرسان عصره . وقد روى له الجاحظ فى الحيوان الأبيات المشهورة التى أولها :

لعمرى لرهط المرء خير بقيـــة عليه ولو عالوا به كل مركب[٢]

١١٠ ـ الأسود بن يعفر (٦٦ : ١٤)

شاعر من شعراء الجاهلية ، تميمى دارمى ، جيد العبارة . ينزع فى شعره إلى الحكمة ، ليس بالمكثر ، كما يقول أبو الفرج فى ترجمته له[٣]. وقد ذكر فى هذه الترجمة أن ابن سلام جعله فى الطبقة الثامنة ، وليس كذلك فى نسخة الطبقات التى بين أيدينا ، فهو معدود فيها فى الطبقة الخامسة ، وقال : إنه كان شاعراً فحلا ، يكثر التنقل فى العرب ، يجاورهم فيذم ويحمد .

وقد كان شاعراً من شعراء المناذرة ، كما يؤخذ من شعره . وقد عمى فى آخر حياته ، وهو أحد الأعشين : أعشى بنى نهشل ، وقد جمع ناشر ديوان الأعشى شعره فى ذيل هذا الديوان [٤] ، كما نجد مجموعة شعره فى شعراء النصرانية [٥] ، وقد ترجم له غير أبى الفرج ابن قتيبة والآمدى [٦] .

١١١ ـ البارجين (٦٨ : ٢)

يظهر أن هذه الكلمة مأخوذة من المصدر الفارسى « برچنيدن » ومعناه الالتقاط ، ويلاحظ أن مادة الفعل « برچين » . ويؤخذ من سياق ذكرها هنا أنها أداة من أدوات الأكل ، ولعلها كانت شيئاً قريباً من الشوكة المستعملة الآن .

١١٢ ـ الزمزمة (٦٨ : ٣)

الزمزمة ، فى القاموس ، « تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت ، لا يستعملون

---

(١) ص ١٩٥ .
(٢) ٣ : ١٠٣ ط الحلبى .
(٣) الأغانى ١١ : ١٣٤ .
(٤) ص ٢٩٣ — ٣١٠ .
(٥) ٢ : ٤٧٥ — ٤٨٥ .
(٦) الشعر والشعراء ص ١٣٤ ، المؤتلف والمختلف ص ١٦ — ١٧ .

لساناً ولا شفة . لكنه صوت تدبره فى خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض » .

وقد ذكرها الجاحظ فى سياق الكلام عن المخارج وأنها لا تحصى ، ولا يوقف عليها ، ولا يستطاع تصويرها ، إذ يقول : « فمن يستطيع أن يصور كثيراً من حروف الزمزمة ، والحروف التى تظهر من فم المجوس إذا ترك الافصاح عن معانيه ، وأخذ فى باب الكناية ، وهو على الطعام »[١] .

كما ذكرها فى موضع آخر فى سياق الحديث عن مطاعم الملوك ، وأنه لا ينبغى أن يحدث على طعامهم ، فقال : « ولأمر ما كانت ملوك آل ساسان إذا قدموا موائدهم زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع . فإن اضطروا إلى كلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذى أرادوا ، والمعنى الذى قصدوا . وكانوا يقولون : إن هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغى للإنسان أن يجعل ذهنه فى مطعمه ، ويشغل روحه وجوارحه فيه ، لأن تأخذ كل جارحة قسطها من الطعام ، فيتغذى بها البدن والروح الحيوانية التى فى القلب ، والطبيعة التى فى الكبد ، اغتذاء تاماً ، وتقبله الطبيعة قبولا جامعاً »[٢] .

١١٣ – الجردبيل (٦٨ : ٤)

لقب من الألقاب المطلقة على سيء المؤاكلة . وهى فارسية الأصل ، ولكن التحريف لعب بها ، فأصلها : « كردبان » أى حافظ الرغيف . ثم أطلق الجردبان والجردبيل على الذى يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره ، أو الذى يأكل بيمنيه ويمنع بشماله .

وقد أخذت هذه الكلمة سبيل العربية ، فاشتق منها الفعل والفاعل ، فقد ذكر ابن سيده عن أبى عبيده أنه يقال : « جردبت على الطعام وجرذمت » ، وعن ابن دريد : « رجل مجردب نهم »[٣] .

١١٤ – عيسى بن سليمان بن على (٦٩ : ٩)

أحد أبناء سليمان بن على ، عم أبى العباس السفاح . وكان أبو العباس قد ولاه على البصرة وأعمالها ، فأقام فيها هو وأولاده ، وبنوا فيها دورهم ، وقد كان لهذه الدور – فيما

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٤٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) التاج ص ١٨ – ١٩ ، وانظر مروج الذهب ٢ : ١٠٨ – ١٠٩ ط باريس .

(٣) المخصص ٥ : ٣٠ .

يبدو – أثر غير قليل فى نشاط الحياة العقلية والأدبية بالبصرة .

والأخبار قليلة عن عيسى هذا . ومما نعرف عنه أنه تعرض لهجاء أبى عبد الله بن أبى عيينه المهلبى ، لتزوجه امرأة من آله ، يقال لها فاطمة بنت عمرو بن حفص . وقد أورد المبرد هذه القصيدة ، على أنها من شعر ابن أبى عيينة المستحسن[1]. ولا بأس فى أن نورد من هذه القصيدة ما لعله يصور لنا شيئاً ما بعض ما كان يقال عن عيسى بن سليمان هذا :

إذا ما بنـــو العباس يوماً تبادروا ... عرا المجد وابتاعوا كرام الفضائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه ... إلى بيع بياحاته والمبـــاقل
يرخم بيض العـــام تحت دجاجة ... ليخرج بيضاً من فراريج قابل

١١٥ – الجارود بن أبى سبرة (٧١ : ٧)

شخصية من الشخصيات الكبيرة فى العراق ، فى القرن الأول ، وأوائل الثانى . ذكره الجاحظ فأجمل صفته فى قوله : « الجارود بن أبى سبرة – ويكنى أبا نوفل – من أبين الناس وأحسنهم حديثاً . وكان راوية علامة شاعراً مفلقاً ، وكان من رجال الشيعة . ولما استنطقه الحجاج قال : ما ظننت أن بالعراق مثل هذا . وكان يقول : ما أمكننى وال قط من أذنه إلا غلبت عليه ، ما خلا هذا اليهودى، يعنى : بلال بن أبى بردة . وكان عليه متحاملا . فلما بلغه أنه دهق ، حتى دقت ساقه ، وجعل الوتر فى خصييه ، أنشأ يقول :

لقد قر عينى أن ساقيه دقتـــا ... وأن قوى الأوتار فى الخصية اليسرى
بخلت وراجعت الخيـــانه والخنا ... فيسرك الله المقـــدس للعسرى
فما جذع سوء خرب السوس جوفه ... يعالجه النجار يبرى كما تبرى[2]

وذكر الجاحظ فى موضع آخر أنه كان من جلساء عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وهو من يصفه الجاحظ بأنه من أبين الناس وأفصحهم ، حتى كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إنى لأنحى كور العمامة عن أذنى لأسمع كلام عبد الأعلى بن عبد الله . وقد أورد فى هذا الموضع فقرات من كلام الجارود : « سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخل

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩ – ٣٠ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ١٧٩ ط ١٣٣٢ هـ .

العسل » ، وقال : « عليكم بالمربد ، فإنه يطرد الفكر ، ويجلو البصر ، ويجلب الخبر ، ويجمع بين ربيعة ومضر »[١].

أما شعره فقد روى الجاحظ قطعة أخرى له ، يظهر فيها الشماتة بموت مالك بن عمرة[٢]

١١٦ – سلم بن قتيبة (٧١ : ١٤)

هو سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى . كان أبوه من أمراء الدولة المروانية وكبار الفاتحين فيها ، وتولى هو البصرة فى أواخر عهدها . وفى عهد العباسيين ولاه أبو جعفر المنصور عليها فترة من الزمن ثم عزله عنها ، وجعلها لمحمد بن سليمان بن على .

وكان سلم – فيما يظهر – نشأ فى بادية الكوفة ، نشأة أقرب إلى النشأة البدوية[٣] ، وقد كان لهذا أثره فى لغته ، فلم يكن فى لغته فضول ، حتى كان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول : « احذفوا الكلام كما يحذفه سلم بن قتيبة[٤] ، وكان يعرف الغريب أو يتباصر به ، كما قال بشار عنه ، حين مدحه بقصيدة أكثر فيها من الغريب فسئل عنها ، فقال : « بلغنى أن سلما يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه[٥] »

١١٧ – تسنيم بن الحوارى (٧١ : ١٥)

هو تسنيم بن الحوارى بن زياد بن عمرو بن الأشرف ، كما نسبه الطبرى فى روايته عن حفيده سعيد بن الحسن بن تسنيم[٦] وكان من أهل البصرة ، ويبدو من كلام الجاحظ أنه كان من سرّاتها . ولا نعرف من أخباره إلا أنه كان صديقاً لبشار[٧] وإلا أن ابنه الحسن بن تسنيم كان والياً على عمان سنة ١٦٩[٨].

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٨٦ .
(٢) الحيوان ١ : ٢٢٤ ط الحلبى .
(٣) انظر عيون الأخبار ١ : ١٤٥ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ١٥٥ ط ١٩٣٢ .
(٥) الأغانى ٣ : ١٩٠ ط دار الكتب المصرية .
(٦) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٤٨ .
(٧) الأغانى ٣ : ١٧٣ .
(٨) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٣٢ .

١١٨ – أبو شعيب القلال (٧١ : ١٩)

هكذا جاء اسمه هنا ، وفى جميع المواضع التى ذكر فيها ، فى الحيوان ، والبيان والتبيين ، وأخبار أبى نواس لابن منظور . وقد جاء فى جمع الجواهر للحصرى على هذه الصورة : « شعيب القلال » . وأكبر الظن أنه تحريف .

وهو صغدى الأصل [١] ، وقد جاءه هذا الوصف « القلال » من أنه كان يعمل الجرار ، وقد حكى الجاحظ نادرة لطيفة له ، حين دعى إلى القصر ليراه الرشيد وهو يعمل القلال . وهذه النادرة تدل على عقل وبديهة حاضرة[٢] . والواقع أنه كان يصحب العلماء والشعراء ويجالسهم ، حتى جاز للجاحظ أن يقول عنه فى صدد أبيات أبى نواس : « ودار ندامى عطلوها وأدلجوا » : « أنشدت هذه الأبيات أبا شعيب القلال ، وكان عالماً شاعراً ، فقال : هذا شعر لو نقر لطن . فقلت له ويلك ! ما تفارق الجرار والخزف حيث كنت »[٣] ، وحتى ليحكى بعض المعارف عن رهبان الزدناقة ، وما يصنعونه ويتميزون به[٤] .

١١٩ – محمد بن يحيى (٧٢ : ٦)

هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكى : الفضل وجعفر وموسى ومحمد ، وقد كان – فيما يبدو – أقلهم شهرة وأضعفهم نفوذاً ، فلم يل – فيما نعلم – شيئاً من الولايات ، إلا ما كان من توليه الكتابة لمحمد بن الرشيد[٥] . ولما وقعت النكبة بالبرامكة ، وقتل جعفر بن يحيى ، كان محمد فيمن أصابه الحبس ، وكان محبسه بالرقة . وقد ظل سجيناً إلى أن ولى الأمين الخلافة ، فأطلقه هو وأخاه موسى[٦] . ولكنه لم يلبث عند ما حوصر الأمين أن مضى نحو المأمون [٧] ، ثم لا ندرى ماذا كان من أمره بعد .

وكان محمد بن يحيى مبخلا . وقد ذكر الجهشيارى قصته مع المختم الراسبى الشاعر

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ ط ١٣٣٢ هـ ، جمع الجواهر للحصرى ص ٧ – ٨ .

(٣) أخبار أبى نواس ١ : ٤١ .

(٤) الحيوان ٤ : ٤٥٧ وما بعدها .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٩٣ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٦) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٧ .

(٧) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٨ .

وشعره فيه ، ثم أورد قول أبي الحارث جمين ووصفه له[١] . وقد حكى أيضاً أنه وجد لديه بعد نكبة البرامكة سبعمائه ألف درهم . ويظهر أن محمد بن يحيى كان — على العكس من إخوته — يحيا حياة مقصورة نوعاً ما ، فلم يكن يعبأ بالناس ، أو يلتمس حسن رأيهم . ولعل من خير ما يمثله وإخوته ما قاله إبراهيم الموصلي ، حين طلب إليه أبو النجم القائد ، أجد الدعاة ، أن يصف له ولد يحيى بن خالد ، فقال : « أما الفضل فيرضيك بفعله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل مالا يجد »[٢].

١٢٠ : إسماعيل بن نيبخت (٧٢ : ١١)

هو إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت ، كما يذكر اسمه ابن منظور[٣] وابن أبي أصيبعة[٤]. وقد كان آل نوبخت من سراة البصرة ، ومن أكبر الأسر التي كانت مألفاً للشعراء والأدباء فيها . ولعل أول ما رفع من شأن هذه الأسرة هو التحاق أبي سهل ابن نوبخت بخدمة المنصور ، وكان رجلا مثقفاً بثقافة قومه من التطبب والتنجيم ، وقد كان صديقاً لأبي اللجلاج متطبب المنصور ، فأفاد من ذلك مالا ومكاناً ، فنشأ أبناؤه في البصرة نشأة مترفة ، ونعرف منهم إسماعيل هذا ، وإسحاق بن أبي سهل [٥]، وسليمان[٦] ، وعبيد الله[٧] ، ثم الحسين بن إسماعيل[٨].

ومن أشهر الشعراء الذين كانوا يألفون آل نوبخت أبو نواس [٩] ، وقد احتفظ لنا ديوانه بقدر من شعره فيهم ، وأكثره هجاء لهم ، ومساجلات بينه وبينهم . وما ندري لعل ذلك كان من قبيل المعابثة .

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٩٨ .
(٣) أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .
(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ١٥٢ .
(٥) لسان الميزان ١ : ٤٢٤ .
(٦) ديوان أبي نواس ص ١٤٢ ، أخبار أبي نواس ص١٤٢ .
(٧) أخبار أبي نواس ص ١٩٩ .
(٨) ديوان أبي نواس ص ١٠٥ .
(٩) أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .

وكان إسماعيل بن نوبخت هذا من جلساء المأمون ، كما يؤخذ من كلام طيفور[١].

وينبغى أن نشير هنا إلى أن إسماعيل بن نيبخت هذا ليس هو إسماعيل بن نيبخت المتكلم المعتزلى الشيعى الذى ذكره صاحب لسان الميزان ، فهو متأخر من أبناء إسحاق المتقدم ذكره[٢] .

وفى كتاب أعيان الشيعة للعاملى فصل كبير قيم عن آل نوبخت[٣].

١٢١ ـ أبو الشمقمق (٧٢ : ١٦)

لقب الشاعر المغمور « مروان بن محمد » ، من أعظم شعراء عصره تعبيراً عن الفقر وتسجيلا لصور الجماعات الدنيا ، وخروجاً على التقاليد الشعرية التى ظلت باسطة سلطانها فى العصر الأموى ، فى المعنى والأسلوب .

وهو من موالى مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين . وقد نشأ فى البصرة، بالبخارية رهى ـ كما يقول ياقوت ـ سكة فيها ، أسكنها عبيد الله بن زياد أهل بخارى الذين نقلهم من بخارى إلى البصرة ، وبنى لهم فيها هذه السكة فعرفت بهم . ونقل المبرد عن أبى عبيدة أنه ـ هو ومنصور بن زياد ويحيى بن سليم الكاتب ـ من أهل خراسان ، من بخارية عبيد الله بن زياد[٤] ، فيكون خراسانى الأصل .

وكان قبيح الشكل ، وصف المرزبانى خلقه فقال :«إنه كان عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، منكر المنظر»[٥]. ووصف ابن عبد ربه شيئاً من خلقه فقال : « وكان أديباً ظريفاً محارفاً . وكان صعلوكاً متبرماً بالناس ، وقد لزم بيته فى أطمار مسحوقة . وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج ، فينظر من فروج الباب ، فإن أعجبه الواقف فتح ، وإلا سكت عنه »[٦].

وشعره ـ بالقدر الذى وصل إلينا ـ صورة صادقة من هذا الخلق ، ومن إحساسه بالفقر . وقد وصف مظاهر فقره وصفاً رائعاً ، منه الساخر ومنه الحزين . فمن الأول تلك

---

(١) تاريخ بغداد لطيفور ص ٢٩٩ .
(٢) لسان الميزان ١ : ٤٢٤ .
(٨) ٥ : ٣٩ ـ ٤٩ .
(٤) الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٢ ط الأزهرية .
(٥) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٧ .
(٦) العقد الفريد ٣ : ٣٤٣ ط ١٢٩٣ هـ ، ٦ : ٢١٥ ط لجنة التأليف ، ١٩٤٩ م .

القطع الأربعة الجميلة التى أوردها الجاحظ ، وقد وصف فيها بيته . وأخذ يواسى سنوره مواساة ظريفة تخلوه من الفيران ، إلى غير ذلك من الصور الطريفة التى أداها تأدية لطيفة[١] ومن ذلك أيضاً ما أورده ابن عبد ربه بعد ذلك الحديث الذى قدمنا طرفاً منه فى وصف خلقه . ومن شعره الحزين قطعة صغيرة أوردها الجاحظ ، ويظهر أنه نفث بها وهو بالأهواز ، ملتمساً سبباً من أسباب العيش ، ولعله قالها فى تلك المرة التى قصد فيها الأهواز ، حين كان بها عمر بن مساور الكاتب متقلداً بعض أعمالها ، فرده — فيما يظهر — خائباً ، وقد هجاه بأبيات أوردها الجهشيارى[٢].

وأما تبرمه بالناس فيظهر فى كثرة أهاجيه للأمراء والشعراء . وقد أورد الجاحظ وغيره قدراً صالحاً من هذا فى مواضع مختلفة[٣].

والميزة الواضحة التى يمتاز بها شعر أبى الشمقمق هى شعبيته ، وقد كان ينافس بشاراً فى هذا . بل إن فى القصة التى يوردها أبو الفرج ، من مطالبته بشاراً بالعطاء ، وتهديده بالهجاء ، على ذلك النحو الخاص الذى ورد فى تلك القصة . ما يدل على تقدير بشار للناحية « الشعبية » فى شعره [٤].

وإذ كان هذا الشعر قوى التجاوب مع أحاسيس الشعب ، فقد تحفى الشعب به ، ولعل فيما يذكره الجاحظ عن ديوانه ، واحتفال بعض الناس به ، ما يدل على هذا الاتجاه[٥]

أما شعر أبى الشمقمق الذى أورده الجاحظ هنا فى « البخلاء » فقد ورد فيه نص عن الجاحظ ، فى كتاب البخلاء للخطيب البغدادى : « قال أحمد بن منصور المرورودى : قال لى الجاحظ — وأنا أقرأ عليه كتابه فى البخلاء ، وتذاكرنا ما دقق الشعراء فيه من ذم البخلاء — : لا أعرف شيئاً أبلغ فى الهجاء بالبخل من قول أبى الشمقمق . وذكر البيت : « وما روحتنا . . . إلخ» ، وبيتاً آخر له » ، ثم قال الخطيب : « وقد روى هذا الشعر لغير أبى الشمقمق »[٦].

---

(١) الحيوان ٥ : ٢٦٤ — ٢٦٩ ط الحلبى .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٣٢ ط الحلبى .

(٣) انظر مثلا : الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٤ ، الحيوان ١ : ٢٦٣ — ٢٦٤ ، ٣٥٥ ، ٤ : ٤٥٤ ، ثمار القلوب ص ٤٣٥ .

(٤) الأغانى ٣ : ١٩٤ .

(٥) الحيوان ١ : ٦١ .

(٦) انظر المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٧٧ .

١٢٢ ـ الجماز (٧٣ : ٣)

هو أبو عبد الله محمد بن عمرو ، ما جن من أصحاب النادرة بالبصرة ، من أسرة سلم بن عمرو الخاسر ، وهم تيميون بالولاء ، وإن « كانوا يزعمون أنهم من حمير صليبة ، نالهم سباء فى خلافة أبى بكر ، فهم مواليه »[١] وقد نشأ فى البصرة رفيقاً لأبى نواس ، وإن كان أكبر سناً منه [٢]، وكانا يجلسان معاً إلى أبى عبيدة، وقد دخل بغداد فى أيام الرشيد ولم يستوطنها ولم يعد إليها إلا فى أيام المتوكل ، وقد كانت سوق النادرة ائجة عنده ، ولكن الجماز كان قد أسن ، فلم يعش بعد ذلك إلا قليلا .

ويصفه المرزبانى بأنه صاحب مقطعات ، ولم يكن له إطالة ، وكان ماجناً خبيث اللسان[٣] . ومن مقطعاته القصيرة هذه قطعة فى أبى العتاهية يعرض فيها بزهدياته ، وأخرى فى هجاء إبراهيم الزيادى ، وثالثة فى هجاء الجاحظ ومعابثته ، وله مقطوعات ماجنة أوردها الجاحظ فى الحيوان، وابن الشجرى فى حماسته [٤].

أما نوادره فقد عنى الحصرى بجمع طائفة غير قليلة منها[٥].

١٢٣ ـ يوسف بن عمر (٧٤ : ٤)

أحد ولاة بنى أمية الذين عرفوا بالعنف والعتو والقسوة . وهو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ، ابن ابن عم الحجاج بن يوسف ، يجتمعان فى الحكم ، كما كانا يجتمعان فى أسلوب الحكم . فكانت أيام ولايته الكوفة تذكر الناس بأيام الحجاج . وكان من الأقوال السائرة قولهم : « ما أشبه زمان يوسف بن عمر بزمان الحجاج »[٦] . ويقول ابن خلكان : « وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج ابن يوسف فى الصرامة والشدة فى الأمور ، وأخذ الناس بالمشاق . ولم يزل على ذلك إلى حين عزله »[٧] ومن أجل ذلك « كان يضرب به المثل فى التيه والحمق . ذكر ذلك حمزة

---

(١) جمع الجواهر للحصرى ص ٩٤ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٣ : ١٢٥ .

(٣) معجم الشعراء ص ٤٣١ .

(٤) الأغانى ٤ : ٧٦ ، معجم الأدباء ١ : ١٦٠ ، ثمار القلوب ٣٢٢ ، الحيوان ١ : ١٧٥ ، حماسة ابن الشجرى ص ٢٧٥ .

(٥) انظر مثلا الصفحات : ٧ ، ٢٢ ، ٩٣ ـ ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٢٠٢ .

(٦) البيان والتبيين ٣ : ١٨٠ .

(٧) وفيات الأعيان ٢ : ٤٧٨ ط بولاق ١٢٩٩ .

الأصبهانى فى كتاب الأمثال ، فقال : قولهم أتيه من أحمق ثقيف ، هو يوسف بن عمر . كان أتيه وأحمق عربى أمر ونهى فى دولة الإسلام »[١].

وكان قبل ولايته العراق والياً على اليمن فى أيام هشام بن عبد الملك ، وأبلى بلاء حسناً فى حرب عباد الرعينى الخارجى[٢]. فكان ذلك مما رفع من شأنه عند الخليفة ، فما إن غضب على خالد القسرى ، وعزله عن العراق سنة ١٢٠ ، حتى كتب إليه بتوليته عليها ، فمضى إليها واصطنع العنف فيها . وجعل يتعقب أسرة سلفه ، فحبس خالد بن عبد الله مع أخيه إسماعيل بن عبد الله ، وابنه يزيد بن خالد ، وابن أخيه المنذر بن أسد بن خالد ، كما أودع السجن بعض عمال خالد كبلال بن أبى بردة ، وقد مات فى سجنه ، كما مات خالد . « وبقى يوسف والياً على العراق إلى أن بويع يزيد بن الوليد سنة ست وعشرين ومائة ، فاستعمل منصور بن جمهور على العراق . فلما سمع ذلك يوسف هرب إلى الشام ، فظفر به هناك فسجن . فلما مات يزيد واضطرب أمر المروانية بطش يزيد بن خالد القسرى بيوسف بن عمر ، فقتله فى السجن ، وأدرك بثأر أبيه منه »[٣].

١٢٤ ـ عوف بن القعقاع (٧٤ : ١١)

هو عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ، تميمى دارمى ، عداده فى أعراب البصرة ، ويعد فى الصحابة ، لأنه وفد مع أبيه على النبى صلى الله عليه وسلم[٤]

١٢٥ ـ طفيل (٧٨ : ١٤)

ذكره الثعالبى فقال : « طفيل العرائس ، ويقال له طفيل الأعراس . وهو من غطفان ، ويقال إنه من موالى عثمان بن عفان ، رضى الله تعالى عنه . وكان يتبع الأعراس فيأتيها من غير أن يدعى إليها . وهو أول من فعل ذلك ، وإليه ينسب الطفيليون . وكان يقول : وددت أن الكوفة بركة مصهرجة ، فلا يخفى على من أعراسها شىء »[٥].

---

(١) المصدر نفسه ٢ : ٤٧٩ .

(٢) تاريخ الطبرى حوادث سنة ١٠٧ .

(٣) التنبيه لأبى عبيد البكرى ص ١٠٣ ط دار الكتب المصرية .

(٤) أسد الغابة ٤ : ١٥٦ ط جمعية المعارف المصرية ، ١٢٨٦ هـ .

(٥) ثمار القلوب ص ٨٤ . وقارن هذا النص بما ذكره ابن السكيت فى إصلاح المنطق ٣٥٥ – ٣٥٦ ط دار المعارف .

وقد أورد ابن قتيبة وصيته التى يوصى بها أصحابه ، وهى : « إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وأجد ثيابك ، واعمل على أنها العقدة التى تستغل . وإن كان العرس كثير الزحام فمر وانه ، ولا تنظر فى عيون أهل المرأة ، ولا عيون أهل الرجل ، فيظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، وهؤلاء أنك من هؤلاء . وإن كان البواب غليظاً وقاحاً ، فابدأ به ، ومره وانهه ، من غير أن تعنف عليه . وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال »[١].

وقد كتب الجاحظ فى « الطفيليين » كتاباً ذكره ياقوت فى فهرست كتبه ، ولم يصل إلينا . ومن بعده صنف الخطيب البغدادى كتاباً فى « التطفل وحكايات الطفيليين وأخبارهم » ، وقد أورد فيه تاريخ هذا النوع من الحياة ، كما سرد طائفة مما قيل فيه من الطرائف . وقد ذكر فيه طفيلاً هذا . وروى عن أبى عبيدة أنه كان من بنى هلال ، وأنه كان ينزل حفر أبى موسى (وهى على جادة البصرة إلى مكة ، كما يقول ياقوت) ، واسمه طفيل بن زلال ، فكان هو أول من طفل ، وأبوه أول من زل .

١٢٦ ـ أبو اليقظان (٧٨ : ١٧)

هو سحيم بن حفص ، راوية أخبارى ، عالم بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه ، كما يقول ابن النديم ، وقد عاش إلى سنة ١٩٠ ، وهو أستاذ المدائنى . وكان يطلق عليه ، فيما يحكى هو عن نفسه ، عدة أسماء ، فيسميه أبا اليقظان ، وسحيم ابن حفص ، وعامر بن حفص ، وعامر بن أبى محمد ، وعامر بن الأسود ، وسحيم بن الأسود ، وعبيد الله بن حفص ، وأبا إسحاق[٢] . وقد روى عنه الجاحظ قطعة من الرجز ، فى وصف الخطيب الذى تعرض له النحنحة والسعلة[٣] .

١٢٧ ـ معبد (٨٢ : ١)

لعل معبدا هذا الذى كان ينزل دار الكندى ، والذى يحكى عنه الجاحظ قصته هنا ، هو معبد المتكلم الذى يشير إليه فى سياق المناظرة بين صاحب الديك وصاحب

(١) عيون الأخبار ٣ : ٢٣٢ .
(٢) الفهرست ص ١٣٨ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٤٨ ط ١٩٣٢ م .

الكلب ، ويصفه هو والنظام بأنهما من عليه المتكلمين ، ومن الجلة المتقدمين ، وأنهما من جلة المعتزلة ، وهم أشراف أهل الحكمة[١] .

١٢٨ – « وكان فى ذلك يتنزل عليهم » (٨٢ : ٥)

التنزل بالمعنى الذى يمكن أن يفيده السياق هنا – وهو قول الجاحظ عن الكندى إنه كان يتنزل على السكان فيما يأخذ منهم – لم يقع لى فى المعاجم . على أن هذه الكلمة وردت فى كلام البلاذرى ، فى أثناء كلامه عن يوم الربذة ، مقرونة بما يعين المعنى ، إذ يقول : « وكانوا يتنزلون على الناس ، ولا يعطون لشىء ثمناً »[٢].

١٢٩ – آبار الزدو (٨٣ : ٢)

المقصود بها هنا الحفائر التى يحفرها الصبيان فى لعبة « الزدو » ، وتسمى الحفيرة التى تحفر لذلك « المزداة » ، وهى التى يلقى فيها بالجوز الذى يلعب به .

وتسمى هذه اللعبة أيضاً « خسا زكا » ، إذ كان هذان اللفظان هما الكلمتان الاصطلاحيتان فى هذه اللعبة ، ومعناهما فرد وزوج . وأساس اللعبة هو إخفاء الجوز أو الحصا والسؤال عنه : خسا أم زكا ، كأنما هى نوع من لعب المقامرة عند الصبيان . وبهذا الاسم ذكرها الشاعر فى قوله :

وشر أصناف الشيوخ ذو الريا أخنس يحنو ظهره إذا مشى
الزور أو مال اليتيم عنـــده لعب الصبى بالحصى « خسازكا »

كما اشتق منه فقيل: هو يخسى ويزكى، أى يلعب هذه اللعبة. وخاساه أى لاعبه إياها[٣] .

١٣٠ – المنحاز (٨٤ : ١٠)

هكذا جاءت الكلمة فى الأصل ، مع نقطة تحت الحاء ، فجعلها « فان فلوتن »

---

(١) انظر الحيوان ١ : ٣٥٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ط الحلبى .

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٥١ .

(٣) انظر فى هذا مثلا لسان العرب فى مادة زدا وسدا وزكا وخسا . وانظر أيضاً ما كتبه الدكتور داود الجلبى عن هذه اللعبة فى مجلة المجمع العلمى العربى ، ٢٠ : ٥ – ٦ (أيار وحزيران ١٩٤٥) ص ٢٥٦ .

المنجان ، تحكما ، ولا معنى لها ، وجعلتها طبعة وزارة المعارف « الميجان » ، وتكلفت لها . وهذا كله إغراب ، والقريب الصحيح هو المنحاز ، كما أثبتنا . وقد قال أبو على : « والهرس والوهس دقك الشيء وبينه وبين الأرض وقاية ، ومثله نحزت أنحز نحزاً ، ومنه المنحاز ، وهو الهاون »[١] وكذلك نقل السيوطى عن الجمهرة أن الهاوون يسمى المنحاز والمهراس[٢] .

١٣١ ـ الخشكار (٩٦ : ٦)

يقول أدى شير فى كتابه « الألفاظ الفارسية المعربة » : « الخشكر ما خشن من الدقيق ، فارسيته خشكار وهو القصرى » . والقصرى ، كبشرى ، ما بقى فى المنخل بعد الانتخال ، أى ما نسميه بالنخالة .

١٣٢ ـ النفاطات والقيارات (٩٨ : ٨ ـ ٩)

هى الأمكنة التى يكون فيها النفط والقير ، كما يقال ملاحة لموضع الملح ، وزراعة لموضع الزرع . والنفط والقير معدنان كثيرا الوجود بالعراق ، كما هو معروف ، وهما معروفان هنالك منذ القدم . حتى إنه ليقال إن كلمة « نفط » سامية قديمة ، ولفظها قريب فى العبرية والسريانية والعربية ، ومن هذا الأصل جاءت الكلمة اليونانية

وقد جاءت كلمة « النفط » فى شعر بشار ، إذ يقول :

وما كلمتنى دارهـــا ، إذ سألتها ... وفى كبدى كالنفط شبت به النار[٣]

وقد أشار ابن جبير فى رحلته إلى قيارة بين البصرة والكوفة . ولعل هناك صلة بين ذلك المكان وبين المكان الذى كان يسمى بذى قار .

ويظهر أن ولاية النفاطات كان عملا من أعمال الدولة . فقد روى البيهقى أن عبد الصمد بن المعذل كتب إلى صديق له ولى النفاطات ، فأظهر تيها :

لعمرى لقد أظهرت تيهـــاً كأنما ... توليت للفضل بن مروان منـــبرا

---

(١) الأمالى ٢ : ٢٧ .

(٢) المزهر ص ١٦٦ .

(٣) الأغانى ٦ : ٢٤٦ .

وما كنت أخشى لو وليت مكانه على — أبا العباس — أن تتغيرا
بحفظ عيون النفط أظهرت نخـوة فكيف به لو كان مسكاً وعنبراً
دع الكبر واستبق التواضع ، إنه قبيح بوالى النفط أن يتكبرا[١]

ونستطيع أن نعرف وصف هذه القيارات ، والوجوه التى كانت تستعمل فيها ، من مراجعة مثل ما كتبه ابن فضل الله العمرى عن دير القيارة مثلا ، وما كتبه ياقوت عن هذا المكان[٢].

١٣٣ — قيس بن زهير (٩٩ : ٣)

شخصية من شخصيات الجاهلية التى تمثل أخبارها صفات البطولة العربية ، وكان كأكثر أبطال ذلك العهد يعيش فى الفترة التى انتهت بظهور الإسلام ، وأبوه زهير بن جذيمة العبسى ، أمير عبس ، وسيد العرب وهوازن خاصة ، وكانت « هوازن بن منصور لا ترى زهير بن جذيمة إلا ربا »، كما يقول أبو عبيدة[٣] . ولكنه لم يلبث أن قتله خالد ابن جعفر بن كلاب . وكثير من أخبار قيس بن زهير تدور حول الثأر لأبيه ، وهو بطل يوم داحس والغبراء[٤] . وينهى ابن الأثير حياته بأنه « تاب إلى ربه ، فتنصر وساح فى الأرض حتى انتهى إلى عمان ، فترهب بها زماناً ، فلقيه حوج بن مالك العبدى ، وقال : لا رحمنى الله إن رحمتك » .

وقد حكى الميدانى طرفاً مما يؤثر عنه من العبارات الحكيمة[٥] .

١٣٤ — خازم بن خزيمة (٩٩ : ٣)

يذكره الخطيب فى الكلام عن دار خازم ، إذ يقول : « وأما دار خازم ، فهو خازم بن خزيمة النهشلى . وهو أحد الجبابرة ، قتل فى وقعة سبعين ألفا ، وأسر بضعة

---

(١) المحاسن والمساوى ص ١٨٢ .
(٢) مسالك الأبصار ١ : ٣٠١ ، معجم البلدان ٤ : ١٦٦ .
(٣) الأغانى ١١ : ٨٢ .
(٤) النقائض بين جرير والفرزدق ١ : ٧٦ ، الكامل لابن الأثير ١ : ٣٤٣ .
(٥) مجمع الأمثال ١ : ٢٨٤ — ٢٨٥ .

عشر ألفاً ، فضرب أعناقهم وذلك بخراسان »[١] .

أما قسوته هذه فتتفق مع العصر الذى كان فيه ، وهو عصر تأسيس الدولة العباسية وتوطيدها ، وكان ذلك محتاجاً لهذه القسوة التى غمرت مظاهرها تلك الفترة كلها . ويعتبر خازم بن خزيمة من القواد الذين شاركوا مشاركة قوية فعالة فى إخماد الثورات التى كانت تثور ضد الدولة هنا وهنا . فهذه ثورة بالمدائن يقوم بها بسام بن إبراهيم بن بسام ، وهذه أخرى بعمان يثيرها شيبان الخارجى ، وهذه ثالثة بالجزيرة عند الموصل يثيرها خارجى آخر يقال له الملبد ، وها هم أولاء الراوندية يحاولون أن يثأروا لأبى مسلم الخراسانى فى مقر الخلافة نفسه ، وها هى ذى خراسان تضطرب ويكاد أمر الدولة ينفسد فيها ، منذ ثار عبد الجبار بن عبد الرحمن . ثم ها هو ذا الأصبهبذ بطبرستان يرى الفرصة سانحة لينقض عهد المسلمين ، فيأخذ فى حرب الدولة . كل هذه الثورات التى جعلت تثور متوالية كان خزيمة بن خازم صاحب الفضل الأكبر فى إخمادها [٢].

وقد خلف خازم بن خزيمة أبناء له ، سلكوا مسلكه ، فكانوا من قواد الرشيد ، منهم خزيمة . وقد عاش — كما يقول الخطيب — إلى أيام الأمين[٣] ؛ ومنهم إبراهيم ، وقد فتك به الوليد الشارى بنصيبين[٤] .

١٣٥ — هرثمة بن أعين (٩٩ : ٤)

قائد من قواد الرشيد والأمين ، وهو خراسانى ، وقد كان فى أيام أبى جعفر من أنصار عيسى بن موسى ، فحمل من خراسان إلى بغداد فى السلاسل ، من أجل ذلك[٥] وقد بقى — فيما يظهر — مغموراً مدة المنصور والمهدى والهادى ، فما يكاد يذكر . فإذا كانت أيام الرشيد وجدناه عاملا له على فلسطين ، ثم رأيناه متجهاً إلى مصر ، يقمع فتنة قام بها أهل الخوف من قيس وقضاعة ، وقد نجح فى قمعها ، فولى مصر نحواً من شهر ، ثم تحول عنها ليطفىء فتنة قامت فى أفريقية ، وكذلك وليها ، ثم عزل عنها ، وتولى حرس جعفر بن يحيى .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٨٩ .
(٢) انظر تاريخ الطبرى وخاصة الجزء التاسع ، فى عهد السفاح وأبى جعفر .
(٣) تاريخ بغداد ١ : ٩٢ .
(٤) تاريخ الطبرى ١٠ : ٦٢ .
(٥) تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٤ .

ولعل المهمة الكبرى التى قام بها هرثمة هى انضمامه إلى المأمون ، وقيادته الجيوش له فى الزحف إلى بغداد ، وحصارها ، وقد أبلى فى ذلك بلاء مذكوراً ، كما أبلى بعد ذلك فى حرب أبى السرايا ، وتصفية الجو للمأمون .

وقد حدث بينه وبين الفضل بن سهل شىء فدبر له حتى حبسه ، ثم دس عليه فقتل فى محبسة سنة ٢٠٠ (١) .

١٣٦ ـ الشبوط (١٠٠ : ١٥)

نوع من السمك وصفه صاحب القاموس بأنه « دقيق الذنب ، عريض الوسط ، لين المس ، صغير الرأس ، كأنه بربط » ، كما ذكره الفريق أمين المعلوف بهذه الصفة تقريباً ، وقال إنه كثير فى دجلة . وقد وضع بإزاء كلمة شبوط وسبوط هاتين الكلمتين Carpi, Cyprimus (٢) :

وقد ذكره الجاحظ غير مرة . فذكره فى سياق القول بالخلق المركب . وفى الرد على من زعم أنه ولد الزجر من البنى ، وذكر بعض خواصه فقال : إنه جنس كثير الذكور قليل الإناث ، وإنه أكثر سمك نهر « رامهرمز » ، وإنه لا يتربى فى البحار ، ولا يسكن إلا فى الأودية والأنهار ، ويكره الماء الملح ، ويطلب الأعذب فالأعذب ، ويكون فى الماء الجارى ، ولا يكون فى الساكن (٣) .

ووصفه مرة أخرى فقال : « وأطيب ما فى الأنهار من السمك : وأحسنها قدوداً وخرطا ، وأسبطها سبوطاً ، وأرفعها ثمناً ، وأكثرها تصرفاً فى المالح والطرى ، وفى القريس والمشوط الشبوط » (٤)

١٣٧ ـ السدرى (١٠٠ : ١٩)

أحد الشعراء المغمورين فى عصر الجاحظ . وقد ترجم له المرزبانى ترجمة قصيرة فقال : « السدرى ، أبو نبقة ، محمد بن هشام بن أبى خميصة . مولى لبنى عوال . فاشترى المتوكل ولاءه بثلاثين ألف درهم . وكان يصحب الجماز وعبد الصمد بن المعذل والجاحظ وأدباء

---

(١) راجع الطبرى فى حوادث خلافة الرشيد ثم الفتنة ثم سنة ٢٠٠ .
(٢) معجم الحيوان ، ص ٥٢ ، ط المقتطف ١٩٣٢ .
(٣) الحيوان ١ : ١٥١ .
(٤) الحيوان ١ : ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

البصرة » ، ثم ذكر له مقطوعتين قصيرتين من الشعر الساخط : إحداهما فى رجل من الوجوه قصده ، فأبطأ إذنه ، والأخرى فى هجاء الزياديين [١] .

وذكره القالى فى أثناء الحديث عن المفضليات ، فوصفه بأنه بصرى من أصحاب الأصمعى ، مع أبى العالية الأنطاكى ، وعافية بن شبيب [٢] . وكذلك نجد أبا الفرج يسند إليه حديثاً عن الأصمعى فى شعر أبى العتاهية[٣] .

أما الجاحظ فيروى عنه بيتاً من الشعر يقول إنه أنشده إياه[٤] .

١٣٨ ـ الخيش (١٠٢ : ٧)

يقول الجاحظ فى حديث أسد بن جانى : إنه كان إذا جاء الصيف ، وحر عليه البيت ، أثار الأرض بالمسحاة ، ثم غمره بالماء ووطأه . فلا يزال البيت بارداً ما دام نديًّا . ثم يحكى عنه أنه كان يقول عن ذلك : « خيشّى أرض وماء خيشّى من بئرى » . والعبارة غامضة غير مفهومة ، حتى يعرف المراد بالخيشة هنا .

وقد وردت كلمة الخيش فى بعض النصوص مشيرة إلى أن المراد بها نوع من الجواسق يجلس فيه صيفاً . فقد حكى الصولى أن العباس بن رستم قال : « دخلت مع أبان بن عبد الحميد على عنان جارية الناطفى ، وهى فى خيش ، فقال لها : « العيش فى الصيف خيش » ، فقالت بسرعة : « إذ لاقتال وجيش »[٥].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الجاحظ فى البخلاء[٦] : « لو كانوا إذ جلسوا فى الخيوش ، واتخذوا الحمامات فى الدور ، وأقاموا وظائف الثلج والريحان إلخ » ، وكذلك ما ذكره فى رسالته « صناعات القواد » بين الأبيات التى أوردها على لسان محمد بن داود الطوسى الفراش ، إذ يقول :

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٣١ .

(٢) ذيل النوادر ص ١٣٠ .

(٣) الأغانى ٤ : ٣٩ — ٤٠ .

(٤) الحيوان ٣ : ١١١ .

وانظر فوق هذا قصته مع عبد الصمد بن المعذل فى الأغانى ١٢ : ٦٥ — ٦٦ ، وبعض أخباره مع أبى شراعة الشاعر فى الأغانى أيضاً ٢٠ : ٣٦ — ٣٧ .

(٥) الأوراق للصولى قسم أخبار الشعراء ، ص ٢٣ ، ط الصاوى .

(٦) البخلاء ص ٢٠٥ .

حين هيأت بيت خيش من الوصـ ـل لأبوابه ستور البهـاء[١]

فكلمة « الخيش » فى مثل هذه النصوص لا تدل إلا على ذلك النوع من الجواسق[٢] ولكن هذا المعنى لا نحسب أنه مراد هنا فى كلام أسد بن جانى ، إذ لا يستقيم الكلام به . ويغلب على الظن أن تكون كلمة « خيش » مأخوذة من كلمة « كاشان » الفارسية ، ومعناها « بيت الصيف » ، كما ذكر ادى شير [٣] لا من الخيش بمعنى القماش الغليظ المتخلخل .

على أنا نحسب أن لكلمة « خيش » استعمالاً آخر غير هذا الاستعمال هو المقصود هنا ، وهو الذى يعنيه الجاحظ فى قوله : « ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج ، وتعليق الخيش »[٤] كما جاءت فى بعض شعر الشعراء فى القرن الرابع ، كذلك الشاعر الذى يسخر من شعر الصولى بقوله :

دارى بلا خيش ، ولكننى عقدت من خيشى طـاقين
دار منّى ما اشتد بى حرها أنشـدت للصـولى بيتين[٥]

وكما يقول الشاعر البغدادى ابن سكره ، محمد بن عبد الله الهاشمى[٦] :

يا سائلى عن ليلة لى مضت وطيبهـا عند أبى الحيش
وكيف غنت « خمرة » ، لا تسل غنت فأغنتنا عن الخيش

فالمقصود بالخيش هنا ، وفى مثل ما دار بين ابن فارس وأبى الفتح ابن العميد ، مما ذكره ياقوت فى معجمه[٧] ، إنما هو مروحة الخيش التى قال الشريشى فى شرحها : « هذه المروحة تستعمل ببلاد العراق ، تكون شبه الشراع للسفينة ، وتعلق من سقف البيت ، ويشد بها حبل ، ويدار بها ، وتبل بالماء وترش بماء الورد . فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جذبها بحبلها ، فتذهب بطول البيت وتجىء . فيهب على الرجل منها نسيم طيب الريح بارد »[٨].

---

(١) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ٢٦٥ .
(٢) انظر ما ذكره الطبرى فى أخبار المنصور (٩ : ٣٠٦) من اتخاذه الخيش ينصب له على قبة .
(٣) الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٣٦ .
(٤) الحيوان ١ : ٨٢ .
(٥) ولليتين رواية أخرى فى كتاب نثر النظم وحل العقد للثعالبى (ص ١١٨ ط مصر ١٣١٧) دلنى عليها الأستاذ ناجى محفوظ بكاظمية بغداد .
(٦) اليتيمة ٣ : ١٢ .
(٧) معجم الأدباء ١٤ : ٢٠١ .
(٨) شرح مقامات الحريرى ٢ : ٢٨٨ .

وبهذا المعنى يستقيم كلام أسد بن جانى ، فهو يشبه أرضه المنداة بماء البئر ، بتلك المروحة ، دون أن يتكلف فى ذلك ما تكلفه هذه المروحة .

١٣٩ ـ أبو عبد الرحمن الثورى (١٠٣ : ٢)

لم أجد أبا عبد الرحمن الثورى هذا فى غير كتاب البخلاء ، على كثرة ما التمسته . على أنا ينبغى أن نشير هنا إلى شخصية أخرى بهذا الاسم ، وهى شخصية المبارك الثورى ، أبى عبد الرحمن ، أخى أبى عبد الله سفيان الثورى[١] . وليس به قطعاً .

ومما يجب أن نشير إليه ما ارتكبته دار الكتب من خطأ شنيع ، فى الفهرست الذى وضعته لكتاب عيون الأخبار ، إذ خلطت بين أبى عبد الله الثورى . وأبى عبد الرحمن المذكور فى كتاب البخلاء .

وبعد ، فإن أبا عبد الرحمن هذا كان ـ كما يؤخذ من كلام الجاحظ عنه ـ سريًّا من سراة البصرة ، يملك خمسمائة جريب من أكرم الأرض ، وكان يصطنع التجارة ، وكان ينزل بغداد عند مسجد ابن رغبان ، وكان رجلا شديد العارضة عضب اللسان ، وقد جرد فى الانتصار للبخل والمدافعة عنه كتاباً ، كما صنع سهل بن هارون ، وكان ـ فيما يظهر ـ رجلا متأدباً يروى الآثار المختلفة مثقفاً بثقافة عصره[٢].

١٤٠ ـ نهر مرة (١٠٣ : ٣)

هو نهر بالبصرة إلى ناحية نهر الأبلة ، منسوب إلى مرة بن أبى عثمان ، مولى عبد الرحمن بن أبى بكر ، إما لأنه ولى حفره ، فنسب إليه ، وإما لأن الأراضى التى كانت عليه ، كانت قطيعة له[٣].

١٤١ ـ « فان النوى تعقد الشحم فى البطن » (١٠٣ : ٩)

لعل هذا متأثر بعادة كلدانية قديمة ذكرها لنورمان Lenorment فى كتابه « التاريخ

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٢١٨ .

(٢) يحسن أن نشير هنا إلى أن القول الذى ينسبه الجاحظ إليه فى إيثار الروس ، نرى نظيراً له فى كتاب البخلاء للخطيب البغدادى (ورقة ٢٢) ، منسوباً إلى مروان بن أبى حفصة .

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، معجم البلدان ٨ : ٣٤٥ .

القديم للشرق » ، إذ ينتقل بعض ما حكاه بلين pline وتيوفرست Théophraste وسترّبون Strabon عن وجوه الانتفاع بالنخيل عند الشعب الكلدانى ، ومنها أن نوى التمر كان يدق وينقع ، ويتخذ طعاماً للأبقار والخراف فيسمنها[١] .

١٤٢ ــ النعال السندية (١٠٤ : ٥)

صنف خاص من النعال ذكره الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ، بما يؤخذ منه أنها نعال ثخينة ، لها صرير عند المشى بها . قال : « وقد اختلفوا علينا فى النعال السندية ، فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً ، وكان بالنساء مستهتراً ، وأنه احتال بها لجسمه ، حتى وصلها برجله ، ليكون ثخنها زائداً فى طوله . فلما طالت الأيام ومضت الدهور ، ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة ، أو لضرب من المرفق . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلا وللطين نهاراً . فلما طال عليها الدهر نسى السبب ، وذلك أن أكثر الرداغ لا تستغرق ثخنها ، وإبرة العقرب لا تكاد تجاوزها . وقال آخرون : بل إنما اتخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها ، استئذاناً على أزواجها وأمهات أولادها ، وعلى جميع محارمها ، لحالات تكن عليها ، وأمور تكن فيها . فصار صريرها تدنياً واستئذاناً »[٢] .

وكذلك نرى هذه النعال وصفت بأنها صرارة فى قصيدة لأبان اللاحقى ، إذ يقول :

ونعال سندية صرارة[٣]

كما يؤخذ من نص « البخلاء » أن هذه النعال كانت ــ فوق هذا ــ غير مشركة .

١٤٣ ــ سوق الأهواز (١٠٤ : ١٦)

هو أحد المواضع الوبئة التى كان يضرب بها المثل فى فساد الهواء واعتلال الصحة . وهو قصبة بلاد الأهواز أو « خوزستان » أو ما يسمى الآن « عربستان »[٤] . وقد يجتزأ

---

(١) *Histoire ancienne de l'Orient*, vol. 4, p. 7.

(٢) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ٢٣٠ .

(٣) كتاب الأوراق للصولى ، قسم أخبار الشعراء ، ص ٢٧ .

(٤) Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 232, Cambridge, 1905.

عن « سوق الأهواز » فيقال « الأهواز »، كما كان يكتفى بإطلاق كلمة «السوق» وحدها عليه ، كما فى شعر عبد الله بن الزبير الأسدى :

فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان الســـوق أو هى أقربا[1]

وهى تقع على نهر دجيل الأهواز ، أو ما يسمى الآن نهر قارون ، وبينها وبين البصرة ٣٦ فرسخاً [2] وقد عرض لها الجاحظ فى باب (القول فى الحيات) ،عند كلامه عن تأثير البيئة فى الطباع . قال :

« فأما قصبة الأهواز فإنها قلبت كل من نزلها من بنى هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم . ولا بد للهاشمى ، قبيح الوجه كان أم حسناً ، أو دميما كان أو بارعاً رائعاً ، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فقد كادت البلدة أن تنقل ذلك فتبدله ، ولقد تحيفته وأدخلت الضيم عليه ، وبينت أثرها فيه . فما ظنك بصنيعها فى سائر الأجناس .

ولفساد عقولهم ولؤم طبع بلادهم لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة والضياع الفاشية يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، وإن طال ذلك . والمال منهبة كما يقولون . وقد يكتسب الرجل ، من غيرهم ، المويل اليسير ، فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ، ولا يرضى لنسائه مثل الذى كان يرضاه قبل ذلك .

وليس فى الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم فى شىء منه نصيب وإن خس . ولم أر بها وجنة حمراء لصبى ولا صبية ، ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك . وهى قتالة للغرباء . وعلى أن حماها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب . ووباؤها وحماها فى وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان .

وكل محموم فى الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه وفى بدنه منها بقية ، فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة ، إلى أن يعود إلى الخلط وأن يجمع فى جوفه الفساد . وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث كما تعاود أصحاب الحدث ، لأنهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة .

---

(١) من قطعة أوردها المبرد فى الكامل ص ٦٦٦ ، ليبتسج ١٨٦٤ م .

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ص ١٩٤ ، ط بريل ١٨٨١ م ، وانظر أيضاً فى تعيين موقعها مما حولها : الأعلاق النفيسة لابن رسته ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ط بريل ١٨٩٢ م .

وكذلك جمعت سوق الأهواز الأفاعى فى جبلها الطاعن فى منازلها ، المطل عليها ، والجرارات فى بيوتها ومقابرها ومنابرها . ولو كان فى العالم شيء هو شر من الأفعى والجرارة لما قصرت قصبة الأهواز عن توليده وتلقيحه . وبليتها أنها من ورائها سباخ ومناقع مياه غليظة ، وفيها أنهار تشقها مسايل كنفهم ومياه أمطارهم ومتوضآتهم ، فإذا طلعت الشمس فطال مقامها وطالت مقابلتها لذلك الجبل ، قبل — بالصخرية التى فيه — تلك الجرارات ، فإذا امتلأت يبساً وحرارة ، وعادت جمرة واحدة ، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم .

وقد تحدث تلك السباخ وتلك الأنهار بخاراً فاسداً ، فإذا التقى عليهم ما تحدث السباخ ، وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء . وبفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء.

وحدثنى إبرهيم بن عباس بن محمد بن منصور عن مشيخة من أهل الأهواز عن القوابل ، أنهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدنه فى تلك الساعة محموماً . يعرفن ذلك ويتحدثن به »[1].

١٤٤ — نطاة خيبر (١٠٤ : ١٧)

وهذا موضع آخر من المواضع الوبئة . وهو قسم من أقسام خيبر ، كل منها يتسمى باسم الحصن القائم فيه ، وقد عد ياقوت أسماء هذه الحصون ، ومنها حصن النطاة . ولعل هذا القسم كان أشهر أقسام خيبر بالوباء . وقد كانت خيبر مشهورة بالحمى ، كما نرى شواهد هذا كثيرة فى الشعر والأمثال . وقد أورد ياقوت طائفة من هذا الشعر[2] وقال الهمذانى : « والناس يقولون : حمى خيبر ، وطواعين الشام ، ودماميل الجزيرة وجرب الزنج ، وطحال البحرين »[3].

١٤٥ — وادى الجحفة (١٠٤ : ١٧)

هو كذلك موضع من المواضع المشهورة بالوباء ، نظراً لموقعه . فهو يقع فى غور تهامة قريباً من البحر ، على الطريق بين مكة والمدينة . وهو ، كما يقول ياقوت ، خراب

---

(١) الحيوان ٤ : ١٤٠ — ١٤٣ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٠ م ، وانظر أيضاً : المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٧٠ ، ومعجم البلدان لياقوت ١ : ٣٨٢ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ ، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذانى ، ص ٧٥ ، ١١٦ ، ط بريل ١٨٨٥ م .

(٢) معجم البلدان ٣ : ٤٩٥ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م .

(٣) مختصر كتاب البلدان ، ص ١١٨ ، وانظر لسان العرب : فى كلمة « نطاة » .

لا ساكن به[١] وإن كان اليعقوبى يقول إن به قوماً من سليم [٢] . وقد جاءت الإشارة إلى وبائه فى بعض ما يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى مقدمه إلى المدينة ، إذ يقول : « اللهم حبب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى صاعها ومدها ، وانقل حماها إلى الجحفة » .

١٤٦ ـ الصينيات والصلاحيات (١٠٥ : ١٤)

فسر فان فلوتن الصينيات هنا بالمعنى المتبادر الذى نفهمه منها ، ونطلقها الآن عليه . وفسر الصلاحيات بأنها نوع منها ، وقد تكررت هذه العبارة مرة أخرى فى البخلاء فى سياق كهذا السياق. ويرى فان فلوتن أن حاجة أصحاب الصينيات لهذه الخرق إنما هى من أجل دعكها، كما هو واضح[٣] . واستعمال الصينيات بهذا المعنى ، فى ذلك الوقت ، صحيح ، فإننا نجدها، متعينة له فى الأغانى فى أخبار متيم الهاشمية ، فى حديث الهشامى إذ أرسلت إليه مع خادمها « صينية فيها نبق » [٤].

كما جاءت بصيغة الجمع (الصوانى) فى شعر مسلم بن الوليد ، كما يروى ابن المعتز :

ولا ترى ضاحكاً بشىء أحسن من ضحكة القنانى
إذا تبسمن عن مدام كأنه ماء زعفران
فيحسر الليل عن دجاه وتطلع الشمس فى الصوانى[٥]

١٤٧ ـ مسجد ابن رغبان (١٠٥ : ١٨)

أحد مساجد بغداد ، وقد ذكره الخطيب فى ذكر نواحى الجانب الغربى من بغداد ، وقال : إنه منسوب إلى عبد الرحمن بن رغبان، مولى حبيب بن مسلمة[٦] . وأما الجهشيارى فيسميه : حبيب بن عبد الله بن رغبان ، وذكر عنه أنه كاتب شاعر ، وأنه كان يتقلد ديوان العطاء لأبى جعفر المنصور[٧] . كما ذكره العلامة Lestrangs فى الفصل الذى كتبه عن حى باب البصرة[٨] .

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٦٢ ، ط السعادة ١٩٠٦ م . (٢) البلدان ، ص ٣١٤ (المجلد السابع من المكتبة الجغرافية)، طبريل ١٨٩٢م . (٣) البخلاء (طليدن) ص Notes et éclaircissements XV.

(٤) الأغانى ٧ : ٢٩٩ ط دار الكتب المصرية . وانظر معنى كلمة « صلاحية » عند دوزى ، إذ يقول انها صحن كبير واسع من أعلاه ضيق من أسفله (842 : 1) (٥) فصول التماثيل ، ص ٥٣ ، المطبعة العربية ، القاهرة ، ١٩٢٥م. (٦) تاريخ بغداد ١ : ٩١ . (٧) الوزراء والكتاب ص ١٠٢ . وجاء فى الحيوان (٢ : ١٥٦) « مسجد محمد بن رغبان » وأكبر الظن أن كلمة محمد هنا مقحمة. ولا سيما إذ كانت ساقطة فى بعض المخطوطات . (٨) Bagdad, p. 95.

وقد وصف ياقوت مسجد ابن رغبان بقوله : « وكان مشهوراً باجتماع أهل العلم والفضل فيه »[١] . .

ويظهر أن أهل البصرة كانوا يفضلون النزول بجوار ذلك المسجد . يستنتج هذا من ذلك النص الذى جاء فى البخلاء[٢] عن الثورى ، وهو : « . . . وأما زهده فى رءوس مسجد ابن رغبان فإن البصريين يختارون لحم الماعز الخصى على الضأن كله . ورءوس الضأن أشحم وألحم ، وأرخص رخصاً ، وأطيب . ورأس التيس أكثر لحماً من رأس الخصى » ، فهذا الاحتجاج لرغبته عن رءوس مسجد ابن رغبان برغبته عن رأس الماعز الخصى ، وأن البصريين يفضلون لحم الماعز الخصى ، يدل على أن ناحيه مسجد ابن رغبان كانت حى البصريين ، ومن أجل ذلك كانت ذبائح هذا الحى من الماعز الخصى[٣] .

١٤٨ – جعفر بن سعيد (١٠٥ : ١٩)

أحد الذين يحكى الجاحظ عنهم ، كما أنه أحد البخلاء أصحاب أبى عبد الرحمن الثورى . ويؤخذ مما ذكر الجاحظ عنه أنه كان رضيع أيوب بن جعفر ، كما كان حاجباً له ، وأنه كان متصلا بعمرو بن مسعدة وزير المأمون[٤] . وهكذا نرى مبلغ صلته ببيت الخلافة .

وقد حكى الجاحظ عنه حديثاً طويلا ، يطرى فيه الديك إطراء عجيباً ، ويوازن فيه بينه وبين الطاوس ، فى أسلوب يبين لنا مبلغ ما كان لهؤلاء القوم من براعة فى توليد المعانى[٥] . كما حكى عنه فى موضع آخر خبراً عن كسرى ، ساقه – كما يقول الجاحظ – على سبيل التمليح[٦] . ويظهر أن جعفر بن سعيد كان فكه الروح إلى حد ما . يدل على ذلك هذا الخبر الذى رواه عن كسرى ، كما يدل عليه ملاحظة طريفة أوردها له الجاحظ يقول فيها : إن « الخلاف موكل بكل شىء ، حتى القذاة فى الماء فى رأس

---

(١) معجم البلدان ٤ : ٢٦٥ .
(٢) البخلاء ص ١١١ .
(٣) انظر أيضاً ، من قبيل الاستئناس ، الحيوان ٢ : ١٥٦ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ١٠٠ – ١٠١ ط ١٩٣٢ م .(١ : ١٠٦ ط الحلبى) .
(٥) الحيوان ٢ : ٢٤٣ – ٢٤٧ .
(٦) الحيوان ٤ : ١٩٤ .

الكوز ، فإن أردت أن تشرب الماء جاءت إلى فيك ، وإن أردت أن تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت »[١].

ومن هذا القبيل أبيات له — رواها الجاحظ — يشكو فيها براغيث البصرة[٢].

١٤٩ — أبو يعقوب الأعور (١٠٥ : ٢٠)

هو أبو يعقوب ، إسحاق بن حسان بن قوهى الخريمى ، كما نسبه محمد بن داود بن الجراح وشارح القاموس . وروى الحصرى عن المبرد أنه قال : « كان يعقوب جيد الشعر مقبولاً عند الكتاب ، وله كلام قوى ومذهب متوسط . وكان يرجع إلى نسب كريم فى الصغد . وكان له ولاء فى غطفان . وكان اتصاله بمولاه أبى عثمان المرى الذى يقال له خريم الناعم . وكان أبو عثمان هذا قائداً جليلا وسيداً جليلا »[٣] وبنو خريم هؤلاء هم من آل سنان بن أبى حارثة ، كما يقول الجاحظ ، وقد أورد له بيتين فى مدحهم[٤] وقد لقبه الجاحظ هنا بالأعور ، كما كان يلقب بالأعمى . وقد ذكر عماه فى أبيات صادقة رواها الجاحظ[٥] . وقد عمى — كما يقول محمد بن داود الجراح — فى آخر عمره.

وقد نشأ الخريمى فى مجلس حماد الراوية وحماد عجرد . واتصل فى أول نشأته بهذه الجماعة من الشعراء التى كانت تضم مطيع بن إياس ويحيى بن زياد[٦] . ولعل هذه الصلة كان لها أثرها فى الوجهة الشعرية التى توجهها .

كما اتصل بعد ذلك بكثير من سادة عصره كالفضل وجعفر البرمكيين[٧] ، ولكن لعل أصدق صلاته كان بالحسن بن بحباح البلخى ، وهو كاتب الفضل بن يحيى ، وكان شاعراً أديباً كما يقول الجهشيارى[٨] ، ومما يدلنا على نوع هذه الصلة قصيدة

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٦٩ .
(٢) الحيوان ٥ : ٤٠٨ .
(٣) زهر الآداب ٤ : ٢٠١ . واسم مولاه عثمان بن عمارة بن خريم لا أبو عثمان ، فما هنا تحريف . انظر : الورقة ، ص ١٠٣ .
(٤) الحيوان ٣ : ٩٤ .
(٥) الحيوان ٣ : ١١٣ .
(٦) الأغانى ٦ : ٨٤ .
(٧) الوزراء والكتاب ص ٢٣٩ ط الحلبى .
(٨) الوزراء والكتاب ص ١٩٤ .

رواها الحصرى ، وكان قد بعثها إليه ، حين تقلد مصر فى أيام موسى الهادى[١] . فأما الصلة التى بقيت عالقةً به ، وهى صلته بعثمان بن خريم الناعم ، فيشير إليها ياقوت بقوله : « وكان صحب عثمان بن خريم القائد ، وكان يلى أرمينية ، فسار خاقان الخزر إلى حربه ، وعسكر ابن خريم إزاءه ، وعقد لأبى يعقوب على الصحابة وأشراف من معه ، فكرهوا ذلك » ، وفى هذه المناسبة قال الخريمى شعره الذى يفخر فيه بالصغد[٢] ، والذى نسب من أجله إلى الشعوبية . وقد ظل الخريمى وفياً لعثمان بن خريم ، وظل يذكر عهده ويتحسر عليه ، كما نرى فى تلك الأبيات المبتسة التى قالها فيه ، فى القصيدة التى قالها يعاتب بها الوليد بن أبان[٣].

وإلى جانب هذه الصداقات التى كان صداها يتردد فى شعره ، كان الخريمى يكابد بعض الخصومات ، فكان يخاصم أبا دلف ويهجوه ، وقد حكى الجاحظ طرفاً من هجائه له[٤] . كما كان يخاصم على بن الهيثم المعروف بجونقا ، وقد أغرى بهجائه — كما يقول ياقوت فى ترجمته له — وهجاؤه له ساخر سخرية لاذعة ، ونجد شيئاً منه فى البيان والتبيين ، والأغانى ، ومعجم الأدباء ، وكتاب الورقة[٥] .

وقد عاش الخريمى إلى أن شهد الفتنة التى كانت بين المأمون والأمين ، وتعرضت بغداد فيها لكثير من ضروب الاضطراب والفساد ، وله فى وصف ذلك قصيدة طويلة من أروع الشعر التصويرى[٦] وكذلك أورد الطبرى بيتين له فيما كان بين محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربرى ، من قواد الأمين ، وبين أصحاب طاهر بن الحسين ، ولعلهما من قصيدة ضاعت[٧] .

هذا وفى مختصر تاريخ ابن عساكر ترجمة له[٨].

---

(١) زهر الآداب ٤ : ٢٠٢ .
(٢) معجم البلدان ٥ : ٣٦٣ .
(٣) زهر الآداب ٤ : ٢٠٠ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٩٠ .
(٥) البيان ١ : ٧٣ ، الأغانى ١١ : ٣٤٤ ، معجم الأدباء ١٥ : ١٤٠ ، الورقة ، ص ١٠٥ .
(٦) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٨٦ — ١٨١ ، ط الحسينية المصرية . (٧ : ٥٢ — ٥٧ ط الاستقامة ١٩٣٩)
(٧) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٦٩ .
(٨) ٢ : ٤٣٤ .

١٥٠ ـ عبد الأعلى القاص (١٠٦ : ١٤)

أحد القصاص الذين كانوا يحترفون القصص فى عهد الجاحظ ، وقد وصفه بقوله : إنه « كان لغلبة السلامة عليه يتوهم عليه الغفلة »[١] ثم أورد بعد ذلك طرفاً من طرائفه

١٥١ ـ السلوقى (١٠٦ : ١٥)

الكلب السلوقى هو نوع خاص من الكلاب ، معروف بذلك الاسم من قبل هذا العهد بكثير . وقد ورد فى شعر القطامى ، إذ يقول :

معهم ضوار من سلوق كأنها حصن تجول تجرر الأرسانا

ويقول ياقوت إن سلوق هذه قرية بأرض اليمن ، ثم ينقل عن ابن الفقيه أنها مدينة اللان (وهى بأطراف أرمينية) . وفى كلامه عن « سلوقية » التى على الساحل عند أنطاكية يقول : « قلت أنا : ولعل السيوف السلوقية والكلاب السلوقية منسوبة إليها »[٢].

وذكر القزوينى فى كلامه عن الحيوانات المركبة ما يتولد بين الذئب والكلب ، ويقال له : الديسم ، ثم قال : « قيل إن الكلاب تسفدها الذئاب فى أرض سلوق باليمن ، فيتولد منها الكلاب السلوقية »[٣] .

وقد عرض الجاحظ للكلاب السلوقية حين أخذ فى الكلام عن أصناف الكلاب ، فقال : « والكلاب أصناف لا يحيط بها إلا من أطال الكلام ، وجملة ذلك أن ما كان منها للصيد فهى الضراء ، وواحدها ضروة ، وهى الجوارح والكواسب ، ونحن لا نعرفها إلا السلوقية ، وهى من أحرار الكلاب وعتاقها . . . وقد تصيد الكلاب غير السلوقية ، ولكنها تقصر عن السلوقية بعيداً »[٤].

وإذا كانت السلوقية عند الجاحظ هى خير كلاب الصيد ، فإننا نستطيع أن نعتبر فيها الصفات التى ذكرها فى الفصل الذى عقده ، فى « صفة ما يستدل به على

---

(١) الحيوان ١ : ١٠٧ ، وانظر طرفاً آخر من طرائفه فى ٥ : ٢٢٥ – ٢٢٦ .
(٢) معجم البلدان ٥ : ١١٥ .
(٣) عجائب المخلوقات (هامش حياة الحيوان للدميرى) ٢ : ٣٢٧ .
(٤) الحيوان ١ : ٣١١ – ٣١٢ .

فراهية الكلاب وشياتها »[١].

وقد جاء ذكر الكلاب السلوقية فى الحيوان ، فى موضع آخر ، فى سياق الحديث عن أعاجيب بعض الحيوان : « وزعم صاحب المنطق أن الكلاب السلوقية كلما دخلت فى السن كان أقوى لها على المعاظلة ، وهذا غريب جداً »[٢].

فإذا صح هذا النص كان ذلك خاصة فريدة من خواص الكلاب السلوقية . ولكن صاحب المنطق لم يقل شيئاً عن الكلاب السلوقية ، وإنما قال هذا أو قريباً منه عن كلاب لقونة Laconie فى بلاد البلوبونيز ونص عبارته كما جاء فى ترجمة سنتلير Siant-Hilaire : « ولكلاب لقونة صفة خاصة ، وهى أنها حين يرهقها التعب تكون أقوى على المعاظلة من تلك التى لم تعمل شيئاً »[٣]. فهناك إذن شىء من الخلاف ، ولكن الذى يعنينا هنا هو أن «لقونة » عند أرسطو صارت فى الحيوان الذى بين أيدينا « السلوقية » ، ولا ندرى أهو تحريف النساخ أم خطأ المترجمين .

١٥٢ ـ المزملة (١١٣ : ٤)

المزملة كمعظمة هى ـ كما جاء فى القاموس ـ التى يبرد فيها الماء . وقد جاء ذكرها فى مقامات الحريرى ، فى المقامة النجرانية ، وتعرض الشريشى لها ، فوصفها بقوله : « آنية يبرد فيها الماء شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق ، وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتغشى بجلد أو ثوب مزين حسن لنظر العين . . . وهم يجعلون تحتها مرفعاً من عود أو حديد ترتفع به عن الأرض »[٤].

وكذلك وصفها أبو الفتح المطرزى وصفاً يختلف فى بعض التفصيلات ، فقال : « المزملة عند البغداديين جرة أو خابية خضراء ، فى وسطها ثقب مركب فيه قصبة فضة أو رصاص يشرب منها ، سميت بذلك لأنها تزمل ، أى تلف بشىء من الخيش أو غيره ، ويجعل فيما بينه وبين خزفها التبن ، تكون فى دورهم أيام الصيف ، يبرد الماء

---

(١) الحيوان ٢ : ٤٥ ـ ٤٨ .

(٢) الحيوان ٣ : ٥٣٣ .

(٣) 2 : 360.

ويمكن أن يراجع عن الكلاب السلوقية عند علماء الحيوان اليوم ما عرض له من ذلك أحمد تيمور باشا فى كتابه « أبو العلاء المعرى » ص ٣٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.

(٤) شرح مقامات الحريرى ٢ : ٢٩١ .

ليلا بالبرادات ، ثم يصب فى هذه المزملة فيبقى بارداً »[١].

١٥٣ ـ عتاب بن أسيد (١١٤ : ١٢)

هو عتاب بن أبى العيص بن أمية . صحابى أموى ، أسلم يوم فتح مكة ، فاستعمله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على مكة ، وظل والياً عليها ، إلى خلافة أبى بكر ، فأقره « فماتا جميعاً لم يعلم واحد منهما بموت صاحبه » . وقد كان فى ولايته متحرجاً ، روى عنه أنه قال : « ما أصبت من عملى إلا ثوبين معقدين كسوتها غلامى كيسان »[٢].

١٥٤ ـ المحلول (١١٩ : ١٢)

يذكر هنا أنه مولى تمام بن جعفر ، وقد جاء ذكره فى الحيوان وفى البيان والتبيين[٣] بما لا طائل فيه . ولعله ـ كما قد يؤخذ من خبر البيان والتبيين ـ كان صيرفياً .

١٥٥ ـ الجواف (١٢٠ : ١٣)

نوع من السمك ، ذكره الجاحظ فى الحيوان فى عداد قواطع السمك ، كالاسبور والترستوج : « فإن هذه الأنواع تجئ دجلة البصرة من أقصى البحار ، تستعذب الماء فى ذلك الإبان ، كأنما تتحمض بحلاوة الماء وعذوبته ، بعد ملوحة البحر » . وهى تقبل مرتين فى السنة فى أشهر معروفة ، لكل صنف منها إبانه[٤].

١٥٦ ـ الخريبه والباطنة (١٢١ : ٨)

حيان من أحياء البصرة . أما الخريبة فكانت قبل تمصير البصرة مسلحة للأعاجم ، فكان سويد ابن قطبة (أو قطبة بن قتادة) يغير فى ناحيتها ، إلى أن فتحها خالد بن

---

(١) الإيضاح فى شرح مقامات الحريرى ، مخطوط فى مكتبة بلدية الإسكندرية ، برقم ٤٧٥ ج .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ، القسم الثانى من الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، ط الجامعة العبرية ، القدس .

(٣) البيان ٣ : ١٩٦–١٩٧ ط ١٣٣٢هـ (٤ : ٢٥ – ٢٦ ط لجنة التأليف)، الحيوان ١ : ٢٤٣.

(٤) الحيوان ٣ : ٢٩٥ ، ٤ : ١٠١ .

الوليد ، وأخلاها من الأعاجم الذين كانوا فيها ، ثم نزل المسلمون بعد ذلك موضع البصرة [١] . وهى جزء كبير من البصرة ، فقد ذكر البلاذرى أنها كانت تكون دسكرتين من السبع الدساكر التى كانت البصرة مؤلفة منها . وقال حمزة : إن موضع الخريبة كان مدينة عتيقة من مدن الفرس ، وكانت تسمى وهشتاباذأردشير فخربها المثنى بن حارثة الشيبانى بشن الغارات عليها ، فلما قدمت العرب البصرة سموها « الخريبة » [٢] .

وقد جاءت كلمة « الخريبة » فى نشرة فان فلوتن وما تابعها من الطبعات مصحفة إلى « الحربية » ، وهذا تصحيف قريب، ولكنه من أشد التصحيفات إيغالاً فى الخطأ . فالخريبة فى البصرة ، والحربية فى بغداد ، ولم تكن بغداد أسست بعد فى زمن هذه القصة التى حدثت لابن المقفع ، وقد قتل سنة ١٤٢ .

وأما الباطنة فلم يذكرها ياقوت ولا غيره من كتب البلدان التى وقعت لنا . ولكن جاء فى لسان العرب قوله : « والباطنة من البصرة والكوفة مجتمع الدور والأسواق فى قصبتها ، والضاحية ما تنحى عن المساكن وكان بارزاً » .

١٥٧ ـ المازح والمدبر (١٢٢ : ١٢)

موضعان قرب الرقة ، أنزل بهما معاوية ـ حين كان والياً على الشام والجزيرة من قبل عثمان ـ أخلاطاً من قيس وأسد، تنفيذاً للقاعدة التى وضعها عثمان ، على ما جاء فى معجم البلدان ، وهى أن ينزل العرب مواضع نائية عن المدن والقرى ، ويؤذن لهم فى اعتمار الأرضين التى لا حق لأحد فيها . والذى فى معجم البلدان « المازحين » لا « المازح » ولعل فى الأمر تحريفاً أو تخفيفاً [٣].

١٥٨ ـ الخشكنان (١٢٢ : ١٢)

اكتفى الجواليقى بأن قال : إن العرب قد تكلمت بها ، واستشهد لهذا ببيت من الرجز :

يا حبـذا الكعك بلحم مثرود وخشـكنان وسويق مقنـودا [٤]

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(٢) معجم البلدان ٣ : ٤٢٦ ، وانظر : Christensen, *Iran sous les Sassanides*, p. 91.

(٣) معجم البلدان ٧ : ٣٦٢ .

(٤) المعرب من الكلام الأعجمى ص ١٣٤ .

وكذلك صنع الخفاجى ، قال : إنه معروف ، تكلمت به العرب قديماً[١] ، والذى يؤخذ من السياق هنا أنه نوع من الكعك يحشى بالجوز والسكر . وكذلك يفسر دوزى الكلمة : « خشكنانج » فيقول : إنه نوع من الخبز المصنوع بالزبد والسكر والجوز والفستق ، ويكون على هيئة الهلال[٢].

١٥٩ ـ أبو القماقم (١٢٤ : ٨)

ذكره المبرد ، فقال إنه أبو القماقم بن بحر السقاء[٣] ، كما ذكره الحصرى كذلك بهذا الوصف [٤] ويظهر أن كنيته هذه جاءت من ناحية السقاية التى كان يمتهنها . والقماقم جمع قمقم ، وهو نوع من الجرار . كما رأينا — فيما سبق — فى السدرى أنه كان يكنى بأبى نبقة ، لأنه كان يمتهن طحن السدر وبيعه ، وهو ورق النبق .

والنوادر التى ذكرت عنه فى الكامل وجمع الجواهر هى من قبيل ما ذكر عنه هنا ، كأنه كان مشهوراً بهذا النوع . وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين نادرة أشبه بأن تكون لأبى القماقم هذا ، ولكن اسم صاحبها أبو القمقام [٥] ، فلعله هو .

١٦٠ ـ الابلة (١٢٥ : ٦)

مدينة قديمة من مدن الخليج الفارسى ، وكانت من المدن التى عنى بتحصينها كما ذكرنا مثل ذلك فى الخريبة . وهى تقع — كما يقول ياقوت — على شاطئ دجلة البصرة فى زاوية الخليج . ويخرج منها نهر — يسمى نهر الأبلة — يضرب إلى البصرة . ولعل هذا النهر هو الذى يقصده الجاحظ هنا بأنه كان يمد ويجزر . وقد كان هذا النهر من أجمل المنازه المشهورة ، حتى كان الأصمعى يقول : جنان الدنيا ثلاثة : غوطة دمشق ،

---

(١) شفاء الغليل ، ص ٧٦ .

(٢) Supplément aux Dictionnaires Arabes 1:373.

(٣) الكامل ٢ : ٢٢٩ .

(٤) جمع الجواهر ، ص ١٦٠ .

(٥) ٣ : ١٩٣ . (٤ : ١٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠) .

نهر بلخ ، ونهر الأبلة[١] . وقد كانت تحف به القصور والحدائق ، كما نرى صورة من ذلك فى شعر التنوخى [٢].

أما أهل الأبلة فقد صورهم الجاحظ هنا تصويراً طيباً ، فى بخلهم وتقديرهم المبالغ فيه للثروة .

١٦١ ـ أحمد بن الخاركى (١٢٥ : ١٨)

هو أحمد بن إسحاق ، ترجم له محمد بن داود بن الجراح ، فقال عنه : « بصرى شاعر كثير الشعر هاجى الفضل الرقاشى هجاء كثيراً » ، ثم أورد طائفة من مقطوعاته الشعرية ، بعضها فى الهجاء ، وبعضها فى صفة الخمر[٣] .

وهو منسوب إلى خارك : « جزيرة من جزر البحر الفارسى ، يقابلها فى البر جناية ، ومهروبان ، تنظر هذه من هذه للجيد النظر »[٤] ويقول النويرى إنها عامرة آهلة ، وبها مغاص للؤلؤ[٥].

وابن الخاركى هذا شاعر من شعراء عصر المأمون ، كما يقول ياقوت عنه ، وقد ذكره الجاحظ فى غير موضع[٦] ، وليس فيها إلا ما يدل على أنه كان رجلا تافهاً ضيق الأفق ، سريع التصديق ، ضعيف النظر .

١٦٢ ـ ابراهيم بن هانىء (١٢٦ : ١٦)

الأخبار التى لدينا عنه لا تكاد تؤدى إلينا إلا وجهاً واحداً من وجوه صورته ، ومهما يكن من أمر فيظهر أن هذا الوجه كان أبرز هذه الوجوه ، وهو أنه كان رجلا معروفاً بالمجون والعبث فى الحديث ، وقد وصفه الجاحظ بهذا فى سياق عبارة رواها عنه ، وقد ساقها مساق الهزل ، عن الصفات التى اقترنت فى أذهان الناس عن الزامرة والقاص والمغنى والحمار ، حتى كأنها أصبحت من تمام آلتهم ، فقال الجاحظ عنه : « وكان ماجناً

---

(١) انظر معجم البلدان فى : الابلة ، البصرة ، سندان ، نهر الاجانة ، وانظر فتوح البلدان ص ٣٥١ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ١١ : ٢٦٠ ، ط دار الكتب المصرية ، وانظر أيضاً فى صفة الابلة ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، ص ٤١٧ ط الظاهرة ، ١٩٠٨ م .

(٣) الورقة ، ص ٥٨ ـ ٦٠ ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٣٨٧ .

(٥) نهاية الأرب ١ :

(٦) الحيوان ٢ : ١٩٣ ، ٥ : ١٧٨ ، ٦ : ١٤٧ ط الحلبى .

خليعاً كثير العبث متمرداً »[١] كما روى عنه فى موضع آخر عبارة عقبها بقوله : « وهذا مما يعد فى مجون ابن هانئ »[٢] . وهكذا نرى مبلغ شهرته بهذه الناحية .

وقد حكى الجاحظ حديثاً طريفاً جرى بينه وبين أبى إسحاق النظام ، تظهر فيه هذه الناحية ، قال : « وكان إبراهيم لا يقيم شعراً . . . وكان يدعى بحضرة أبى اسحاق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون ، وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحاق : نحن لم نمتحنك فى هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا . كيف صرت تدعى قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ؟ قال : فإنى هكذا طبعت ! أن أقيمه إذا قلت ، وأكسره إذا أنشدت . قال أبو اسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام »[٣].

والذى يخيل إلينا أن إبراهيم بن هانئ كان كاتباً . وقد أورد له صاحب العقد فقرات فى وصف التفاح ، هى أشبه بأسلوب الكتاب[٤].

وهناك فى المحدثين من يسمى إبراهيم بن هانئ ، ولكنا نراه شخصاً آخر[٥].

١٦٣ ـ الدرياجة (١٢٩ : ١١)

هذه إحدى الكلمات التى لم تعن المعاجم بتدوينها . وقد شرحها السيد سليمان فيضى الموصلى نزيل البصرة ، فى كتاب كتبه إلى صديقه الدكتور داود الجلبى ، وقد نشر خلاصته ، وننقل هنا ما يتعلق بهذه الكلمة . قال : « استفادة من وجود المد والجزر فى البصرة يفصل صيادو السمك قسما صغيراً من الماء مما يلى الشاطئ بالقصب أو بجريد النخل ، على هيئة قوس طرفه الأسفل متصل باليابسة ، وطرفه الأعلى منفصل عنها بمقدار قليل ، ليمكن السمك من الدخول مع الماء أثناء المد . ويعبرون عن ركز القصب أو الجريد ، بهذه الصورة ، بالتسكير ، بمعنى السد ، ويسمون القسم المحصور بين السكر والشاطئ درياجة ، وهى البحيرة بالفارسية »[٦].

وهذا الشرح يتفق مع سياق الكلمة فى النص . أما تفسيره للشلابى بذلك النوع من

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٢ ط ١٣٣٢ هـ . (١ : ٩٣ – ٩٤ ، ط لجنة التأليف ، ١٩٤٨) .
(٢) الحيوان ٤ : ١٥٣ ط الحلبى .
(٣) الحيوان ٣ : ١١٠ .
(٤) العقد الفريد ٤ : ٢٩١ ط ١٣٣٢ هـ .
(٥) انظر تاريخ بغداد ٦ : ٢٠٤ ، لسان الميزان ١ : ١١٨ .
(٦) مجلة المجمع العلمى العربى ٢٠ : ٧ – ٨ (تموز وآب ١٩٤٥) ص ٣٥١ .

الشباك ، وافتراض كلمة « الرمان » محرفة عن « الأوهار » وهو نوع آخر من الشباك ، فلا حاجة إليه ، إذ كان السياق يرجح أن المراد بالشلاني والرمان نوعان من السمك ، وقد ذكرهما المقدسي في كتابه بين أنواع السمك الدجلية بالبصرة ، وهي — كما يقول — أربعة وعشرون ، غير أن الكلمة التي تناظر في نص المقدسي كلمة « الرمان » جاءت بهذه الصورة : « الرماين » ، فلعل إحداهما محرفة عن الأخرى[١].

١٦٤ — محمد بن الجهم (١٣٥ : ١٨)

هو محمد بن الجهم البرمكي . ولعل هذه النسبة جاءته من أنه كان قد تربى في ظلهم . وقد اتصل بالخليفة المأمون ، وكان يحضر مجالسه ، ويجادل الزنادقة في حضرته[٢]. وقد ولاه بعض الولايات .

وكان من المنصرفين إلى الثقافة اليونانية الممثلين لها . يقول عنه ابن قتيبة : « ثم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكي ، فنجد مصحفه كتب أرسطاطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق بها يقطع عمره » [٣] . والجاحظ يعده في الأطباء من فلاسفة المتكلمين ، كمعمر وإبراهيم بن السندي[٤] ويذكره صاعد الأندلسي فيمن اشتهر بعلم النجوم الطبيعي[٥] ، كما يشير الجاحظ إلى معرفته بالهندسة وكتاب اقليدس ، وقد روى عنه في هذا الموضع كثيراً مما يدل على نهمه في القراءة ، وحرصه على المعرفة[٦].

وقد كان متصلا — فيما يظهر — بأبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وقد كتب الكندي له بعض الرسائل[٧].

ثم هو بعد هذا معدود في البخلاء ، من صنف سهل بن هارون ، وكان كز العاطفة ، أناني المذهب . يصفه ثمامة بن الأشرس بقوله : « لم يطمع أحداً في ماله ، إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره . ولا شفع لصديق ، ولا تكلم في حاجة متحرم به ، إلا ليلقن

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٣١ ط بريل ١٠٦ .
(٢) الحيوان ٤ : ٤٤٢ ط الحلبي .
(٣) تأويل مختلف الحديث ، ص ٦٠ .
(٤) الحيوان ٢ : ١٤٠ .
(٥) طبقات الأمم ص ٦٩ .
(٦) الحيوان ١ : ٥٣ — ٥٤ .
(٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ٢١٢ .

المسؤول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان [١]» .

ويؤثر عنه فى الحرص والمغالاة فى المال أقوال كثيرة ، أورد بعضها ابن قتيبة فى عيون الأخبار [٢] والحصرى فى زهر الآداب [٣] ، والشريشى فى شرح مقامات الحريرى [٤] . وقال ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث : « وذكر رجل من أصحاب الكلام عنه أنه أوصى عند وفاته ، فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : الثلث والثلث كثير ، وأنا أقول : إن ثلث الثلث كثير . والمساكين حقوقهم فى بيت المال ، إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن قعدوا عنه قعود النساء حرموه ، فلا رحم الله من يرحمهم »[٥] وقد تكون هذه العبارة من تحامل ابن قتيبة عليه ، ولكنها — فيما أحسب — تشبهه .

١٦٥ — المعينون (١٣٧ : ٢)

يصف الجاحظ أبا سعيد المدائنى بأنه كان من كبار « المعينين » ومياسيرهم ، وأنه كانت له حلقة يقعد فيها أصحاب « العينة » . وقد جاءت كلمة « المعينين » مهملة ، كما جاءت كلمة « العينة » مصحفة ، على الوجه الذى بيناه فى النص ، فقرأها فان فلوتن « المغتنين » و « الغنية » ، على نبوهما واضطراب السياق وروح المعنى بهما . واقترحنا فى موضعهما ما أثبتناه فى النص ، مما يساير روح القصة مسايرة تامة .

والعينة تطلق على نوع من المعاملات المالية ، فهى تطلق إطلاقاً عاماً على الربا — كما فى اللسان — يقال : عين التاجر ، أخذ بالعينة أو أعطى بها ، كما تطلق على السلف ، يقال : تعين عينة وعينه إياها . وتطلق إطلاقاً أخص من هذا ، وهو — كما شرحه مجد الدين ابن الأثير — أن يبيع الرجل سلعة بثمن معلوم ، إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . فإن اشترى ، بحضره طالب العينة ، سلعة من آخر بثمن معلوم ، وقبضها ، ثم باعها المشترى من البائع الأول بالنقد ، بأقل من الثمن ، فهذه

---

(١) عيون الأخبار ٣ : ١٣٨ .
(٢) ٢ : ٤ ، ٣٤ و ٣ : ١٧١ .
(٣) ٣ : ٢٤٦ .
(٤) ٢ : ٣٢٤ .
(٥) ص ٦١ .
وانظر الفصول التى نشرناها من آثار الجاحظ فى مجلة الكاتب المصرى ، المجلد الخامس ، ص ٥٥ — ٦٢ (فبراير سنة ١٩٤٧) .

أيضاً عينة . وهى أهون من الأولى . وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة ، لأن العين هو المال الحاضر من النقد ، والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة ، تصل إليه معجلة[١].

وهذا النوع من المعاملات المالية كان معروفاً فى البصرة منذ القرن الأول . وقد ذكر الميدانى قول المهلب بن أبى صفرة : « إياك والعينة ، فإنها لعينة ، » ثم حكى عن المهلب أنه قال : « ولقد تعينت مرة أربعين درهماً ، فلم أتخلص منها إلا بولاية البصرة »[٢].

وأما المعينون « فهم الذين اتخذوا "العينة" حرفة لهم ، كأبى سعيد المدائنى هذا . وقد جاء فى اللسان : « وعين التاجر أخذ بالعينة أو أعطى بها » .

١٦٦ – ثوب بن شحمة العنبرى (١٣٧ : ٨)

شخصية جاهلية ، عاصر حاتماً الطائى ، ويذكر الجاحظ فى موضع آخر أنه أسره ، وظل عنده زماناً ، ويصفه فى هذا الموضع بقوله : « وكان ثوب هذا أكرم نفساً عندهم من أن يطعم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جوعاً »[٣] ، ويذكر فى موضع غير هذا أنه كان يلقب بمجير الطير[٤] . ويفسر الثعالبى هذا بقوله : إنه كان « سيداً شريفاً قد أجار الطير فكان لا يثار ، ولا يصاد بأرضه ، فسمى مجير الطير »[٥].

١٦٧ – رافع بن هريم (١٣٧ : ١٤)

شاعر جاهلى قديم ، لا نكاد نعرف عنه إلا ما ذكره عنه أبو عبيد البكرى ، إذ يقول : « هو رافع بن هريم بن سعد ، يربوعى ، شاعر قديم . قال أبو زيد فى نوادره :

---

(١) النهاية فى غريب الحديث ، ٣ : ١٦٤ ، ط الخيرية .

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ، ١ : ٩٢ ، ط ١٣٥٢ هـ .

(٣) البخلاء ص ٢٣٦ وانظر الحيوان ١ : ٢٦٩ ، ٣٨٣ .

(٤) البخلاء ص ٢٣٠ .

(٥) ثمار القلوب ص ٣٥٥ ، وقد جاء الاسم مصحفاً فيه إلى « ثور » . وانظر قاموس الفيروزبادى مادة « ث و ب » .

أدرك الإسلام »[١] كما لا نعرف من شعره إلا هذه الأبيات التى رواها له أبو على :

وصاحب السوء كالداء الغميض إذا ... يرفض فى الجوف يجرى هاهنا وهنا
يبدى ويظهر من عورات صاحبه ... وما رأى من فعال صالح دفنا
كمهر سوء إذا سكنت سيرته ... رام الجماح ، وإن رفعته سكنا
إن عاش ذاك فأبعد عنك منزله ... أو مات ذاك فلا تقرب له جننا[٢]

١٦٨ ـ اشكنج (١٤٣ : ٤)

الإشكنج هو ـ كما يشير السياق ـ قطع الطوب والآجر المكسر . وقد كتب إلى أحد أفاضل العراقيين من أهل بغداد أن الكلمة لا تزال مستعملة بهذا المعنى هنالك ، وأن لفظها هو بالكاف الفارسية إشنكنك .

١٦٩ ـ الكلاء (١٤٥ : ٨)

تطلق كلمة « الكلاء » أولا على مرفأ السفن ، ثم أصبحت تطلق على أحد مواضع البصرة القريبة من البحر ، والتى كان موقعها هذا يتيح لها أن تكون سوقًا بحريًا . وقد ذكرها ياقوت بقوله : « اسم محلة مشهورة وسوق بالبصرة أيضًا »[٣] . كما جاء ذكرها فى حديث أنس ، وذكر البصرة : « إياك وسباخها وكلاءها »[٤] . وجاءت أيضًا فى قصيدة مسلم بن الوليد التى قالها فى البصرة ، وذكر فيها طائفة من محلاتها ومواضعها كالخريبة والعتيك والمربد . قال :

ضللت فى فرضه الكلاء مكتئباً ... أبكى عليها بعين دمعها سرب[٥]

وعندنا أنها هى المقصودة فى هذا البيت الذى يورده صاحب اللسان فى مادة « بدا » :

بحضرى شاقه بداؤه ... لم تلهه السوق ولا كلاؤه[٦]

---

(١) اللآلى ص ٨٠٠ .
(٢) الأمالى ٢ : ١٨٢ .
(٣) معجم البلدان ٧ : ٢٦٨ ط السعادة ، ١٩٠٦ .
(٤) النهاية فى غريب الحديث ٤ : ٣٢ ط الخيرية ، ١٣٢٢ .
(٥) ديوان مسلم بن الوليد ص ١٧٧ ط بريل ١٨٧٥ .
(٦) لسان العرب ١٨ : ٧٢ ، وينبغى أن تضبط « كلاؤه » بتشديد اللام .

١٧٠ ـ الأنفاق وزيت الماء (١٤٧ : ٣)

نوعان من الزيت . فأما الأنفاق فقد ذكره ابن البيطار ، فقال : إنه « الزيت المعتصر من الزيتون الفج الذى لم يكمل نضجه »[١] ثم أعاد ذكره فى موضع آخر ، بذكر خصائصه [٢] . وقد ذكر الأب أنستاس الكرملى أن كلمة « أنفاق » تنظر إلى الكلمة اليونانية : Ομφάχιον [٣] .

وقد عرض له صاحب اللسان فى مادة (ف و ق) فقال : « والفاق البان ، وقيل الزيت المطبوخ . قال الشماخ يصف شعر امرأة :

قامت تريك أثيث البنت منسدلا مثل الأساود قد مسحن بالفاق

قال بعضهم : أراد الأنفاق ، وهو الغض من الزيت » .

وأما زيت الماء فلم أجد فيه نصاً صريحاً ، ولعل المراد به ما دخل الماء فى صناعته ، أو ما خلط بالماء . وقد روى ابن قتيبة عن عمر بن الخطاب قوله : « عليكم بالزيت ، فإن خفتم ضرره فأثخنوه بالماء ، فإنه يصير كالسمن »[٤].

١٧١ ـ أسد بن عبد الله (١٤٧ : ٧)

هو أخو خالد بن عبد الله القسرى ، الذى سبق الكلام عليه . وقد ولى خراسان فى عهد ولاية أخيه على العراق ، أيام هشام بن عبد الملك . واستطاع أثناء هذه الولاية أن يخمد ثورات قام الترك بها[٥] ، ولكن أبرز ما حدث فى عهده هو ابتداء الدعوة العباسية ، وكان شديداً على الدعاة ، قاسياً فى الأخذ على أيديهم ، حتى ليمكن القول أن الدعوة لم تظفر بالعمل المطلق إلا بعد موته سنة ١٢٠ ، وكان موته فى بلخ .

١٧٢ ـ خالد بن صفوان (١٤٧ : ١٦)

خطيب من الطراز الأول ، من خطباء العصر الأموى ، وعاش إلى أن أدرك أبا

---

(١) مفردات ابن البيطار ١ : ٦٦ .

(٢) ١ : ١٧٥ .

(٣) كتاب نشوء اللغة ، ص ٤٨ . وانظر اللسان فى مادة « فوق » ، ١٢ : ١٩٧ .

(٤) عيون الأخبار ٣ : ٢٩٩ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى . ص ٤١٧ .

أبا العباس السفاح ، ومات فى عهده .

وهو من أسرة تميمية بصرية ، من بنى منقر[١] ، عرفت بالخطابة وبرزت فيها . فكان جده عبد الله بن الأهتم خطيباً ، وكذلك أبوه صفوان بن عبد الله . وقد عد الجاحظ من هذه الأسرة أكثر من عشر شخصيات كان لهم فى الخطابة مكان ملحوظ[٢] منهم شبيب بن شيبة ، صديق خالد وزميله فى المحافل . والجاحظ يجمع بينهما فيقول : « وما علمت أنه كان فى الخطباء أحد أجود خطباً من خالد ابن صفوان وشبيب بن شيبة ، للذى يحفظ الناس ، ويدور على ألسنتهم ، من كلامهما . وما علمنا أن أحداً ولد لهما حرفاً واحداً »[٣].

والجاحظ يظهر إعجابه بخالد بن صفوان فى مناسبات كثيرة ، وهو يصفه بأنه من الخطباء المشهورين فى العوام والمقدمين عند الخواص ، ويورد له كلاماً عرض فيه بأهل اليمن فى مجلس أمير المؤمنين أبى العباس ، ثم عقب عليه بقوله : « فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام ، إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان هذا شيئاً حضره حين حرك وبسط ، فما له نظير فى الدنيا . فتأمل هذا الكلام ، فإنك ستجده مليحاً مقبولا ، وعظيم القدر جليلا ، ولو خطب اليمانى بلسان سحبان بن وائل حولا كريتا ، ثم صلك بهذه الفقرة ما قامت له قائمة»[٤] .

ومهما يكن من أمر فالذى يبدو لنا أن خالد بن صفوان يمثل الخطابة حين صارت صناعة تلتمس لها الأسباب ، وكان أعظم أسبابها فى ذلك الوقت الرواية والدراسة ، وكان خالد ممن يتدارسون الأخبار والآثار والأشعار[٥] ، كما كان يأخذ نفسه بالرواية ، فكان يروى خطب الخطباء المشهورين قبله ، ومن هؤلاء الذين كان يروى خطبهم جده عبد الله بن الأهتم[٦]. ويدل على ذلك عنده ما يتحدث به هو عن نفسه ، فى عقب خطبة من خطب الصلح ، تكلم بها أعرابى « فى بت » ، فأجاد فيها ، فقال لرجل من منقر أنكر أن يبذ هذا الأعرابى خالداً : « كيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم ، وكيف

---

(١) انظر ما كان يقال فى أصل آل الأهتم أنه من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت فى منقر من الروم (الكامل للمبرد ٣ : ١٩٩) .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٣) ١ : ٢٥٣ .

(٤) ١ : ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٥) ١ : ١٥١ .

(٦) ٢ : ٩٥ .

نسابقهم ، وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم »[١] وبذلك كان خالد يلحن على بلاغته . وقد عده الجاحظ فى اللحانين البلغاء[٢] .

وللمدائنى كتاب يذكر فى فهرست كتبه اسمه « كتاب خالد بن صفوان »[٣] لعله جمع فيه أخباره وآثاره . وكذلك لأبى أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودى[٤].

١٧٣ – زياد بن جرير (١٤٩ : ٣)

جاء فى نشرة « فان فلوتن » زياد بن جديد ، تصحيحاً لما فى الأصل : « جدين » ، ولا نعرف أحداً بهذا الاسم ، وإنما هو زياد بن جرير بن عبد الله البجلى . وقد ذكره الطبرى بأنه كان أعور[٥] ، ولعل هذا هو أصل الإشارة فى كلام المغيرة الثقفى ، كما ذكره فى حوادث سنة ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ : أنه كان على حرب الكوفة من قبل الحجاج ابن يوسف .

١٧٤ – زياد بن عبيد الله الحارثى (١٤٩ : ٧)

هو زياد بن عبيد الله بن عبد الله المدان الحارثى ، كما نسبه الطبرى ، وهو خال الخليفة أبى العباس السفاح ، إذ كانت أمه ريطة بنت عبيد الله الحارثى .

وقد ولاه أبو العباس على المدينة ومكة والطائف واليمامة ، عقب موت داود بن على أميرها ، كما ولى ابن عمه محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثى على اليمن . وبذلك اجتمعت جزيرة العرب لأخوال الخليفة من الحارثيين .

وقد بدأ زياد عمله بأن أرسل أبا حماد الأبرص إلى اليمامة ، لقتال المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان بها هو وأصحابه ، فقتل وقتلوا . وبذلك استطاع أن يشارك مشاركة ما فى تصفية الجو للدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها .

وقد بقى زياد فى هذه الولاية من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٤١ ، فعزل عنها ، وقد عزله

---

(١) ١ : ١٥٤ .
(٢) ٢ : ١٧٤ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٥١ .
(٤) ص ١٦٧ .
(٥) تاريخ الأمم والملوك ٢ : ١١٣٧ ط أوربا .

أبو جعفر المنصور بسبب من فتنة محمد وإبراهيم ابنى عبيد الله بن حسن[١].

١٧٥ ـ أشعب (١٤٩ : ٨)

هو أبو العلاء ، أشعب بن جبير ، مدنى من أصحاب النوادر . أدرك عثمان ، ويقال إنه كان مولاه . ويروى الهيثم بن عدى عنه أنه قال : « كنت ألتقط السهام فى دار عثمان إذ حصر . قال : فلما جرد مماليكه السيوف ليقاتلوا ، فقال عثمان من أغمد سيفه فهو حر ، قال أشعب : فما هو والله إلا أن وقعت فى أذنى فكنت أول من أغمد سيفه ، فأعتقت » .

وقد أجمل أبو عبيد وصفه فى قوله : « وكان أشعب أزرق أحول أكشف أقرع ألثغ ، وكان لا يبين الراء ولا اللام ، يجعلهما ياء . وكانت فيه خلال حميدة : كان حسن الصوت بالقرآن ، وربما صلى بهم ، وكان أطيب أهل زمانه عشرة ، وأكثرهم نادرة . وأحسن الناس أداء لغناء سمعه . وأقوم أهل دهره بحجج المعتزلة ، وكان امرأ منهم »[٢].

وقد كان سراة المدينة يستطيبونه لنوادره وحسن غنائه ، كمصعب بن الزبير ، وعبد الله ابن مصعب .

ووفد فى آخر حياته إلى بغداد ، روى الخطيب عن الأصمعى أنه قال : « حدثنى جعفر بن سليمان ، قال : قدم أشعب أيام أبى جعفر بغداد . فأطاف به فتيان بنى هاشم ، فغناهم فإذا ألحانه طرية ، وحلقه على حاله . وقال : أخذت الغناء عن معبد ، وكنت آخذ عنه اللحن ، فإذا سئل عنه قال : عليكم بأشعب فإنه أحسن تأدية له منى »[٣].

وذكر أبو عبيد أنه بقى فى بغداد إلى أيام المهدى ، وأن الفضل بن الربيع قال : « كان أشعب عند أبى سنة أربع وخمسين ومائة ، ثم خرج إلى المدينة فلم يلبث أن جاء نعيه . »

---

(١) راجع الطبرى فى حوادث سنة ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٤٤ .

(٢) الآلى ص ٩٥٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٦ : ٣٧ .

وهو كما قلنا صاحب نوادر ، وقد عرف بأشعب الطامع ، لأنه — فيما يظهر — كان يفتن فى نوادر الطمع ، وقد أورد الخطيب فى ترجمته له طائفة كبيرة من نوادره ، كما نجد ذلك فى العقد لابن عبدربه ، وثمار القلوب للثعالبى ، وجمع الجواهر للحصرى ، والأمالى لأبى على[١].

وقد ترجم له أيضاً صاحب الأغانى ، وصاحب لسان الميزان[٢].

١٧٦ — صعصعة بن صوحان (١٥٠ : ١)

خطيب من الخطباء الذين يشيد الجاحظ بهم ، وهو ممن نشأ فى صدر الإسلام ، واختص بأمير المؤمنين على بن أبى طالب . وهو من عبد القيس ، من أسرة معروفة بالخطابة ، منهم زيد بن صوحان ، وشيخان بن صوحان . ويظهر من كلام الجاحظ أنه من عمان[٣] . وكان على يكبره ويقول له : « والله ما علمتك إلا كثير المعونة قليل المؤونة ، فجزاك الله خيراً »[٤] . وكان أكبر غنائه عند على — فيما يبدو — فى الرد على الخوارج ، ومغالبتهم فى الخطابة[٥].

١٧٧ — حويطب بن عبد العزى (١٥٠ : ١٠)

هو حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس ، من عامر بن لؤى . وكان من سراة قريش ورءوسهم وسفرائهم إلى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الهجرة[٦] وقد أسلم عام الفتح ، ويعتبره المؤرخون من المؤلفة قلوبهم . مات فى آخر خلافة معاوية وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وقد ترجم له صاحب أسد الغابة[٧].

---

(١) العقد ٣ : ٤٤٢ ط ١٢٩٧ هو وثمار القلوب ص ١١٨ ، ٣٠٢ وجمع الجواهر ص ٥٤ — ٥٦ و ١٦٦ والأمالى ٣ : ١٨٩ ، ٢١٦ .

(٢) الأغانى ١٧ : ٨٣ ط بولاق ، لسان الميزان ١ : ٤٥٠ — ٤٥٤ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٩٤ ط ١٩٣٢ م .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٢٧٨ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٧ ط ١٣٣٢ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، حوادث السنة السادسة .

(٧) ١ : ٧٥ .

١٧٨ ـ بلال بن أبى بردة (١٥٠ : ١٦)

هو بلال بن عامر بن أبى موسى الأشعرى ، أحد الأمراء القضاة الذين ولوا إمارة البصرة وقضاءها منذ سنة ١٠٩ إلى سنة ١٢٥ ، وليها فى عهد خالد بن عبد الله القسرى . وقد حكى أبو العباس المبرد أنه « كان يقال إن أول من أظهر الجور من القضاة فى الحكم بلال بن أبى بردة . . . وكان بلال يقول : إن الرجلين ليتقدمان إلى ، فأجد أحدهما على قلبى أخف ، فأقضى له »[١]. وقد أثارت ولايته طائفة من الخصومات يتردد صداها فى كتب الأدب .

ويصفه المبرد بأنه كان داهية لقناً أديباً ، وأنه كان ذا نظر فى الشعر ومعرفة به[٢] وكانت داره فى البصرة تنتجعها الشعراء والرواة ، كذى الرمة وحماد الراوية .

وقد ظل على إمارة البصرة إلى أن قدم العراق يوسف بن عمر الثقفى ، فعزله عن الإمارة ، وأودعه السجن ، ونكل به ، حتى مات فى حبسه .

١٧٩ ـ عمر بن يزيد الأسدى (١٥١ : ٤)

هذا الخبر الذى يذكره الجاحظ هنا ، يورده أبو الفرج فى الفصل الذى كتبه عن الحكم بن عبدل منسوباً إلى عمر بن يزيد الأسدى هذا ، ومن هذا الخبر نعلم أنه كان على شرطة الحجاج[٣].

وقد تعرض لهجاء الحكم بن عبدل بسبب بخله[٤] . ويظهر من هذا أنه كان من أهل الكوفة .

١٨٠ ـ عبد الرحمن بن أبى بكرة (١٥٢ : ١٦)

هو عبد الرحمن بن نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفى ، وهو تابعى ، بصرى ، وقد ولاه زياد بن أبيه بعض أعمال البصرة . ولم يدرك القرن الثانى .

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٤٦ .
(٢) ٢ : ٤٧ .
(٣) الأغانى ٢ : ٤٢٣ .
(٤) الأغانى ٢ : ٤١٤ .

١٨١ ـ أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفى (١٥٤ : ١)

سرى من سراة البصرة ، ومن أعرق أسرها ، وقد ورد اسمه فى أخبار أبى نواس ، فى عدة أبناء عبد الوهاب الثقفى ، من بانه بنت أبى العاص[١] ، وهو أخو عبد المجيد الثقفى ، صاحب ابن مناذر الشاعر الذى رثاه بعد موته بقوله :

إن عبد المجيـــد يوم تولى هد ركنا ما كان بالمهدود[٢]

وأبوه عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وقد وصفه النظام ، فيما حكى عنه الجاحظ بأنه أحلى من أمن بعد خوف ، ومن خصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر . ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب[٣] . وذكره ابن قتيبه فى أصحاب الحديث ، وقال إنه ولد سنة ١٠٨ ، وتوفى بالبصرة سنة ١٩٤[٤].

ويرجع نسبه إلى الحكم بن أبى العاص الثقفى ، من أوائل من نزل البصرة وأقام بها ، فى ولاية عبيد الله بن عامر ، من قبل عثمان بن عفان . وقد أقام بها هو وإخوته : عثمان وحفص وأمية والمغيرة . وإلى أخيه عثمان ينسب شط عثمان بالبصرة[٥].

١٨٢ ـ كعب بن مامه (١٥٨ : ١)

يشير الجاحظ فى هذا الموضع إلى قصة ذكرها فى موضع آخر ، ونقلها عنه الثعالبى ، قال : « قال الجاحظ : العامة تحكم بأن حاتماً الطائى أجود العرب ، ولو قدمته على هرم فى الجود لما اعترض عليهم . ولكن الذى يحدث به عن حاتم لا يبلغ مقدار ما رووه عن كعب ، لأن كعباً بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود فى المال ، فساوى حاتماً من هذا الوجه ، وباينه ببذل المهجة . ومن حديثه : أنه خرج فى ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط فى شهر ناجر ، فضلوا وعطشوا ، فتصافنوا ماءهم ـ والتصافن

---

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور ، ص ١٨٤ .
(٢) الأغانى ١٧ : ١٤ ، ط التقدم .
(٣) زهر الآداب (هامش العقد الفريد) ٢ : ١٠٠ .
(٤) المعارف ، ص ٢٥٧ .
(٥) معجم البلدان ٢ : ٢٠٠ .

أن تطرح حصاة فى القعب – والتفت كعب ، فأبصر النمرى يحدق النظر إليه ، فآثره بمائه ، وقال للساقى : اسق أخاك النمرى . فشرب النمرى نصيب كعب فى ذلك اليوم . ثم نزل المنزل الآخر ، فتصافنوا بقية مائهم ، ونظر النمرى إلى كعب كنظر أمسه ، فقال كقول أمسه . وارتحل القوم ، وقالوا : ارتحل يا كعب ، فلم يكن به قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له : رد يا كعب ! إنك وراد ! فعجز عن الجواب ، ثم فاضت نفسه النفيسة »[١].

وجاءت هذه القصة أيضاً فى المحاسن والأضداد[٢] ، بعبارة أوجز . كما أورد الثعالبي فى ثمار القلوب طرفاً من أخبار جوده .

١٨٣ – جد بن قيس (١٦٢ : ١٨)

هو جد بن قيس بن صخر ، من كعب بن سلمة ، وقد كان سيد بنى سلمة . صحابى أنصارى ، ويقال إنه كان منافقاً ، كما يقال إنه تخلف يوم الحديبية عن البيعة . وقد ذكر قتادة أن قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئاً . عسى الله أن يتوب عليهم » نزلت فى نفر ممن تخلف فى تبوك ، منهم الجد بن قيس . وقد عاش إلى إلى خلافة عثمان[٣].

وقد ذكر الخطيب البغدادى هذا الحديث المروى هنا بطرقه المختلفة ، ثم قال عن محمد بن مسعر : « لما حدثت ابن عيينة بحديث جد بن قيس أنشدنا لحسان بن ثابت :

وسال رسول الله ، والحق لازم ... لمن سال منا : من تسمون سيدا ؟
فقلت له : جد بن قيس ، على الذى ... نبخله فينا ، وقد نال سـودا
فقال : وأى الداء أدوى من الذى ... رميتم بها جداً وأغلى بها يدا

إلى آخر الأبيات ، وباقيها فى بشر بن البراء[٤].

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٩٨ – ٩٩ .
(٢) ص ٥٤ .
(٣) أسد الغابة ١ : ٢٧٤ ، الإصابة فى تمييز الصحابة ١ : ٢٢٨ .
(٤) كتاب البخلاء للخطيب ، ورقة ٨ مخطوطة المتحف البريطانى .

١٨٤ – قيس بن عاصم (١٦٣ : ٨)

أبو على ، قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر . قدم فى وفد تميم بعد الفتح فأسلم ، ووصفه النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بأنه سيد أهل الوبر[١] . وكان فارساً شاعراً معروفاً بالحلم ، مشهوراً بالركانة . وقد أورد له أبو تمام قطعة من الشعر ، يتحدث فيها عن خلقه ، ويفخر بنبل قومه[٢] .

١٨٥ – النمر بن تولب (١٦٣ : ١١)

شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام وعاش إلى أيام عمر ، فيما يبدو ، وقد بلغ سناً عالية . ويقال إنه هاجر إلى البصرة ودخل المربد . وهو يمثل الشعراء المترفين الذين لم يصطنعوا الشعر لمدح أو هجاء ، كما يعد أيضاً من الشعراء المقلين . ولكنه مع إقلاله كان – كما يقول حماد الرواية عنه – كثير البيت السائر والبيت المتمثل به . كما كان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره وحسنه ، وكذلك كان يشبه شعره بشعر حاتم الطائى . وكانا يشتركان فى الجود وإتلاف الأموال وأريحية الطبع والتغنى بذلك فى الشعر .

وجزء كبير من شعره جاء فى زوجته جمرة بنت نوفل الأسدية . وكانت سبية سباها أخوه الحارث بن تولب فى غارة له على بنى أسد ، ثم وهبها له ، ففركته ، فحبسها حتى استقرت ، وولدت له أولادها ، ولكنها كانت ما تزال تحن إلى أهلها ، وما زالت به حتى أزارها قومها ، بعد أن واثقها . ولكنها مضت فلم تعد إليه ، فقال فيها أشعاراً كثيرة أورد الأصبهانى طرفاً منها[٣] .

وأما سائر شعره غير ما جاء فى ترجمته فى الأغانى وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة ، فمفرق فى كتب الأدب . وقد عنى الجاحظ برواية طرف منه[٤].

وقد نقل صاحب الإصابة عن ابن حزم أنه فرق فى الجمهرة بين النمر بن تولب

---

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص ٩٧ ، الإصابة .

(٢) ديوان الحماسة ٢ : ٢٥٠ .

(٣) الأغانى ١٩ : ١٥٧ – ١٦٢ ط التقدم .

(٤) انظر مثلا : البيان والتبيين ١ : ٢٦ ، ١٦٢ ، ٢٣٢ ، ٣١٠ ، الحيوان ١ : ٨ ، ٣ : ٣٧ ، ٤٣ وانظر أيضاً الكامل للمبرد ١ : ١٤٩ .

العكلى ، فساق نسبه وأثبت صحبته . وبين النمر بن تولب الشاعر ، فنسبه فى النمر بن قاسط ، وقال إنه الذى عاش حتى خرف .

١٨٦ – تميم بن مقبل (١٦٥ : ٤)

هو تميم بن أبى بن مقبل ، من بنى العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعه بن عامر بن صعصعة[١] . من الشعراء المخضرمين ، أدرك النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يره . وقد عاش إلى أيام عمر بن الخطاب ، ووقع بينه وبين النجاشى الشاعر شر ، فهجاه النجاشى بقطعة موجعة يقول فيها :

إذا الله جازى أهـــل لؤم ودقة ... فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيـــلة لا يغـــدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبـــة خردل

فاستعدى عمر بن الخطاب عليه ، فحاكمه إلى حسان بن ثابت ، وحبسه .

ولم يصل إلينا من شعره إلا القليل مفرقاً[٢]. ومن هذا الشعر نعرف أنه شاعر بدوى الديباجة والصور . وقد ذكره ابن النديم فى الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكرى أخبارهم ، ثم ذكر أن ممن عمل شعره أيضاً أبا عمرو والأصمعى والطوسى وابن السكيت[٣] .

١٨٧ – أبو ذر الغفارى (١٦٥ : ٦)

هو جندب بن جنادة بن عبيد الغفارى ، صحابى من أوائل من أسلم ، وفى حلية الأولياء قصة تنسب إليه ، تحكى أوليته ، وملابسات إسلامه[٤] . وكانت له – فيما يبدو – نزعة تميل به إلى الزهد، وقد هاجر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشام . وكان يقدم إلى الحجاز حاجاً ، فكان ينكر على عثمان ، وكذلك كان أمره فى الشام .

---

(١) انظر فى تحقيق اسمه (تميم بن مقبل ، تميم بن أبى مقبل ، تميم بن أبى بن مقبل) معجم البلدان ٢ : ٩١ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٢١٤ ، ط السلفية ، الإصابة ص ٨٥٨ .

(٢) انظر مثلا : الأمالى لأبى على ١ : ١٥ ، ٢٢٩ واللآلى ص ٦٦ – ٦٧ ومعجم البلدان ٢ : ٩١ ، ٦ : ٩٢ ، ٨ : ٢٣ الخ . جمهرة أشعار العرب ص ١٦٠ – ١٦٣ ط بولاق .

(٣) الفهرست ص ٢٢٤ . وانظر أيضاً فى ترجمته الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفيها طائفة من شعره (١ : ٤٢٤ – ٤٢٨ ط دار إحياء الكتب العربية) .

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ١ : ١٥٧ – ١٥٨ ط السعادة .

كان ينكر على معاوية ، ويقول : « والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ما هى فى كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إنى لأرى حقاً يطفأ . وباطلا يحيا ، وصادقاً يكذب ، وأثرة بغير تقى ، وصالحاً مستأثراً عليه » . فخشى معاوية أن يفسد عليه الشام ، فكتب بأمره إلى عثمان ، فبعث عثمان أن يحمله إليه . فلما كان عنده سيره إلى الربذة . فأتاها وبقى بها إلى أن مات فيها[١].

وفى نهج البلاغة المنسوب إلى على بن أبى طالب كلام قيل إن عليا وجهه إلى أبى ذر وهو خارج إلى الربذة[٢] ، ويشبه أن يكون صحيحاً . وقد حكى البلاذرى أن علياً شيع أبا ذر ، فأراد عثمان ومروان أن يمنعاه ، حتى جرى بينهما وبين على كلام ، تغالظ الفريقان فيه .

وقد كان أمر أبى ذر من الأمور التى أنكرت على عثمان ، وكانت تتردد فى الثورة عليه .

١٨٨ – عبيد الله بن عكراش (١٦٧ : ٨)

تميمى من أهل البصرة ، فى القرن الأول . وأبوه هو عكراش بن ذؤيب ، صحابى كان رسول قومه ، بنى نزال بن مرة ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصدقات أموالهم . وكان ممن شهد الجمل مع عائشة[٣].

أما عبيد الله ابنه فيذكره ابن قتيبة فى ترجمة أبيه ، ويذكر عنه أنه هو الذى يقول فيه أبو النضر مولى عبد الأعلى :

قل لسوار إذا ما جئته وابن عـلاثة
زاد فى الصبح عبيد الـ ـله أوتاداً ثلاثة

وقد روى له هذه الفقرة ، كما روى له فى موضع آخر هذين البيتين :

وإنى لأرثى للكريم إذا غدا على طمع عند اللئيم يطالبه
وأرثى له فى مجلس عند بابه كمرثيتى للطرف والعلج راكبه[٤]

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ٥٢ – ٥٦ ط الجامعة العبرية ، بيت المقدس .
(٢) نهج البلاغة ١ : ٢٦٦ ط العمومية ١٣٢١ هـ .
(٣) المعارف ص ١٠٥ ط الشرفية ، ١٣٠٠ هـ .
(٤) عيون الأخبار ١ : ٨٩ .

١٨٩ ـ ابن التوام (١٦٩ : ١)

ورد اسمه فى البيان والتبيين فى غير مرضع [١] ، كما ورد فى عيون الأخبار [٢] ، وذلك فى رواية بعض العبارات عنه . ثم لم نعثر بعد ذلك بشىء من أخباره ، يجلى بعض الشىء عنه .

والذى ينبغى أن نقرره هنا أن قطعة من رسالة ابن التوأم هذه قد أوردها ابن قتيبة فى عيون الأخبار منسوبة إليه ، دون أن يذكر اسم الجاحظ فى روايته ، كما فعل فيما نقل من وصية أبى عبد الرحمن الثورى . وقد يشكك هذا فى افتراض وضع الجاحظ لهذه الرسالة . ولكن يبقى هنالك فرضان : أن يكون ابن قتيبة نقل ما نقل عن البخلاء ، معتقداً أنه لابن التوأم ، ولم يجد ضرورة لذكر المصدر ، وأن يكون الوراقون قد أفردوا هذه الرسالة بالنسخ ، منسوبة لابن التوأم . كما صنعوا فى قصة خالد بن يزيد ، كما قدمنا .

١٩٠ ـ المتلون والجموح الخ (١٦٩ : ١٨ ـ ١٧٠ : ٦)

عرض الجاحظ لهذه الحالات النفسية فى موضع آخر ، كما وجدناه فى نسخة فتوغرافية بعنوان : « المختار من كلام أبى عثمان الجاحظ » كان يملكها المرحوم الدكتور كروس ، وأصلها فى مكتبة برلين . قال :

« وأنا أحذرك اللجاج والتتابع ، وأرغب إلى الله فى السلامة من التلون والتزيد ، ومن الاستطراف والتكلف ، فإن الإفراط فى اللجاج لا يكون إلا من خلل فى القوة ، وإلا من نقصان يدل على التمكن (كذا) . واللجوج فى معنى المغلوب ، والمتصرف فى معنى الغالب ، والمتلون لا يكون إلا والعقدة منحلة ، والنفس منقوضة ، ثم لا يصل إلا ضعف المنة بقلة المعرفة . ومتى نقصت المعرفة ، ولم تكن المنة فاضلة ، كان الفاعل إما لجوجاً متتابعاً ، وإما ذا بدوات متلوناً . فاعرف فصل ما بين التلون والتصرف . . . والتلون أن تكون سرعة رجوعه عن الصواب كسرعة رجوعه عن الخطأ . واللجاج أن

---

(١) ١ : ٧٩ ، ١١٥ ، ٢ : ٩٢ ، ٣ : ٥٩ ط ١٩٣٢ م .

(٢) عيون الأخبار ١ : ٢٩٩ ، ٣١٢ .

يكون شأن عزمه على إثبات الخطأ الضار ، كشأن عزمه على إمضاء الصواب النافع . والذهول عن العواقب مقرون بالنجاج ، وضعف العقدة مقرون بالبدوات »[١] .

١٩١ – ابن سيرين (١٧٨ : ١١)

هو محمد بن سيرين ، وسيرين هو اسم أبيه كما يقول البلاذرى[٢] ، أو اسم أمه كما يقول ياقوت[٣] وكان أسر سيرين فى كنيسة بعين التمر . وصار ولاء آل سيرين إلى أنس بن مالك ، وقد عمل محمد بن سيرين هذا لأنس ، يكتب له ، حين كان بفارس ، ثم اتخذ البصرة مقاماً له ، وكان يصطنع تجارة البز . وقد روى الحديث عن أنس وأبى هريرة وعبد الله بن عمر ، ويسند إليه البلاذرى طائفة من أخبار الفتنة فى أيام عثمان ، وروح هذه الأخبار تميل إلى الدفاع عنه ، وإلى تبرئة على ، معاً .

وقد عرف ابن سيرين بالورع ، فكان يقال : فقه الحسن وورع ابن سيرين ، وهو صديق للحسن ، وماتا فى عام واحد ، سنة ١١٠ .

١٩٢ – ابن هرمة (١٨١ : ٥)

هو إبراهيم بن على بن هرمة ، من بنى الحارث بن فهر ، إن صح نسبه . شاعر حجازى ، من مخضرمى الدولتين . حكى أبو الفرج أنه ولد سنة تسعين ، وأنشد أبا جعفر سنة مائة وأربعين ، ثم عمر بعدها مدة طويلة ، وكانت إقامته بالمدينة ، وكاد يختص بعبد الله بن حسن وآل الحسن من الفاطميين ، كما كانت صلته طيبة بمحمد بن عمران الطلحى ، كما وفد على السرى بن عبد الله بالبمامة . فلما قامت دولة بنى العباس وفد على أبى جعفر المنصور ، كما وفد على المهدى من بعده .

وقد أورد أبو الفرج صورة له ، فحكى أنه كان قصيراً دميماً أريمص . أما خلقه ، فقد اشتهر باستهتاره بالنبيذ ، كما كان – فيما يبدو – رجلا متقلباً لا يدوم على عهد ،

---

(١) ورقة ٩٨ ، وانظر فى ذلك أيضاً مختارات مؤنس الوحيد ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ (ط فينا سنة ١٨٢٩ م) . البيان والتبيين ٢ : ١٥٣ ، ط ١٩٣٢ ، العقد الفريد ١ : ٧٣ ط لجنة التأليف ، محاضرات الراغب ٢ : ٢٨٢ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٤٨ .

(٣) معجم البلدان ٦ : ٢٥٣ .

وأخباره التى تشهد لذلك كثيرة[١] .

أما شعره فقد كان موضع إعجاب الأصمعى ، وكان يعده ممن ختم بهم الشعر ، وأما الجاحظ فيقول : « ولم يكن فى المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة والعتابى»[٢] وإذن فقد كان ابن هرمة من أوائل أصحاب البديع ، وشعره يدل على أنه من أهل الصناعة ، ولعل من أبرز مظاهر ذلك قصيدته التى تكلف فيها ألا تتضمن حرفاً معجماً . ويقول أبو الفرج إنه لم يكن يظن أن أحداً تقدم رزينا العروضى إلى هذا الباب .

١٩٣ – مروان بن أبى حفصة (١٨١ : ٦)

أبو السمط ، مروان بن أبى سليمان بن يحيى بن أبى حفصة . شاعر من مخضرمى الدولتين . كان يحيى بن أبى حفصة جده شاعراً من شعراء المروانيين ، وقد أورد له أبو الفرج شيئاً من الشعر السياسى الذى قاله فى خروج يزيد بن المهلب ، وهو شعر جيد ، عربى الديباجة قوى الروح . وهكذا نرى أن مروان نشأ على عرق من الشعر .

وقد أدرك عهد الأمويين ، ويقال إنه صنع قصيدة يمدح بها مروان بن محمد ، ولكن بعد فوات الوقت[٣] .

وقد اتصل فى أول أمره بمعن بن زائدة ، وكان يقصده فى ولايته على اليمن ، ثم جعل يتهيأ للاتصال بالعباسيين إلى أن أتيح له أن يمدح المهدى بما كان موضع الإعجاب الشديد ، وكذلك مدح الهادى والرشيد . وكان مذهبه فى هذه المدائح أن يتعرض لهجاء الطالبيين ، فكان ذلك من الأسباب التى رفعت من شأنه لدى الخلفاء[٤] .

ولكن هذا المذهب قد أوغر عليه بعض الصدور . وإذا صح ما يرويه أبو الفرج عن صالح بن عطية الأضجم ، فإن المذهب الذى رفع من قدره ، هو الذى قتله وقضى عليه .

على أن الرجل عاش عمراً غير قصير ، فقد عمر إلى أيام محمد بن زبيدة ، وكان إذ ذاك شيخاً كبيراً .

ويعتبر مروان كذلك من أهل الصناعة الشعرية ، ويحكى هو عن نفسه ، كما

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٦٧ – ٣٩٧ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠ .
(٣) الأغانى ١٠ : ٧١ – ٩٥ .
(٤) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ١٤ .

يذكر صاحب الأغانى عن حماد الأرقط : « إنى إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها فى حول : أقولها فى أربعة أشهر ، وأنتخلها فى أربعة أشهر ، وأعرضها فى أربعة أشهر » .

١٩٤ ـ الشماخ بن ضرار (١٨١ : ١٧)

هو معقل بن ضرار بن سنان ، من ذبيان ، شاعر مخضرم ، وقد عده ابن سلام فى الطبقة الثالثة مع لبيد والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى ، وهو من أسرة شاعرة ، فقد كان أخواه ، مزرد وجزء ، شاعرين .

وقد ترجم له أبو الفرج وأورد فى خلال الترجمة طائفة من شعره[١] ، كما أن فى جمهرة أشعار العرب قصيدة منسوبة إليه ، فى باب « المشوبات »[٢] ، وهن ـ كما يقول أبو زيد الخطابى فى المقدمة ـ اللاتى شابهن الكفر والإسلام .

ويصفه ابن سلام بأنه « كان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً »[٣] ، وروى أبو الفرج أن الحطيئة قال فى وصيته : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان » .

١٩٥ ـ أحيحة بن الجلاح (١٨٢ : ١)

سيد من سادات يثرب ، ورأس من رءوس الأوس ، فى القرن الخامس الميلادى . وقد ولد حسب تقدير العلامة كوسان دى برسيفال Caussin de perseval فى سنة ٤٦٤[٤] . وقد ترجم له أبو الفرج ، وأورد له أخباراً مع أبى كرب الحميرى آخر تبابعة اليمن ، كما أورد أخباراً أخرى له فى معركة نشبت بين بنى النجار وبنى عمرو بن عوف . وكان أحيحة عليهم .

وقال أبو الفرج فى صفته : « وكان أحيحة إذ ذاك سيد قومه من الأوس ، وكان رجلا صنيعاً للمال شحيحاً عليه ، يتبع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم .

---

(١) الأغانى ٩ : ١٥٨ ـ ١٧٢ .

(٢) ص ١٥٤ ـ ١٥٨ ط بولاق ١٣٠٨ هـ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٧ ط السعادة . (ص ١١٠ ط دار المعارف ، ١٩٥٢)

(٤) *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme.*

وكان له تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها . وكان له بالجرف أصوار من نخل . . . وكان له أطمان »[١].

وقد ذكره المبرد بالبخل فقال إنه كان « إذا هبت الصبا طلع من أطمه ، فنظر إلى ناحية هبوبها ، ثم يقول لها : هبي هبوبك ، فقد أعددت لك ثلثمائة وستين صاعاً من عجوة ، أدفع إلى الوليد منها خمس تمرات ، فيرد على ثلاثاً — أى لصلابتها — بعد ما يلوك منها اثنتين »[٢] .

وكذلك أورد النويرى طرفاً من أخباره فى البخل[٣] .

وقد عده أبو زيد القرشى فى أصحاب المذهبات ، وأورد له قصيدة منها بعض الأبيات التى أوردها الجاحظ هنا[٤]. كما أورد له ياقوت فى سياق كلامه عن « أيلة » أبياتاً يرثى بها ابنه [٥].

١٩٦ — عروة بن الورد (١٨٣ : ٤)

هو عروة الصعاليك العبسى . « شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد » كما يقول أبو الفرج . وقد حكى ابن الأعرابى عن أبى فقعس أسلوب حياته ، إذ يقول : « وكان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة ، تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته ، فى الشدة . ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف . ويكسبهم . ومن قوى منهم — إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته — خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى » .

وقد نسجت القصص المختلفة حول بطولة عروة فى العصر العباسى ، وأورد أبو الفرج طائفة منها . أما شعره فأكثره فى وصف هذه الحياة ، والتحدث عن الصعاليك ، وذكر

---

(١) الأغانى ١٣ : ١١٩ — ١٢٧ .
(٢) الكامل للمبرد ٣ : ٢٣ ط الفتوح الأدبية ١٣٣٩ هـ .
(٣) نهاية الأرب ٣ : ٣٠٥ .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٥ — ١٢٦ ط بولاق .
(٥) معجم البلدان ١ : ٣٩١ ط مطبعة السعادة ، ١٩٠٦ م .

المثل الجديرة بهم . ومنه ما هو حديث عن هذه أو تلك من النساء اللواتى كان يسبينهن ويتزوجهن[١] .

وقد عده أبو زيد القرشى فى أصحاب « المنتقيات » وأورد له قصيدة يتحدث فيها عن حياته ، كما يتحدث عما ينبغى للصعاليك[٢] .

١٩٧ ـ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (١٨٣ : ١٠)

هو ابن زيد بن عمرو ، أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ذبائحهم ، وذهب يلتمس دين إبراهيم ، حتى أثار حوله فى مكة ثائرة أخرجته منها[٣] ، ولم يدرك الإسلام . فأما سعيد ابنه فقد أسلم هو وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، أخت عمر ، حين كان المسلمون يستخفون بإسلامهم . وفى بيته أسلم عمر بن الخطاب[٤] . وقد شهد المشاهد كلها . ويعد من العشرة المبشرين بالجنة .

وقد كان رجلا من أصحاب الرأى ، قوى الشخصية ، ولو أنه ظل بعيداً عن الفتن السياسية . كما كان شاعراً بليغاً . وقد عاش إلى سنة ٥١ ، ومات عن ثلاث وسبعين سنة .

١٩٨ ـ الأخنس بن شهاب (١٨٤ : ٣)

شاعر فارس ، من بنى تغلب ، عاش فى أيام حرب البسوس . والأبيات التى يوردها الجاحظ هنا هى من قصيدة له يرويها المفضل الضبى فى المفضليات[٥] ، وأولها :

لا بنة حطـــان بن عوف منازل كما رقش العنوان فى الرق كاتب

وقد عرض له الآمدى فترجم له بكلمات أورد فيها نسبه[٦] .

---

(١) الأغانى ٣ : ٧٣ ـ ٨٨ .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٣) الأغانى ٣ : ١٢٣ ـ ١٢٧ .
(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٣٦٧ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٦ م .
(٥) المفضليات ص ٤١٣ ط أكسفورد .
(٦) المؤتلف والمختلف ، ص ٢٧ .

١٩٩ ـ ابن الذئبة (١٨٤ : ٦)

شاعر فارس جاهلى ، ترجم له الآمدى ، فقال : « فأما ابن الذئبة ، فهو ربيعة ابن الذئبة ، والذئبة أمه ، وأبوه عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم بن قسى ، وهو ثقيف . شاعر فارس ، وهو القائل :

إن المنيـــة بالفتيـــان ذاهبـــة ... ولو تقوها بأسيـــاف وأدراع
بينا الفتى يبتغى من عيشة سددا ... إذ حان يوماً فنادى باسمه الداعى
لا تجعل الهم غلا لا انفراج له ... ولا تكونن كؤوماً ضيق الباع[1] »

ونسب له أبو عبيد هذين البيتين :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه ... سفاهاً وينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر منى ومنهم ... ستحملهم منى على مركب وعر[2]

وكذلك نجد له ترجمة صغيرة فى اللآلى[3].

والشعر الوارد هنا منسوب فى الأصل لابن أذينة الثقفى ، ولكن ابن أذينة ليس ثقفياً بل ليثيا . ومنسوب فى عيون الأخبار إلى ابن الدمينة ، وابن الدمينة كذلك ليس ثقفياً ، بل هو خثعمى . والفرض الذى افترضته أنه لابن الذئبة يتفق مع نسبة الشعر فى الحيوان ، كما بينا فى النص .

٢٠٠ ـ غيلان بن سلمة (١٨٦ : ٦)

شاعر جاهلى أدرك الإسلام . وقد وفد على كسرى . وعده أبو عبيد من حكام قيس فى الجاهلية[4] وقد أورد الجاحظ له قطعة من الشعر . وقد ترجم له ابن سعد فى الطبقات ، وابن حجر فى الإصابة ، وأبو الفرج فى الأغانى[5].

---

(١) المؤتلف والمختلف ، ص ١٢٠ .
(٢) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ، ص ٢٤ .
(٣) اللآلى لأبى عبيد ، ص ٧٩٢ .
(٤) اللآلى ص ٤٧٨ .
(٥) طبقات ابن سعد ٥ : ٣٧١ ، الإصابة ٥ : ١٩٢ — ١٩٥ ، ط الشرفية ، ١٩٠٧ ، الأغانى ١٢ : ٤٨ — ٤٩ .

٢٠١ ـ ديسيموس (١٨٨ : ٩)

تحدث الجاحظ عنه ، وروى طرفاً من نوادره وأقواله فى غير موضع . فقال فى الحيوان : « حدثنى العتبى ، قال : كان فى اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ديسيموس . قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة < ما من نادرة > إلا وهى غرة وعين من عيون النوادر » ؛ ثم أورد طائفة من هذه النوادر[١] ، كما أورد بعض نوادره أيضاً فى البيان والتبيين[٢] .

ويؤخذ من بعض هذه النوادر التى ذكرت فى الحيوان أن ديسيموس هذا كان يقيم على شاطئ الفرات ، أى أنه كان يقيم على الحدود الشرقية للمملكة الرومانية .

وفى رسالة التربيع والتدوير من أقواله : « لولا العمل لم يطلب علم ، ولولا العلم لم يطلب عمل . ولأن أدع الحق جهلا به ، أحب إلى من أن أدعه زهداً فيه ؛ وإن كان الجهل لا يكون إلا من نقصان فى آلة الحس ، فإن المعاندة لمن زيادة فى آلة الشر . ولأن أترك جميع الخير ، أحب إلى من أن أفعل بعض الشر »[٣] وهذه الأقوال هى — ولا ريب — من أروع الكلام .

وقد عرض الأستاذ أحمد أمين لهذه النوادر وعدها فيما كان لليونان من أثر فى الأدب العربى[٤] .

٢٠٢ ـ الأضبط بن قريع (١٨٩ : ١٦)

أحد شعراء الجاهلية وفرسانها ، الذين تحملوا الكثير من الأخبار المصنوعة . وهو من بنى عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبرقان بن بدر .

ومما روى عنه ابن قتيبة أنه كان المؤسس لمدينة صنعاء ، إذ يقول : « أغار على بنى الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر ، وجدع وخصى . ثم بنى أطما ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء » . وهذا — ولا ريب — قول عجيب .

---

(١) الحيوان ١ : ٢٨٩ ٢٩٠ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ١١٧ ط ١٣٣٢ هـ .
(٣) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ٢٣٧ .
(٤) ضحى الإسلام ١ : ٢٨٢ .

وقد ترجم له ابن قتيبة [١] وأبو الفرج [٢] وأبو عبيد [٣] وكلهم يروون له قصيدة رقيقة مهذبة الحاشية : « يا قوم من عاذرى من الخدعة » ما أبعد أن تكون صحيحة النسبة له .

٢٠٣ ـ مطرف بن الشخير (١٩٢ : ٨)

هو أبو عبد الله ، مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامرى ، من بنى عامر ابن صعصعة . تابعى من أهل البصرة ، ولد فى حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ومات فى أواخر القرن الأول. وقد وصفه غيلان بن جرير بقوله : « إنه كان يلبس المطارف ، ويركب الخيل ، ويغشى السلطان . ولكن إذا أفضيت إليه أفضيت إلى قرة عين »[٤].

وقد ذكره الجاحظ بأنه كان مضرب المثل فى العقل[٥] ، وذكره فى موضع آخر بأنه كان قاصاً ،[٦] وكان يمثل القصص بمعناه الأول ، حين كان الغرض منه إرهاف العاطفة الدينية ، فى وسط تلك الملابسات الدنيوية . وكان أول أمره يحضر مجالس زيد ابن صوحان الخطيب القاص ، كما أشار إلى ذلك أبو نعيم فى ترجمته له[٧] . وقد ترجم له ابن قتيبة أيضاً[٨].

وذكره المرزبانى ، فأورد له بيتين من الشعر ، ينافح عن بيته بنى وقدان [٩] .

٢٠٤ ـ الزبير (١٩٣ : ٧)

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، شخصية من الشخصيات الإسلامية الكبرى

---

(١) الشعر والشعراء ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٢) الأغانى ١٦ : ١٥٩ .
(٣) اللآلى ، ص ٣٢٦ .
(٤) تهذيب التهذيب ١٠ : ١ .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٩٦ .
(٧) حلية الأولياء ٢ : ١٩٨ ـ ٢١٢ .
(٨) المعارف ، ص ٢٢٣ .
(٩) معجم الشعراء ، ص ٣٨٩ .

التي صحبت الإسلام منذ أول عهده . وقد هاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد ، ويعد فى العشرة « المبشرين بالجنة » .

وقد ظل بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم مسموع الكلمة ، وقد كان تاجراً واسع التجارة عظيم الثروة ، وجعله عمر من الستة « أصحاب الشورى» . وإن كان يصفه بأنه « لقس ، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، شحيح»[١] . وفى أواخر أيام عثمان كان من المنكرين عليه ، كما كان يتهم بأنه هو وعلى وطلحة كانوا يثيرون الثائرة ضده . وبعد المبايعة لعلى خرج مع عائشة فى يوم الجمل ، وقد قتل غيلة فى منصرفه . لقيه عمرو بن جرموز التيمى فقتله ، وكان هذا عام ٣٦ عن ٦٦ أو ٦٧ عاماً[٢] .

٢٠٥ ــ عبد الرحمن (١٩٣ : ٧)

هو عبد الرحمن بن عوف الزهرى القرشى . من أكبر الشخصيات الإسلامية أيضاً . كان من السابقين إلى الإسلام ، وممن هاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد وأبلى فيها ، وأحد « العشرة » ، كما كان تاجراً واسع التجارة ، وقد أبلى بماله أيضاً فى سبيل الإسلام خير البلاء[٣].

وكان كذلك من الستة « أهل الشورى » ، ولكنه كان ممتازاً فيها ، فقد وضعه عمر فى موضع الترجيح . إذ قال ــ كما يحكى أبو مخنف ــ : إن كانوا ثلاثة وثلاثة ، كانوا مع الثلاثة الذين فيهم ابن عوف . فلما مات عمر ، واجتمع مجلس الشورى ، كان هو صاحب الكلمة الفاصلة ، بعد أن أخرج نفسه وسعداً من الأمر ، وبذلك وسد الأمر لعثمان .

ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بينه وبين عثمان ، ولا سيما بعد أن سير أبا ذر إلى الربذة فمات فيها ، ويحكى البلاذرى أن عبد الرحمن بن عوف كان حلف ألا يكلم عثمان أبداً ، وكذلك أوصى ألا يصلى عثمان عليه[٤].

وقد مات سنة ٣٢ عن اثنين وسبعين عاماً .

٢٠٦ ــ عبد الله بن جعفر (١٩٣ : ١١)

هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأبوه جعفر بن عم الرسول صلى الله عليه

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٧ .
(٢) الإصابة ١ : ٥٤٦ .
(٣) الإصابة ٧ : ٤١٦ ــ ٤١٧ .
(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٩ ــ ٢٢ ، ٥٧ .

وسلم ، وقد ولد عبد الله فى مهاجر أبيه بالحبشة ، فى السنة الأولى من الهجرة . فلما كانت الخصومة بين على ومعاوية فى صفين ، كان أحد الأمراء فى جيش على .

ولكنا نراه بعد ذلك بعيداً عن هذه الخصومات السياسية ، بعد ما استقام الأمر للأمويين . ولعله كان بطبعه السمح ، ونزعته إلى الاستمتاع بالحياة ، أبعد ما يكون عن المحادة السياسية ، ولذلك نراه فى مجلس معاوية ، ومجلس عبد الملك .

وكان يمثل ترف أهل الحجاز من الهاشميين ، وحياته صورة مثلى من تلك الحياة التى تحدث عنها الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء[١] ، ووصف أسبابها وملابساتها . ويمكن اعتباره من أهم الشخصيات التى شجعت الحياة الفنية فى الحجاز . وهى نواة الحياة الفنية فى بلاد الإسلام بعد ذلك ، ويذكر صاحب الأغانى فى مواضع مختلفة طائفة من مواليه ، كنشيط وسائب خاثر ونافع الخير وعمارة ، وهم أساتذة الغناء والمغنين[٢] كما يذكر أن ابن سريج كان منقطعاً إليه[٣] ، وأن طويس كان حسن الصلة به[٤].

ويعده ابن عبد ربه أحد أجواد الحجاز الثلاثة[٥] ، ويحكى عنه المبرد أنه أنشد قول الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها طريق المصنع

فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس . أمطر المعروف مطراً ، فإن صادف موضعاً فهو الذى قصدت له ، وإلا كنت أحق به[٦] . وقد عاش إلى سنة ٩٠ .

٢٠٧ ـ المعلوط القريعى (١٩٤ : ١٠)

هو المعلوط بن بدل القريعى ثم السعدى ، شاعر إسلامى ، كما يقول أبو عبيد . وقد أورد له قطعة من ثلاثة أبيات ، يتحدث فيها عن الفقر والغنى . على الطريقة

---

(١) حديث الأربعاء ١ : ٢٣٥ وما بعدها ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٧ م .
(٢) انظر مثلا : ١ : ٣٨ ، ٣٩ ، ١١٧ ، ١٨٨ .
(٣) ١ : ٢٤٩ .
(٤) ٣ : ٣٢ — ٣٣ .
(٥) العقد الفريد ١ : ٣٣٩ .
(٦) الكامل للمبرد ١ : ٩٤ — ٩٥ .

البدوية [١] ، كما روى له أبو تمام قطعة أخرى من الشعر الغزل الأعرابى [٢].

٢٠٨ – إبراهيم بن عبد العزيز (١٩٦ : ٧)

لست أدرى – على التحقيق – من هو . ولعله هو الذى جاء ذكره على لسان أبى إسحاق إبراهيم النظام ، فيما روى الجاحظ عنه ، من قصة مترتبة ، وقصده قصبة الأهواز ، ثم نزوله فى فرضتها ، وصيرورته إلى خان هنالك ، وتعرضه فى أثناء ذلك كله لأسباب الطيرة . ثم يقول النظام : « فبينا أنا جالس إذ سمعت قرع الباب ، قلت : من هذا عافاك الله تعالى ؟ قال : رجل يريدك . قلت : ومن أنا ؟ قال : أنت إبراهيم . قلت : ومن إبراهيم ؟ قال : النظام . فقلت : هذا خناق أو عدو أو رسول سلطان . ثم إنى تحاملت وفتحت الباب . فقال : أرسلنى إليك إبراهيم بن عبد العزيز ، ويقول : نحن وإن كنا اختلفنا فى بعض المقالة ، فإنا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية . وقد رأيتك حين مررت بى على حال كرهتها منك . وما عرفتك حتى خبرنى عنك بعض من كان معى وقال : ينبغى أن تكون قد نزعت بك حاجة ، فإن شئت فأقم بمكانك شهراً أو شهرين ، فعسى أن نبعث إليك ببعض ما يكفيك زمناً من دهرك . وإن اشتهيت الرجوع فهذه ثلاثون مثقالا ، فخذها وانصرف . وأنت أحق من عذر» [٣]

وليس يبعد عندنا أن يكون إبراهيم هذا هو المقصود هنا ، فإن صح هذا ، فقد كان متكلماً ، ولعله كان معتزلياً ، وإن كان يختلف مع النظام فى بعض المقالة ، وكان إلى جانب هذا من سراة الأهواز .

٢٠٩ – البياح السبخى (١٩٦ : ٨)

قال صاحب اللسان : « البياح ، بكسر الباء مخفف : ضرب من السمك ، صغار أمثال شبر . وهو أطيب السمك » . وجعل الفريق أمين المعلوف هذه الكلمة مرادفة لكلمة البورى التى تطلق فى مصر على ذلك النوع من السمك ، وقد وصفه بقوله : « سمك مشهور صغير أو متوسط الحجم ، كبير الحراشف يكون فى معظم البحار ، ويصعد فى الأنهار أحياناً ، وهو أنواع كثيرة » . وبعد أن ذكر بعض هذه الأنواع نقل عن العالم

---

(١) اللآل ص ٤٣٤ .

(٢) ديوان الحماسة ٢ : ١٤٠ ط ١٣٣٥ هـ .

(٣) الحيوان ٣ : ٤٥١ – ٤٥٣ .

الهندى الكلونل جاياكار Jayakar أن فى مسقط (على خليج عمان نوعين آخرين يطلق عليهما هناك اسم « البياح »[١] ومن هذا نعلم أن كلمة البياح التى كانت تطلق فى عصر الجاحظ على ذلك الضرب من السمك لا تزال مستعملة حتى الآن فى ذلك الإقليم .

والبياح السبخى الذى يذكره الجاحظ هنا إما أن يكون منسوباً إلى السبخة ، وهى قرية من قرى البحرين ، أو إلى ذلك الموضع من نواحى البصرة ، وهو الذى ينسب إليه الزاهد المشهور : فرقد السبخى[٢].

ومهما يكن من أمر فقد كان ذلك الضرب من السمك كثيراً فى البصرة . ويذكر صاحب الأغانى عن عيسى بن سليمان بن على الهاشمى أنه كان له فى البصرة محابس يحبس فيها البياح ويبيعه ، ويعيره أبو عيينة المهلبى بذلك إذ يقول فى قصيدة له فيه :

رأيت أبا العباس يسمو بنفسه إلى بيع بياحاته والمباقل[٣]

٢١٠ ـ أبو المنجوف السدوسى (١٩٧ : ١٤)

أخبارى ، نسابة ، من أهل القرن الثانى . كان يسكن البصرة بجوار الرقاشى ، كما يقول القالى عنه[٤]. وقد ذكره ابن النديم فقال : إنه روى عن أبى عبيدة ، وإن له من الكتب كتاب الغول . وقد مات بعد المائتين[٥].

٢١١ ـ الجيسران (١٩٧ : ١٦)

نوع من التمر ، وصفه ابن قتيبة بقوله : « وأحمد البسور الجيسران »[٦]، وذكره أدى شير فقال : « الجيسران جنس من أفخر النخل ، فارسيته كيسران . ومعناه الذوائب »[٧].

---

(١) معجم الحيوان ص ١٦٣ – ١٦٤ ، ط المقتطف ١٩٣٢ .
(٢) معجم البلدان ٥ : ٢٧ .
(٣) الأغانى ١٨ : ١١ ، ١٢ ط التقدم .
(٤) ذيل الأمالى ، ص ٤٤ .
(٥) الفهرست ، ص ١٥٩ .
(٦) عيون الأخبار ٣ : ٢٩٧ .
(٧) الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ٤٩ .

٢١٢ ـ قاسم التمار (١٩٨ : ٧)

أحد المتكلمين فى عصر الجاحظ . وقد وصفه ابن قتيبة ، وابن عبد ربه ، بعد خبر نقلاه عن الجاحظ ـ وقد أورده الجاحظ شاهداً على التخليط ـ بأنه متقدم فى أصحاب الكلام[١].

والذى يؤخذ من أخباره فى البيان والتبيين وعيون الأخبار ، أنه كان رجلا على شىء من الغفلة ، ولعله كان يصطنعها أحياناً ، التماساً للنادرة . وقد كان يلابس المتكلمين ويطايبهم بنوادره ، كما أن سراة المتكلمين كثمامة كانوا يصلونه ويكرمونه ، بالرغم من أنه كان قذر المؤاكلة ، وأنه كان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط ، كما وصفه الجاحظ فى البخلاء [٢].

وكان إلى هذا قبيح الخلقة ، مشنوء المنظر ، كما يؤخذ من خبر ساقه الجاحظ عنه فى الحيوان[٣] وقد ذكره فى رسالة التربيع والتدوير بعظم العنق ، إذ يقول مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « وأنا دقيق العنق ، وعنقك عنق قاسم التمار »[٤].

ولكنه كان مع هذا ـ فيما يبدو ـ خفيف الروح ، طيب النكتة ، فكان المتكلمون يتقبلونه ، وقد أخذ عنهم بعض ما كانوا يتدارسونه ، وبذلك عد فيهم . ويصف الجاحظ أمثاله بقوله : « وفى حشوة المتكلمين أخلاق قبيحة »[٥].

٢١٣ ـ الشبارقات والأخبصة والفالوذجات (٢٠٣ : ١٢ ـ ١٣)

الشبارقات جمع شبارق . وقد ذكرها الجواليقى ، فقال نقلا عن ابن دريد : « والشبارق الذى تسميه الفرس بيشبارة . ولحم شبارق يقطع صغاراً ويطبخ ، وزعموا أنه فارسى معرب . وقال فى موضع آخر : فأما الشبارقات وهى ألوان اللحم فى الطبائخ ففارسى معرب ، وهو الشفارج للذى تقول له العامة فيشفارج وبشارج »[٦].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ، ص ٩٥ ، العقد الفريد ٢ : ٤٨٢ ط لجنة التأليف .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٩١ ط ١٣٣٢ هـ ، عيون الأخبار ٢ : ١٥٧ ، البخلاء ص ١٩٨ .

(٣) الحيوان ٦ : ٨٢ ط التقدم .

(٤) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ١٠١ .

(٥) البخلاء ص ١٦٩ .

(٦) المعرب من الكلام الأعجمى . ص ٢٠٤ .

على أنه ذكر « الفيشفارج » وفسرها بقوله : « ما يقدم بين يدى الطعام من الأطعمة المشهية له »[١].

وأما الأخبصة فجمع خبيص ، وهو طعام عربى يعمل من التمر والسمن ، ويظهر أنه صار يعمل بعد ذلك من العسل بدلا من التمر ، ومن ذلك ما ذكره الراغب : « وقيل : ذهبت بهجة الخبيص منذ عمل من عسل[٢] » .

وأما الفالوذجات فجمع فالوذج ، وهو طعام أخذه العرب من الفرس ، كما يؤخذ من القصة التى تروى عن عبد الله بن جدعان . وجملة صفته تؤخذ من كلمة الحسن حين سمع رجلا يعيبه ، فقال : « فتات البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن . ما عاب هذا مسلم »[٣].

٢١٤ – إياس بن معاوية (١٨٧ : ٣)

هو أبو واثلة ، إياس بن معاوية المزنى ، أحد رجال البصرة فى القرن الأول ، وقد امتاز بالزكانه وقوة العقل ، حتى ليقول فيه أحد البصراء بالرجال : « ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا ما كان من الحجاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس »[٤] وقد أورد الجاحظ طائفة من شواهد عقله ودقة بصره[٥] ، ومما قال فى صفته : « وجملة القول فى إياس أنه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمى القضاة ، وكان فقيه البدن ، دقيق المسلك فى الفطن . وكان صادق الحس نقاباً ، وعجيب الفراسة ملهماً . وكان عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيهاً عند الخلفاء ، مقدماً عند الأكفاء »[٦].

وقد كان إياس يعالج أنواع العلم الأخرى ، ويحاول أن يتناول المعارف الطبيعية بالوصف والتصنيف كما يؤخذ من كلام الجاحظ عنه ، فى سياق كلامه عن الخلق المركب ، وإن كان رأى الجاحظ فيه هنا مختلفاً بعض الشىء عن رأيه الذى أسلفنا ،

---

(١) ص ٢٣٩ .
(٢) محاضرات الراغب ١ : ٢٩٦ ط الشرفية .
(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٠٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ ط ١٩٣٢ م .
(٥) انظر مثلا : البيان والتبيين ١ : ٥٥ – ٥٦ ط ١٣٣٢ هـ . الحيوان ٢ : ٧٥ – ٧٦ ، ١٥٢ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٥٦ ط ١٣٣٢ هـ .

لاختلاف الموضوع . قال : « ورووا عن أبى واثلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل ، أن الناس لم يجدوا ، فى طول ما أكلوا الشبابيط ، فى جوفها بيضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً . وذلك أنى سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وتقسيم الأجناس ، يدل على أن الرجل حين أحسن فى أشياء وهمه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه ، وغره من نفسه الذى غر الخليل بن أحمد ، حين أحسن فى النحو والعروض ، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون . . . إلخ »[1].

وقد ولى إياس قضاء البصرة ، فى إمارة عدى بن أرطأة ، أيام عمر بن عبد العزيز[2]

ولأبى الحسن المدائنى كتاب مقصور على ذكر إياس وإبراز نوادره ، كما يذكر الثعالبى ، وقد نقل الجاحظ عن أبى الحسن ، كما نقل عنه الثعالبى . وكذلك نجد طائفة من أخباره وشواهد فراسته — ومنها ما هو منقول عن المدائنى — فى كتاب الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، لابن قيم الجوزية[3] .

وقد عاش إياس إلى سنة ١٢٢ .

٢١٥ — الحشرية (٢٠٥ : ٨)

اصطلاح خاص بالمواريث التى لا وارث لها ، وقد ذكره القلقشندى ، فقال . « المواريث الحشرية ، وهى مال من يموت ، وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء أو الباقى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ، ولا عاصب له ، والحشرى هو من يموت كذلك »[4].

٢١٦ — جعفر بن يحيى (٢٠٥ : ١١)

هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكى وأنبههم وآثرهم عند الرشيد . ويذكر الجهشيارى

---

(١) الحيوان ١ : ١٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ط ١٩٣٢ .

(٣) انظر مثلا الصفحات : ٢٥ ، ٣١ — ٣٤ ط الآداب والمؤيد ١٣١٧ هـ .

(٤) صبح الأعشى ٣ : ٤٦٤ .

أنه غلب على الرشيد غلبة شديدة ، حتى صار لا يقدم عليه أحداً . وأنس به كل الأنس ، وأنزله بالخلد بالقرب من قصره . وقد ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية كما جعله قيم ابنه المأمون ومنشئه [١].

وقد كان أكثر سراة عصره ترفاً ، سواء فى ذلك الترف المادى والترف المعنوى . فقد كانت داره ندوة عامرة بالشعراء والرواة والعلماء ، من أبان اللاحقى ، إلى الأصمعى ، إلى جبرئيل بن بختيشوع ، إلى كثير غيرهم ، وكان هو رجلا أديباً سرى اللفظ . وقد حكى الجاحظ وصف ثمامة بن أشرس له ، قال :

« كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة . ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة » . وقال مرة : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولايلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتداراً ، ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى »[٢].

وقد بقيت لنا بقايا من كلامه المطول والموجز ، فى بعض خطبه وتوقيعاته[٣].

ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بينه وبين الرشيد ، فقتله ونكب البرامكة تلك النكبة المعروفة سنة ١٨٧ .

٢١٧ – أبرويز (٢٠٦ : ٦)

هو أبرويز بن هرمز ، أحد ملوك الساسانيين ، فى عهد بعثة الرسول ، صلى الله عليه وسلم . ويصفه ابن الأثير بأنه « كان من أشد ملوكهم بطشاً ، وأنفذهم رأياً . وبلغ من البأس والنجدة ، وجمع الأموال ومساعدة الأقدار ، ما لم يبلغه ملك قبله» . وفى عهده حدثت الحرب بين الفرس والروم ، وهى الحرب التى جاءت الإشارة إليها فى القرآن ، فى سورة الروم . كما كانت وقعة ذى قار فى عهده أيضاً[٤].

---

(١) الوزراء والكتاب ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٠٠ ط ١٩٣٢ م .

(٣) انظر مثلا : الوزراء والكتاب ص ٢٠٨ – ٢٠٩ ، ٢٠٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٦٧ – ٦٨ ط الحسينية .

(٤) الكامل لابن الأثير ١ : ٢٧٩ وما بعدها .

ولأبرويز فى الأدب العربى مكان ظاهر ، بفضل ما ترجم عن الفرس فى حركة التيقظ الشعوبى ، فلدينا قطع كثيرة من وصاياه ونصائحه ، مما جاء فى كتاب التاج ، وقطع أخرى من كتابه الذى كتبه إلى ابنه شيرويه ، وهو محبسه[١].

٢١٨ ـ ابن سافرى (٢٠٨ : ١٧)

جاء ذكره فى قصة قصها الجاحظ عن أبى حكيم الكيماوى ، وكان أبو حكيم هذا يجهد جهده فى أن يحل عقدة ثمامة فيفعل له كيت وكيت ، أو يطرد له الذباب والبعوض وكان ابن سافرى هذا فى مجلس ثمامة ، فلم تقع الحيلة إلا به ، والجاحظ يصوره فى هذه القصة رجلا غفلا ، ضعيف المنة ، سهل القياد للخادع والمتغفل[٢].

وقد ترجم الخطيب لمحدث اسمه أيوب بن إسحاق بن إبراهيم بن سافرى[٣] .

٢١٩ ـ أبو همام السنوط (٢٠٩ : ١٦)

هو رجل من طبقة المتعبدين الأغفال ، كما يدل عليه السياق هنا وما جاء عنه فى الحيوان ، إذ يقول الجاحظ فى سياق ذكر الأعراض التى تعرض لمن يخصى : « . . . وكما عرض لأبى همام السنوط ، من امتلاخ اللحم مذاكيره وخصييه . أصابه ذلك فى البحر فى بعض المغازى ، فسقطت لحيته ، ولقب بالسنوط وخرج لذلك نهماً وشرهاً .

وقال ذات يوم : لو كان النخل بعضه لا يحمل إلا الرطب ، وبعضه لا يحمل إلا التمر ، وبعضه لا يحمل إلا المجزع ، وبعضه لا يحمل إلا البسر ، وبعضه لا يحمل إلا الخلال ، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين ، لما كان بذلك بأس . ثم قال : أستغفر الله ! لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب »[٤] ولا ريب أن الصورة التى عرضها الجاحظ له هنا فى غاية الوضوح والقوة .

---

(١) عيون الأخبار ، فى كتاب السلطان .
(٢) الحيوان ٣ : ٣٨٥ – ٣٨٨ .
(٣) تاريخ بغداد ٧ : ٩ .
(٤) ١ : ١٢٢ – ١٢٣ ط الحلبى .

٢٢٠ ـ عبادان (٢٠٩ : ١٧)

بلدة واقعة فى زاوية الخليج الفارسى[١] بين فرعى الدجلة ، وهى تتفرع فى شكل دال عند قرية « المحرزى » ، وهى ـ كما يقول ياقوت ـ « موضع ردىء سبخ » ، لا خير فيه ، وماؤه ملح ، فيه قوم منقطعون عليهم وقف فى تلك الجزيرة يعطون بعضه » . وقد كانت قبل ذلك رباطاً . وقد أعدها لذلك الربيع بن صبح الفقيه[٢] .

٢٢١ ـ الشمرية (٢١٠ : ٤)

أحسب أن المراد بهم أتباع أبى شمر ، وهو من متكلمى المرجئة الثوبانية[٣] ، والخصومة شديدة بينهم وبين المعتزلة . وقد ذكر الجاحظ أبا شمر ، ووصفه بأنه « كان شيخاً وقوراً ، وزميتاً ركيناً ، وكان ذا تصرف فى العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم » ، وبذلك كان « إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة » . وقد ذكر الجاحظ أن مناظرة قامت بينه وبين النظام ، عند أيوب بن جعفر ، اضطره فيها إلى تحريك يديه ، وحل حبوته . وفى ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبى شمر إلى قول إبراهيم[٤] .

٢٢٢ ـ الغاضرى (٢١٠ : ٦)

أحد المصطنعين للنادرة ، والمعروفين بها ، ممن قدمنا بعض صورهم ، من أهل المدينة . وقد ذكره الآبى فى الباب الذى عقده لنوادر المدنيين[٥] . وقد كان معاصراً لأشعب ، ومنافساً له فى الباب الذى اتخذه لنفسه ، وهو باب الطمع[٦] ، كما رأينا من قبل .

وقد عاش إلى عهد المنصور ، وكان متصلا بالحسن بن زيد ، أمير المدينة فى ذلك

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .
(٢) معجم البلدان ٦ : ١٠٥ .
(٣) الملل والنحل للشهرستانى ، ص ١٠٥ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٥١ ، ط ١٣٣٢ هـ .
(٥) نثر الدرر ٢ : ٢٠٨ مخطوط فى دار الكتب .
(٦) جمع الجواهر ، ص ٩ .

العهد . وله معه نادرة ذكرها الحصرى فى ذلك الموضع ، كما أورد له ، — فى موضع آخر — نادرة أخرى[١] ، قد تروى أحياناً عن غيره كمزبد .

وقد حكى ابن قتيبة خبراً عنه ، على أنه من حمقه[٢] ، وهو — فيما نحسب — من تحامقه ، والتحامق كان — فيما نقدر — من الصور التى تساق فيها النادرة ، ويلتمس بها ذلك الباب ، باب الإضحاك .

وإلى جانب هذا نجد الجاحظ قد روى حديثاً له ، قال إنه من ملح أحاديث الأصمعى ، وقد قال إن شيخاً من أهل المدينة عالى السن حدثه به . وإذا لم يكن هذا الحديث صحيح النسبة للغاضرى ، فإنه — على كل حال — يبين لنا ما كان معروفاً به فى أحاديثه[٣] .

٢٢٣ — محمد بن عباد (٢١٠ : ١٥)

لست أدرى ، على التحقيق ، الشخصية المقصودة بهذا الاسم ، وهو هنا أديب من مشايخ الظرفاء ، بخيل مشهور البخل ، فأنا أكاد أستيقن أن ليس المقصود به محمد بن عباد المهلبى ، أمير البصرة المتوفى سنة ٢١٤ ؛ فذلك رجل مشهور بالسخاء والأريحية ، حتى إن المأمون ليقول له : « أردت أن أوليك ، فمنعنى إسرافك فى المال » ؛ فقال « منع الموجود سوء ظن بالمعبود »[٥] . وقال أبو العباس المبرد ، فى صفته : « كان سيد أهل البصرة أجمعين »[٤] . وليس يتفق هذا مع الصورة التى صورها الجاحظ هنا لمحمد ابن عباد .

على أن هناك شخصية أخرى بهذا الاسم ، يذكرها الجاحظ ويروى عنها ، ولعلها هى المقصودة هنا ، فهى شخصية أديب كاتب شاعر ، لا يبعد أن تنطبق عليها تلك الصورة ، وهى شخصية محمد بن عباد بن كاسب . وقد عرف به بأنه كاتب زهير ، ومولى بجيلة ، من سبى دابق ، وأنه كان شاعراً راوية ، وطلابة للعلم علامة[٦] وذكره فى

---

(١) جمع الجواهر ، ص ٥٦ ، ١٢٤ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٥٢ .
(٣) الحيوان ٥ : ٢٤١ — ٢٤٣ ط الحلبى .
(٤) تاريخ بغداد ٢ : ٣٧١ .
(٥) الكامل للمبرد ٢ : ٢٥ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٥١ ط ١٩٣٢ م .

موضع آخر بأنه صديق ثمامة[١] وقد روى له فى هذا الموضع قطعة من الشعر الهجائى، أشبه فى ديباجتها بشعر الكتاب ، يهجو بها أبا سعيد ، دعى بنى مخزوم . وفى رسالة أبى بكر الصولى إلى أبى الليث مزاحم بن فاتك أبيات أخرى من هذه القطعة[٢] . وأكبر الظن أن محمد بن عباد هذا هو محمد بن عباد الذى روى عنه الجاحظ — أو أسند إليه — حديث أبى المبارك الصابى[٣] .

وقد وقع الخلط بين محمد بن عباد هذا ومحمد بن عباد المغنى المكى[٤] ، الذى ترجم له أبو الفرج [٥]، والشخصيتان مختلفتان — فيما عدا الاسم — اختلافاً تاماً .

٢٢٤ — الورشان (٢١٢ : ١)

ذكره القلقشندى فى الكلام على « القمرى » فقال إنه ذكر القمرى ، وإنه يوصف بالحنو على أولاده ، حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها فى يد القانص ، وذكر أنه يسمى ساق حر ، ويكنى أبا الأخضر ، وأبا عمران ، وأبا الناجية ، وأن ابن سيده عده ، فى المحكم ، من الحمام[٦] .

وعد النويرى من أصنافه النوبى ، وهو ورشان أسود ، والحجازى . وقال إن النوبى أشجاها صوتاً[٧] .

وذكر صاحب القاموس أن لحمه أخف من الحمام ، وأورد فيه مثلا يقول : « بعلة الورشان ، يأكل رطب المشان » ، يضرب لمن يظهر شيئاً والمراد منه شىء آخر . والذى نعتبره فى هذا المثل أنه يسكن أعالى النخل .

---

(١) الحيوان ١ : ٢٦٥ .
(٢) أخبار أبى تمام للصولى ، ص ٤٥ — ٤٦ .
(٣) الحيوان ١ : ١٢٦ — ١٢٨ .
(٤) انظر هامش ص ٤٥ — ٤٦ من أخبار أبى تمام ، هامش ص ٢٦٥ من الجزء الأول من الحيوان ، ط الحلبى .
(٥) الأغانى ٦ : ١٧١ — ١٧٢ ط دار الكتب .
(٦) صبح الأعشى ٢ : ٧٣ .
(٧) نهاية الأرب ١٠ : ٢٥٩ .

٢٢٥ ـ الكردناج (٢١٢ : ٤)

جاءت هذه الكلمة أيضاً فى خبر رواه الآبى عن كتاب الأكلة للمدائنى : « . . . فأكل جميع دجاجة كردناك »[١] ، وليس يفيد هذا النص شيئاً فى تفسير الكلمة ، ولعلنا نستطيع أن نتفهمها من القصة التى جاءت فى سياقها ، عن شيلمة ، محمد بن الحسن بن سهل ، كما ذكرها ياقوت . فقد كان محمد بن الحسن هذا شريكاً فى مؤامرة كان يدبرها أحد أولاد الواثق ، لينتزع الخلافة لنفسه من المعتضد . ولكن هذه المؤامرة لم تلبث ـ بالرغم من اتساع نطاقها ـ أن أحبطت ، وقبض على شيلمة ، وعرفت أسماء المؤتمرين إلا اسم « المستخلف » ، فأخذ المعتضد « يسائل شيلمة عن الخبر . فصدقه عن جميع ما جرى إلا اسم الرجل الذى يستخلف ، فرفق به ليصدقه عنه ، ، فلم يفعل . فطال الكلام بينهما ، فقال له شيلمة : والله لو جعلتنى « كردناكاً » ما أخبرتك باسمه قط . فقال المعتضد للفراشين : هاتوا أعمدة الحديد الكبار الثقال ، وأمر أن يشد عليها شداً وثيقاً ، وأحضروا فحماً عظيماً ، وفرش على الطوابيق بحضرته ، وأججوا ناراً ، وجعل الفراشون يقلبون تلك النار ، وهو مشدود على الأعمدة ، إلى أن مات »[٢] .

وهذه الصورة تدلنا على أن « الكردناج » هو اللحم المشوى على السفافيد ، وأحسب أن كلمة « كردناج » تدل بالفارسية على « السفود » كما جاء فى شعر إسماعيل بن عمار .

يشوى لنا الشيخ شورين دواجنه بالجردناج وشحاج الشقابين[٣]

٢٢٦ ـ التبليا والبربند (٢١٢ : ٧)

أداتان لصعود النخل ، فأما « البربند » ففارسية معناها الرباط . وأما « التبليا » فقد جاء فى مقالة للعلامة فرنكل Fraenkel تضمنت بعض الكلمات الآرامية أن هذه الكلمة مأخوذة عن : كلمة آرامية فى لفظها ومعناها المصعد المصنوع من الحبال . ثم ذكر أن هذه الكلمة غير مستعملة الآن فى العراق[٤] . وقد أشار إليها صاحب اللسان عرضاً فى مادة « ش و ى »[٥].

---

(١) نثر الدرر ٢ : ٢٢٠ خ دار الكتب .

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٣) الأغانى ١١ : ٣٦٦ ط دار الكتب .

(٤) Z.D.M.G. 1906,369-370 .

(٥) « والشاة التى يصعد بها النخل ، فهو المصعاد وهو الشوائى . قال وهو الذى يقال له « التبليا » ؛ وهو الكر بالعربية » (١٩ : ١٨٠) . وانظر مادة « ك ر ر » (٦ : ٤٥١) .

٢٢٧ – إبراهيم بن سيابه (٢١٢ : ١٠)

شخصية من شخصيات النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة . يمثل هذه الطبقة من الأدباء أو المتأدبين الذين غلب عليهم حب النادرة ، والحياة اللاهية العابثة ، والذين يعدون فى مجالس المترفين لوناً من الألوان الضرورية لها . وكذلك كانت صلته بالفضل ابن الربيع . وبإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق . وصفه أبو الفرج بأنه « من مقاربى شعراء وقته ، وليست له نباهة ولا شعر شريف ، وإنما كان يميل بمودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحاق ، فغنيا فى شعره ورفعا منه ، وكانا يذكرانه للخلفاء والوزراء ويذكرانهم به إذا غنيا فى شعره ، فينفعانه بذلك . وكان خليعاً ماجناً طيب النادرة »[١] .

وكذلك استطاع أن يتصل بيحيى بن خالد البرمكى ، وقد أورد الجاحظ رسالة كتبها إليه ، يتنصل فيها ويعتذر ويتخشع ويتضرع . وقال فى تقديمها : « وبلغنى أن عامة أهل بغداد يحفظونها فى تلك الأيام »[٢] . وله أيضاً مثل هذا الاعتذار والتضرع فى قطعة من الشعر وجه بها إلى الفضل بن الربيع[٣] .

٢٢٨ – ابن عون (٢١٣ : ١٠)

هو أبو عون ، عبد الله بن عون بن أرطبان ، أحد نساك البصرة ومحدثيها ، من الطبقة التى تلى طبقة الحسن وبكر بن عبد الله . ولد سنة ٦٦ ، عام خروج مصعب لقتال المختار ، كما يقول ابن قتيبة[٤] وعاش إلى سنة ١٥١ . ويعد فى المحدثين المتزمتين الضابطين ، فهو مثال لرجل الحديث الذى يكره المراء ويمقت الجدل ويتجنب الاسترسال فى القول . وقد كانت هذه أظهر صفاته ، كما يتردد ذلك فى الأخبار المختلفة التى تؤثر عنه[٥] .

---

(١) الأغانى ١١ : ٦ ط التقدم .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٠ ط ١٣٣٢ هـ . وانظر أيضاً الوزراء والكتاب ص ٢٠٣ ط الحلبى .

(٣) الأغانى ١١ : ٧ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ٢٤٥ .

(٥) حلية الأولياء لأبى نعيم ٣ : ٣٧ – ٤٤ .

٢٢٩ – عمرو بن عبيد (٢١٣ : ١١)

أبو عثمان ، عمرو بن عبيد بن باب ، أحد شيخى المعتزلة الأولين .

وكان جده « باب » من سبى فارس ، ومن موالى تميم . وكان أبوه « عبيد » نساجاً ، ثم تحول شرطياً أو حارس سجن ، فى أيام الحجاج ، وأما عمرو فقد نشأ فى حلقة الحسن البصرى هو وصديقه واصل ، وبدأ داعية من الدعاة كما كان الشأن فى كثير من تلاميذ الحسن ، وتأثر بجو الزهد والنسك الذى كان يحيط به . ثم لم يلبث أن اختلف واصل وشيخه فى الحكم على صاحب الكبيرة ، فاعتزل حلقته ، واعتزلها معه عمرو ، وأخذا يكونان فرقة جديدة كانت من أبلغ الفرق أثراً فى الحياة العقلية فى الإسلام ، وهى فرقة المعتزلة . وإذا كان واصل صاحب الأثر الأكبر فى تكوين هذه الفرقة ، بما كان يمتاز به من قوة الحجة ، وحضور البديهة ، والقدرة على الجدل والمناظرة ، فإن عمرو بن عبيد كان أثره غير قليل بما كان له من شخصية مترفعة ، وسمعة جليلة ، وزهد أصيل . ولا ريب أن مواقفه مع المنصور كانت ما تزال تتردد فى البيئات البصرية بين الإعجاب والفخر . وقد أورد شيئاً من هذه المواقف الخطيب البغدادى فى الفصل الطويل الذى كتبه عنه[١] ، كما أورد ابن قتيبة طرفاً من حديثه فى مجلسه[٢] .

وقد تعرض عمرو بن عبيد لخصومة المحدثين العنيفة التى تظهر ألوانها المختلفة فى ذلك الفصل الذى كتبه الخطيب ، ولكنه كان يدفع هذه الحملة بمسلكه ، ويقابلها صامتاً . وحكى الجاحظ أن رجلا قال له : إنى لأرحمك مما يقول الناس فيك . قال : أفتسمعنى أقول فيهم شيئاً ؟ قال : لا . قال : فإياهم فارحم[٣] .

وفى العقد كتاب وصف بأنه كتاب واصل بن عطاء الغزال إلى عمرو بن عبيد ، وهو كتاب عجيب ينكر عليه مسلكه فى « تفسير التنزيل وعبارة التأويل » ، والكتاب أجدر أن يكون كتاب محدث ، لا كتاب متكلم ، فضلا عن أن يكون شيخ المتكلمين . وهذا إلى أن فيه ما يكاد يكون صريحاً فى نفى نسبته إلى واصل ، إذ يقول له ، يذكر

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٦٦ – ١٨٨ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٢٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ٢ : ٤٧ .

مجلسه من الحسن : «وأنت عن يمين أبى حذيفة أقربنا إليه» وأبو حذيفة هو واصل نفسه[١] .

وقد مات عمرو بن عبيد فى أيام المنصور ، سنة ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٤ .

٢٣٠ ـ مساور الوراق (٢١٣ : ١٩)

شاعر كوفى من طبقة حماد عجرد ، وفيه دعابة تلك الطائفة ، وقد ظهرت هذه الدعابة بصورة واضحة فى قصيدته التى يسخر فيها من هذه الطبقة التى تتصنع الديانة ، التماساً للعائدة ، وهى التى يبدؤها بقوله :

شمر قميصك ، واستعد لنائل واحكك جبينك للقضـــاء بثوم[٢]

وهذه القصيدة تصور حالة اجتماعية أجدر أن تكون كوفية منها أن تكون بصرية ، إذ كاد القضاء فى ذلك الوقت أن يكون خاصاً بالكوفيين .

كما ظهرت فى قصيدة أخرى أوردها ابن عبد ربه ، وهى فى وصف مائدة من موائد السراة ، وهى قصيدة جميلة الوصف ، لطيفة الأسلوب ، خفيفة الدعابة[٣].

وكان مساور ـ إلى جانب كونه شاعراً ـ متصلا بالبيئات الدينية فى الكوفة ، وله شعر فى مدح أبى حنيفة[٤] وهو نفسه يعد فى المحدثين . وله ترجمة قصيرة فى تهذيب لتهذيب[٥].

٢٣١ ـ ابن القميئة[٦] (٢١٤ : ٣)

البيت الذى ذكره له هنا الجاحظ من قطعة أوردها فى موضع آخر ، وقبله هذه الأبيات[٧] :

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٨٦ . ط لجنة التأليف .

(٢) الأغانى ١٦ : ١٦٨ ، وانظر البيان والتبيين ٣ : ٨٨ ط ١٣٣٢ هـ .

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٨٢ ط ١٢٩٧ هـ (٤ : ٢٩٥ ط ١٩١٣ م) .

(٤) عيون الأخبار ٢ : ١٤٠ .

(٥) تهذيب التهذيب ١٠ : ١٠٣ .

(٦) هكذا جاء الاسم هنا بالألف واللام (على القول بلمح الأصل) ، والمشهور « ابن قميئة » مجرداً عنهما .

(٧) الحيوان ٥ : ٧٣ ط الحلبى .

ليس طعمى طعم الأنامل إذ قلّ ... ص درّ اللقاح فى الصنبر
ورأيت الإماء كالجعثن البا ... لى عكوفاً على قُرارة قِدر
ورأيت الدخان كالودع الأهـ ... ـجَن ينباع من وراء السّتر

وابن قميئة هو عمرو بن قميئة بن ذريح البكرى، شاعر من أقدم الشعراء الجاهليين، من عصر مهلهل بن ربيعة التغلبى. «وتزعم بكر بن وائل أنه أول من قال الشعر وقصّد القصيد» [1]. ويعده ابن سلام فى شعراء ربيعة الذين ابتدأ الشعر بهم قبل أن يتحول فى قيس كالمرقشين وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة[2].

نشأ يتيما فى كفالة عمه مرثد بن سعد. وقضى زمناً فى الحيرة، والرواة يقصون فى سبب رحيله إليها قصة زعموا أنها وقعت بينه وبين زوج عمه، وليست هناك[3]. كما أنه صحب امرأ القيس فى رحلته إلى بلاد الروم وكان إذ ذاك شيخاً «خلا من عمره وكبر». قالوا: وإياه عنى امرؤ القيس بقوله:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك، إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

كما قالوا: إنه مات معه فى طريقه، وسمته العرب عمراً الضائع، لموته فى غربة، وفى غير أرب ولا مطلب.

ويعد ابن قميئة فى المعمرين، وله قصيدة من أجود الشعر يذكر فيها أنه جاوز التسعين، جعله بها حماد الراوية أشد الناس، كما حكى عنه الهيثم بن عدى[4].

٢٣٢ ـ مذهب الأصمعى فى المبتدل والمتروك (٢١٤ : ١١)

يقول الجاحظ هنا: «كان الأصمعى يقول: قد كان للعرب كلام على معان، فإذا ابتدلت تلك المعانى لم تتكلم بذلك الكلام».

وقد علق «مرسيه» على هذا بقوله: «يجب أن نضيف كلمة «تزل» بين «لم»

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٠٠، ط القدسى ١٣٥٤ هـ.
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٢، ط السعادة. (ص ٣٤، ط دار المعارف، ١٩٥٢).
(٣) الأغانى ١٦ : ١٥٨ ط التقدم.
(٤) المصدر نفسه ١٦ : ١٥٩، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ط الحلبى.

و « تتكلم » ليؤدى النص معنى مقبولا » ثم يقول : « بيد أن من الممكن أن الجاحظ قد خلط هنا بين نوعين من الكلمات : الكلمات التى احتفظت اللغة بها ، وهى تفسر بعادات قديمة مهجورة ، والكلمات التى اختفت من المعجم اللغوى ببطلان الحوادث التى تدل عليها ، أى « المتروك »، كالنشيطة والمرباع والنوافج وغير ذلك مما ذكر السيوطى فى المزهر (١ : ١٤٢) » .

والذى يظهر من كلام الجاحظ أن هذا كان مذهب الأصمعى : إلغاء التعبيرات التى بطلت معانيها الأولى . ومما يدل على ذلك قوله بعد هذا : « وفى قياس قول الأصمعى أن أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم كانوا لا يقولون : ساق فلان صداقه » ، وقوله : «وكان الأصمعى يقول : لا يقولن أحدكم : أكلت مله ، بل : أكلت خبزه » .

وأصرح من هذا فى رواية مذهب الأصمعى ما ساقه الجاحظ فى الحيوان : « ومنه قولهم : ساق إلى المرأة صداقها . قال : وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون فى الصداق إبلا ، وتلك الإبل يقال لها : النافجة . . . قال : فإذا كانوا يدفعون الصداق عيناً وورقاً فلا يقال : ساق إليها الصداق . ومن ذلك أنهم كانوا يضربون على العروس البناء ، كالقبة والخيمة والخباء ، على قدر الإمكان ، فيقال : بنى عليها ، اشتقاقاً من البناء ، ولا يقال ذلك اليوم ، والعروس إما أن تكون مقيمة فى مكانها ، أو تتحول إلى مكان أقدم من بنائها »[1].

فهذا مذهب الأصمعى فى صلاحية تلك التعبيرات ، وليس فى الخبر عن استعمالها فى عهده . وأما أن الجاحظ خلط بين النوعين فغير صحيح ، فهو كما ذكر هذا النوع ، ذكر النوع الآخر ، وهو ما يسمى بالمتروك ، « وأسماؤه زالت مع زوال معانيها ، كالمرباع والنشيطة »[2].

٢٣٣ – بسطام بن قيس ، ومالك بن المنتفق ، وعاصم بن خليفة (٢١٦ : ٧ – ٨)

يشير الجاحظ فى ذكره لهؤلاء الفرسان الثلاثة إلى يوم الشقيقة ، وهو يوم كان لضبه على شيبان . وقد قتل بسطام بن قيس ، سيد شيبان فى هذا اليوم . قتله عاصم بن

---

(١) الحيوان ١ : ٣٣٣ – ٣٣٤ .

(٢) الحيوان ١ : ٣٣٠ .

خليفة الضبي . وقد فصل حديث هذا اليوم فى نقائض جرير والفرزدق المنسوب إلى أبى عبيدة[١] ، عند قول الفرزدق :

وأصحاب الشقيقة يوم لاقـوا بنى شيبـان بالأسـل الحرار

وكذلك نجد ذكر هذا اليوم فى الكامل لابن الأثير[٢].

٢٣٤ ـ أمية بن أبى الصلت (٢١٧ : ١)

هو أمية بن عبد الله[٣] أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، وأمه قرشية وهى رقية بنت عبد شمس بن مناف . شاعر من طراز فريد فى الشعر الجاهلى ، إذ كان ـ كما يقول أبو الفرج ـ « قد نظر فى الكتب وقرأها ، وحرم الخمر وشك فى الأوثان ، وكان محققاً ، والتمس الدين وطمع فى النبوة »[٤] وقد كان شعره مظهراً لهذه المعرفة ، وكان من أسبابها رحلاته التجارية إلى الشام واليمن ، إذ أتاحت له أن يلابس رجال الدين وأن يقرأ شيئاً من كتبهم ، فجاء شعره يردد تلك القصص والأساطير الدينية ، مما لم يكن الشعراء يعرضون له إلا بالإشارات الخاطفة .

ويصفه الجاحظ بأنه « كان داهية من دواهى ثقيف . وثقيف من دهاة العرب . وقد بلغ من اقتداره فى نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الخصال التى يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له . نعم ! وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات ودرس الكتب . وقد بان عند العرب علامة ، ومعروفاً بالجولان فى البلاد ، راوية »[٥].

وأدرك أمية الإسلام ، ولكنه لم يسلم ، بل إنه كان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ـ كما يحكى أبو الفرج فى ترجمته له ـ وكان يرثى من قتل من قريش فى وقعة بدر ، وقريش أخواله كما تقدم . وقد أورد أبو الفرج من رثائه لهم هذا البيت .

ماذا ببـدر والعقنـ قـل من مرازبة جحـاجح

ثم قال : « وهى قصيدة نهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن روايتها » .

---

(١) ١ : ٢٢٠ – ٢٢٣ ط الصاوى .
(٢) ١ : ٣٧٤ ط المنيرية .
(٣) هذه رواية الأغانى فى اسم أبيه ، وقد جاء فى الحيوان (٧ : ١٩٨) ان اسمه ربيعة .
(٤) الأغانى ٤ : ١٢٢ ، ط دار الكتب .
(٥) الحيوان ٢ : ٣٢٠ ط الحلبى .

وإن يكن شعر أمية قد ضاع أكثره شأن أكثر الشعر فى العصر الجاهلى ، وفى هذه الفترة ، فقد بقيت لنا طائفة من شعره ، ولا سيما الشعر الذى يمثل تلك النزعة الدينية إلى حكاية الأساطير المأخوذة من كتب أهل الكتاب .

وقد أورد الجاحظ طائفة من شعره هذا ، نحو عشر قطع[١] ، كما أن له ديواناً طبع فى بيروت ، ويحتاج ما يتضمن من الشعر للتحقيق .

٢٣٥ ـ ابن مناذر (٢١٧ : ١٢)

هو محمد بن مناذر ، شاعر بصرى تميمى ، من بنى صبير بن يربوع . وكان معاصراً لأبان بن عبد الحميد اللاحقى ، ويتهمه أبان بأنه لا يجيد الشعر إلا فى المراثى ، وقد أورد له الصولى قطعة فى هجاء أبان ، وهى من الهجاء الماجن[٢] . ومما كان يقال فى شعره ما قاله أبو العتاهية له : « شعرك مهجن لا يلحق بالفحول ، وأنت خارج عن طبقة المحدثين. فإن كنت تشبهت بالعجاج ورؤبة ، فما لحقتهما ، ولا أنت فى طريقهما. وإن كنت تذهب مذهب المحدثين ، فما صنعت شيئاً »[٣].

٢٣٦ ـ القطامى (٢١٧ : ١٥)

هو عمير بن شييم بن عمرو ، شاعر تغلبى أموى ، عده ابن سلام فى الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين مع البعيث وكثير وذى الرمة ، ووصفه بأنه كان « شاعراً فحلا رقيق الحواشى ، حلو الشعر »[٤]، وكان ـ كالأخطل ـ من نصارى تغلب . ومنازل تغلب كانت فيما بين الخابور والفرات ودجلة من أرض الجزيرة .

وقد عاش القطامى فى أثناء الفتن التى كانت بين قيس من ناحية ، واليمن وتغلب من ناحية أخرى . وجعل يقول الشعر فى تأريث الحرب ضد قيس ، مع الأخطل وعمرو

---

(١) انظر الحيوان ٢ : ٣٢١ ـ ٣٣٦ ، ٣ : ٥١١ ، ٤ : ١٤ ، ٤٦٦ ـ ٤٦٧ ، ٥ : ٤٣٦ ، ٧ : ١٩٨ ط الحلبى .

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ، ط الصاوى .

(٣) الأغانى ٤ : ٩٠ ـ ٩١ ط دار الكتب المصرية .

(٤) طبقات الشعراء ، ص ١٨٠ ، ط السعادة . (ص ٤٥٢ ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .

ابن الأهتم ومن إليهما من شعراء تغلب[١] . وقد أسر القطامى فى بعض هذه الحروب، وأخذ ماله . ولكن زفر بن الحارث الكلابى قام بأمره ، حتى رد عليه ماله وجميع ما أخذ منه ووصله ، كما يقول البلاذرى ، وقد مدحه بشعر من أصدق الشعر وأرقه[٢].

وللقطامى ديوان شعر مطبوع فى ليدن ، وقد ترجم له أبو الفرج[٣] .

والقطعة التى أوردها الجاحظ هى قطعة من قصيدة رائعة الوصف ، يهجو بها امرأة من محارب ، نزل بها فلم تقره ، وهى فى ديوانه ، وفى الأغانى ، وفى زهر الآداب للحصرى[٤].

٢٣٧ ـ الراعى (٢١٨ : ٤)

هو عبيد بن حصين النميرى ، يعده ابن سلام فى الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين ، ويقول عنه إنه «كان من رجال العرب ووجوه قومه ، وكان ـ مع ذلك ـ بذيئاً هجاء لعشيرته» . وقد عاش فى تلك الفترة التى أشرنا إليها ، وشارك أيضاً فى تلك الفتن بشعره ، وقد أورد له البلاذرى بيتين يذكر فيهما ما كان بين قيس وتغلب فى يوم الخابور ويوم ماكسين[٥] ، ومن أجل هذا لم يستطع أن يتصل بالخليفة ، «وكان عبد الملك ثقيل النفس عليه» كما يقول ابن سلام[٦] . ولكنه استطاع أن يتصل ببشر بن مروان ، أمير العراق ، فكان من أصحاب مجلسه ، وله شعر فى مدحه .

ويذكر الراعى فى المعركة الشعرية التى كانت بين الفرزدق وجرير ، وكان فى جانب الفرزدق فهجاه جرير بقصيدته التى كان معجباً بها ، وكان يسميها الدماغة والدهقانة[٧]

أقلى اللـــوم عاذل والعتـــابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

وقد صار الراعى بعد ذلك مغلّباً . وقال فيه رجل من قومه : «كان فحل مضر ، حتى ضغمه الليث» .

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٣١٥ ـ ٣١٦ .

(٢) طبقات الشعراء، ص ١٨٠–١٨١ ،(ص٤٥٣–٤٥٤ ط المعارف) أنساب الأشراف ٥ : ٣٢٨ .

(٣) الأغانى ٢٠ : ١١٩ .

(٤) ٣ : ٧١ ـ ٧٢ ، ط الرحمانية .

(٥) أنساب الأشراف ٥ : ٣١٨ .

(٦) طبقات الشعراء ، ص ١٧٤ . (ص ٤٣٧ ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .

(٧) النقائض بين جرير والفرزدق ٢ : ١٣٢ ـ ١٥٥ ، ط الصاوى ، وانظر ترجمة الراعى فى الأغانى ٢٠ : ١٦٨ ، وشعره فى حماسة أبى تمام ، وجمهرة أشعار العرب .

٢٣٨ ـ الغنوى (٢٢٠ : ٦)

لم يعين واحداً بعينه . ولعله يكون أحد الشاعرين : طفيل بن عوف ، وكعب بن سعد .

فالأول هو أبو قران ، طفيل بن عوف بن ضبيس الغنوى ، شاعر جاهلى اشتهر بإجادة صفة الخيل ولذلك كان يسمى بطفيل الخيل ، كما يقال له « طفيل المحبر » لحسن شعره[١] .

وله ديوان مطبوع ، وقد ترجم له أبو الفرج[٢] .

وأما الآخر فهو كعب بن سعد ، أحد بنى سالم بن عبيد ، وهو شاعر إسلامى[٣] .

٢٣٩ ـ العجير (٢٢٠ : ١٠)

هو أبو الفرزدق ، العجير بن عبد الله ، شاعر من بنى سلول ـ وهم أبناء عم بنى عامر بن صعصعة ـ ومن شعراء العهد الأموى . وقد وصفه المرزبانى بأنه شاعر من المحسنين[٤] ، وعده ابن سلام فى شعراء الطبقة الخامسة مع أبى زبيد الطائى وعبد الله ابن همام السلولى ونفيع بن لقيط الأسدى[٥] ، وإن كان لم يتحدث عنه ، وإنما اكتفى بإيراد قطعتين من شعره .

وهو شاعر بدوى أعرابى ، ولد فى البادية ونشأ بها ، ولم يتصل بعبد الملك بن مروان أو هشام بن عبد الملك إلا وافداً . وشعره يمثل الروح البدوية تمثيلا صادقاً فى ديباجته وفى المثل التى يصورها ، وهى مثل الرجولة كما كان يتصورها عربى البادية بمظاهرها المادية والمعنوية جميعاً . فمن الأولى تلك القصيدة التى رواها ابن الأعرابى وقال إنه قالها فى رفيق له يقال له « أصبح » ، وكانا يصيبان الطريق معاً ، ومن الأخرى قصائده التى يتحدث فيها عن كرمه وقراه للأضياف ، وهو يخاطب زوجته أم خالد أو أم مالك ، وما إلى ذلك من المعانى العربية التى نراها بصورة بينة فى مراثيه التى قالها فى ابن عمه سليم بن زيد السلولى[٦] .

---

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ، ص ٨٤ ، اللآلى ص ٢١٠ .

(٢) الأغانى ١٤ : ٨٨ .

(٣) اللآلى ، ص ٧٧١ ـ ٧٧٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٢٣٢ .

(٥) طبقات الشعراء ص ١٩٦ ، ص ٥٠٥ ط دار المعارف ١٩٥٢

(٦) انظر الأغانى ١١ : ١٤٩ ـ ١٥٠ ، وابن سلام ص ١٩٩ ـ ٢٠١ وحماسة أبى تمام ١ : ٣٨٧ ـ ٣٨٨ و٢ : ٢٦٥ ـ ٢٦٧ ومعجم البلدان ٨ : ٢٢ ـ ٢٣ .

٢٤٠ ـ أبو سعيد الخدرى (٢٠ : ١٦)

هو سعد بن مالك بن سنان ، صحابى أنصارى ، من الخزرج . وكان من أكثر الذين رووا عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وعاش إلى سنة ٧٤[١].

٢٤١ ـ المغيرة بن شعبة (٢٢١ : ٥)

أحد الشخصيات العربية البعيدة الأثر فى تكوين الدولة الإسلامية الأولى . وهو ثقفى الأصل ، ولد قبل الهجرة بعشرين عاماً ، وأسلم قبل الحديبية ، وقد شهدها مع الرسول ، وكان له موقف فيها مع أحد رسل قريش : عروة بن مسعودالثقفى ، حكاه ابن هشام[٢] ، كما كان فى الوفد الذى بعثه الرسول إلى ثقيف حين غزا الطائف ، سنة ثمان[٣] فلما كان عهد الفتوح فى أيام عمر بعثه مدداً لسعد بن أبى وقاص وهو مقبل على القادسية سنة ١٤ ، كما شهد بعد ذلك فتح الأبلة . ثم لم يلبث أن صار أمير البصرة بعد موت واليها عتبة بن غزوان سنة ١٥ ، ويذكر ابن حجر أنه كان أول من وضع الديوان بها[٤] ، وقد ظل عليها إلى سنة ١٧ حين أشخصه الخليفة إليه للتحقيق معه فيما ادعاه عليه أبو بكرة وقذفه به[٥] ، ثم ولاه بعد ذلك أذربيجان بعد فتحها سنة ٢٢ ، كما ولى الكوفة وبقى عليها إلى أيام عثمان ، فأقره ثم عزله . وقد وقف فى فتنة عثمان موقفاً محايداً ، وكذلك كان شأنه فى الخصومة بين على ومعاويه . فلما صار الأمر إلى معاوية استعمله على الكوفة ، وقد ظل عليها إلى أن مات سنة ٥٠ . وقد وصف الطبرى حكمه فيها بقوله : « فأحب العامة ، وأحسن فى الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم . وكان يؤتى فيقال له : إن فلاناً يرى رأى الشيعة ، وإن فلاناً يرى رأى الخوارج ، فكان يقول : قضى الله ألا يزالون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون»[٦] .

---

(١) تهذيب التهذيب ٣ : ٤٧٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢١٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٣١٤ وانظر أيضاً ٢ : ٣٥٠ .

(٤) الاصابة فى تمييز الصحابة ٣ : ٩٢٧ ، ط كلكوتا ، ١٨٨٨ م .

(٥) انظر تاريخ الطبرى ١ : ٢٥٢٩ — ٢٥٣٣ ، ط بريل ، ١٨٩٣ ، الأغانى ١٤ : ١٣٩ — ١٤٢ ، ط التقدم .

(٦) تاريخ الطبرى ٢ : ١٩ — ٢٠ ، ط بريل .

ويعتبر المغيرة من أصحاب الرأى والدهاء فى العرب ، وكان يلقب بمغيرة الرأى . وتؤثر عنه محاورة مع رستم قائد الفرس فى القادسية . وأخرى مع صاحب أصبهان[١].

٢٤٢ ـ سعد بن أبى وقاص (٢٢١ : ٥)

أحد كبار الصحابة ، قرشى ، زهرى . أحد العشرة المبشرين بالجنة ، كما كان من الستة « أصحاب الشورى » ، وقد وصفه عمر بأنه « صاحب مقنب وقتال »[٢] وكذلك كان ، فهو فاتح العراق ، وبطل القادسية ، وهو الذى اختط مدينة الكوفة بعد ذلك وقد وليها فى أيام عمر بن الخطاب . وكانت ولايته الكوفة سنة وتسعة أشهر . وقد شكا أهل الكوفة قوته وصرامته ، فخلف عليهم عمار بن ياسر ، فشكوا ضعفه ، فتولى بعده المغيرة بن شعبة . ثم وليها سعد فى أيام عثمان . ولم يلبث أن عزل عنها بالوليد ابن عقبة[٣] . وقد ترك العراق وعاد إلى المدينة ، وظل فيها إلى أن مات بها سنة ٥٥ .

٢٤٣ ـ عثمان الشحام (٢٢١ : ٧)

هو أبو سلمة عثمان الشحام العدوى ، راوية محدث ، من أهل البصرة . يروى عن عكرمة ، ويروى عنه حماد بن سلمة ، ووكيع بن الجراح[٤] . ويلاحظ أن الأصمعى يروى عنه أحياناً ، كأنه أحد شيوخه[٥].

٢٤٤ ـ عبد الملك بن عمير (٢٢١ : ١١)

أحد رجال الكوفة ومحدثيها ، وأصحاب الرواية والخبر فيها ، فى القرن الأول وأوائل القرن الثانى . وقد تولى قضاءها فى أيام الحجاج عاماً ، خلفاً للشعبى ، عامر بن شراحيل ، ثم لم يلبث أن استعفى من منصبه هذا فأعفى . ويذكر الرواة أن هذا المنصب عرضه لبعض ما يكره ، إذ أوقعه فى لسان بعض الشعراء ، وهو هذيل الأشجعى ، فى تلك القصة التى يذكرها الجاحظ وابن قتيبة وأبو الفرج ، وقد قضى فيها لإحدى المدعيات

---

(١) المصدر السابق ١ : ٢٣٥٠ ، ٢٦٤٣ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٦ ـ ١٧ .
(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ ـ ٢٧٩ .
(٤) الأنساب للسمعانى ، ورقة ٣٣٠ .
(٥) انظر مثلا : عيون الأخبار ١ : ١٠٤ .

على أهلها[١] . وقد كان عبد الملك بن عمير هذا — فيما يظهر — رجلا مرهف الحس ، شديد التحرج ، مبالغاً فى التحوط لمروءته .

وهو — فيما يقولون — عربى يمنى ، فصيح العبارة . وقد وصف أعرابى كلامه — فيما يحكى الجاحظ — بقوله : « لو كان الكلام يؤتدم به لكان هذا »[٢] . ومع هذا فهو يلقب بالقبطى . ولا ندرى ما حقيقة هذا اللقب الذى نجده فى شعر هذيل الأشجعى :

ففتنت القبطى حين قضى لهـا بغير قضاء الله فى السور الطول

فلو كان من بالقصر يعلم علمه لما استعمل القبطى فينا على عمل

على أن ذلك يثير فينا التساؤل عن العنصر القبطى فى الكوفة لذلك العهد ، وقد كان ينسب إليه غير واحد من أهلها .

وعبد الملك بن عمير هو أحد الذين يسند الهيثم بن عدى روايته إليهم ، ولكن الجاحظ يشك فى قيمة هذا الإسناد ، إذ كان يرى الهيثم وضاعاً مختلفاً للأحاديث ، كما سنرى ذلك فيما يلى .

٢٤٥ — الهيثم بن عدى (٢٢٢ : ٤)

هو أبو عبد الرحمن ، الهيثم بن عدى ، الطائى الكوفى ، منبجى الأصل وإن كان كوفى المولد ، ولد سنة ١٣٠ وعاش إلى سنة ٢٠٧ . « وكان أخبارياً علامة راوية ، نقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً » ، كما يقول ياقوت فى ترجمته له[٣] ، ثم يضيف إلى ذلك آراء علماء الحديث فيه . وهم مجمعون على تجريحه ، وأنه كان يكذب ، ولعل رجال الأدب لم يكونوا أقل اتهاماً له بوضع الأخبار ، وتوليد الأحاديث . فالجاحظ يقول بعد إيراده أسماء جماعة من ولد العباس ، من أصحاب العلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة : « وكان إبراهيم السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف ما فى كتب الهيثم ابن عدى وابن الكلبى ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور »[٤] . ويقول فى موضع آخر : « وهذه الأشياء ولدها الهيثم بن عدى »[٥] .

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٧١ ط ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٦٣ ، الأغانى ٤ : ٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٥٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٣٠٤ — ٣١٠ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ١٨٢ .

(٥) ٢ : ١٢٣ .

وقد رأينا أنه كان من صناعة الهيثم أن يسند أخباره إلى بعض الثقات ، كعبد الملك ابن عمير ، ولكن الجاحظ كان يشك فى صحة هذا الإسناد ، ونلاحظ هذا الشك فى غير موضع . من ذلك ما نقله عنه من صفة الأحنف مسنداً إلى أبى يعقوب الثقفى عن عبدالملك بن عمير ، فإذا أورد الجاحظ هذه الصفة علق عليها بقوله: « ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعه، ولولا أنه لم يجد بدًّا من أن يجعل له شيئاً على حال لما أقر أنه إذا تكلم جلى عن نفسه » [1] وإذن فليس عبد الملك بن عمير هو الذى يصف الأحنف هذه الصفة ، وإنما هو — فيما يرى الجاحظ — الهيثم بن عدى نفسه ، وإن أسند القول إلى عبد الملك بن عمير .

ونظير هذا ما نراه هنا فى هذا الحديث الذى يورده الجاحظ فى البخلاء ، مصدراً بقوله :

« وذكروا عن عبد الملك بن عمير . . . » ثم يعلق عليه بقوله : « وأنا أتهم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربى يعرف مذاهب العرب . وهو من أحاديث الهيثم » .

٢٤٦ — المنتجع بن نبهان (٢٢٣ : ١٤)

راوية كان علماء العراق يأخذون عنه . وقد ذكره الجاحظ فى رسالة فضل السودان ، فقال : « وكان المنتجع سندياً فى أذنه خرته ، وقع إلى البادية وهو صبى ، فخرج أفصح من رؤبة »[2] .

٢٤٧ — الأفوه الأودى (٢٢٣ : ١٦)

صلاءة بن عمرو بن مالك، من كبار الشعراء القدماء فى الجاهلية، كما يروى أبو الفرج فى ترجمته له ، وكان سيد قومه وقائدهم فى حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه[3]. ويذهب بعضهم إلى أنه أول من قصد القصيد[4] . وقد جمع الشيخ عبد العزيز الميمنى شعره ، وضمنه المجموعة التى أسماها بالطرائف الأدبية .

---

(١) ١ : ٣٢ ط ١٣٣٢ هـ .
(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ، ص ٦٥ .
(٣) الأغانى ١١ : ٤٤ .
(٤) المزهر ٢ : ٢٩٦ ط محمد على صبيح .

٢٤٨ ـ معن بن أوس (٢٢٤ : ٣)

شاعر من فحول الشعراء المخضرمين ، وقد عاش أكثر حياته فى الإسلام ، وهو من قبيلة مزينة ، وكانت منازلها بين مكة والمدينة . ويبدو أن الشعر الذى وصل إلينا من شعره شعر ناضج ، ولعله جميعاً شعر إسلامى .

وشعر أوس شعر رصين جيد الصنعة ، متمهل ، وقور ، وهو كثير الحكمة التى تصدر عن التمرس بالحياة . وقد دخل الشام ، وأقام بالبصرة زماناً ، ولكنه لم يكن يلبث حتى يحن إلى حياته البدوية . وحسبه أن يمدح سراة المدينة كعبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعاصم بن عمر بن الخطاب ، وسعيد بن العاص .

والقطعة التى هنا هى من قصيدة له يمدح بها سعيداً ، ومطلعها :

إليك سعيد الخير جابت مطيتى فروج الفيافى وهى عوجاء عيهل

وله ديوان شعر طبع فى ليبسج ، ثم طبع فى مصر .

٢٤٩ ـ سعيد بن العاص (٢٢٤ : ٣)

سرى من سراة المدينة المشهورين ، وهو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية . قتل أبوه يوم بدر وكان صغيراً ، فكفله عمه الحكم بن سعيد . فلما كانت خلافة عثمان كان سعيد شاباً فولاه الكوفة . فلم يلبث أن فسد الأمر بينه وبين أهلها فساداً أدى إلى انتقاض أهل الكوفة على عثمان على النحو الذى فصله البلاذرى[1] . وقد استدعاه عثمان فرجع إلى المدينة . وأقام فيها معه إلى أن كانت الثورة عليه ، فكان فى المدافعين عنه . فإذا كانت فتنة الجمل بين على وعائشة ، فقد اعتزل السياسة ، وأقام فى مكة .

وفى خلافة معاوية ولاه الحرمين ، وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم . وقد كانت تحدث بينهما أشياء ، ولكن سعيدا كان يرى نفسه أكبر من هذه الهنات ، وقد ظل على هذه الولاية حتى مات سنة ٥٩ .

وأحاديث كرمه وتخرقه فى الثناء كثيرة ، نجد أطرافاً منها عند البلاذرى وأبى الفرج وابن عبد ربه [2].

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٣٩ ـ ٤٧ .

(٢) أنساب الأشراف ، القسم الثانى من الجزء الرابع ، ص ١٣٠ ـ ٢٣٦ ؛ الأغانى ١ : ٣٢ ، ٣٣ ؛ العقد الفريد ١ : ٣٤٤ ـ ٣٤٧ ، ط لجنة التأليف .

٢٥٠ ـ الكميت (٢٢٥ : ٣)

هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدى ، شاعر كوفى أموى . « من شعراء مضر وألسنتها ، والمتعصبين على القحطانية ، المقارنين المقارعين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيام ، المفاخرين بها . وكان معروفاً بالتشيع لبنى هاشم » كما يقول أبو الفرج فى ترجمته له[١]. ويصفه الجاحظ فوق ذلك بأنه خطيب ، ويذكر معه فى ذلك البعيث والطرماح[٢] . وأشهر شعره « الهاشميات » ، وقد عاش إلى أواخر الدولة الأموية ، ولم يدرك العباسية .

٢٥١ ـ عبد الله بن الزبير (٢٢٦ : ٤)

هو أبو كثير ، عبد الله بن الزبير الأسدى[٣] . من أسرة معروفة بالشعر . كان أبوه الزبير بن الأشيم شاعراً ، وكذلك كان عمه مطير بن الأشيم[٤] . « وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية ، وكان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم ، والتعصب والنصرة على عدوهم » ، كما يقول أبو الفرج فى ترجمته[٥]. وأكثر شعره فى أسماء بن خارجة الفزارى . « وكان أسماء أموى الهوى » .

وكذلك يعد ابن الزبير من الشعراء الهجائين للناس المرهوب شرهم ، وقد هجا عبد الرحمن بن أم الحكم حين كان والياً على الكوفة من قبل خاله معاوية . وهجا عبدالله ابن الزبير بن العوام حين أسرف على أخيه عمرو بن الزبير فى العذاب حتى مات فى سجنه .

وقد أدرك عهد الحجاج فى الكوفة ، وخرج فى بعث له إلى الرى فمات فيها .

---

(١) الأغانى ١٥ : ١٠٨ – ١٢٥ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٢٧٢ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

(٣) يذكر صاحب القاموس أن الزبير أبا عبد الله هذا بفتح الزاى وكسر الباء كأمير .

(٤) انظر الأغانى ١٣ : ٤٦ ، ط التقدم ، معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٧٠ ، وكذلك كان الزبير ابن عبد الله بن الزبير شاعراً ، ممن اتصل بمحمد بن عيينة بن إسماعيل بن أسماء بن خارجة ومدحه .

(٥) الأغانى ١٣ : ٣١ – ٤٧ .

٢٥٢ ـ أسماء بن خارجة (٢٢٦ : ٤)

هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزارى . سرى من سراة الكوفة فى القرن الأول ، وإن لم يل للسلطان عملا ، كما يحكى ابن عبد ربه عنه وعن مالك بن مسمع[١] وهو أحد ثلاثة يعدون أجواد الكوفة الظاهرين[٢] وقد تزوج بشر بن مروان ابنته عند ما ولى الكوفة[٣] . مات فى عهد الحجاج ، ويروى الجاحظ أن الحجاج حين بلغه موته قال : « هل سمعتم بالذى عاش ما شاء ، ومات حين شاء »[٤].

٢٥٣ ـ ابن عبدل (٢٢٦ : ١٣)

هو الحكم بن عبدل الأسدى الغاضرى ، « شاعر مجيد فى طبقته ، هجاء خبيث اللسان ، من شعراء الدولة الأموية . وكان أعرج أحدب ، وكان من أطيب الناس وأملحهم » كما يقول أبو الفرج فى ترجمته[٥] وهو من بنى غاضرة ، وبنو غاضرة ـ كما يقول أبو الفرج أيضاً ـ قوم ظرفاء ، وقد رأينا فيهم من هو أهل النادرة . وبهذا الظرف وخفة الروح وحضور البديهة والنكتة الرائعة يمتاز شعر الحكم ، سواء منه ما كان فى باب الهجاء وغيره .

وقد ظل بالكوفة إلى أن ظفر ابن الزبير بالعراق ، وأخرج عنها عمال بنى أمية ، فخرج الحكم معهم إلى الشام ، وهناك اتصل بعبد الملك بن مروان ، وكان سميره : يتقارضان الشعر ، ويتذاكران أحوال العراق . ثم عاد من بعد إلى العراق .

وكان شديد الاتصال ببشر بن مروان ، وحين تحول بشر إلى البصرة صار معه إليها ، كما كانت صلته طيبة بابنه عبد الملك بن بشر ، على حين كانت صلته سيئة بالولاة الآخرين ، كيزيد بن هبيرة ، ومحمد بن حسان بن سعد ، وعمر بن يزيد الأسدى ، وكان يهجوهم هجاء لاذعاً ، وكان هذا الهجاء من وسائله إلى ارتفاع المنزلة . ويقول الجاحظ : « قالوا : ولما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن

---

(١) العقد الفريد ١ : ١٥٩ ط لجنة التأليف .
(٢) الأمالى لأبى على ٣ : ٢٠ ، العقد ١ : ٣٤٠ .
(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٧٣ .
(٤) البيان التبيين ١ : ١٤٤ .
(٥) الأغانى ٢ : ٤٠٤ .

سعد وغيره من الولاة هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الصغير والكبير — وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه — فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ، ويبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول ، ولا يؤخر لقراءة الكتاب ، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدر »[١].

هذا وعندنا أن الحكم بن عبدل يعتبر زعيم تلك المدرسة الماجنة العابثة التي صيرت ذلك العبث باباً من أبواب الفن ، ولا ريب عندنا فى أن أثره فيمن جاء بعده من شعراء الكوفة والبصرة كان أثراً غير قليل .

ولم يبق لنا من شعر الحكم إلا قدر غير كثير . على أن أكثر ما بقى له إنما نجده عند الجاحظ[٢] لا عند أبي الفرج . وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى قطعة ، قال إن النضر بن شميل أنشدها المأمون[٣] .

٢٥٤ — بشر بن مروان (٢٢٦ : ١٣)

هو أبو مروان ، بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ، أخو عبد الملك ، ووالى الكوفة فى عهده . وذكر البلاذرى أن بشراً كان منقطعاً إلى عبد العزيز بن مروان قبل أن يلى عبد الملك الخلافة ، فلما وليها استعمله على الكوفة ثم أضاف إليه البصرة بعد ذلك . وقد كانت ولايته ولاية كريمة ، إذ كان — كما يقول البلاذرى — « لين الولاية سهل الحجاب ، طلق الوجه ، كريماً . وكان صاحب شراب ينادم عليه » .

وقد كان مجلسه فى الكوفة ثم فى البصرة من أرحب الأندية الأدبية التى تتسع للشعراء المختلفين ، كجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وكثير ، وأعشى بنى شيبان ، وأيمن ابن خريم ، وسراقة البارقى ، ونصيب ، إلى غيرهم ، وكان بشر نفسه يتذوق الشعر ويلذه ، ويقوله فى بعض الأحيان ، كما كان يلذ له أن يؤرث بين الشعراء ليشهد ألواناً من المنافرة الأدبية .

ولم يزل بشر على الكوفة حتى ضمت إليه البصرة سنة أربع وسبعين ، فانحدر إليها ، ولكن مقامه لم يطل فيها ، إذ أدركته العلة ، وحضرته الوفاة بعد أشهر أربعة أو ستة[٤].

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٣٨ ، ط ١٣٣٢ هـ .

(٢) انظر مثلا : الحيوان ١ : ٢٣٦ ، ٢٤٩ — ٢٥٣ ، ٣٥٠ ، ٢ : ٣٠٥ ، ٣ : ٣٨٠ — ٣٨١ ، ٥ : ٢٩٧ — ٣٠٠ .

(٣) ص ١١٢ ط المنيرية .

(٤) انظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٦٦ — ١٨٠ .

٢٥٥ ـ الرقاشي (٢٢٧ : ١)

لا ريب أن المقصود بالرقاشي هنا الفضل بن عبد الصمد ، وإن جعله فان فلوتن في الفهرست التي وضعها لكتاب البخلاء الفضل بن عيسى الرقاشي ، وبينهما بون بعيد . فالفضل بن عيسى خطيب قاص متكلم ، من طبقة واصل وعمرو بن عبيد وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبه ، والفضل بن عبد الصمد شاعر أدنى إلى الخلاعة والمجون ، من طبقة أبي نواس وعمرو الوراق والحسين الخليع وداود بن رزين الواسطي وعلي بن الخليل اسماعيل القراطيسي ، وبقية هذه الجماعة التي كانت تعيش في البصرة عيشة لاهية عابثة ، وتتخذ من الشعر أداة حية لتصوير هذه الحياة .

والرقاشي هذا من أهل الري ، وقد مدح الرشيد وأجازه ، كما يقول أبو الفرج[١] إلا أن انقطاعه كان إلى آل برمك ، مستغنياً بهم عمن سواهم . وقد اشتدت صلته بهم ، وعظم تقديرهم له ، حتى إذا نكبوا كان أحد القلة القليلة التي بقيت على الوفاء لهم والتنويه بهم ، وقد « صار إليهم في حبسهم . فأقام معهم مدة أيامهم ، ينشدهم ويسامرهم ، حتى ماتوا فأكثر من رثائهم ، » وقد أورد أبو الفرج طائفة من مراثيه فيهم .

هذا وقد كانت بينه وبين أبي نواس مهاترة شعرية . وقد احتفظ لنا ديوان أبي نواس بمجموعة من أهاجيه فيه[٢] . أما شعره فقد ضاع معظمه ، فلم يبق لنا منه إلا القليل . وفي البيان والتبيين أرجوزتان قصيرتان في صفة القوس[٣] يعبران عن هذه النزعة البدوية التي كانت تظهر أحياناً في شعر هؤلاء الشعراء .

٢٥٦ ـ الآزاد مردية (٢٢٨ : ١٢)

أنقل هنا ما ذكره صديقي المرحوم الدكتور كروس عن « الشعوبية الآزاد مردية » في مقالة نشرها بهذا العنوان في مجلة الثقافة ، مناقشاً رأياً كنت ذهبت إليه في تفسيرها ، وأعترف هنا أني رجعت عنه ، وأنه ـ رحمه الله ـ كان موفقاً أحسن التوفيق في رأيه . قال :

---

(١) الأغاني ١٥ : ٣٤ ، ط التقدم .

(٢) ديوان أبي نواس ، ص ١٤٧ ـ ١٤٩ ، الحميدية ، ١٣٢٢ .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ٥٠ ، ٦٤ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

« ليس آزادمرد اسم علم ولا لقباً لأشخاص معينين ، بل هو تسمية فارسية للأرستقراطية الإيرانية ، تسمية يفتخر بها أنصار الشعوبية ، ويتحدون بها العرب والتراث العربى . وإن أردت فقل : إن لفظ الشعوبية المعروف عنه أنه مشتق من العبارة القرآنية « . . .شعوباً وقبائل . . . » لم يستعمله أنصار الوطنية الإيرانية إطلاقاً على أنفسهم ، وأنه ليس هنا كلمة إيرانية أجدر بأن تكون لقب شرف لمقاصدهم من لفظ الآزادمردية ، مما يكاد أن يفسر لك تلك الواو الصغيرة التى ربط بها الجاحظ بين الشعوبية « و » الآزادمردية .

هذا وقد يعرف كل من تعلم شيئاً من اللغة الفارسية أن آزاد معناه الحر ، ومرد معناه الرجل أو المرء ، وقد وردت الكلمة آزاد مرد الفارسية فى كثير من النصوص القديمة والحديثة بمعنى الرجل الكريم ، والنبيل ، وبعيد الهمة ، كما نجدها بهذا المعنى نفسه ، وبصيغة « آزات مرت » أو « اذاذ مرد » فى كثير من المصادر الفهلوية القديمة . وأمامى فى هذه اللحظة تصوير خاتم فهلوى ، من العهد الساسانى ، منقوش عليه اسم صاحبه هكذا : « أزبوتان آزاد مرد زمينى أوت » ومعناه : « أزبوتان المرء الحر من أرض أوت » .

أما بعد ، فإذ قد وصلنا إلى هذه الغاية ، فإنا نورد لك نصاً أخيراً ، يثبت ما نحن فيه أحسن الإثبات إذ استعملت فيه عبارة « الآزادمردية » فى المعنى بعينه الذى استعمله فيه الجاحظ ، فى كتاب البخلاء ، أى بمعنى الشعوبية والوطنية الايرانية ، وقد عثرت على هذا النص فى كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الاصفهانى . . . وهاك به :

« ذكر علماء الآزاد مردية أنهم ألفوا لغات جميع الأمم فى الكمية على ما كانوا ناطقين وعلى الحيلة فى مبدأ الكون ، لايتولد فيها الزيادات والنماء ، على مرور الأزمان ، وتصرم الليالى والأيام ، وأنهم وجدوا اللغة العربية على الضد من سائر لغات الأمم ، لما يتولد فيها مرة بعد أخرى » .

فهذ النصر يعبر عن مقاصد الشعوبية أحسن التعبير »[1] .

وأنا أسلم أن « الآزاد مردية » كانت تطلق على بعض الطبقات الرفيعة فى المجتمع الإيرانى[2] قبل الإسلام ، وقد بقيت هذه التسمية لطبقة معينة بعد الإسلام ، كما جاء فى الطبرى ، فى حوادث سنة ١٣٢ ، فى ذكر الخبر عن تبييض أبى الورد :

---

(١) مجلة الثقافة ، العدد ٢٢٤ ، السنة الخامسة (١٣ أبريل ١٩٣٤) ص ١٢ .

(٢) انظرا : Christensen, *Iran Sous les Sassanides.*

« فقدم بالس قائد من قواد عبد الله بن على، من الآزاد مردين، فى مائة وخمسين فارساً »[١].

على أن هذه الكلمة قد ترجمت إلى العربية منذ العصر الجاهلى ووضع بإزائها كلمة « الأحرار » أو « بنى الأحرار » ، على النحو الذى نراه فى شعر الأعشى ، إذ يتحدث عن وقعة ذى قار ويمدح بنى شيبان بن ثعلبة فى موقفهم إزاء الفرس ، وذلك إذ يقول :

تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولت[٢]

فبنو الأحرار تدل هنا على الفرس .

ثم نراها بعد ذلك فى كلام ابن المقفع دالة على طبقة بعينها ، إذ يقول فى كتابه الأدب الكبير : « ليتفقد الوالى — فيما يتفقد من أمور الرعية — فاقة الأحرار منهم ، فليعمل على سدها ، وطغيان السفلة منهم فليقمعه »[٣] فكلمة « الأحرار » هنا صريحة فى أنها تدل على الطبقة التى تقابل طبقة « السفلة » ، أى أنها تقابل كلمة « الأشراف » التى كانت تستعمل قبل ذلك ، وكذلك نراها مستعملة هذا الاستعمال فى شعر إسحاق ابن إبراهيم الموصلى إذ يفتخر بأصله وولائه :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى ودافع ضيمى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعداً غير قائم[٤]

ومثل هذا ما جاء فى شعر بشار :

تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار[٥]

فكل هذا — إلى غير ذلك من الشواهد — صريح فى أن كلمة « الأحرار » أصبحت تستعمل استعمالا خاصاً ، صادراً عن ذلك المعنى الذى كشف عنه الدكتور كروس للآزاد مردية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل جرت على الكلمة سنة العربية ، فاشتق منها ، فجاءت كلمة « الحرية » لا بالمعنى الذى يقابل العبودية ، بل بمعنى

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ١٣٧ ، ط الحسينية المصرية .
(٢) ديوان الأعشى الكبير ص ٢٦١ ط المطبعة النموذجية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
(٣) رسائل البلغاء ، ص ٦٦ ، ط ١٩١٣ م .
(٤) الأغانى ٥ : ٢٧٨ .
(٥) الأغانى ٣ : ١٦٦ .

الشرف والنبل ، فكانوا يقولون: « الحرية نسب[١] » و « أنت ابن الحرية والمروة ، ومن لا يلحقه عار أبوة ولا بنوة »[٢] ويقول الجاحظ فى مقدمة الحيوان : « وهل الغيرة اكتساب وعادة ، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة ، ولبعض التزيد فيه والتحسن به ، أو يكون ذلك فى طباع الحرية ، وحقيقة الجوهرية »[٣] ، بل إن الوصف بالحرية ، إن كان فى معنى الشرف والنبل ، لم يعد مقصوراً على الإنسان ، فنرى الجاحظ يقول : « إن عتاق الخيل وأحرار الطير ، أدق حسًّا وأشد اكتراثاً »[٤] .

٢٥٧ ـ عبد الله بن جدعان (٢٢٩ : ١٥)

سرى من سراة قريش فى الجاهلية ، تروى عنه أخبار كثيرة فى الكرم ، وحتى ليضرب المثل بجفانه التى كان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد[٥] ، ويقال إنه وفد على كسرى ، وإنه نقل عن الفرس طعام الفالوذج ، فكان يصنعه فى مكة ويطعمه الناس ، وجاء فى ذلك المدح المشهور الذى يذكر فيه هذا الطعام :

إلى ردح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وكان ممدوح أمية بن أبى الصلت[٦] ، كما جاء فى أخبار دريد أنه هجاء ثم مدحه[٧] .

٢٥٨ ـ الهذلى (٢٣٠ : ١٦)

البيت الذى ينسبه الجاحظ له هنا ينسبه الأصبهانى إلى صخر بن عبد الله الخيثمى الهذلى ، المعروف بصخر الغى . فالمقصود بالهذلى ، إذن ، هنا هو صخر الغى هذا . وقد ذكر الأصبهانى أنه لقب بهذا لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شره . وكذلك كان أخوه الأعلم

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢١٧ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٢٢٧ .
(٣) الحيوان ١ : ٤ .
(٤) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٩٦ ط لجنة التأليف .
(٥) الحيوان ٣ : ٤٠٣ .
(٦) الأغانى ٤ : ١٢٠ .
(٧) الأغانى ١٠ : ٢٠ ـ ٢١ .

يعد « أحد صعاليك هذيل ، وكان يعدو على رجليه عدواً لا يلحق » . كما كان أيضاً شاعراً يقول الشعر فى مغامراته ومخاطراته .

وهذا البيت هو جزء من قطعة كان يرتجز بها فى إحدى مخاطرته ضد بنى المصطلق من خزاعة، إذ أحاطوا به ، فظل يرميهم ويقاتلهم حتى قتلوه[١].

٢٥٩ ـ المرار بن سعيد (٢٣١ : ٣)

أبو حسان ، المرار بن سعيد ، الفقعسى ، شاعر بدوى أموى ، وقيل بل من مخضرمى الدولتين ، ووصفه المرزبانى بأنه كثير الشعر ، ولكن الباقى لنا من شعره قليل . فعدا ما جاء منه فى ترجمته بالأغانى[٢] ، نجد أبا تمام يروى له قطعتين قصيرتين[٣] وكذلك المرزبانى[٤].

والمرار بن سعيد يعد فى اللصوص ، كما يقول صاحب الأغانى : « كان المرار بن سعيد وأخوه بدر لصين ، وكان بدر أشهر منه بالسرقة وأكثر غارات على الناس » . ولكن القليل الذى وصل إلينا من شعره لا يكاد يصور شيئاً من ذلك ، إلا ما كان من قصيدته التى قالها وهو فى سجن اليمامة . ومن أروع شعره قصيدته التى رواها أبو الفرج فى رثاء أخيه ، وقد مات فى السجن :

ألا يا لقومى للتجلد والصبر ... وللقدر السارى إليك وما تدرى
وللشىء تنساه وتذكر غيره ... وللشىء لا تنساه إلا على ذكر

٢٦٠ ـ كامل بن عكرمة (٢٣١ : ١٣)

ذكره المرزبانى ، ولم يعرفه بشىء ، أكثر من إيراد بيتين له :

أرى كل عام موعداً غير ناجز ... وخلفاً إذا ما رأس حول تجرما
وإن أوعدت شرًّا أتى قبل وقته ... وإن وعدت خيراً أراث وأعتما[٥]

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٢٠ ـ ٢٢ ، ط التقدم ، القاهرة
(٢) ١٠ : ٣١٧ ـ ٣٢٢ .
(٣) ديوان الحماسة ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ٣١٥ .
(٤) معجم الشعراء ، ص ٤٠٨ .
(٥) معجم الشعراء ، ص ٣٥٥ .

٢٦١ – بشر بن أبي خازم (٢٣٢ : ٢)

ترجم له ابن قتيبة ، فقال إنه من بنى أسد ، وإنه جاهلى قديم ، شهد حرب أسد وطئ ، كما شهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلف بينهما . وقد ظهر فى شعره أثر هذه الخصومة بين القبيلتين ، فكان – كما يقول ابن قتيبة – يهجو أوس بن حارثة بن لام الطائى[١] .

وبشر بن أبي خازم مشهور عند نقاد الشعر بإقوائه ، هو والنابغة[٢] ، وهذا الإقواء الذى يذكرونه وقع فى قصيدة له أوردها المفضل الضبى ، ومطلعها :

أحق ما تقول أم احتلام أم الأهوال إذ صحبى نيام

وهى واحدة من قصائد أربعة متوالية رواها المفضل ، وهى – فيما عدا المقدمات الغزلية – فى وصف ما كان بين بنى أسد وخصومهم من طئ وسعد بن ضبة وبنى عامر[٣]

وقد قتل بشر فى إحدى هذه الحروب ، قتله عمرو بن حذار ، من بنى واثلة ابن صعصعة[٤].

٢٦٢ – أبو الصلت بن أبى ربيعة (٢٣٢ : ١٦)

هو أبو أمية بن أبى الصلت ، المتقدم ذكره ، ويذكره أبو الفرج فى ترجمة أمية ، فيقول : « وكان أبو الصلت شاعراً ، وهو الذى يقول فى مدح سيف بن ذى يزن :

ليطلب الثأر أمثال ابن ذى يزن إذ صار فى البحر للأعداء أحوالا »[٥]

وهذا البيت من قصيدة أوردها ابن هشام[٦] ، منسوبة إلى أمية ، وأجدر أن تكون لأبيه . كما ينسب الجاحظ البيت المذكور هنا له ، وهو من هذه القصيدة أيضاً .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٢٩ ط دار أحياء الكتب العربية .
(٢) الموشح للمرزبانى . ص ٥٩ ط السلفية ، ١٣٤٣ هـ .
(٣) المفضليات ، ص ٦٠ – ٧٠ .
(٤) معجم الشعراء للمرزبانى ، ص ٢٢٢ .
(٥) الأغانى ٤ : ١٢٠ .
(٦) السيرة لابن هشام ١ : ٤٢ – ٤٣ .

٢٦٣ ـ عدى بن زيد (٢٣٣ : ٥)

يصفه أبو الفرج فى ترجمته له بأنه « شاعر فصيح من شعراء الجاهلية ، وكان نصرانياً ، وكذلك كان أبوه وأمه وأهله ، وليس ممن يعد من الفحول ، وهو قروى » . ويذكر عن ابن الأعرابى قصة اتصاله بكسرى ، وأنه كان أول من كتب بالفارسية فى ديوان كسرى ، إلى آخر ما يحكى من قصة حياته ، وهى قصة طريفة مثيرة ، يتخللها شعر عدى .

ورأى النقاد العرب فى هذا الشعر يتلخص فيما يروى عن الأصمعى وأبى عبيدة : إذ يقولان : « عدى بن زيد فى الشعراء ، بمنزلة سهيل فى النجوم : يعارضها ولا يجرى مجراها »[١] .

٢٦٤ ـ خداش بن زهير (٢٣٣ : ١٣)

هو خداش بن زهير بن ربيعة ، من عامر بن صعصعة ، كما نسبه الآمدى[٢] . أحد الشعراء الفرسان فى الجاهلية . وقد ذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة[٣] ، وروى عن أبى عمرو أنه أشعر فى قريحة الشعر من لبيد ، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد . وكان يهجو قريشاً ، ويقال إن أباه قتلته قريش أيام الفجار .

وقد أورد له ابن سلام قطعتين فى هجاء قريش ، من إحداهما البيت الذى أورده الجاحظ هنا .

كما أن له بيتين فى جميل والحارث ابنى معمر ، وردا فى « المؤتلف والمختلف » عن أنساب قريش للزبير بن بكار[٤] .

٢٦٥ ـ عبد الله بن همام السلولى (٢٣٣ : ١٥)

ذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة ، من طبقات الشعراء الإسلاميين . ووصفه بقوله :

---

(١) الأغانى ٢ : ٩٧ – ١٤٦ .
(٢) المؤتلف والمختلف ، ص ١٠٧ .
(٣) طبقات الشعراء ، ص ٥٣ – ٥٤ . ص ١١٩ ، دار المعارف ، ١٩٥٢
(٤) المؤتلف والمختلف ص ٧٣ .

« كان عبد الله بن همام رجلاً له جاه عند السلطان، ووصلة بهم ، وكان سرياً فى نفسه ، وله همة تسمو به ، وكان عبد آل حرب مكيناً حظياً فيهم ، وهو الذى حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » . ثم ذكر بعد ذلك قصيدة له فى رثاء معاوية بن أبى سفيان ، والحض على البيعة لمعاوية بن يزيد[١] . وقد أورد له الجاحظ قطعة أخرى فى رثاء يزيد كذلك[٢] . وشعره فيما عدا ذلك مفرق فى كتب الأدب كالبيان والتبيين والحيوان وعيون الأخبار والكامل[٣] . وقد عاش كما يقول أبو عبيد إلى أيام سليمان أو بعده[٤].

٢٦٦ ـ فائد بن حبيب (٢٣٦ : ١٠)

ذكره المرزبانى فسرد نسبه ، ثم قال إنه كوفى إسلامى معروف ، ولم يزد[٥].

٢٦٧ ـ ابن داره (٢٣٦ : ١٢)

ذكره أبو الفرج ، فقال إنه عبد الرحمن بن مسافع بن داره ، من شعراء الإسلام ، من غطفان . وقد أكثر فى هجاء بنى أسد ، لأنها أخذت نديمه السمهرى العكلى ، وكان متهماً فى حادث قتل، فبعثت به إلى السلطان ، فقتله ، وقد ظفرت بنو أسد أخيراً بعبد الرحمن بن داره ، فقتله واحد منهم[٦] .

٢٦٨ ـ البراء بن ربعى (٢٣٧ : ١)

لعله شاعر إسلامى ، كما قد يؤخذ من سياق إيراده فى هذا الموضع ، ومن قول المرزبانى فى الكلام عن أخيه مضرس إن له خبراً مع الفرزدق[٧] . وقد ذكره الآمدى

---

(١) طبقات الشعراء ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ . ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤ ، ط دار المعارف ، ١٩٥٢

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٦٦ ـ ٦٧ .

(٣) انظر مثلا : البيان ١ : ٣١١ ط ١٩٣٢ م ، الحيوان ١ : ٢١٦ ، ٤ : ١٣٧ ، ٦ : ٢٣ ، الكامل للمبرد ١ : ٤١ ، ٢ : ١١ ، عيون الأخبار ١ : ٤١ ، ٥٧ ـ ٥٨ .

(٤) اللآلى ص ٦٨٣ .

(٥) معجم الشعراء ص ٣١٦ .

(٦) الأغانى ٢١ : ٤٩ ـ ٥٧ ، وانظر الشعر والشعراء ١ : ٣٦٢ ط دار إحياء الكتب العربية .

(٧) معجم الشعراء ص ٣٩٠ ط القدسى ١٣٥٤ هـ .

فقال[١] : « أبو الحناك البراء بن ربعى الفقعسى القائل :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا ... أرجى الحياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم ... بهم كنت أعطى من أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم ... وما الكف إلا إصبع ثم إصبع
لعمرك إنى بالخليل الذى له ... على دلال واجب لمفجع
وإنى بالمولى الذى ليس نافعى ... ولا ضائرى فقدانه لممتع »

وهذه القطعة من اختيارات أبى تمام فى حماسته[٢].

٢٦٩ – مضرس بن ربعى (٢٣٧ : ١)

فأما مضرس هذا فقد كان – فيما يبدو – أشهر من أخيه البراء ، وقد وصفه الآمدى فى كلمته الصغيرة عنه بأنه « شاعر محسن متمكن »[٣]. وأما خبره مع الفرزدق الذى أومأ المرزبانى إليه ، كما ذكرنا ، فقد أورده أبو عبيد البكرى فى التنبيه واللآلى[٤].

وأما شعره فقد بقيت منه قطع قليلة قصيرة ، منها ما جاء فى كلام الآمدى والمرزبانى عنه ، ومنها ما يقع بين مختارات أبى تمام[٥] ، ومنها ما هو مشتت متناثر فى الكتب المختلفة ، كالذى جاء منه فى معجم البلدان فى سياق الكلام عن هذا الموضع أو ذاك ، لأنه ورد فى هذه القطعة أو تلك من شعره[٦].

وجملة القول فى الشعر أنه شعر بدوى ، تظهر فيه المثل العربية الخالصة ، فى المعانى والصور ، وفى الديباجة المحكمة .

---

(١) المؤتلف والمختلف ص ٨٦ ، ط القدسى .
(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٥٧ ، ط ١٣٣٥ هـ .
(٣) المؤتلف والمختلف ص ١٩١ .
(٤) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ، ص ١٢١ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ م ، واللآلى فى شرح أمالى القالى ، ص ٨٥٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .
(٥) ديوان الحماسة ٢ : ٣٦ ، ٣٠٣ ، ط ١٣٣٥ هـ .
(٦) انظر ٢ : ٤١٣ و ٣ : ٧٢ و ٦ : ٣٥٦ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ ، فى الكلام عن « تنانير » و « جراميز » و « فردوس » . ويبدو أن هذه القطع الثلاث أجزاء قصيدة واحدة .

٢٧٠ ـ أعشى تغلب (٢٣٨ : ١٣)

أحد الأعاشى الذين استقصاهم الآمدى ، وقد ذكر أن اسمه نعمان بن نجوان ، أو ربيعة بن نجوان ، من جشم بن بكر ، وقد أورد له قطعاً من الشعر ، يذكر فى إحداها عشاه ، ولعله من أجلها لقب بالأعشى .

وهو شاعر إسلامى ، شارك بشعره فى الحروب التى كانت بين قيس وتغلب . وقد أشار الآمدى إلى قصيدة له مدح بها مسلمة بن عبد الملك ، وقال إنها من نادر الشعر ، وأورد أبياتاً منها[1].

٢٧١ ـ عمران بن عصام (٢٣٩ : ١٠)

ذكره الجاحظ بقوله : « ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العنزى . وهو الذى أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز ، والبيعة للوليد بن عبد الملك ، فى خطبته المشهورة ، وقصيدته المذكورة . وهو الذى لما بلغ عبد الملك قتل الحجاج له ، قال : ولم قتله ؟ ويله ! هلا رعى له قوله فيه :

وبعثت من ولد الأغر معتب ... صقراً يلوذ حمامه بالعرفج
فإذا طبخت بناره أنضجتها ... وإذا طبخت بغيرها لم تنضج
وهو الهزبر ، إذا أراد فريسة ... لم ينجها منه صياح الهجهج »[2]

٢٧٢ ـ ذو الرمة (٢٤٠ : ٣)

أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس . شاعر مضرى ، إسلامى ، بدوى ، عده ابن سلام فى شعراء الطبقة الثانية من الاسلاميين ، وشعره بدوى الديباجة ، يصنعه على غرار الشعر الجاهلى . وقد حكم عليه أبو عمرو بن العلاء بأنه كنقط عروس يضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها مشم فى أول شمها ، ثم تعود إلى أرواح البعر .

وكان ذو الرمة فى عهد الخصومة بين جرير والفرزدق ، وكان هواه مع الفرزدق ، وقد شرح ابن سلام موقفه شرحاً كافياً[3].

---

(١) المؤتلف والمختلف ، ص ٢٠ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٥٦ ـ ٥٧ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م . (١ : ٤٨ ط لجنة التأليف) .
(٣) طبقات الشعراء ص ١٨٦ ـ ١٩٠ (ص ٤٦٩ ـ ٤٧٤ ط دار المعارف) .

٢٧٣ ـ ابن أعيا (٢٤١ : ٥)

هو صخر بن أعيا الأسدى ، أحد بنى أعيا بن طريف بن نصر بن قعين ، كما يذكره أبو عبيدة ، فيما يروى أبو الفرج ، وقد ذكره فى خلال ترجمته للحطيئة ، والأبيات التى يذكرها الجاحظ هنا ، أوردها أبو الفرج ، وقد قالها ابن أعيا ردًّا على شعر قاله الحطيئة ، بعد أن سقاه شربة لبن[١].

٢٧٤ ـ مزرد بن ضرار (٢٤٣ : ٤)

هو يزيد بن ضرار ، شاعر جاهلى من غطفان ، وهو أخو الشماخ ، وأشبه أخويه به فى الشعر ، كما يقول ابن سلام[٢]. ويصفه المرزبانى بأنه كان هجاءً خبيث اللسان[٣] ويشهد بهذا شعره الذى جاء فى المفضليات فى هجاء زرع بن ثوب ، فى القصيدة التى أولها :

ألا يالقومى ، والسفاهة كاسمها أعائدتى من حب سلمى عوائدى

وقد أدرك الإسلام ، وأسلم ، وهو يعد فى الصحابة .

٢٧٥ ـ النابغة الجعدى (٢٤٣ : ١٠)

أبو ليلى ، حبان بن قيس بن عبد الله ، من بنى جعدة بن كعب ، من عامر بن صعصعة . شاعر مخضرم ، يعد فى الصحابة . ويبدو أن معظم شعره قاله فى الإسلام . ويروى أبو الفرج عن أبى عبيدة أنه كان ممن فكر فى الجاهلية ، وأنكر الخمر والسكر ، وهجر الأوثان والأزلام ، وكان يذكر دين ابراهيم والحنيفية .

وكان فى البصرة فى ولاية أبى موسى الأشعرى عليها ، ووقع بينه وبينه شر ، فهجاه ، ولما خرج على إلى صفين خرج معه ، وقال الشعر يمدحه . وبعد مقتل على واستقامة الأمر للأمويين لم يصانعهم ، وإنما يروى أنه جاهر معاوية بالخصومة ، فسيره معاوية

---

(١) الأغانى ٢ : ١٧٢ .

(٢) طبقات الشعراء ، ص ٤٧ ـ ٤٨ . ص ١١١ ، ط دار المعارف ، ١٩٢٥

(٣) معجم الشعراء ، ص ٤٩٦ .

إلى أصبهان مع أحد ولاتها ، فمات فيها .

ومن الأحداث الأدبية فى حياة النابغة مهاجاته أوس بن مغراء ، فاجتمعا فى المربد ، وتنافرا وتهاجيا وحضرتهما الشعراء ، وقد أعان الأخطل على النابغة ، وقد غلب أوس عليه . ثم مهاجاته لليلى الأخيلية ولم تكن أول الأمر بينه وبينها ، وإنما كان الخصومة بينه وبين « ابن الحيا » فتدخلت ليلى بينهما ، فغلبته أيضاً .

أما شعره من الناحية الفنية ، فتروى فيه كلمة للفرزدق ، قال : « كان صاحب خلقان ، عنده مطرف بألف ، وخمار بواف »[١] .

٢٧٦ ـ الخنساء (٢٣٤ : ١٣)

هى تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، يعدها ابن سلام فى طبقة شعراء المراثى[٢] ، وقد اشتهرت بمراثيها التى قالتها فى أخويها : صخر الذى قتلته بنو أسد ، ومعاوية الذى قتلته بنو مرة بن غطفان، وهى أم عباس بن مرداس الشاعر المخضرم الذى سخط عطاء الرسول ، وقال فى ذلك شعره المشهور[٣] .

وقد ترجم لها أبو الفرج[٤] ، كما أن لها ديوان شعر مطبوعاً .

٢٧٧ ـ معدان بن جواس (٢٤٤ : ١)

شاعر كندى سكونى ، وإنما كان له حلف فى ربيعة ، كما يقول المرزبانى . وهو شاعر مخضرم نزل الكوفة . وكان نصرانيًّا ، فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير ابن العوام بأمره ، فمدحه[٥] .

وهذا الشعر الذى رواه الجاحظ هو من شعره فى الجاهلية ، وقد قاله ـ على ما جاء فى شرح ديوان الحماسة ـ للنعمان بن المنذر ، يتبرأ لديه مما اتهم به ، من أنه هو الذى أنذر تميما حين أراد النعمان أن يغير عليها ، فهزمته .

---

(١) الأغانى ٤ : ١ ـ ٣٤ ، الإصابة ٣ : ٣٥٧ .
(٢) طبقات الشعراء ، ص ٨٢ . ص ٤٦٩ ، ط دار المعارف .
(٣) اللآل ، ٣٢ ، تاريخ الأمم والملوك ٣ : ١٣٧ .
(٤) الأغانى ١٣ : ١٣٦ ـ ١٥٠ .
(٥) معجم الشعراء ، ص ٤٠٧ .

٢٧٨ – ابن سيحان (٢٤٤ : ١٠)

هو عبد الرحمن بن سيحان بن أرطأة ، من محارب بن خصفة . وقد كان آل سيحان حلفاء حرب بن أمية ، ومن ذلك كان عبد الرحمن هذا مع بنى أمية كواحد منهم – كما يقول أبو الفرج – لا أن اختصاصه بآل أبى سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر ، وخصوصه بالوليد بن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم ، لأنهما كانا يتنادمان على الشراب ، وإلى جانب هذا كانت صلته قوية بسعيد بن العاص .

وشعر ابن سيحان يجمع الرقة والجزالة ، كمعظم الشعر المدنى لذلك العهد .

أما هذا الشعر الذى أورده الجاحظ هنا فقد حكى أبو الفرج قصته فى هذه الترجمة [1] .

---

(١) الأغانى ٢ : ٢٤٢ – ٢٦٠ .